Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاميرى
١

أخناتون

ذلك الفرعون المارق

تأليف
دونالد ريدفورد

ترجمة
بيومى قنديل

الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨٠ اسكندرية



أخناتون ذلك الفرعون المارق

أخناتون

ذلك الفرعون المارق

بيومى القنديل

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة بلوك رقم ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيداع: ١٩٩٠٠/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولى: 0 - 044 - 327 - 977

أخناتـــــون

ذلك الفرعون المارق

تأليف
دونالد ريد فورد

ترجمة
بيومي قنديل

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية



الباب الأول

مصر الإمبراطورية



بوقته وماله معاً. وأخذ "سميث" يطوف أرجاء أوروبا، كلما غادر مقره في الأقصر، كي يبحث عن، ويصوّر تلك الكتل التي وجدت طريقها من مصر إلى الخارج ثم إستقرت، سواء في المتاحف الأوروبية أو المجاميع الخاصة التي يحتفظ بها هواة العاديات. وبعد العودة إلى القاهرة أقيم مكتب ومعمل لهذا الغرض. وانهمك فريق العمل في تحليل وتوفيق الصور الملتقطة بمقياس معين، تلك التي أخذت تتدفق إليه بصورة مطردة من الأقصر وأوروبا. وقدم كل من د.سيد توفيق والأستاذ أحمد الصناديلي وكلاهما يعمل في كلية الآثار بجامعة القاهرة مساعدة متميزة لمواصلة العمل في هذا الاتجاه. وسرعان ما بدأت اللعبة الملغزة العملاقة تخلع ألغازها. ولعله من المستحيل أن نبالغ، مهما قلنا، في تأكيد الأهمية التي انطوى عليها فيض الضوء الذي انهمر، بذلك، على تلك الفترة المعتمة من حكم "أخناتون".

والكتاب الذي بين يدي القارئ يتبنى نظرة جديدة تجاه "أخناتون" وبرنامجه، وكذلك تجاه فترة أفول بيت أو عائلة التحامسة. والكتاب يستند هنا إلى النتائج التي أسفر عنها البحث الحالي في الكرنك و"أخيتاتون" (تل العمارنة) وأماكن أخرى في الشرق الأوسط (الحديث.المترجم). ولقد تحاشيت استخدام إسم "العمارنة" عند الإشارة إلى موقع "أخيتاتون"، كما لجأت ــ طلباً للاتّساق التاريخي ــ إلى إطلاق إسم "أخناتون" على الملك – الفرعون بعد السنوات الخمس الأولى من حكمه وحسب. وعلاوة على ذلك رفضت اسم "ياتي" الذي نصادفه في بعض الأحيان في الأدب الأكاديمي كإسم للإله الذي دعا إليه "أخناتون" ليس لمجرد أن الإسم ينطوي على رسم غير صحيح وحسب، بل ولأن فكرة وجود إله يسمى "ياتي" إنما تنبع من فهم خاطئ للكيفية التي نظر خلالها "أخناتون" إلى إلهه. أما الأسماء التي وردت في النص وقد علتها نجمة فلقد شرحتها في معجم خاص في نهاية الكتاب. ولقد استغنيت إلى حد كبير عن الحواشي بغية تيسير النص على القارئ غير المتخصص. أما أولئك الذين يجدون ميلاً إلى متابعة الدرس في أغوار أعمق فإنني أحيلهم إلى القسم الذي عنونته: "قراءات مقترحة".

ولقد قمت برسم أسماء المعابد المصرية، وأحياناً أسماء المواقع الجغرافية بحروفها السواكن وحدها دون صوائتها. وفي وسع القارئ أن يتفهّم ذلك.

وقد يستطيع الأكاديميون (ويحالفهم الحظ أحياناً) أن يتوصلوا إلى تكهنات بارعة فيما يتعلق بنسق الصوائت في اللغة المصرية القديمة، إلا أن نوع الصائت (إن لم نقل وكميته أيضاً) يظل ضرباً من ضروب الحدس. ومن جانب آخر، شعرت أن إدخال الصائت e على نحو ما هو متبع، بين السواكن يؤدى إلى نطق اتضح أنه خاطئ، لكلمات عديدة. ولأولئك الذين يشغفون بالأمر أقول أن إسم معبد "أخناتون" الذى بناه فى شرق الكرنك كان المصريون القدماء ينطقونه على وجه الاحتمال بشكل أقرب ما يكون إلى: "جينا باتين "Geena – paten"

وأخص بشكري زوجتي ويدي اليمنى "سوزان" التى عملت كمشرفة موقع، ورسمت خرائط لمواقع عديدة خلال عمليات التنقيب بشرق الكرنك (أنظر الأشكال التى تحمل أرقام ١،٢،٩،١٢،١٨). ولقد بذلت جهداً شاقاً ودؤوباً في نسخ وتصحيح مخطوطتي. كما أن السيدة " ديانا جرازيولى " كانت المسؤول عن المساقط الرأسية لشكليْ ١٠ ، ١١. وتولت السيدة " عديلة شاهين" مسؤولية الرسومات في أشكال: ٣،٥،١٣،١٦. كما أن الصور الفوتوغرافية للوحات ٢-١،٣-٢ و٥،٤-١،٤-٢،٤-٥،٤-٧،٤-٨،٤-١٠ و١٥،٢،٥-٣،٧-١،٧-٣ و٩،٧-١٤،٧-١٥،٧-١٧،٨-٢،١٣-١ وقعت مسؤولية التقاطها على كاهل "تجريدة" من المصورين. وأود أيضاً أن أسجّل عرفاني وامتناني لهيئة الآثار المصرية، وخصوصاً مديرها العام د.أحمد قدري وسلفه د.جمال مختار وكذلك للدكتور على الخولي الذي تولى في وقت ما منصب مدير عمليات التنقيب بمصر العليا، على التصريح الذي حصلت عليه والتعاون الذي مكّننا من التنقيب بشرق الكرنك. كما أعرب عن تقديري الحار لتلميذي السابق وصديقي "هانى أسعد" – وعائلته – لكرم الضيافة وروح التعاون اللذين أبداهما خلال رحلات البحث العديدة إلى الأشمونين وتل العمارنة. ولقد جاء تمويل "مشروع معبد أخناتون" في الأصل من المنح التى قدّمها برنامج العملة الأجنبية خلال معهد سميثسون فى واشنطون العاصمة.أما العمل فى المشروع بعد سنة ١٩٧٥ وعمليات التنقيب فلقد استمرا بفضل المنح التى قدمها برنامج "كيلام" Killam للجمعية الكندية وكذلك تلك التى قدّمتها جمعية البحوث الكندية فى العلوم الاجتماعية والإنسانية فى"أتاواه" بمقاطعة "أونتاريو". وخلال عملنا

نلفيا دعما مالياً سخياً من السيدة "مارى ميلهولاند" من مدينة "رتشــــموند" بولايـــة "فيرجينيا" بالولايات المتحدة والسيد "جى.ديلميج" من مدينة "مالو" -كورك بايرلندا.

و أخيراً فإنني على ثقة من أن القارئ سوف يتسامح مع بعض الإســـتطراد الذي جرى مني فى الفصل الخامس عشر، وهو ما قد يبدو وكأنه عمل من أعمـــال إطلاق العنان للهوى الخاص أو الاستهواء الذاتى. فلقد ظللت لمدة تزيد علـــى ٢٥ سنة منكباً على درس هذا المارق الذى يخلب الأبصار. وأظن أن الوقت قــد حـــان كى أسمح لنفسى بطرح تقييمى الخاص له.

أبيب – يوليو ١٩٨٢



مقدمة

نخطو الآن إلى عالم سبق عصر التوراة، فلم يكن "إشعياء" أو "إيليا" أو "سليمان" أو "داوود" أو "موسي" قد وُلدوا بعد. ولم تكن الدنيا لتملك وقت ذاك أدنى فكرة عما سيحدث خلال حياتهم الزاخرة. وإذا كان الآباء الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس قد تجولوا فى تلك الهوامش التى يغلفها الضباب لمجتمع القرن الخامس عشر ق.م فإنهم كانوا يختلفون بصورة كاملة "اللهم فيما يتعلق بأسمائهم على سبيل الترجيح" عن تلك الشخصيات التى تروح وتغدو واثقة الخطى خلال سفر التكوين، أول أسفار التوراة. وعلى نفس المنوال لم تكن جذورنا الأوروبية قد ضربت بعد فى أرض القرن الخامس عشر ق.م. ولم يكن أى من سقراط أو بيركليس أو الإسكندر الأكبر، أو "أثينا" بفلاسفها، أو "روما" بمشرّعيها قد ظهروا بعد حتى فى صورة جنينية. فـ "أثينا" لم تكن وقت ذاك أكثر من بلدة مُوحشة فى الأحراش المحيطة، ولم يكن الموضع الذى بُنيت فيه روما فى وقت لاحق سوى مستنقع تحت مستوى سطح البحر يجتذب الهوام، ولا يراه أحد بعد صالحاً لسكنى الإنسان.

مع ذلك كان القرن الخامس عشر ق.م الذى نجد أنفسنا فيه الآن "متحضراً" بصورة ملحوظة. وإذا تسلّحنا بالجراءة وحاولنا النفاذ داخل عقول أولئك المصريين الذين يقطنون "منف" أو أولئك الكنعانيين الذين يعيشون فى "سخم" أو أولئك الحوريين الذين إستقروا فى "أوجاريت"، فلسوف نجدهم وقد اكتنفتهم نفس المشاكل وراودتهم نفس الآمال، وحاصرتهم نفس المخاوف، وداعبتهم نفس الحلول الشائعة التى نعرفها بعد مرور خمسة ثلاثين قرناً. إذ تظل المطامح الإنسانية الرئيسية متمثّلة فى الحرية الشخصية والتحقق- الذاتى، والصحة الجسدية والنفسية، وإشباع الحس الجمالى. وقياساً مع الفارق، كان عند أى مواطن فى الشرق الأوسط القديم فى ظل حكم شوشاتار (١٤٥٠ ق.م) أو "تحوت - موسي" الرابع (١٤٢٦-١٤١٦ق.م) فرصاً لتحقيق هذه المطامح، بصورة ناجحة، لا تقل عما يملكه منها

ساكن المدينة الذى تثقل الضرائب كاهله فى قرننا العشـــرين "الديمقراطـــى" بعـــد الميلاد. كانت هناك إضرابات عمالية وتحت أيدينا ملف لجنة تقصى الحقائق التـــى شُكِّلت للتحقيق فى بعض منها. وكان هناك تضخم، وفى حوزتنا قائمـــة الأســـعار والشكاوى الخطيّة المرفوعة. وهناك ضرائب وتـــهرّب ضريبـــى. ولدينـــا ســـجل بعائدات الضرائب لإقامة الدليل على ذلك. وكان الناس يتزوّجون ويطلّقون، وكـــانوا ينتقلون من وظيفة لأخرى، وأحيانا يُفصلون. وكانوا يشترون الممتلكات ويبيعونـــها ويتركون وصايا مفصّلة. وكان الناس يتنهّدون مثلما نفعل نحـــن: "الأيام لم تعـــد كما كانت. والصغار لم يعودوا يحترمون كبارهم". وكانوا يقولون أيضاً "خير لنا أن نستمتع اليوم، لأننا لن نستطيع أخذ شئ معنا" وكان الناس يذهبون إلـــى الحفـــلات ويُسرفون فى الشراب. وكان بعضهم يقول إذا ما اشتدت وطأة الظـــروف: "ليتنـــى كنت فى عداد الموتى" وكانـــوا يقرأون قصائد الحب والقصص القصـــيرة والأوراد وطوالع البروج، وكتباً تحمـــل عناوين من نوع "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر فـــى الناس". وأخرى فى التنجيم والسحر فكلما عُدنا إلى الوراء فى الأزمنـــة الســـحيقة وألقينا نظرة خاطفة على جدودنا، كلما غدا أولئك الجدود أقرب شبهاً بنا !

ولكن وماذا عن "أخناتون" ؟ هل يشبهنا ذلك الفرد سيئ الحظ على أى نحـــو من الأنحاء ؟

أمر واحد يجب ألا يغيب عن ذهننا: خضع ذلك "المصلـــح" طـــوال المائـــة والخمسين سنة الماضية لنطاق واسع من التفاسير التى اعتمدت إلى حد كبير علـــى الذوق الذى يسود العقد أو ربع القرن الذى ظهرت فيه. فعند الباحثين الأوائل فـــى هذا المجـــال، لم يكن "أخناتون" سوى أنثى متنكّرة أو خصى من الجنـــوب (فـــى وقت كان هؤلاء الخصيان لا يزالون أبعد عن إثارة الاستهجان)، وعنـــد "برســـتيد "(فى أعقاب عمليات التنقيب التى قام بها الألمان والإنجليز فى"أخيتـــاتون"، أصبـــح "أخناتون" (أول شخصية متفردة فى التاريخ). وعنـــد المـــؤرخ الكلاســـيكى نـــافذ البصيرة "أرنولد توينبى" كانت عبادة الشمس التى دعـــا إليـــها "أخنـــاتون" بمثابـــة النموذج الأصلي للشعار الإمبريالىSol Invictus (الشمس التى لا تقهر) فى القرن الثالث وعند "فرويد" (بميله نحو إرجاع الوحدانية الموسوية إلى أصولـــها) يصبـــح

"أخناتون" معلماً للمشرّع العبراني موسي. وعند البعض يقف "أخناتون" كسبّاق رائد بشّر بمقدم المسيح. وعدّه البعض الآخر صوفياً عظيماً لا تزال تعاليمه جديرة بإمعان النظر.

نما نطاق واسع من الأدب حول شخصية "أخناتون". وخلال هذا النمو، أخذ يبعد أكثر فأكثر عن المصادر الأولية، إذ كان يتغذّى ويبنى خلاياه اعتماداً على ذاته. ولم يكن هذا الوضع لينطوى إلا على عواقب وخيمة بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة التاريخية المجردة. وقد تبدو رواية أحداث التاريخ "كما وقعت فعلاً" عملاً تبسيطياً. إلا أنه من الصعب على المرء أن يهتدى إلى كيفية أخرى يبدأ بها خلاف ذلك. ولكى يتجنّب المرء أى تشوّه قد يلحق بعمله، يتعّين عليه أن يرجع بصفة مستمرة إلى المصادر الأصلية، أى إلى النقوش الهيروغليفية والآثار التى وصلت إلى أيدينا من عصر "أخناتون". والجميع، بطبيعة الحال، فى حِلٍ من إستخدام ملكاتهم النقدية فى تقييم هذه المصادر، إلا أن تجاهلها فى سبيل الجرى وراء شطحات الخيال ليس سوى ضرب من ضروب الحماقة المطلقة.

ويسعى هذا الكتاب إلى محاولة وضع "أخناتون" فى سياق عصره، فضلاً عن وضع الأدلة الأولية والنصوص الأصلية تحت عينى القارئ. فلم يكن "أخناتون" يمثّل بأي حال من الاحوال ظاهرة معزولة، منبتّة الصلة بالزمان والمكان اللذين انبثقت فيهما. فلقد كانت الحركة التى قادها "أخناتون"، فى مختلف الأحوال، نتاجاً طبيعياً للقرون التى سبقت عصره، فالعبادة التى دعا إليها ما كان لها أن تظهر إلى الوجود إلاّ فى ذروة إمبراطورية عظمى.

تعتمد معظم المواد العلمية أو المعلومات فى هذا الكتاب على الأعمال التى انصبت، فى إطار (مشروع معبد أخناتون) ؛ ومنذ ١٩٦٦، على الآثار التى وصلت، إلينا، للفرعون المارق فى الكرنك والأقصر أى فى طيبة القديمة. ولما كان "أخناتون" قد قضى سنوات حكمه الأولى، وحسب، فى هذه "المدينة الجنوبية"، فإن الكتاب قد يبدو وكأنه يقتّر فى الحيّز الذى يُفرده للسنوات الأطول التى قضاها من عمره فى عاصمته الجديدة فى "أخيتاتون". ولكن هذا الخلل؛ إذا ما سلّمنا أصلاً بوجوده، قد تثبت جدواه. فالسنوات الأولى هى فترة التفتح والتجريب، والتقديم

الصحيح لها سوف يكون أمراً على جانب كبير من الأهمية فـــي تفسـير مجمـل الحركة التى قادها "أخناتون". هل حقاً هناك تشابه يجمع "أخناتون" بنـــا ؟ فلنحشـد أدلتنا ونمتنع عن المخاطرة بتقديم إجابة ما على هذا السؤال إلا فى الفصل الأخير.

تمهيد

كثيراً ما يقع العوام فريسة الوهم الذي يُدخل عليهم أن الأكاديميين يشكّلون فيما بينهم مجموعة مصالح خاصة تهب هبة رجل واحد للذود عن أى عضو من أعضائها متى مسه أى شخص من خارج دائرتها. كما أنها لا تسمح لأي من كان بالانضمام إليها والانخراط في أنشطتها دون أن يكون حاملاً لبطاقة العضوية: شهادة الدكتوراه. فالسعي وراء المعرفة (وهذه عبارة تنطوي على قدر من الزهو ولكنها ملائمة) خلال انتهاج منهج أكاديمي يقوم على التعليل المنطقي، إنما يعتمد على الفطرة السليمة (حاسة التمييز) التى يحوزها كل البشر، وينطوي على قدر من البساطة أكثر مما يظن معظم الناس، وبالتالي فالسبيل إليه مفتوح أمام الجميع. وإذا كان المحترفون يؤدون، بصفة عامة، عملهم في هذا المجال أو ذاك بصورة أفضل من غيرهم، فإن ذلك ليس راجعاً إلاّ إلى أنهم يكونون قد قضوا وقتاً أطول في المران. ولكن هذا لا يمنع أن يتفتّق أحياناً ذهن الهاوي المنزّه عن الهوى، عن حلٍ بارعٍ لمشكلة شائكة بدرجة عالية نصادفها هنا أو هناك.

ويتمثّل أحد الأمثلة على ذلك في "مشروع معبد أخناتون" الذي أدى إلى حسم نهائي لمشكلة فرعون مصر المارق. ففي سنة ١٩٦٥ ملكت تلك الآلاف من الكتل المتساوية الحجم، التى خرجت من معابد "أخناتون" التى تعرضت للتدمير، وأصبحنا نعرفها باسم "التلاتات"، فؤاد موظف عمومى تقاعد من عمله بوزارة الخارجية الأمريكية يسمى "راى وينفيلد سميث". فلقد اعتزم مستر "سميث" الذى هاله وقت ذاك إنصراف الأكاديميين عن درس هذه المواد درساً جاداً، أن يبذل جهداً بنفسه فى هذا السبيل مستعيناً بمعظم المناهج الحديثة المتاحة. ونظراً لاقتناع الرجل بأن اليد والعين البشريتين عاجزتان وحدهما عن إعادة بناء الكتل المكوّمة بصورة عشوائية مرة أخرى، على هيئة مناظر الجداريات الأصلية التى كانت عليها فى يوم من الأيام، فلقد التمس "راى" العون، عن فطنة وبصيرة، من الكمبيوتر. وقد

وافقت شركة آى.بى.إم. على مساعدة المشروع الوليد، وأمدّه، بالرعاية الأكاديميــة، "فروه رينى" الذى كان يشغل وقت ذاك منصب مدير المتحف الجامعي فى جامعــة "بنسيلفانيا". وجاء التمويل أول ما جاء خلال التبرعات التى قدمها أفراد عـــاديون. ولكن سرعان ما قدّم برنامج العملة الأجنبية الذى يديره معـــهد "سميثسـون" فـــى واشنطون منحة ضخمة. ثم نجح "سميث" بعد ذلك فى تجنيد عدد من المستشـــارين الأكاديميين كى يزوّدوه بالخبرة فى مجال تاريخ الفن والآثار. وكان بيـــن هـــؤلاء المستشارين المرحوم البروفسور "جون ويلسون" مـــن المعـــهد الشـــرقى بجامعــة شيكاغو والبروفسور عبد المنعم أبو بكر من جامعة القاهرة و"جيرهارد هينى" مـــن المعهـــد السويسرى وكاتب هذه السطور (د.ريدفورد. المـــترجم) مـــن جامعــة "تورونتو" واجتمع فريق من المساعدين يضم عـــدداً مـــن الطـــلاب فـــى مصـــر وبريطانيا. وبمطلع ١٩٦٦ أصبح "مشروع معبد أخناتون" وهو الإسم الـــذى ظـــل يُعرف به فى منذ ذلك الحين، على أهبة الاستعداد للانطلاق فى العمـــل. وبـــدا أن الأمر لا ينبغى أن يبدأ بإعادة تجميع كتل الأحجـــار ذاتـــها، إذ أوضحـــت ســـائر المحاولات الأخرى التى باءت بالفشل فى الأربعينيات أن هذا المنهج لا يعـــــدو كونه مضيعة للوقت وغير ذى جدوى. وعوضاً عن ذلك قرر "راى" شـــن حملـــة واسعة يتم فى إطارها تصوير كافة الكتل فوتوغرافياً بمقياس رسم معين مع تشـــفير تفاصيل الجداريات تمهيداً لتغذيتها للكمبيوتر ثم يجرى توفيق الصور الفوتوغرافيـــة بمساعدة هذا الاختراع البارع على الورق فى قصاصات أو "كولاجات" على أمـــل أن تبدأ الحوائط التى تغطيها الجداريات بالمعابد الأصلية المنـــذورة للشـــمس فـــى النهوض وقوفاً. وقد يلى ذلك فى نهاية المطاف إعادة بناء المعابد ذاتها، إلا أن ذلـــك لم يكن فى الوسع أن نستهدفه فى بداية عملنا.

وأثبت "راى" والفريق الذى يعمل معه أن الكلل أو الملل لا يعـــرف، طريقـــاً إليهم. فلقد جرى تصوير كتل "التلاتات" تلك فى أواخر الستينات على امتداد فترات طويلة فى شون التخزين التى تضمّها سواء بالألوان أو بالأسود والأبيض بمعـــــدل عدة عشرات كل يوم. ولقد دعّم "جيمس ديلميج"، وهو ضابط سابق فـــى الجيـــش البريطاني الثامن خلال حملة شمال أفريقيا إبان الحرب العالمية الثانية، المشـــروع

الفصل الأول

الحدود الموسعة

فى سنة ١٥٦٠ ق.م عرفت مصر بهجة دافقة لم تعرف مثيلاً لها من قبل، ارتفعت معها روح شعبها المعنوية. إذ كانت جيوشها قد حققت نصراً مظفراً: طردت النظام الكريه للحكام الأجانب المنحدرين من أصول كنعانية الذين تسلّطوا على مصر من "الأشمونيين" حتى البحر الأبيض المتوسط. وكانت تلك الجيوش قد أوشكت على اجتياح الخصوم النوبيين على الحدود الأفريقية قرب أسوان. ولم تكن مشاعر الابتهاج بالنصر زائفة: إذ كانت تلك الجيوش قد كسبت نصراً باهراً. وشاع التفاؤل فى كل مكان على ضفاف النيل، ورأى المصريون حقاً وصدقاً فى تلك الأيام بداية فجر جديد.

يصعب أن نوجه حدقة عين العقل نحو تلك العقود البعيدة لأواسط القرن السادس عشر ق.م فالآثار والصروح التى سرعان ما شيّدها التحامسة الإمبراطوريون * فى عاصمتيْهم الملكيتين "طيبة" و"منف" أو كثير منها على الأقل، طمست الأبنية المتواضعة التى ابتناها أسلافهم المباشرون، مثل "أحمس" محرر مصر وابنه "أمين – حوتب" الأول (١٥٧٣–١٥٢٩ ق.م).

فى سائر الأحوال نستطيع أن نؤكد لأنفسنا أن فراعنة مصر التى نالت حريتها للتو، لم يكن فى طوعهم أول الأمر أن يقدّموا للعالم أكثر من بلاط متواضع ومحلي الطابع.وكانت "طيبة" مسقط رؤوسهم ومحل إقامتهم في أوقات سابقة تقع فى الجنوب حيث تشتد وطأة الحر، على بعد نحو ٦٠٠ميل من البحر الأبيض المتوسط، فى مناطق في مصر كانت معروفة وقت ذاك مثلما هى اليوم بخشونتها. فهنا فى المديرية الرابعة للوجه القبلى تنحسر الصحراء الشرقية عن ضفة خصبة عريضة. ولم تكن "طيبة"، كما ينبغى علينا أن نتخيّل، سوى حفنة من البلاد (جمع بلدة. م) الفقيرة المبنيّة من الطوب الأخضر (النيئ)، المتناثرة على امتداد شواطئ النيل، وكل بلدة تتحلق حول ضريح صغير منذور لإلاه محلى. أحد

هذه الأضرحة، وكان "سنوسرت الأول" (١٩٧١ - ١٩٢٥ق.م) قد ابتناه في الأصل كمصلّى ملكية، كان يسمى "ابيت -سووت" ("خبر-كــــا - رع " أي: "سنوســرت" موجود)، أول الأماكن المختارة للعبادة، وكان منذوراً للإله، "أمون" أي "البـــاطن". وعلى بعد ميلين إلى الجنوب تقع ضاحية، إذا جاز عليها الوصف، تسمى "إبيــت - رست"والإسم يعنى "المكان الجنوبى المختار"، حيث إنتشرت، هنا أيضاً، عبادة الإله "أمون". وعلى بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقى تقوم بلدة "مادو" (مدامود حاليـاً) حول ضريح إله الحرب "مونتو" الذى تعلو كفتيه رأس صقر. وعلى الضفة الأخرى لنهر النيل، فى مواجهة "إبيت - سووت" مباشرة، يقع المعبد الجنـــائزى للفرعـــون العظيم "مونتو-حوتب" الأول ومعناه بالهيروغليفيـــة "مونتـــو - راضـــى" الأول (٢٠٦١- ٢٠١١ق.م) حيث يستطيع المرء أن يراه بوضوح هاجعـــا فـــى حضـــن الجرف الصخرى الذهبى، الذى تنتهى عنده الصحراء. وكان الفرعـــون "مونتـــو- حوتب" هذا، قد نجح فى إعادة توحيد مصر فى أعقاب حرب أهلية طويلـــة الأمـــد. وقد يكون "أحمس" قد حدس، وهذا أمر مرجح فى سائر الأحوال، بأن ذكراه ســوف ترتبط فى التقاليد التاريخية بذكر سلفه العظيم فى ضـــوء إنجازاتــهما العســكرية. وعلى بعد ميلين إلى الشمال، وعلى نفس الضفة الغربية للنيل تقف واحدة من أقـــدم المستوطنات فى المنطقة، إذ يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ. وفى الآونة الأخيرة كانت البيوت قد تجمعت هنا حول المقـــابر الكـــبرى لأســـلاف "مونتـــو- راضى"، الفراعنة الـــ"الأنانتفة" الثلاثة الذين حملوا السلاح وخاضوا غمار الحـــرب الأهلية التى مر ذكرها.

ومع ذلك لا تستطيع أى من هذه البلاد أن تزعم لنفسها حـــق تبـــوأ مكانـــة عاصمة مصر فبيوتها لم تكن أكثر من أبنية فقيرة من الطوب الأخضـــر (النـــي)، وشوارعها ضيقة وسكانها قليلون. حقا كشفـــت معابدها، وبصفة خاصـــة، معبـــدا "إبيت-سووت" و"مادو" بكل جلال، عن أعمدة منقوشة وقرابين شـــكر تنـــم عـــن الورع، نذرها الملوك على امتداد القرون الأربعة السابقة، إلا أن كميتها لم تكن بأى حال من الأحوال بنفس القرابين التى قربها الملوك الأسبق لمعابد المملكتين القديمـــة والوسيطة ولا المواعين التى حملت هذه بنفس فخامة المواعين التى حملت تلك، فى

الوجه البحرى.

حمل المجتمع المصرى بصفة عامة خلال حكم "أمين – حوتب" الأول الذى دام خمساً وعشرين سنة طابعاً محافظاً بشكل واضح . وكانت مصر ترى نفسها العملاق المزدهر تحت ظل الأسرة الثانية عشرة التى نهضت من تحت الأنقاض، والواقع أن بواكير الأسرة الثامنة عشرة، قد يجوز عليها الوصف بأنها المرحلة الأخيرة لمجتمع المملكة الوسيطة، إلا أنها تلكّأت في الرحيل لأربعة قرون وتجرّدت من خيالاتها. وظل المصريون قانعين بالنماذج التى تركتها الأسرة الثانية عشرة سواء فيما يتعلق بالمعابد والأهرامات والنُصب، والرسوم الجدارية والتماثيل التى زيّنت تلك الآثار. إذ أننا "نسمع" فى النقوش التى تخلّفت عن بواكير الأسرة الثامنة عشرة أكثر من صدى واحد، وأحيانا "نسمع" نفس العبارات ذاتها التى ترددت فى نصوص الأسرة الثانية عشرة التى كانت لا تزال رهن النظر. وكان توق المصريين عارماً إلى استئصال الذكريات الأليمة لفترة الضعف التى تقف بينهم وبين الأسرة الثانية عشرة. وتدلّنا القائمة الملكية لأسلافهم من ملوك، تلك القائمة التى كانت تُستخدم في شعائر تقريب القرابين بصفة يومية، على أن الأسماء التى إصطنعها ملوك الأسرة الثامنة عشرة تكاد تماثل رأساً الأسماء التي إتخذها فراعنة الأسرة الثانية عشرة، وعلى غرار فراعنة المملكة الوسيطة، تباهى بافتخار كل من "أحمس". و"أمين – حوتب". بهذا اللقب: "ابن – أمون"(١).

وعلى الصعيد السياسى إستلهمت بواكير الأسرة الثامنة عشرة مظاهر العظمة والازدهار من الأسرة الثانية عشرة. ففى ظل حكم الفرعون "سنوسرت" الثالث (١٨٧٨ – ١٨٤٣ق.م) كان النظام الاجتماعى القديم، الذى يقوم على شكل من أشكال النمط الإقطاعى قد أصابه الضعف إلى النقطة التى أصبح عندها عاجزاً. وعندئذ أُستُبدل في الحال بنمط مركزي جديد. وجرى تقسيم مصر إلى ثلاثة أقسام إدارية مصر العليا ومصر الوسطى ومصر السفلى، يدير كل منها ممثلون ملكيون وضباط إداريون، يخضعون جميعاً للمسؤولية المباشرة أمام الملك ووزيره. وكان للوزير ورئيس الأمناء وظائف خاصة، بل وأخذا في أيديهما سلطات أوسع مما كان لهما قبل ذلك الوقت. وعلى الصعيد المحلى نُزعت إدارة المدن والمراكز من أيدي

العائلات ذات الملكيات الكبيرة، ورغم أن مناصب عُمد المدن، كان قد أصبح من الممكن وقت ذاك شراؤها وبيعها وتوريثها بموجب القانون، إلا أن شاغلي هذه المناصب أنفسهم حازوا قدراً من السلطة التى كان السادة الإقطاعيون يتمتعون بها في الماضي (٢).

كان المجتمع المصري في ظل الأسرة الثامنة عشرة ريفياً قروياً، على رأسه يقف الملك وزوجته الرئيسية، وزوجاته الأخريات الثانويات وعائلته الكبيرة التى تضم عدداً كبيراً من الأبناء والبنات وأبناء الأخ والأخت وبنات الأخ والأخت وأبناء وبنات أعمامه وأخواله من كافة الدرجات. ولقد شهدت "الفترة الإنتقالية"* التى جلبت النوائب على البلاد عندما ضعُفت الحكومة الملكية ووقعت مصر فريسة الغزو، استحداث عادة تلقيب القادة العسكريين بهذا اللقب: "ابن الملك". وقت ذاك عرفت البلاد من أقصاها إلى أدناها جيشاً من هؤلاء الأمراء "المزيَّفين"(٣) وتضم الجبانات المحلية، التى كشف عنها المنقِّبون، مقابر ليست لأبناء الطبقة الأرستقراطية، بل لأولئك الذين لم يصلوا بصفة أساسية إلى أكثر من موظفي بلدية عند وفاتهم. فالخدمة في سلك الكهانة أو الكهنوت والإنخراط في الجيش أو "العسكروت" كانا لا يزالان من الأعمال التى لا يُقبل عليها الأهالي إلا على أساس الاشتغال بهما بعض الوقت إلى جانب أعمالهم الأخرى.

غير أن كل ذلك كان رهن التغيُّر رأساً على عقب في غضون القرن الذي تلي رحيل "أمين – حوتب" الأول، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى حدوث انقلاب عالمى. فالنصر المبين الذي أحرزه "أحمس" على الهكسوس* سطع على دنيا آسنة ظلت تجهل التغيير منذ عصر "حمورابي" وأراشيف "ماري"*. وكان أحفاد "حمورابي" لا يزالون يحكمون بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) من عاصمتهم الرائعة في بابل. أما الدول الوليدة، وبينها دولة "أشور" فكانت تحتفظ بوجود مزعزع الأركان على مشارف الدولة البابلية. وفي سوريا تركّزت ثلاث دول كبيرة حول ثلاث مدن كبرى، وضع جذبها السياسي المستوطنات الأقل شأناً في مناطق واسعة مجاورة في فلكها. وكانت "حلب" تسيطر على شمال سوريا وتحكم دولة تدعى "يامخاد"، بينما دان حوض نهر العاصي** بالولاء لدولة

"قطنوم" Qatanum " المنيعة. وفى الجنوب وقعت مدن الجليل وفلسطين المعروفة بتلالها تحت الظل السياسي لدولة "حازور" الواقعة في أعلى وادي الأردن. كل هذه الدول التى كانت تحتفظ، في الحقيقة، بطابع عسكري في ظل احترامها لميثاق عالمي للشرف، كانت تتمتع بأصل وثقافة مشتركين. وكانت الطبقات الحاكمة (وفى الشرق كان الأهالي على العموم، يتحدثون اللهجات السامية الغربية، تلك التى يجمعها اللغويون في غالب الأحيان تحت هذا الإسم العام "العمورية". وكان المصريون قد أصبحوا وقت ذاك معروفين بين العموريين، عندما تسلل قطّاع الطُرق (السلابون – النهابون) من بقعة ما في قلب سوريا في الربع الثاني من القرن السابع عشر إلى مدينة "أواريس" Avaris في دلتا النيل وكمنوا هناك ليحكموا القطاع الشمالي من مصر تحت اسم "الهكسوس".

ولعل من المرجح أن أمن تلك الشبكة من الممالك العمورية حول الهلال الخصيب قد تضعضع بشكل حاد منذ حكم "أحمس"، بظهور عنصرين عرقيين جديدين. فمن أواسط الأناضول خرجت جماعة كانت حتى ذلك الوقت شبه مجهولة: الحيثيون الذين إجتاحوا بابل تحت قيادة ملكهم مورسيليس Mursilis وأنهوا حكم الأسرة الحمورابية. ثم استدارت نفس القوة نحو الجنوب في أعماق سوريا فهاجمت وحطّمت مملكة "يامخاد" Yamkhad التى إختفت منذ ذلك الحين من مسرح التاريخ. وأدت هذه الاجتياحات البعيدة المدى التى قامت بها جيوش لا تُقهر، إلى وجود فراغ سياسى مؤقت في الأطراف العليا للفرات. وكان الطامحون إلى السلطة مع ذلك في طور المخاض. فمن قلب السهول الواسعة في أواسط بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) إنبثق الحوريون، وهؤلاء عبارة عن مجموعة لغوية محلية، ولكنها كانت قد إرتفعت قبل قليل وحسب إلى حد إمتلاك سلطة سياسية. فالحوريون، الذين تسيّدت عليهم ونظّمتهم طبقة من النبلاء الناطقين باللغة الآرية، وهذه طبقة تشكّل شريحة من الحركة الآرية الكبرى التى اتجهت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، نحو سهول البنجاب، بسطوا هيمنتهم شرقاً إلى ما وراء نهر دجلة، وغرباً نحو الأناضول وسوريا. وهكذا أخذت إمبراطورية جديدة فى التشكّل والتوسّع خلال أنواع مختلفة من إستغلال نمط ناجح هو الحوري – المحارب، وقد حملت هذه

الإمبراطورية، إسم عاصمة الإقليم الذي أنجب حاكمها: "ميتاني". وهنا إستبد القلق بالحيثيين. وظل كل منهما، أى الحيثيون في عاصمتهم "خاتي" والميتانيون، ينظوان كل إلى الآخر نظرة عدائية عبر جبال "طورس" على امتداد مائتى سنة (٤). ولكن قلقاً أشد، في ضوء موضوعنا الراهن، ملك على المصريين أفئدتهم وسياساتهم التى إنتهجوها تجاه القادمين الجدد.

كان النهج الذي اتخذته مصر القديمة إزاء ما نسمّيه الآن بـ "الشئون الخارجية" في جوهره ليس مختلفاً عن النهج الذي تتبعه أى أمة سواء في العصور القديمة أو الوسيطة أو الحديثة فكل الأمم تطمح إلى الفوز من جيرانها بواحد أو أكثر مما يلي:

أولا: أراضيهم، سواء لضمها إليها، أو استغلال موقعها الإستراتيجي.

ثانيا: موادهم الخام أو سلعهم التى يستطيعون إنتاجها، أوالسلع التى يستطيعون إجتذابها خلال التجارة.

ثالثا: الأيدي العاملة التى يستطيعون توفيرها. وكل الأمم، مرة أخرى، لا تملك في يدها سوى أربع طرق في سبيل وضع إرادتها موضع التنفيذ.(١) الإقناع الودي خلال الاتفاقيات (٢). الترهيب خلال التهديد باستخدام القوة سواء أكان ذلك ضمنياً أو سافراً. (٣) تمركز حاميات عسكرية دائمة ومسؤولين سياسيين، عقب اللجوء إلى القوة، أو (٤) احتلال أراضى الجيران أولئك بأعداد غفيرة من المستوطنين. وتؤدى الطريقة الأولى إلى إبرام سلسلة من الاتفاقيات أو العلاقات الدولية التى تقوم بين متساوين. بينما ينتُج عن الطريقة الثانية ما نستطيع أن نسمّيه "منطقة نفوذ"، حيث يمد السكان يد الصداقة بصورة تلقائية نحو "أولياء النعم". وتقود الطريقان الثالثة والرابعة إلىالإخضاع الفعلي للأراضي التى كانت تتمتع في وقت سابق بالسيادة، فتغدو "إيالة" أو "مستعمرة". والآن نستطيع أن نصف، بحق، العلاقات التى احتفظت بها مصر خلال المملكة القديمة*والفترة المتأخرة*، مع جيرانها بالتمتع بمنطقة نفوذ لديهم. فالحاميات أو المستعمرات التى أقامتها مصر في ذلك الوقت خارج حدودها كانت نادرة، لو كان لها وجود أصلاً، واستعاضت مصر عن ذلك بحملات التأديب من حين لآخر أو القوافل التجارية المسلحة التى

كانت كافية لإثارة الفزع في قلوب سكان البلدان المجاورة.

وبينما اتخذت الأسرة الثانية عشرة بعض الخطوات التجريبية نحو إخضاع بلاد النوبة بإقامة حاميات هناك، فإن ملوك الأسرة الثامنة عشرة: التحامسة ؛ هم الذين وجّهوا أولى الحملات الكبرى، شمالاً وجنوباً في نفس الوقت ؛ في سبيل بناء إمبراطورية مصرية. ولقد نظر المصريون ؛ في بداية الأمر، وبصدق إلى هذا المجهود بصفته تأديبياً أو وقائياً. فالعدو الأسيوي كان "*يخطط لتدمير مصر*"(٥) و"*بلاد فنخو* تمادت حتى بلغ بها الأمر* حد *انتهاك* حدود مصر"(٦) ولقد برّر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بناء إمبراطورية بصفته "*ضرباً على أيدي الحكام الأجانب الذين شنّوا الهجوم على الفرعون*"(٧) وأخذ العدو يزحف على مصر !. "*احتشدت كل البلدان ووقفت بقلب واحد إستعداداً للحرب. ليس بينهم متردد ، ووضعوا ثقتهم في الكتائب العديدة، والمشاة والفرسان الذين يفوقون في العدد كل حصر. ولقد تحرّكوا، بقلوب جسورة، لا تعرف الخوف*..."(٨) ماذا يكون في وسع الفرعون أن يفعل "*سوى أن يهاجم كافة البلدان التى زحفت ضده*" و"*ينقذ مصر التى يحدق بها الخطر*"(٩) ؟ والأسيويون معتدون ومصر لا تفعل أكثر من الدفاع عن نفسها.

ولكن بمرور الوقت، أثبتت الحملات التى شنّها المصريون ضد الأسيويين أنها ناجحة ومربحة. وعندئذ شرع المجهود الحربي يكتسب مسوّغات أخرى. وبدأ الفرعون يقود جيشه باتجاه الشمال "*كي يوسّع حدود مصر*". وهذه عبارة سرعان ما غدت بمثابة "القرار" أو الفكرة الرئيسية في هذا النوع من الإمبريالية. فكان المجهود نافعاً واكتسب حصانة مقدسة. لقد شاء الإله منذ الأزمنة الماضية أن تكون الأراضي الأجنبية إرثاً لمصر، وها هو الآن وقد منح الفرعون "الحق" في امتلاكها. وكان "أمون"، هو الذي منحه "*لقبه كسّيد لكافة الأراضي الأجنبية*" (١٠)، وصار، بالتالي عدلاً وشرعاً أن "*تكدح كل البلاد كي تجنى مصر* ".

وإذا كانت البلاد الأجنبية مقاطعات مصرية بموجب الحق المشروع فكل مقاومة يبديها السكان المحليون تجاه مصر، حتى ولو كانت سلبية تغدو "تمرداً محظوراً بقوة القانون". وأصبحت عبارة: *هو الذي سحق كافة البلدان التي* خرجت

عن *طاعته* " نعتاً شائعاً للفراعنة اعتبارا من منتصف القرن الخامس عشـــرة ق.م. ولما كان الأجانب قد خرقوا القانون، ذلك القانون الذي أقره الآلهة المصريون، فلقـد حقّ عليهم، بصفة تلقائية، "*غضب رع ومقته*" (١١).

تأنف تقاليد معينة من تأويل الحرب كشر يحتاج باســـتمرار إلـــى تـبرير، وعوضاً عن ذلك ترى فيها فناً مرغوباً يصقل الرجولة والفحولـــة. ويميـــل العـــالم الحديث إلى تطبيق مثل هذه الرؤية للحرب على المجتمعات القبلية الأوليـــة غـــير المتحضرة. وعلى نفس المنوال كان سكان المدن المتحضرون في الشرق الأدنـــــى القديم يربطون بين حب القتال وبين العموريين الذين ينتمون إلى الساميين الغربييـــن وأصلابهم، أولئك الذين يُوصفون في غالب الأحيان بأنهم أشباه بدو. وفـــي مصـــر تشهد صورة المحاربين المعروفة عن حكام المملكة الوسيطة على حـــب المعـــارك لذاتها. ولقد استمرت هذه الصورة في المملكة الحديثة، وبصفة رئيسية، خلال حكـــم الفرعون "تحوت – موسي" الأول. إذْ يشير هذا الفرعون إلى أنه قام بحملته الكبرى في سوريا "*كي يروى ظمأ فؤاده عبر البلاد الأجنبية*" (١٢) "*ولم يلتق بأي شـــخص* (يقصد في ميدان القتال) *يستطيع مناجزته نداً لند*" (١٣). ويلوح شعور وطني وكأنـــه قد أملى النقوش والكتابات التى تركها لنا "تحوت – موســـي" الأول، فلـــم تـــتركز وحسب حول مصر بل وحول "طيبة"، مسقط رأسه ومقر حكمه، بالذات. ويســـتطيع المرء أن يستشعر فورة الفخر خلال الكشوفات الأخيرة لكنوز المدينة. فــ "تحـــوت – موسي" إرتقى العرش كي "*يوسّع حدود طيبة*": *تخوم تلك التى تقف وجها لوجـــه أمام سيّدها *... لقد مددت حدود مصر حتى بلغت بها دائرة قرص الشمس. ونفثـــت القوة في القلوب الراجفة، لقد جعلت من مصـــر ســـيّدة تديـــن لـــها كـــل البلـــدان بالولاء*"(١٤)

يرجع بناء إمبراطورية المملكة الحديثة بصفة رئيسية إلـــى ثلاثـــة ملـــوك "تحوت –موسي" الأول (١٥٢٥– ١٥١٤م) "تحوت – موسي" الثـــالث** (١٥٠٤– ١٤٥١ ق.م) و"أمين – حوتب" الثاني (١٤٥٣ – ١٤٢٦ ق. م)، فـــالفرعون الأول ضرب مثالاً، رغم أن الأجل وفاه مبكراً، والثاني ارتفع إلى ذلـــك المثـــال وفـــاز بإمبراطورية والثالث أضاعها على وجه التقريب.

وكان انهيار مملكة " يامحاد " والصعود المفاجئ للدولة الميتانية قد تركا أثراً عميقاً على مصر المحصورة تحت ظل "أمين - حوتب" الأول. فلقد قاد هو وزوج ابنته وخلفه "تحوت - موسي" لأول الحملات الطموحة التي اخترقت وادي نهر العاصي كي تشتبك مع جيوش الميتانيين قرب ديارهم (١٥). حقاً لم يستول أي منهما على أي أراض هناك ولكن مطالب مصرية رُفعت. وثلاثون سنة من الاسترخاء تحت ظل الملك " تحوت - موسي" الثاني والملكة "حتشبسوت" سمحت للدولة الميتانية أن تمتد في شمال سوريا. وبحلول سنة (١٤٨٢ ق.م) كانت المدن - الدول الكبرى غربي نهر الفرات وأسفل وادي نهر العاصي قد ارتبطت مع الملك الميتاني بمعاهدات التبعية والخضوع. وهكذا كان بوسعه أن يواجه مصر الناهضة تحت ظل فرعونها "تحوت - موسي" الثالث بسلسلة قوية من الدول التي تقوم كمناطق عازلة يصل طرفها الجنوبي إلى فلسطين. واجتذبت دولتان على وجه الخصوص، في هذا الإطار، تحالفات القوة العسكرية: "تونيب"، وهذه عبارة عن مدينة كبيرة في أسفل حوض نهر العاصي و"قادش" على نفس النهر على بعد نحو مائة ميل إلى الجنوب وكانت الأولى:"تونيب" تابعة على وجه الترجيح للدولة الميتانية بمعاهدة رسمية، أما الثانية: "قادش" فكانت مستقلة.

شكلت "قادش" أول ائتلاف قوى ضد مصر. إذا عهدت المدن- الدول من أواسط سوريا حتى "النقب" بقوات من جيوشها إلى ملك "قادش"، والتقت القوات (الأسيوية) المشتركة عند "مجدو" في سهل إزدريلون Esdraelon ، وقد انعقدت عزيمتها على التحرك من فورها نحو مصر. ولكن "تحوت - موسي" الثالث كشف خطة الأعداء وأنزل بهم هزيمة فادحة في معركة "مجدو" التي دارت رحاها في أواخر ربيع عام ١٤٨٣ق.م.وبسقوط "مجدو" نفسها في ديسمبر - كياك من نفس السنة انفرط عُقد الائتلاف، وقام فرعون مصر "تحوت - موسي" الثالث بتطهير جيوب المقاومة الصغرى في فلسطين جيباً فجيباً. وبحلول سنة ١٤٧٥، وبعد أن أخضع المصريون المواني الفينيقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط ونصبوا فيها حاميتهم، تمكّنوا من شن الهجوم على "قادش" نفسها. حقاً صمدت المدينة للهجوم ولكن قوتها تضعضعت.

انحسرت المقاومة للزحف المصري وقت ذاك إلى أقصى الشمال. وفي سنة ١٤٧٤ق.م، أحبط ظهور "تحوت – موسي" الثالث في الوقت المناسب تلك المحاولة التى قام بها ملك " تونيب " نحو تخريب المدن الساحلية التى كانت قد أصبحت حينذاك تابعة لمصر.وتحولت المبادرة وقتئذ كي تستقر في أيدي المصريين. ولم تكد تمر سنتان حتى حل الاختبار الحاسم. ففي ربيع سنة ١٤٧٢ق.م ظهر أسطول جلالته ؛ وكان مستوفياً تجهيزه بسفن نقل الجنود ؛ قبالة مدينة "بيبلوس" وكلفت فرقة من الجنود بمهمة قطع الأخشاب اللازمة لبناء السفن من غابات لبنان القريبة. وعبر الجيش المصري الجبال حاملاً قوارب الهجوم سابقة التجهيز على عربات كارو مع طلائعه، وسار بمحاذاة نهر العاصي في طريقه إلى قلعة مدينة "كاركميش" الحصينة على نهر الفرات. ولابد أن ملك الميتانين لم يقف على هدف الحملة إلا في وقت متأخر للغاية، ورغم اعتزامه الصمود في شمال سوريا، إلا أنه أضطر إلى التقهقر. وأخيراً وصل المصريون إلى "كاركميش" بعد أن خاضوا ثلاث مواقع ضارية. وفى اللحظة التى كان الميتانيون الهاربون قد ظنوا أنهم ضمنوا الفرار عبر نهر الفرات، أحضر "تحوت – موسي" الثالث قوارب الهجوم. فتشتت الميتانيون وقد ركبهم الرعب. أما ملكهم فقد "فر مذعوراً إلى ركن بعيد" وحدّق "تحوت – موسي" الثالث: ضباطهم ونبلاؤهم يختبئون في الكهوف. ولنترك الفرعون نفسه يروى لنا الباقي:

"*لم يكن هناك مقاتل واحد في بلاد نهارين (ميتاني) التى تركها ملكها وولى الأدبار مذعوراً. لأنني مزّقت مدنه وقراه وأشعلت فيها النار، وحّولتها إلى أكوام من الأنقاض، فلن تقوم لها قائمة مرة أخرى. وأخذت جميع سكانها ؛ ممن بقوا على قيد الحياة ؛ أسرى مقّيدين، ووضعت يدي على مواشي لهم دون حصر، وكل ممتلكاتهم كذلك، ونزعت كافة مصادر قوتهم من أيديهم، وحصدت قموحهم وقطعت كل أشجار فاكهتهم. لقد دمّرها جلالتي وحّولتها إلى تراب أحمر لن ينمو الأخضر فيه مرة أخرى !*"(١٦).

كان النصر، على ما يبدو، مظفراً. فلم يعد هناك عدو واحد في ميدان القتال. ثم انسحب المصريون جنوباً دون عجلة من أمرهم. بل ووجد "تحوت – موسي"

الثالث لديه متسعا من الوقت، وكصنيع عال لا يصدر إلا عن خيلاء إمبراطوري، كي يخرج إلى مستنقعات نيبيا *Niya لصيد الأفيال البرية التى ترعى الحشائش هناك. "*أخذها جلالتي في قطيع يصل إلى ١٢٠ فيلا. وهذا ما لم يستطع أى ملك آخر أن يأتي بمثله منذ زمن الإله الذي عبده أولئك الذين تلقوا، منذ القدم، التاج الأبيض*"(١٧).

وهكذا قامت إمبراطورية (مصرية. م) دائمة، رغم أن "تحوت – موسي" الثالث ظل مضطراً للعودة بصفة سنوية إلى مواقع النصر الذي أحرزه ؛ على رأس حملات تأديبية على امتداد عشر سنوات .وبذل ابنه "أمين ــ حوتب" الثاني عدة محاولات لتوسيع حدود هذه الإمبراطورية التى ورثها عن أبيه. إذ توجّه على رأس حملة بعيدة المدى، في السنة السابعة من حكمه إلى سهول "هاتاى" ** كما تُعرف في تركيا الحديثة. ولكن المآثر التى صدرت عن شجاعته الشخصية لم تستطع الحيلولة دون القوة الطبيعية "للدولة الميتانية" والعودة إلى تأكيد ذاتها. وقد يكون في طوع "أمين ــ حوتب" أن ينفجر غضبا ضد الأسيويين كما يحلو له، بل وأن يصل إلى حد الإقدام على عمل "وحشي" ويشنق سبعة من رؤساء الكنعانيين على أسوار مدينة "نباتا"* في السودان ولكن بمجرد انسحاب القوات المصرية من سوريا، انحنت الدول – المدن المحلية للقوة القاهرة وعادت إلى الاعتراف مرة أخرى بهيمنة الدولة الميتانية. واعترف "أمين ــ حوتب" في أيامه الأخيرة بحكمته المعهودة، بعدم جدوى استمرار العداء. ووافق على إبرام معاهدة مع أعداء والده. وبذلك وقع شمال سوريا كله في أيدي الميتانيين بما في ذلك الأراضي الواقعة بأسفل وادي نهر "العاصي" والساحل السوري فيما بسطت مصر سيادتها على المدن الواقعة على الساحل الفينيقي حتى مدينة طرابلس الحالية في أقصى الشمال. ومن ثم عبْر خط الحدود لبنان في اتجاه الشرق حتى الصحراء ثم دار جنوبا، الأمر الذي منح فرعون مصر الأراضي الخصيبة في أسافل وأعالي نهر "العاصي" ودمشق و"الجليل" بالإضافة إلى الأراضي الواقعة إلى الجنوب. ورغم أن خط التقسيم هذا كان على وجه الترجيح بمثابة حل مؤقت Ad hoc بين الإمبراطوريتين، المصرية والميتانية، إلا أنه أثبت قدرته بصورة ملحوظة على

الاستمرار تحت حكم ابن "أمين - حوتب" وخلفه القصير الأجل "تحوت - موسي" الرابع (١٤٢٣ -١٤١٢.ق. م)، عندما بُذلت محاولة مُبهمة القصد والمدى لجر مصر إلى مزيد من الأعمال الحربية في سوريا. ولكن المكاسب كانت أوفر من وراء إعادة تأكيد الصداقة مع الدولة الميتانية، ووضع البلاطان الملكيان في كل من مصر و"ميتاني" روح العداء وراء ظهرهما، بمساعدة زواج ملكي، جاء في حينه، وصاغا تحالفاً فيما بينهما، كشف عن قدرته على الصمود أمام اختيار القرن التالي.

أثبت الازدهار الذي عرفه عهد "تحوت - موسي" الرابع أنه باكورة ما سيأتي. وكان جلالته قد تلّقى المساعدة، باعترافه شخصياً، في صعوده إلى عرش البلاد من جانب إله الشمس "رع - حور -آختى" الذي جاءه في المنام في زي أمير. وطوال حكمه داوم الملك الفرعون على تكريم الشمس تحت صورة "قوص- الشمس" وهذا تجلٍ إلهي سوف نسمع المزيد عنه في وقت لاحق.

الفصل الثاني
لمحات من مصر الإمبراطورية

في سنة ١٤٤٠ق.م، دخل تغير بعيد المدى على الأكواخ الفقيرة في دائرة "طيبة": إذ تحولت وقت ذاك إلى أحياء وضواحي لعاصمة إمبراطورية. ولم يكن قد مر أكثر من ثلاثة أجيال، وكان في طوع الطاعنين في السن أن يتذكروا أيام الضيق قبل قيام الإمبراطورية، تلك الأيام التي كانت قد مضت إلى غير رجعة. ورغم أن الفرعون فضل الإقامة في "منف" في الشمال، إلا أن "طيبة" كانت تتلقى الشطر الأعظم من غنائم الغزو. فلقد ظلت بمثابة المدينة التي أنجبت العائلة المالكة، والموضع الذي سيضم رفات أبنائها متى حانت منيتهم.

الجيش

لم يدخل التغيير على هذه المدينة الجنوبية وحدها، بل اعترى كافة أنحاء مصر. وتركزت التغيرات في الجانب الاجتماعي حول الطبقة العسكرية المتعاظمة من الذين يحترفون سلك الجندية طول الوقت (١)، عوضا عن المقاتلين القدامى لبعض الوقت **. ولم يعد الفرعون يعتمد على ما تقدمه الإقطاعيات من مقاتلين - محاربين ضمن ما تقدمه من ضرائب، إذا أصبح يعول الآن على "القوات المسلحة الدائمة" (يو - واع - بيت) أو الشجعان (قين - بيت) الذين يشكلون هيئة مصطفاة يقودها "جنرال". ولما كان الجيش قد قام كتجريدة كبيرة، فلقد جرى تقسيمه إلى فرق تتألف كل منها من نحو خمسة آلاف رجل، ينظمون على أساس الإقليم الذي ينتمون إليه من أقاليم البلاد "طيبة"، "أون"، غرب الدلتا، ويوضعون تحت رعاية الإله الملائم لذلك الإقليم. ولعلنا نسمع عن "فرق فرعون" التي تنتظم كل منها تحت بيرق خاص. و"ألوية القواسين"، و"مقاتلي العربات الحربية" و"مشاة الأسطول".

وبدأت الألقاب التي تشير إلى الخدمة العسكرية طول -الوقت في الظهور بوفرة، وإذا ما نقلناها إلى المصطلحات الحديثة فإننا نصادف "القائد العام" جنرال الجيش و"الفريق" و"العميد" و"جنرال الإمداد والتموين" و"قائد الفرقة" (حرفيا: حامل علَم الفرقة) و"ربّان السفينة"، وضم الطاقم الخاص بالملك أثناء خروجه على رأس الحملة عدداً مرموقاً آخر: "حلاّق الملك"، و"رئيس خدم الملك" و"حامل دروع الملك" و"حامل قوس الملك" و"قائد عربة الملك الحربية".

وكما هو معروف عن مصر، حيث تتغلغل البيروقراطية في جسم المجتمع، يبدو أن الضباط المسئولين عن الإمداد والتموين كانوا منتشرين في كل مكان. فهناك "رئيس أمناء سجلات الجيش"، أو قوائم التجنيد كما قد يعن لنا أن نطلق عليها اليوم، و"جنرال الإمدادات" (حرفيا: رئيس الإسطبل) الذي يتولى مسئولية توفير العجلات الحربية والخيول، بينما يحتفظ "أمين الأسرى-الرهائن" ومعه مكتب خاص للتسجيل، بسجلات مفصلة تشمل بلد المنشأ ومكان الإقامة الحالية لكل الأسرى الذين جرى جلبهم إلى مصر.

وكان كثير من أولئك الضباط يحمل لقباً مشتركاً، يمثّل بمفتاح الآلية الأساسية لتنظيم المجتمع إبان الأسرة الثامنة عشرة، فكانوا يحملون باعتزاز هذا اللقب "ابن الحريم" ومعناه "ابن روضة الأطفال الملكية". وكانوا في الحقيقة رفاق الصبا لأبناء الملك، وتربوا مع ولى العهد وكانوا يُختارون، وفقا لمبدأ "الأكبر سناً"، للمناصب العسكرية العليا. ولما كانوا ينتخبون، وفقا للأعراف السائدة، من بين الأطفال الأكثر وعداً وإستحقاقاً في سائر أرجاء البلاد. فكانوا يأتون من مسقط رؤوسهم في مختلف المدن كي ينضموا إلى البلاط الملكي بصحبة حاشية كبيرة من أقاربهم. وكان حظهم السعيد هذا يعود بمزايا كثيرة، خصوصاً، على أقاربهم من ناحية أمهاتهم: ونلاحظ أن أمهات ومرضعات هؤلاء الأطفال كن يتمتعن بمكانة مرموقة بين سيدات البلاط ؛ إذ ظللن يحملن هذا اللقب طوال الأسرة الثامنة عشرة: "حلى الملك".

وكان رفاق الصبا، أولئك، الذين يُختارون بعناية فائقة يشكّلون للملك القادم، حاشية مضمونة من الأتباع يستطيع جلالته أن يعتمد على ولائها الذي لا مراء فيه.

ولا تستطيع "العين" أن تخطئ رنّة الحب والإعزاز وراء ما ورد في السيرة الذاتية لرسول الملك, *"الذي لم يتخل لحظة عن سيد الأرضين وسط وطيس المعارك في أى بلد من بلاد الشمال"* (٢). ونقابل المرة بعد الأخرى في المقابر الخاصة في "طيبة" أن صاحب المقبرة يقرر أنه *"سار في كعب الإله الطيب، ملك مصر العليا ومصر السفلى... في كافة الأراضي الأجنبية التى وطأتها قدماه"*(٣).

وعرف الفرعون كيف يكافئ أتباعه فكان يسمح لجيشه في غالب الأحيان بالاحتفاظ بغنائم المعارك. ولقد منح رئيس خدمه"نفربرت" الحق الشرعي في اقتناء سبع رؤوس من المواشي، كان الرجل قد استولى عليها خلال إحدى المعارك: *"تكون في حوزتك طوال عمرك، ومن بعدك تنتقل من ابن لآخر ومن وريث لوريث. ولا تعهد بها إلى مسئولية كبير المشرفين على المواشي. ولا تدع الذين قد ينازعونك فيها يحصلون على جلسة استماع واحدة في أى مكتب ملكي"*(٤). وكان الأسرى الأسيويون يُوزّعون في بعض الأحيان للعمل كخدم شخصيين (في المنازل) على الجنود الذين يأسرونهم. وبالتالي، وعلى سبيل المثال أنعم الفرعون على الحلاق الملكي "سى – باست" Si-Bast بامتلاك أسيره: *"أملك عبداً موهوباً لي، اسمه: "يو –أوى – أمون". وكنت قد أسرته أثناء سيرى على أثر الحاكم (خلال إحدى حملاته). ولم يكن ليضربه أحد أو يصرفه أىّ من كان كلما قصد أى باب من أبواب البيت الملكي. وقد زوّجته منْ ابنة أختي...ولسوف ترث نصيباً يوازى ما سترثه عنى زوجتى وأختى"* (٥).

المقاطعات

امتدت أرجاء الإمبراطورية – التى ساعد هذا الجيش على الظفر بها – في سنة ١٤٤٠ق.م لما يصل إلى ألفى ميل من الشمال إلى الجنوب. وهذه مساحة تشغلها اليوم ست دول مستقلة. وتقف "صواديد" الحدود، التى رسم المصريون بها حدودهم في "كنيسا" في أعالي نهر النيل على بعد ٣٥٠ ميلاً شمالي الخرطوم، وعلى ضفاف نهر الفرات على بعد نظرة عين من جبال الأناضول. ولم يغب عن

أذهان المصريين تلك الاختلافات الديموجرافية (السكانية) الهائلة التي ضمتها أطراف الإمبراطورية الشاسعة إلى سيطرتهم وقت ذاك: يوضح "موتيف" على قاعدة المنصات الملكية خلال الأسرة الثامنة عشرة – وأفضل مثال له موجود على منصة "نفرتيتي" – صفا من الأسيرات المقيدات الأيدي، الراكعات على ركبهن، وقد تناوبت الشقراوات الشماليات أماكنها في الصف مع السوداوات الأفريقيات ؛ واحدة من هؤلاء والتالية من أولئك !

وتجلى هذا الاعتراف من جانب المصريين بتنوّع هذه المقاطعات أيضاً في السياسات الحليمة والعملية في حُكم الأراضي المكتسبة. حقاً قد تطنطن النقوش عن إيمانٍ صادقٍ، ضد "الأسيوي الخسيس" أو "الأفريقي الرعديد"، ولكن الفرعون واعٍ في الواقع العملي بين إدارته والاحتياجات المتباينة للمغلوبين. فالوادي القاحل الواقع جنوبي أسوان (٦) لم يعرف بالمرة أى تنظيم للمجتمع أرقى من القبيلة، رغم محاولة بدائية نحو إقامة نظام ملكي في القرنين السابع عشر والسادس عشر ق.م. وكانت التجارب الأولى في حكم هذه المقاطعات خلال رؤساء القبائل قد طُرحت جانباً بعد حكم الملكة "حتشبسوت" لصالح شكل سياسي مستورد من مصر. فُوضعت كافة الأراضي الجنوبية تحت حكم "ابن الملك للبلاد الجنوبية" الذي كان هناك في مكانة الملك " In loco regis " كـ"مندوب سامي" حقيقي بالمعنى المعاصر أو "نائب للملك". وتحت إمرته كان يعمل نائبان، أحدهما للنوبة (واوات) والآخر لـ"كوش"*، وهو الأمر الذي يُناظر الوزارة الثنائية في مصر: وزير للوجه القبلي وآخر للوجه البحري. كما أُستوردت مؤسسات نظم أخرى من الوطن الأم، مصر: إدارة مكلّفة بإنتاج المواد الغذائية والتموينية وصوامع الغلال وخزانة عامة وحامية مقيمة وأسطول صغير من السفن للمواصلات. وشرعت كل عناصر الرفاهية هذه لحكومة منظمة، في ممارسة تأثير "حضاري" بشكل تدريجي على الجنوب. وساعد "المستعمرون" المصريون في هذه الصيرورة. وانتصبت المعابد الضخمة المنذورة في غالب الأحيان لعبادة الفراعنة الراحلين على الشريطين الضيقين القابلين للزراعة على جانبي نهر النيل، وأخذت المدن المتنامية تتحلّق حولها كي تقوم على خدمتها. وحكم هذه المدن، عُمد وهيئات من الكتبة على غرار

ما هو متبع في مصر. وبدأت منتجات الجنوب تدخل مصر دون عوائق. وأخذ "المندوب السامي" يشحن المعادن وحجارة التشييد والمواشي والأخشاب بصفة سنوية إلى "طيبة" في إطار الضرائب المفروضة على "كوش" ووجدت المنتجات الاستوائية من الأقاليم الضاربة أكثر من أعماق الجنوب طريقها منحدرة مع النيل كي تملأ خزائن الملك والآلهة. ولقد شحنت من الذهب كميات هائلة من وادي "العلاقي" أدت إلى انخفاض سعر هذا المعدن النفيس بصورة أساسية لمدة طويلة خلال النصف الثاني للقرن الخامس عشر ق.م. ونستطيع أن نحصل على تقييم أفضل لحجم الثروات التى أصبحت وقت ذاك في حوزة الفرعون بإلقاء نظرة على سجل الضرائب التى جبيت من الجنوب في السنة الثامنة والثلاثين من حكم الفرعون "تحوت – موسي" الثالث:

حصة الأيدي العاملة من "كوش" الخسيسة: ذهب ١٠٠(+) ديبين*، ٣٦ عبدا أسود ما بين رجل وامرأة، قرون طويلة وأخرى قصيرة، ١١١ ثورا (الإجمالي) ٣٠٦ بالإضافة إلى قوارب شحن موسوقة بسن الفيل (العاج)، والأبنوس وكل المنتجات الفاخرة التي تعرفها هذه البلاد، وكذلك القمح ...

حصة الأيدي العاملة من "واوات" (ذهب) ٢,٨٤٤ ديبين* (أى ما يوازي على وجه التقريب ٧٠٠ رطلاً) ٢٦ عبدا أسود ما بين رجل وامرأة. قرون طويلة وأخرى قصيرة، ٧٧ ثوراً، بالإضافة إلى قوارب شحن موسوقة بكل المنتجات الفاخرة لهذه البلاد (٧).

ولكن تنظيم مصر لمقاطعاتها الشمالية سار في اتجاه مختلف بصورة ملحوظة (٨) ففي كنعان وسوريا صادف المصريون دولاً – مدناً وممالك صغيرة تصل في تقدمها الثقافي ورقيّها السياسي إلى ما يعرفونه في بلادهم. ولم تكن هنالك حاجة إلى فُرض إطار بيروقراطي "من أول وجديد" De novo ولم يحتاج الأمر إلى أكثر من عدة وسائل بسيطة لإبقاء المدن على خضوعها. فقام المصريون بتحويل معظم البلاد في كنعان إلى توابع بتخفيض درجة حكامها إلى مستوى العُمد المحليين في مصر، وإلزامها بنفس الضرائب والخدمات التى يطلبونها من نظيراتها في مصر. وترك المصريون لحكام المدن الأكبر حجماً مثل "حازور" و"دمشق"

و"صور" و"قطانوم" حق الاستمرار في تلقيب أنفسهم بـ "الملوك"، ولكنهم كانوا يُلقَّبون جميعاً من قبل الفرعون بهذا اللقب المقرر والشائع "رجل مدينة كذا أو كذا" وهكذا ظلت إدارة الشئون الداخلية في أيدي أهل البلاد. وظل حكام كنعان يحتفظون بجيوشهم الإقطاعية الصغيرة من "الفرسان" Maryannu وبرجالهم شاكيّ السلاح، واستمروا يتاجرون شوطاً مع جيرانهم ويحاربونهم شوطاً آخر.

وكان كافة الحكام الوطنيين يرتبطون مع الفرعون بقسم يؤدونه أمامه. وقد تحمل العبارة المصرية التى تقول: يجب على التابع أن يأكل Tryt في الأصل – وبصرف النظر عما يكون ذلك المأكول–إشارة إلى نوع ما من الشعائر التى تجرى في ثنايا الاحتفال بأداء القسم الذي لم يكن بحد ذاته سوى وعدٍ بسيط يقطعه التابع باسم الملك على نفسه بالولاء وعدم التمرد. ولما كان هذا الالتزام شخصياً، فلقد صار على كل فرعون جديد أن يعيد مراسم القسم، مستخدماً في ذلك اسم التنصيب على عرش البلاد.

ومع القسم درج المصريون في الواقع العملي على أن يطلبوا من التابع بصورة مهذبة أن يرسل بعض أقاربه إلى مصر. وفى العادة كان يرسل ورثته لمنصبه من الذكور. ولكن المصريين كانوا يقبلون أيضاً بالبنات والإخوة والأخوات. وفى "طيبة" كان المصريون يخصّصون أحد الأحياء لسكنى أقارب توابعهم تحت ظل نوع ناعم من الإقامة شبه الجبرية، وخلال سني صباهم كانوا يتلقون تعليماً مصرياً. وعند وفاة تابع من أولئك التوابع، كان الاختيار يقع على أحد أبنائه المقيمين في مصر كي يعود إلى دياره وريثاً لوالده، ويتولى زمام الحكم. ولكن هؤلاء الأطفال الكنعانيين الذين فقدوا الآن جذورهم Deracine ولا يعرفون لغة لهم سوى المصرية كانوا يجدون أنفسهم، في غالب الأحيان، منبوذين تماماً من جانب شعوبهم، تلك التى لم يتح لأبنائها هؤلاء أن يتعلموا لغتها وعاداتها. إلا أن تنصيب حكام متمصّرين في الدول التابعة كان ميزة، من وجهة النظر المصرية، لا يمكن إغفالها.

قسّم المصريون فلسطين وسوريا، بغية تيسير حكمهم هناك إلى أقاليم واسعة تضم عدداً من الدول –المدن، على أسس جغرافية بشكل عام، ووضعوا كل إقليم

من هذه الأقاليم تحت حكم "ناظر البلاد الشمالية" (باللغة الأكادية* شاكين ماتي Sakin mati) أى "الحاكم الإقليمي" الذي يُوفد من قبل البلاط الملكي المصري كي يتخذ مقره في الغالب في مدينة كبرى هناك.وبناء عليه كانت "غـزة" مقر إقامة الحاكم المصري المفوّض بالإشراف على "كنعان" وصاعداً إلى الشمال حتى "إزدريلون" وكانت "مجدو" (وفى وقت لاحق بيت – شان) مقر حاكم القسم الذي يشمل أعالي نهر الأردن " الضفة الغربية " وكانت "كوميدي" Kumidi في وادي البقاع بمثابة العاصمة الإقليمية لكل من دمشق والجليل والجولان. وكانت "أولازا " Ulaza وفى وقت لاحق "سومور" على الساحل الفينيقي بمثابة مركز الحكم لهذا الساحل بالإضافة إلى "عمورو" Amurru وكانت هناك هيئة من الكتبة إلى جانب الحاكم لمساعدته، بالإضافة إلى حامية صغيرة من القوّاسين المصريين. ورغم أن هذه الحاميات لم تكن كبيرة من حيث عدد أفرادها، حيث كانوا يتراوحون بين خمسين ومائتي محارب بين هذه الحامية وتلك، إلا أن هذه الحاميات تمتّعت بصيت عريض كقوات مقاتلة شديدة البأس. ولطالما تبارى العُمَد والأمراء الكنعانيون فيما بينهم في التوسّل إلى الفرعون كي يرسل مثل تلك القوات اللازمة لحفظ السلام سواء إلى مدنهم أو إلى عاصمة الإقليم، وكان حاكم الإقليم مسؤولاً عن استتباب الأمن العام في إقليمه، وإرسال الضرائب المقررة على وجه السرعة إلى مصر، وتنفيذ الأوامر الخاصة التى يصدرها بلاط الفرعون.

وكان هناك خبير ضرائب يقوم كل سنة، بمساعدة طاقم من الكتبة بجولات عمل في المقاطعات سواء في آسيا أو أفريقيا لتحديد الحصص التى يتعّين دفعها خلال الشهور التالية. ولننصت إلى كبير مهندسي التشييد، وكاتب الملك: "أمين – موسي" كي يصف لنا هذه المهمة التى قام بها شخصياً تحت ظل حكم الفرعون "تحوت – موسي" الثالث: *(طوّفت في أعالي "ريتينو"* Retjenu في أعقاب سيدي (الملك)، وقدرت الضرائب على أعالي "ريتينو"* فضة وذهبًا ولازورد وأحجارًا شبه كريمة بالإضافة إلى عربات حربية وخيول بلا حصر. فضلاً عن قطعان المواشي والأغنام بنفس الأعداد، وأبلغت حكام سوريا بما يتعّين عليهم أن يقدّموه، بصفة سنوية، من أيد عاملة كما قدرت الضرائب على حكام النوبة بالإلكتروم*

(مزيج الذهب والفضة. م) والذهب والعاج والأبنوس وقوارب عديدة من خشب الدوم، وتلك هي الحصة السنوية) (٩) . وكانت السلع المطلوبة التي يقدّرها الخبراء مختلفة باختلاف المنتجات الطبيعية التي تنتجها المقاطعات. فكانت سهول "إزدريلون" إلى الشمال الشرقي منْ "مجدّو" تزرع القمح لبلاد الفرعون بينما تخصّصت لبنان في إرسال أخشاب الأرز بأطوال تبلغ ٦٠ ذراعاً أى (مائة قدم) إلى الترسانات المصرية لبناء السفن. وكانت الخمور والزيوت تُجلب من جنوب فلسطين والرصاص من سوريا والنحاس الأصفر من قبرص. كما ولعت مصر أيضاً بالسلع المصنّعة التى تستطيع ملحقاتها الجديدة أن تصنّعها أو تحصل عليها خلال التجارة، فكانت أسلحة الحرب بما في ذلك السيوف والدروع والتروس والأقواس والعربات الحربية ضمن كل حصة قدّرها المصريون على البلاد السورية. وكان المصريون مُولعين بشكل خاص بالزهريات الدقيقة النقوش الغالية الأثمان التى كان في وسع سوريا إنتاجها.

ودأب المصريون على إقامة المهرجانات لدى وصول هذه الضرائب والعطايا إلى مصر. وإليكم وصفاً لتقديم الضرائب النوبية خلال حكم "أمين - حوتب" الثاني، وهو منقول عن نُصب شيّده "وسر- ساتيت" الذي كان يشغل منصب "المندوب السامى" هناك:

"تجلى جلالته في قلب "طيبة" على المنصة الكبرى.. ثم أحضر هذا الجيش ضرائب الأراضى الجنوبية أمام الإله الطيب (أى الفرعون)، وفى نفس الوقت قدمت الحاشية المدائح وحيّا رجال الجيش جلالته قائلين: جبّارة تلك هي قوتك. أيها الإله الطيب. هذه العطايا أكثر من أى جزية قدمتها البلاد الأخرى، فلم تقع عليها عين من قبل، منذ أيام الجدود الذين عاشوا في الزمان القديم ! ولكن ذلك حدث في عهدك يا إلاهنا !". وعدد أولئك الذين يحملون هذه الضرائب: الذين يحملون الفضة مائتا رجل والذين يحملون الذهب مائة وخمسون رجلاً والذين يحملون الأحجار الكريمة (حما - جيت)* مائتا رجل، والعاج أربعون رجلاً، والأبنوس ألف رجل، والذين يحملون نوعيات مختلفة من "الأروماتيك" الذكي الرائحة الذي تنتجه البلاد الجنوبية مائتا رجل، والذين يسوقون فهوداً حية لأعشرة*

رجال، والذين أحضروا كلابًا عشرون رجلاً، وللذين يسوقون مواشي طويلة القرون وقصيرتها مائتا رجل. ومجموع جملة حاملي هذه الضرائب ٢,٦٥٧ رجلاً.

مصر العالمية

تعد المملكة الحديثة أول فترة في التاريخ المصري منذ المملكة القديمة التي تعرف البلاد فيها أعداداً كبيرة من العبيد الخلّص على امتداد نهر النيل. وكانت هذه الظاهرة الاجتماعية قد نتجت بصورة مباشرة عن غزو البلدان الأجنبية. وكانت المعابد هي المستفيد الأكبر في بداية الأمر. فلقد ألحقت أعدادٌ ضخمة من الأسرى الأجانب بمعبد أمون في البداية وفي أوقات لاحقة بمعابد آلهة أخرى، كما ألحقت أيضاً أعداد غفيرة أخرى بالمعابد الجنائزية لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة. ولقد أهدى "تحوت – موسي" الثالث ١,٥٨٨ أسيراً سورياً للإله "أمون" ممن أسرهم خلال حملاته الأسيوية، بينما خصّص "تحوت –موسي" الرابع سكان بلدة "جزر" الكنعانية الذين وقعوا في الأسر لخدمة معبده الجنائزي. وإذا كان لنا أن نصدق "أمين –حوتب" الثاني، تكون قواته قد نقلت إلى مصر ٨٩,٦٠٠ أسيراً سورياً كي يوزعوا بين سدنة المعابد(١٠) ولم تكد تمر أربعة أجيال على تأسيس الإمبراطورية حتى وصلت أعداد العبيد الأسيويين في مصر أرقاماً كبيرة إلى حد استطاع معه "أمين –حوتب" الثالث أن يصف معبده الجنائزي بأنه *"غاص بالعبيد، ذكوراً وإناثاً وبأطفال رؤساء البلدان الأجنبية التي وقعت في قبضة جلالته. وأصبحت أعدادهم عصيّة على الحصر، والمعبد ذاته كان مطوقاً بمستوطنات السوريين".*

وإلى جانب أسرى الحرب الذين لم يكن أمامهم بطبيعة الحال أي خيار آخر، شرع الكنعانيون والسوريون، بمحض إرادتهم الحرة، في التدفق على مصر. وكان مجال التجارة جذابا للغاية، وسرعان ما أصبح التاجر السوري عنصراً ثابتاً في أسواق "منف" وصار المصريون يسمعون لغته السامية الغربية في شوارع المدن الكبرى في الدلتا. وبدأت الكلمات المستعارة من اللغة الكنعانية، وخصوصاً المصطلحات (التجارية) الفنية، تظهر في اللغة المصرية ذاتها: وأصبح التعبير

المصري "يبيع ويشترى بالسوري (أى باللغة السورية) مساوياً، في واقع الأمر للتعبير الآخر: يفاصل(١١). وبلغ الأمر حد تخصيص بعض الأحياء فى المدن الأكبر حجماً، لسكانها من الأسيويين (١٢)

وهكذا فإننا نسمع عن مخيّم الصوريين (نسبة إلى مدينة "صور". م) في "منف" وقد تركز حول "معبد بعل"، و"بيت بعل وعشتارت" في مدينة "برو - نفر" بالقرب من "منف". وعلى نفس المنوال، وجدت إلاهتا الخصوبة عند الكنعانيين: "عنات" و"قادش" مكاناً لهما على مشارف المجمع الإلهي "البانثيون" المصري. كما تمتّع "رشف" إله الحرب الكنعاني بمركزٍ للعبادة في إحدى بقاع الدلتا. ورغم أن وجود هذه الآلهة المعبودة على الأرض المصرية لم يستهدف سوى الوفاء بالحاجات الدينية للمقيمين الجدد من الكنعانيين، إلا أن الآلهة الأجنبية الغربية سرعان ما شكّلت عوامل جذب للمصريين أى لأبناء البلاد أنفسهم. فظهرت أسماؤها مكتوبة بالأبجدية الهيروغليفية، وصُبت صفاتها في قالب مصري، بل وتُرجمت الأساطير المرتبطة بها إلى اللغة المصرية. وقد يكون الوافدون السوريون الأوائل إما تجاراً أو أسرى حرب ولكن الكنعانيين في مصر ترقّوا مع أواخر القرن الخامس عشر إلى مراتب أعلى وقاموا بأدوار أسمى. فلقد دخلوا سلك الكهنوت والتحقوا بوظائف مرموقة في القصور، وبين الحين والآخر، في "مكتب الشئون الخارجية"، كما أجبر المصريون كثيراً منهم على الخدمة في الجيش حيث نرى الحرّاب (رامى الحربة) السوري جنباً إلى جنب مع الحرّاب الأفريقي الأسود. (شكل ٢-١) وأعطى المصريون في بعض الأحيان الذين تقلّدوا منهم مناصب رفيعة أسماء مصرية، كانت في العادة مركبة على اسم الفرعون الحاكم.

وكان البدو الذين يرتحلون مع قطعانهم من الأغنام والماعز بمثابة إحدى طبقات الأسيويين الذين ظل وجودهم في مصر، رغم أنه وجود غير مرغوب فيه، يبرز بين الحين والآخر خلال أيام الطمأنينة التى عرفتها الإمبراطورية المصرية. إذ استمر كثيرٌ من رجال القبائل فى "النقب" يضعون نُصْب أعينهم أن يسوقوا قطعانهم إلى مراعى الدلتا ويُصيبوا من الأطعمة الوفيرة التى تنتجها. ولكن حكومة الفرعون سعت إلى إقامة التحصينات في "صايل" Sile* الواقعة على مدخل مصر

عبر الطريق القادم من "غزة"، وفى وادي "طميلات"* جنوباً للتحكم في تسلل البــدو الرّحل إلى داخل البلاد. وفرضت مصر حصصاً معينة للراغبين في دخول مصــر، وقيّدت دخولهم بأيام محددة من كل شهر. ومع ذلك كان لا يزال فــي الإمكــان أن نقابل قبائل كبيرة العدد من البدو الرحّل في الدلتا، يرعون قطعانهم ويحملون معــهم أينما حلّوا عاداتهم التى تقاوم التأثر بما حولها. وها هو أحد الآباء يؤدّب ابنه العــاق في رسالة "نموذجية" وصلت إلى أيدينا كنص تدرّسه إحدى المدارس فــي المملكــة الحديثة: *"تهيم على وجهك مثل عصفور يحمل فراخه الصغار ! حتى وصلت بعــد رحلة طويلة إلى الدلتا حيث تختلط بالأسيويين وتأكل خبزاً مغموسًــا بحــر دمــك"* وذلك في إشارة إلى الطقس القبلي المعروف بالتآخي في الدم. (١٣) ويسرق خــــادم غير أمين شيئاً من مخدومه، وكان ضابط جيش ثم يهرب فقال عنه: *لقــد اكتســب الآن أساليب الشر. فهو يختلط بقبائل "الشاسو"* ويرتدى سمت الأسيويين* (١٤) .

صورة الفرعون

وكان ليبدو غريباً حقاً في ضوء التغيرات العميقة التى حدثت في مصــر، ألاّ يلحق صورة الفرعون تغيُر ما، هي الأخرى. وحقيقــــة الأمــر أصبــح فرعــون الإمبراطورية مختلفاً إلى حـــــد بعيد عن أسلافه الأجلاّء، الذين جلسوا في "عــوش حورس الحي" إبان القرون الماضية. فعلى النقيض من فرعون عصر الأهرامــات الذي اتّصف بالصرامة والانزواء، فلم يكن ليخرج من قصــره إلا نــادراً، خلقــت المملكة الوسيطة صورة الرجــــل المتين البنيان للفرعون الذي *"يعتمد على ذراعه شخصياً"*. فكان الفراعنة الذين حملوا إسم "أميــن - إم -حــات" و"سنوســرت" محاربين أشداء قادوا جيوشهم فى ميادين القتال بأنفسهم. وكـــانوا يكشــفون عــن أصولهم الإلاهية خلال قدرتهم على وضع خطط الحرب المفصلة دون مساعدة مــن أتباعهم، ثم اقتدارهم على وضعــها على موضع التنفيذ في ميادين القتــال بقوتــهم العضلية.

ولكن هذه الصورة التى كانت للملك كعبقرية إدارية وعسكرية تــآكلت عــن

آخرها خلال الأسرة الثالثة عشرة وفترة الهكسوس. إلا أنها عادت إلى الانبثاق من جديد مع صعود الأسرة الطيبية الجديدة في الجنوب. وعززت الأوضاع الدولية عودة ذلك المثال إلى الوجود: كان الطيبيون يخوضون نضال حياة أو موت ضد الهكسوس .وشكّلت فترة العداء طويلة الأمد، حيث انحصرت كافة جهودهم في كسب الحرب، وجهات نظرهم إلى حد عميق. فلا عجب يُذكر -إذن -إذا ما كان الحاكم قد عاد مرة أخرى، مع ظهور الأسرة الثامنة عشرة المظفّرة إلى ارتداء مسوح الملك المحارب الذي عرفته المملكة الوسيطة. وهكذا استمر المظهر العسكري للملكية، ولكن مع إضافة عنصر هام جديد: صورة الفرعون كبطل ورياضي معافى وسليم البنيان.

لدينا أدلة على أن "أحمس" غرس وقت ذاك هذا المثال الجسدي للملكية، ولكن جذور هذا المثال قد تعود إلى عادة صيد الأسماك والطيور، التي عرفها ملوك المملكة الحديثة (١٥). ولكننا، نرى لأول مرة، أن الروح الرياضية، تتخلل ثنايا الأدب كـ "موتيف" Motif تام النمو خلال حكم "تحوت -موسي" الثالث. فقصة السّمر التي يرويها كاتب البلاط في صيغة المتكلم التي تصف الأعمال الجبارة للملك القوى البنيان سواء في ميدان القتال أو ساحة الصيد، كانت قد أصبحت مع هذا الحكم بمثابة نوع أدبي مكتمل. وتقول النقوش التي تعد أحد أقدم الأمثلة على ذلك ونجدها على صادود "أرمنت" الذي نصبه "تحوت-موسي" الثالث:

هذا تصنيف لأعمال الشجاعة البالغة التي قام بها الإله الطيب أي البطولات المظفرة التي جادت بها يداه. ولكننا لو أحصيناها واحدة واحدة لاستعصى علينا، لكثرتها، أن نسجلها. ولقد اعتاد أن يصوّب سهامه (أثناء التدريب) على أهداف من النحاس... والواقع أن جلالته وضع أحد هذه الأهداف في معبد " أمون " (للعرض) وهو عبارة عن سبيكة من النحاس المطروق، يصل سمكها إلى ثلاثة أصابع (قراريط)، وقد انغرز فيها سهمه، بعد أن إخترقها وبرز من الناحية الأخرى لثلاثة أشبار.. وإنني لأصف بصورة دقيقة ما فعله. ولا يُوجد، هناكّ، أي تلفيق على كل حال، فما حدث، حدث والجيش حاضر كله. ولا توجد كلمة واحدة تنطوي

على مبالغة. وعندما يخطف جلالته وقتًا قصيرًا للاستجمام والصيد في البلاد الأجنبية فإن عدد الفرائس التي يقنصها يزيد على عدد ما يقنصه سائر أفراد الجيش، ولقد اصطاد سبعة أسود في غضون لحظة واحدة وقنص ١٢ ثوراً في بحر ساعة من الزمن (١٦).

تابع "أمين –حوتب" الثاني "ابن تحوت –موسي" الثالث التقاليد الرياضية للأسرة المالكة واستغلها حتى بلغ بها الذروة وحمل، لذلك، لقب "*رجل الأسرة الثامنة عشرة المفتول العضل*"، وتكشف مومياؤه وتماثيله أنه كان، إلى حد كبير، سليل التحامسة: رجل مربوع الجسم، يميل إلى القصر، ذو وجه مستدير ممتلئ وطفولي وسيماء ملائكية لا تعكس شراسته. ولا يكل ولا يمل في إبلاغنا عبر نقوشه وكتاباته أنه ما من أحد في طول المملكة وعرضها يستطيع أن يضارعه في الإتيان بجلائل الأعمال في مجالات الصلابة والجلد. "*لم يكن هناك من يشبهه بين الأعداد الغفيرة التي يضمّها الجيش. فليس بينهم من يقدر على جذب وتر قوسه وليس بينهم من يستطيع أن يسبقه في الجري. قويّ الساعد كان، حتى أن التعب لا يعتريه أثناء التجديف، ويستطيع أن يجدّف في ذيل قاربه الصقري الشكل بما يوازي قوة عشرين رجلاً*" (١٧).

وعلى غرار أبيه، حقق "أمين –حوتب" تفوقاً عالياً في التقويس (رمي السهام)، إلا أن المرء يستشعر في عبارته ما ينم **عن** رغبة دفينة في التفوّق على سلفه: *جرّب أوتار ٣٠٠ قوس، لدى مقارنته بين أعمال صانعيها، كي يميّز بين القوس الكفء، وغير الكفء. والآن وبعد أن انتهى من اختبار كفاءة الأقواس على نحو ما أخبرتكم به تواً دخل جنينته الشمالية، فوجد أربعة أهداف منصوبة وكانت مصنوعة من النحاس الأسيوي الأصفر، كل هدف منها في سمك النخلة، ويفصل بين كل منها مسافة تصل إلى عشرين ذراعاً (أي ما يزيد قليلاً على ٣٣ قدماً)، ثم تجلّى جلالته على متن عجلته العربية كما لو كان إله الحرب "مونتو" في جبروته. وقبض على قوسه وكبش كبشة من السهام، وانطلق باتجاه الشمال، وهو يُطلق سهامه على كل هدف من الأهداف الأربعة مثل الإله "مونتو" -وقد تزي بالشعارات الملكية كالتاج والصولجان، وكانت السهام تخترق أهدافها إلى الناحية الأخرى.. حقا*

كان عملاً لم تر عين نظيراً له من قبل، ولم تسمع به أذن حتى في دردشات المساء. أي: سهم يطلق على هدف من النحاس الأصفر، فيخترق السهم الهدف ويسقط على الأرض (١٨).

كان "أمين – حوتب" الثاني أول الفراعنة الذين وُلدوا كي يسُودوا. ففي أعماقه نستطيع أن نرصد وجود روح "إمبراطورية" فطرية خلْقية. واحتقاره لأبناء السفاح غير الشرعيين، والأقل شأناً لا يقل، جلاء، عن زهوه بقوته الجسدية. ومع ذلك فإننا نستشف أيضاً وجود قدر من خفة الدم الجديرة بالثناء. فلقد وصل إلى أيدينا خطاب، تكمن روعته في تحرره من الأسلوب التقليدي المألوف، كان الفرعون قد أرسله إلى المندوب السامي لمصر في النوبة، ونقله هذا المندوب الفاضل الذي نال شرف ثناء فرعونه عليه على حجر فقاوم عوادي الزمن لحسن الحظ. والخطاب مؤرخ في الذكرى العشرين لتنصيب الفرعون (نوفمبر – هاتور ١٤٢٨ق.م) والمكان هو حرم القصر. كان الفرعون ـ كما يخبرنا النص -يتناول كؤوس النبيذ، وهو الأمر الذي يفسّر بصفة جزئية فحواه. فبعد أن هنأ نفسه بمندوبه السامي وهنأ هذا المندوب السامي على بطولته كمحارب يتسم بالإخلاص، مضى الفرعون كي يصف نفسه كـ"جزّار" أبناء "نهارين"، وكمن ختم على أقدار الحيثيين، وتملّك مدناً عديدة في سوريا، وشبّه باشمئزاز، كل مدينة منها بشكل مجازى، بأنثى: فـ "سانجار" جارية و"ببيلوس" خادمة، و"علالاخ"* صبيّة، و"عربخة"عجوز شمطاء. ويستطرد الفرعون فيقول عن "التاخسانيين":* إنهم لا يتمتعون بأي ميزة على الإطلاق:

"في الواقع لأي شئ تراهم يصلحون ؟... لا تدخل في أى تعاملات مع النوبيين، إحذر أبناء النوبة وخصوصاً سحرتهم. افحص ضريبة المزارعين بنظام المشاركة في المحصول. لا تُنصت إلى شكواهم ولا تحشر أنفك في شئونهم" (١٩).

يصعب على المرء أن يوجه نقداً ما أو حتى نصيحة ما إلى ملك – إله، تُحقق كل خططه وكافة تقديراته في مجال اختبار القوة نجاحات تفوق أكثر الأحلام إيغالاً في الخيال. وكم يكون سخيفاً في فم "أمين –حوتب" الثاني أن يطلب المشورة من حاشيته، إلا أنها تعد بمثابة إحدى الصيغ البلاغية التى كانت الكتابة الأدبية

تفتضيها في تلك العصور ! وتلوح نتفة من الاستحالة التى انطوى عليها الأمر، في الظاهر، خلال ذلك النص الذي يصف تعيين "قن - أمون" فى وظيفة رئيس مراسم (استقبالات) في منطقة "برو -نفر":

ظهر جلالته على العرش العظيم على المنصة المصنوعة من الإلكتروم، وسمح فدخل الأمراء والأتباع في صفين، كل صف على جانب من جانبيه. ثم قال جلالته لهم: أرغب في تعيين رئيس استقبالات، يستطيع أن يطمئن إليه فؤادي. فليتحدث كل شخص بما يعرف، ولسوف يقرر الفرعون بما يرى، فقالوا للفرعون هل يحتاج حورس الذي يستوي على السماء إلى من يقوده ويرشده عبر أجوازها ؟ إذا شملت برعايتك أى شخص جهول لا يعرف يعلم أحد "تحوت" إله الحكمة كيفية الحديث ؟ إذا شملت برعايتك أى شخص جهول لا يعرف شيئًا، فلسوف يغدو في اليوم التالي مباشرة أغزر علماً من أحكم الحكماء. فأنت "رع" ولا يخيب أمر قدّره جلالتك (٢٠).

ألا يكون الفهم المعاصر، وقت ذاك، للملكية قد خلق قدراً من الصور (الأيقونات) الهشة ؟! لقد كانت الأدوار التى فرضت الملكية على الملك وبلاطه أداءها أشبه بالأدوار المسرحية Opera buffa التى تتّسم بضحالة المعنى وضيق الأفق. وتدعو للضحك. أيكون عرش حورس الحي قد تقلّص حتى يُناسب مقعدة فسل تافه يبالغ في إدّعاء الرجولة ؟

الفصل الثالث

"أمين - حوتب" الثالث، الملك - الشمس

لم تكد أربعون سنة تمر على رحيل الفاتح الأكبر "تحوت - موسي" الثالث حتى جلس حفيد حفيده "أمين -حوتب" الثالث على عرش مصر. فكانت ثلاثة أجيال وحسب كافية لجنى قطوف الحلم الذي راود خيال الفراعنة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة. وأصبحت مصر القائد غير المنازع للعالم المعروف وقت ذاك، وأخذ رُسلها يجوبون دون أى عائق، الشرق الأوسط من بابل إلى مملكة الحيثيين وبلاد الميتانيين وقبرص. ورفرفت أعلام أساطيلها التجارية دون أدنى تحرّش من جانب القراصنة خلال رحلاتها ما بين "بيبلوس" (بنت جبيل اللبنانية حالياً. م) و"صور" و"أوجاريت"* و"كريت" وجزر بحر إيجة. وتدفّقت ثروات يعجز عنها الوصف على مصر من مناجم الذهب فى بلاد السود والأراضي البعيدة في أواسط أفريقيا. وأخذت الجزية تأتى بصفة سنوية من بلاد الشمال محمولة على ظهور الكنعانيين والحوريين الذين سكن الرعب أفئدتهم (شكل٢).

"أمين - حوتب" وعائلته

جنى "أمين - حوتب" الثالث الثمار التى عادت من حملات الغزو التى شنّها أسلافه الشجعان. وما كان في طوع ملك يجد نفسه في مثل الظروف التى وجد "أمين -حوتب" الثالث نفسه فيها أن يتردد في أداء دور تحفه الأبهة والمهابة، ولكنه استغل شتى ما وصل إلى يديه من مزايا المكانة وثروة البلاد في صوغ بلاط ومجتمع وذوق فني مما غدا مضرب الأمثال في الأناقة والاتساق. وأصبح "أمين - حوتب" الثالث الملك -الشمس لمصر حقاً وصدقاً. واتخذ كنية "قرص الشمس الباهر". وقبيل نهاية حكمه استهوته كنية "حورس"، دون غيرها، على وجه

الخصوص. وخطرت ذكراه على أذهان الأجيال اللاحقة بصفته "حورس العظيم" و"ملك الملوك" و"حاكم الحكام الذي أرسى دعائم مصر..." ولم تكن هذه الألقاب، على ما قد تبدو عليه من مغالاة بعيدة تماماً عن كبد الحقيقة. فلم تصل مصر التي حكمها "أمين -حوتب" الثالث، في وقت سابق أو لاحق إلى مثل ذلك المركز الذي بلغته مصر من القوة المطلقة في العالم بأسره.

وعلى غرار ما فعل كل الفراعنة لدى تنصيبهم، حمل "أمين -حوتب" الثالث اسماً يتكون من خمسة ألقاب هي:

١- حورس، الثور، شديد البأس، الذي يتجلّى في شمس الصدق.

٢- (محبوب) السيدتين الإلهيتين، حاميتي الوجهين البحري والقبلي، القادر. قاهر الأسيويين.

٣- حورس الذهبي، سيد الحق، معمّر الوجهين القبلي والبحري.

٤- ملك الأرضين. "نيب -ماعت -رع".

٥- ابن رع. "أمين -حوتب" حاكم طيبة.

وكان هذا الاسم الخماسي ليظهر في كافة البلاغات الرسمية للفرعون، ولكن الأنداد والوجهاء المقربين كان في طوعهم أن ينادوه باسمه الأول، دون كُلفة، "نيب -ماعت -رع" (وكان ينطقه أهل ذلك الزمان هكذا: "نيم - ماعت رع"* (أى بإدغام النون في الميم. م)

ويبدو أن "أمين -حوتب" تزوج في بداية حكمه، ولم يكن قد تجاوز وقت ذاك العشرين من عمره، فتاة في ميعة الصبا. ويبدو من المستبعد أن يكون هذا الزواج قد تم في حياة والده، أو أن يكون رجال البلاط التقليديون قد رتّبوا زواجاً من هذا النوع بفتاة من عامة الشعب. بل كان الملك الشاب هو الذي اختارها بالذات: فتاة تسمى "تي"** من إحدى قرى مصر الوسطى، وابنة شخص أجنبي يدعى "يويا" نزح إلى مصر، ووصل إلى منصب قائد سلاح العجلات الحربية برتبة فريق بالقوات المسلحة المصرية، كما شغل أيضاً وظيفة مرموقة في معبد الإله "مين"* في "أخميم" (١) ورغم أن "تي" هذه لم تكن سليلة البيت الملكي، إلا أنها أصبحت "الزوجة الملكية الرئيسية" (أى رئيسة جميع زوجات الفرعون) كما حازت في يديها

سلطة واسعة في تسيير شئون المملكة. ورغم أن الألقاب التى حملتها "تــي" كــانت تقليدية بصفة جزئية، إلا أنها تشي بمكانتها الرفيعة: *"الوريثة، الحسنة الصيت ســيدة كل البلاد التى ترعى إخلاصها للملك، ســيدة البهجــة ؛ ســيدة الوجــهين القبلــي والبحري، سيدة الأرضين"*. ويعكس إعلان زواج الشابين (أو ما يســمى بجعــران الزواج) معنى أن تتزوج شابة صغيرة من ملك الملوك المعظّم: زوجــة الفرعــون العظيم، اسم والدها "يويا"، واسم والدتها "تويا"، وهى زوجة الفرعون الشديد البــأس الذي تقع حدوده الجنوبية عند "كروى" (في أواسط السودان حالياً) والشمالية فــي " نهارين " (بشمال غرب العراق حالياً)"(٢).

ولم يحُل هذا الاقترانِ المبكر بــ"تي"، رغم أنه كانِ قائمــاً علــى وجــه الترجيح، على الحب المتبادل، دون "أمين -حوتب" والارتباط بعلاقات أخرى. فــإلى جانب محظياته المصريات العديدات، تزوج "أمين -حوتب" هذا فيما هو معــروف عنه، بأميرتين سوريتين، وأخريين من "ميتانى" ومثلهما من بابل بالإضافــة إلــى أميرة أخــرى من "أروازا" (في جنوب غرب آسيا الصغرى). وإستمرت الســيدات تصل وسط أبهة زائدة طوال حكمه. ولقد حضرت إحــدى الأمــيرتين الميتــانيتين اللتين تزوجهما في السنة العاشرة لتنصيبه، وكانت تسمى "جيلو -خيبا"، ابنة الملــك الميتانى "شوتارنا" الثاني وفى صحبتها ٣١٧ وصيفة. وتمثّل الطلب الدائــم الــذي يطلبه هذا الفرعون من حكام الولايات في إرسال المزيد والمزيد من (الخادمــات) ولقد كتب "أمين -حوتب" يقول في أحد الأوامر التى حفظها لنا التاريخ، والصــادرة إلى أمير "جزر" (جنوبي الطريق الرئيسي الذي يربط القدس بتل أبيب في إســرائيل الحديثة) يقول:

أرسلت لك هذه الرسالة كي أخبرك أنني أبعث إليك الكولونيــل (البكباشــى) "خانايا" ومعه طلب: أن يعود ومعه سيدات فائقات الجمال وفضة وذهب وملابــس، وأحجار كريمة متعددة، ومقعد من الأبنــوس، وأدوات متنوعــة أخــرى قيمتــها الإجمالية ١٦٠ دبين، وإجمالى عدد السيدات ٤٠ سيدة تصل تكلفة كل منــها ٤٠ قطعة من الفضة. وبناء عليه إرسل أجمل السيدات، ليس بينهم من تسرسع بصــوت مشروخ . وعندئذ سوف يقول لك الملك سيدك: هذا حسن. إليك أرسل الحياة. ولــك*

أن تعرف أن الملك بصحة جيدة، مثل الشمس -الإله، وأن قواته وعجلاته الحربية بحالة جيدة للغاية في واقع الأمر، لأن "أمـون" وضع الوجهين القبلي والبحري والشروق والغروب تحت قدميه (٣).

وعندما طلب الملوك الأجانب، مع ذلك، أن يتزوجوا من أميرات مصريات، لم يجابوا إلى طلبهم، ليس بسبب الخوف (كما أشار البعض) الذي يضمره المصريون في صدورهم من الموت خارج بلادهم، بل نتيجة للخيلاء السياسي وحده. فعندما طلب ملك بابل يد ابنة فرعون مصر، لم يتلق سوى هذا الرد المقتضب: *"منذ القدم لم يزوج فرعون مصري ابنته خارج مصر"*. وذهب احتجاج الملك البابلي على ذلك أدراج الرياح: *لماذا تتحدث على هذا النحو ؟ أنت ملك وتستطيع أن تفعل ما تشاء.. إذا راقت في عينيك أى إمرأة (مصرية بطبيعة الحال. م) فأرسلها، فمن ذا الذي يستطيع أن يقول عندئذ (ما دامت جميلة) أنها ليست ابنة الفرعون"*(٤)، ومع ذلك لم يرسل فرعون مصر أى امرأة.

وبينما عج القصر الملكي بالبنات والبنين الذين نتجوا عن زيجات "أمين -حوتب" الثالث المتعددة، لم يقف في طابور ورثة العرش منهم سوى ستة وحسب، ولدان وأربع بنات، من الزوجة الملكية الرئيسية "تي"(٥). ويبدو أن ابنته الكبرى "سات – أمون" حظيت منه بمحبة خاصة، جعلته يرفعها، لدى بلوغها، إلى مرتبة الزوجة الملكية الرئيسية، أسوة بوالدتها. أما الابن الأكبر الذي وقف في طابور الورثة فكان يسمى "تحوت – موسي" على اسم جده، واتخذ مقر إقامته في "منف" ككاهن رفيع الشأن في معبد الإله "بتاح" على غرار ما كان يفعل معظم أولياء العهد في الأسرة الثامنة عشرة. أما الابن الثاني الذي وُلد على سبيل الترجيح قبيل بداية العقد الثالث لحكم والده (نحو ١٣٨٥ ق.م) فلقد أطلق عليه اسم "أمين -حوتب" على اسم والده.

"أمين -حوتب" الرجل القوى البنيان

شب وترعرع "أمين -حوتب" الثالث في بلاط كانَ الفرعون يعِد فيه -كما سبق ورأينا -بالقيام بدور الرجل الرياضي العظيم والمحارب شديد البأس. وخلال السنوات الأولى لحكم الفرعون – الشمس ارتفع إلى مستوى الوفاء بالوعود التى توقّعها منه المصريون. ففي عنفوان شبابه، امتلك خزانة هائلة وقوة بدنية وجاذبية خلبت، كلها، ألباب المحيطين به. فانطلق يبنى أسطورة فائقة في مجال الصيد. وفى السنة الثانية لحكمه:

جاءوا كي يبلغوا جلالته: هناك ثيران برية تجوب الصحراء في أعالي إقليم "شات -ميرو". فأبحر جلالته في سفينته "المتجلية في الصدق" وكان ذلك في المساء. مخرت السفينة العباب في مسار طيب ووصلت بالسلامة إلى إقليم "شات - ميرو" عند الفجر. وظهر جلالته على متن عجلته الحربية، وخلفه سار جيشه كله. الضباط والرجال المجندون في الجيش كله، بالإضافة إلى الذين انخرطوا حديثاً في خدمة الجيش، جميعهم كُلفوا بمراقبة تلك الثيران البرية ويا للعجب ! أمر جلالته أن تجْمع ما بين حائط وخندق أى في فناء محصور ؛ ثم تقدم جلالته نحو الثيران البرية . وكان عددها يصل إلى ١٧٠ ثوراً برياً. وقد بلغ عدد الثيران البرية التى اصطادها جلالته في ذلك اليوم ٥٥ ثوراً برياً..

وتلك قصة مماثلة لقصص أخرى حول صيد الفرعون لحيوانات برية:"بلغ عدد الأسود التى قنصها جلالته بقوسه الشخصي خلال الفترة، من السنة الأولى لحكمه حتى السنة العاشرة ١٠٢ أسداً مفترساً"(٦).

كان ذلك أسهل قليلاً على "أمين -حوتب" الثالث من اصطياد فرصة كي يرتدى فيها زي القتال ويقوم بدور المحارب ــ المقاتل "بحق وحقيق". وكانت القوة الأسطورية لمصر، التى ترددت أصداؤها في سائر أركان الدنيا وقت ذاك، كافية لقطع الطريق على أى غزو يأتي من خارج الحدود، وبالقعود بأي محاولة للتمرد في ولايات الإمبراطورية. ومن ثم لم ينطو الأمر على كثير من الفطنة، عندما رأى

مستشارو جلالته في اضطراب ثانوي وقع في منطقة "إيهات" السودانية في السنة الخامسة، الشهر الثالث، اليوم الثاني مسوغاً لدخول الجيش إلى المنطقة، التى لم تكن سوى ولاية بعيدة تقع جنوبي الشلال الثاني، لا تزال حتى يومنا هذا "شبه متحضرة" واعتاد أبناؤها، فيما يبدو، على الإغارة على المستوطنات المصرية في المقاطعات الجنوبية. وعندئذ تعيّن أن تُلقّن درساً. وتولى المندوب السامي التابع لفرعون مصر في السودان "ميرى -موسي" قيادة العملية العسكرية. وها أنذا أنقل عن "الصادود" الرسمي الذي أقامه في هذا الشأن عند "سمنة": "عندما حان أوان الحصاد بالنسبة لأولئك الأوغاد أبناء" إيهات "الساقطين مضى كل منهم وحبله على الغارب. ثم كان جيش الفرعون، بقيادة مندوبه السامي، الذي اصطف للقتال وشكّل سراياه..كل مقاتل مع أبناء قريته بدءاً من حصن"باكى"* حتى حصن تاروى"* في أقصى (الشمال) وهى مسافة ترقى إلى اثنين وخمسين "إتـر"* عن طريق البحر. وظفر بهم الفرعون "نيب -ملعت -رع" بذراعه المفتول في غضون يوم واحد بل في بحر ساعة واحدة، ونزلت بالعدو منبحة مريعة، وأخذت كل أطفالهم وزوجاتهم وماشيتهم دون أن يتمكن أى منهم من الفرار.."ولكن عندما نحصى القتلى والأسرى بين صفوف العدو يستطيع المرء أن يرى أي عاصفة في فنجان كانت المسألة كلها في حقيقة الأمر: حجم الغنائم التى عاد بها جلالته من أعالي "إيهات" اللئيمة: نوبيون أحياء: ١٥٠ فرداً، محاربون مناوشون: ١١٠ ، نوبيات: ٢٥٠ ، خدم للنوبيين: ٥٥ خادماً ١٧٥ طفلاً بإجمالى: ٧٤٠ شخصاً، بالإضافة إلى ٣١٢ يد (أي قتلى) : أضيفت إلى الأحياء (أى أن الرقم الإجمالي ألف و٥٢ شخصاً بين قتيل وأسير على قيد الحياة) (٧).

رغم الطبيعة المتواضعة التى لا يُعتد بها لهذه العملية البوليسية، إلا أن السجلات الرسمية نفختها إلى كل الأبعاد الممكنة، إذ أقيمت صواديد التمجيد في "بوهين" و"سمنة" وعلى جزيرة "ساى" تخليداً لذكرى انتصار الفرعون. وفى طريق العودة، وبعد أن مر الجيش على أسوان في مسيرته شمالاً، نحت ثلاثة صواديد ضخمة تحمل عبارات طنانة سمُيت "صواديد النصر" في الصخور واستُنطق "أمون" على أحد هذه الصواديد كي يقول: مرحباً يا بنىّ المحبوب وقد عاد السلام.

ولقد ملأ السرور قلبي لرؤية انتصاراتك والمدى الذي بلغه صيتك حتى غمر البلاد الأجنبية ! لقد أعطيتك الجنوبيين كعبيد لك، وقدرت على الشماليين أن يركعوا لاسمك.."(٨)...إلخ. ولقد عاشت أصداء هذا الحدث نحو ١٨٠٠سنة، ففي القرن الرابع الميلادي، كان لا يزال في وسع "ايسيبيوس" أن يكتب عن حمل الأثيوبيين – أى السود –عنوة في السنة الخامسة من حكم أحد الملوك الذي عرفوا باسم "أمين – حوتب" إلى مصر !

"أمين – حوتب" الدبلوماسي

لم تكن مصر مع ذلك بحاجة خلال حكم "أمين – حوتب" الثالث إلى خوض أى حرب من الحروب. إذ كانت دبلوماسيتها العالمية تنطلق من موقع القوة الذي حازته، وكانت إرادتها توضع موضع التنفيذ خلال الإقناع والعطايا الدبلوماسية والزيجات أو التهديد المقنّع. فكانت حقبة *السلام المصري*" Pax Egyptiaca قد بلغت وقت ذاك ذروتها.

يظن كثيرون أن تصنيف الأمم ما بين "قوى عظمى"، وقوى من الدرجة الثانية وأخرى دول "عالم ثالث" مخترع بمصطلحاته هذه في قرننا العشرين، ولكنه، في الحقيقة، قديم قدم الإنسان المتحضر ذاته ! فكان "العموريون" (٩)، مثلاً، الذين برزوا على المسرح سياسياً وثقافياً بعد سنة ٢٠٠٠ ق. م. بوقت قصير، على درجة عالية من الوعي بتراثهم القبلي، وكانوا يقفون على دقائق الفروق بين التسيُّد السياسي والتبعية والخضوع. وكان نسقهم الدبلوماسي الدولي يقوم على نموذج أبوي بسيط، ولكن هذا النسق استمر قائماً خلال العالم القديم حتى وصول "شعوب البحر"* وكان هناك "ملوك عظام" وآخرون أقل عظمة. بين الحكام الذين تمتّعوا بالحرية والاستقلال، إلا أن عدد الملوك العظام، الذين يتساوون في الدرجة، كان محدوداً للغاية. وكانوا يميلون إلى التزاوج فيما بينهم ورغم عدم التزام أى منهم بشيء تجاه أنداده أولئك، إلا أن أعرافاً صارمة، ولو أنها غير مكتوبة، كانت

تحكم العلاقات بين هؤلاء الملوك، وإذا كانت مثل تلك العلاقـــات وطيـدة بشـكل خاص، كأن تنطوي على تزاوج، أو "مشاركة" في الممتلكات، أو وجـود معـاهدة ثنائية، فإن الملكين المعنيين يقال لهما "شقيقان" وعندئذ كان العرف السائد يقضـى بتبادل الهدايا بصفة منتظمة وعن رغبة طوعية على الأقل في الظاهر، وهي هدايـا اكتسبت في بعض الأوقات أبعاد نـوع من اقتصاد "منح الهدايا" قائم على مفـردات الرفاهية (١٠). وكان تبادل الرسائل بصفة منتظمة مطلوبا كذلك، واستتبع ذلك خلـق أسلوب مزخرف في كتابة الرسائل، غير قابل للتغيير وإلا أدى ذلك إلـى اسـتياء شديد.

وكان الملوك "الأقل عظمة" يرتبطون في غالب الأحيان بعلاقات تبعية مـع الملوك العظام، وكانت هذه العلاقات تفصح عن نفسها خلال مصطلحات البنـوة: إذ كان الملك الأقل عظمة "إبنا" ومولاه "أبا" له. وبالتالي كان التآخي أو التزاوج بينهما مستحيلا تماما، بل ولم يكن في طوع "الملك التابع" أن يدخل في أى علاقـة مـع الملوك الآخرين بدون موافقة مولاه. وكانت هناك معاهدة تربط الملك الأقل شـأنا بـ "أبيه" تفصل الالتزامات الواجبة على الأول، من ضرائـب وحقـوق تجاريـة وإرسال قوات للانضمام لجيش مولاه.

عرف عالم "أمين -حوتب" الثالث أقل من نصف دستة من الملوك العظـام، وكان هو على رأسهم. حقا كان ملك "بابل" يفخر أيضا بمملكة عظمى، مثلـه فـى ذلك مثل ملك "ميتاني"، ولكن أيا منهما لم يكن في حقيقة الأمر ليصل إلـى مكانـة الفرعون. وعلى هامش هذه المكانة حام حاكم مملكة الحيثيين في آسيا الصغـرى. فلم يكن ملكا عظيما إلا بفضل انتصار أسلافـه على "حلب" و"بابل" في القـرن السادس عشر قبل الميلاد، ولكنه لم يكن قد انضم بعد - لا هو ولا ملكـا قـبرص وكريت - إلى المجرى الرئيسي للسياسة الدوليـة وقـت ذاك. وتتضـح طبيعـة العلاقات التى أقامها "أمين -حوتب" الثالث مع كل تلك الممالك في ملفات الرسـائل التى نجت لحسن الحظ من عوادي الزمن في أراشيف حكمه. وتلك تعـد مصـدرا يكفل لنا إلقاء نظرة عليه وعلى "أشقائه الملوك"، قد تكون أكثر قربا وحميمة ممـا نستطيعه حتى مع المعاصرين.

تزوج "أمين – حوتب" الثالث أميرتين بابليتين على الأقل، تكشف رسائل شقيق إحداهما ويدعى "كاداشمان – إنليل" أنه كان عجوزاً نزقاً، وشكّاء ولُوعاً الفصال". إلاّ أن كل شكاويه لم تكن، على ما يبدو، دون أساس. ففي إحدى المرات تغاضى "أمين -حوتب" الثالث عن أن يبعث رسالة "شد- حيل" أثناء مرض "كاداشمان -إنليل" . وفي مرة أخرى تأخّر في الرد على خطاب له لست سنوات ! (ويشير نفس المصدر إلى أنّ ملك "بابل"، وكان سليل عائلة ترجع أصولها إلى الكاسانيين من سكان جبال "زاجروس" في غرب إيران) قد وافق على تزويج ابنته للفرعون "أمين -حوتب" الثالث، ولكنه طالب أولاً بإرسال شحنة من الذهب، لقصر كان يبنيه وقت ذاك:

"أما بخصوص الذهب الذي كتبت لك عنه، فأرسل كميات كبيرة منه، كبيرة قدر الإمكان. والآن وعلى وجه السرعة، حتى قبل أن يصلني الرسول الذي يحمل ردك.. كي أتمكن من مواصلة العمل الذي أخذته على عاتقي. حتى لو كان الوقت وقت حصاد ؛ أرسل الذهب الذي طلبت منك أن ترسله. وعندئذ سوف أعطيك ابنتي. ولكن إذا لم تبعث الذهب، فإنني لن أستطيع مواصلة العمل الذي أقوم به ؛ لماذا تريد أن ترسل كل شيء في موعد لاحق ؟ وإذا ما فرغت من العمل الذي أقوم به، فلماذا أريد الذهب عندئذ، فحتى لو أرسلت عندئذ ثلاثة آلاف "تالنت" من الذهب، فإنني لن أقبلها ولكنني سوف أردها كما أنني لن أرسل ابنتي كزوجة لك.."(١١).

واقع الأمر أن المفاوضات حول إتمام هذا الزواج ارتدت أبعاد حدث عالمي. ففي رسالة أخرى يحتج على صهره المصري على هذا النحو: *حقاً أنت تريد الزواج من ابنتي، ولكن أختي التي أعطاها لك والدي لا تزال هناك معك.. ولم يرها أحد في الآونة الأخيرة، كما لم يعرف أحد ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة أم وافاها الأجل. ولقد خاطبتَ رسلي إليك في حضور زوجاتك اللواتي كنّ مجتمعات وقوفاً بين يديك : هذه هي سيدتكم أمام أعينكم، ولكن رسلي لم يتعرّفوا عليها. هل كانت حقاً أختي تلك التي تشبهها؟"* (١٢) .

في السنة العاشرة لحكم "أمين -حوتب" الثالث تزوّج "جيلوخيبا" إبنة

"شوتارنا" الثاني ملك "ميتاني". وبعد مرور نحو ست سنوات استولى "توشراتا" شقيق "جيلو – خيبا" على العرش في ظروف غامضة، وسرعان ما شرع في إقامة علاقات طيبة مع صهره. وحقق في ذلك نجاحا فائقا. فلم تصل العلاقة بين "أمين –حوتب" الثالث وبين أى ملك عظيم آخر درجة القرب والحميمية التى بلغتها علاقته مع "توشراتا". وقد تنطوى رسائله على إطناب وإسهاب، وقد تكون مفعمة بتودد قد يهبط أحيانا إلى التزلف، إلا أنها كانت باستمرار أكثر لباقة من رسائل نظيره البابلي:

إلى "نيم – ماعت – رع" الملك العظيم، أتحدث كما يلى، هكذا يقول توشراتا"(؟) الملك العظيم حموك الذي يحبك، ملك "ميتاني" أخوك. كل شئ يسير على ما يرام معي. وأتمنى أن يكون كل شئ على ما يرام معك ومع بيتك، وأختي وزوجاتك الأخريات، ومع أولادك ومع عجلاتك الحربية وخيولك وقواتك المسلحة، وأراضيك وكل ممتلكاتك، أتمنى أن يكون كل شئ على ما يرام، على ما يرام تماما معها. لقد حرص أسلافك، خلال حكمهم على الاحتفاظ بعلاقات ودية للغاية مع جدودي. والآن لما كنا أنت وأنا نتمتع بعلاقات ودية متبادلة، فلقد ضاعفتها عشرة أضعاف عمّا تمتع به والدي.. وعندما أرسل "شقيقي" رسوله "ماني" مع رسالة "شقيقي" الشفوية: أرسل ابنتك كي أتزوج منها وتصبح سيدة لمصر.. ولعل "ماني" يقودها بالسلامة إلى بلاد "شقيقي" ولعل "عشتار"، و"أمون" يجعلانها ترتفع إلى مستوى رغبة "شقيقي".

و عود على بدء يعود إلى القول: "... *فليرسل لي "شقيقي" كميات ضخمة من الذهب، ودون حساب، لأن الذهب في بلاد "شقيقي" غزير كالتراب.. ولا تدع الذهب الذي أطلبه يُدخل القنوط في قلب "شقيقي"* ويضيف: *"لقد أكرمت وفادة "ماني" رسول "شقيقي" وكل الحراس العسكريين الذين أرسلهم "شقيقي" مع "ماني"... وعندما يعود "ماني" يستطيع "شقيقي" أن يسأله، عما إذا لم أكن قد أسبغت عليه كرماً عظيماً عظيماً. ولسوف يخبر "شقيقي" ولسوف يسمع "شقيقي" من فمه ما فعلته ولسوف أقوم بوضع رغبات "شقيقي" موضع التنفيذ إلى الأبد !. تماما كما*

يحب البشر الشمس، فليقدر لنا الإلهة أن يحب كل منا الآخر من شغاف قلبه إلى أبد الآبدين"(١٣) .

"أمين – حوتب" الناشر

قاد الوعي الذي لاح منذ مطلع حكم "أمين – حوتب" الثالث بضرورة التفرد، إلى نشوء نوع جديد من الوثائق يهدف إلى نشر المعلومات، وهو النوع الذي تمثّل في "الجعران التاريخي". حقاً استخدم الفراعنة المصريون في وقت سابق أو في أوقات لاحقة خاتم الجعران بين الحين والآخر كوسيلة لتخليد مشروع بناء ضخم أو نصر مؤزر أو الدعاية لأي منهما، ولكن "أمين –حوتب" الثالث دفع هذا النوع من الاستخدام إلى مرحلته العليا من التطور. ولقد نشر بين الحين والآخر سلسلة من الجعارين التى نقش عليها سجلاً موجزاً لهذا الحدث الخاص أو ذاك، وذلك بهدف وضع بيان، على ما يبدو، بالأحداث التى وقعت في عهده، لكل من معاصريه والأجيال المقبلة على حد سواء . وفى هذا الإطار صدرت عشرات وربما مئات الأعداد (الجعارين)، ووُزعت في مختلف المقاطعات وأُرسلت إلى الحكام الأجانب. واليوم يملك كل متحف من متاحف العالم تقريباً عدداً من النماذج لكل عدد من الأعداد الستة أو السبعة المعروفة. وبهذه الطريقة استطاع الفرعون أن ينشر، بأساليب تقترب من مناهج وسيلة الإعلام الحديثة، أخبار الأشغال والأعمال العامة التى جرت إبان حكمه. وهكذا نما إلينا نبأ زواجه من "تي" و"جيلو– خيبا" وخروجه المرة تلو المرة لصيد الثيران البرية والأسود المفترسة،وتشييده خزاناً للري بإسم "تي"، وبنائه معبداً للإله "خبرى" إلخ.

إلا أن الولع بإصدار جعارين تذكارية فتر وتوقف قبيل نهاية حكمه. ولكن المآثر المقدسة للفرعون استمرت في الانتشار خارج البلاد. إذ واصلت النقوش على الصروح وعلى الصواديد وعلى جوانب الصخور الطبيعية إرسالها إلى خارج البلاد لأصداء الأعمال التى يقوم بها ذلك الكائن الخارق. وفى هذه المرة اعتمدت المبالغة التى يحملها نص ملكي مصري على مسوّغ ما:"*واعجباً، اغتبط قلب جلالته*

بتشييد آثار جليلة للغاية، لم تقع عين على أى نظير لـــها منـــذ الأزمنـــة الســحيقة للأرضين" (١٤).

"أمين - حوتب" البناء

شهد حكم "أمين - حوتب" الثالث أول طفرة كبرى في عمليات التشييد عرفتها الأسرة الثامنة عشرة. ولقد ملكت الغيرة قلب رمسيس الأكبر، بعد مـــرور قرن من الزمان، أمام الأبنية الهائلة التى شيدها "أمين -حوتب" الثالث، وبعد مـرور ألف سنة ظن اليونانيون أن تماثيله العملاقة ليست سوى صور متجســـدة لبطلـــهم القومي المعروف باسم "ممنون".

بدأ وضع برنامج التشييد موضع التنفيذ منذ السنة الثانية لحكـــم الفرعـــون العظيم: *"أمر جلالته بفتح محاجر جديدة لجلب الحجر الجيري الفخم، لتشييد الأبنيـــة التى ستعيش لملايين السنين، وذلك بعد أن رأى جلالته أن الأبنية اعـــترى حالتـــها الســـوء منذ الأزمنة القديمة. ولم يكن هناك سوى جلالته الـــذي بـــدأ عمليـــات التجديد"* (١٥). وسرعان ما دب دبيب العمل والتشييد فـــي ســـائر أرجـــاء البـــلاد. وشهدت السنة الثانية من حكمه بناء معبد للإله "تحوت" في الأشمونين، وعلى أثـــره بنى عدد آخـــر من المعابد، في جزيرة "إليفانتين" للإله "خنوم"* وفـــي "أسـيوط" والكاب (نخبيت)*. كما انتصب معبد هائل يحمل اسم "قلعة نيب - مـــاعت -رع" في "منف" حيث يتخذ الفرعون مقره، وحيث تتركز عبادته إلى جانب عبادة الإلـــه "بتاح". وفى نفس الوقت لم يلحق الإهمال المقاطعـــات، فـــانتصب مـــزار رائع، منذور للفرعون "نيب -ماعت - رع ــ إله النوبة" أى الملك بصفة إليـــها قمريـــا محليا، في موقـــع نوبي يدعى "صوليب" بالإضافة إلى مزارين آخرين فـــي موقعين قريبين هما "سادينجا" للملكة "تي" و"وادي السبوع".

ولكن الدليل الأقوى على برنامج التشييد الذي وضعـــه "أميـــن ــ حوتـــب" موجود اليوم وحسب في ثنايا أنقاض "طيبة". ورغم أن هذه المدينة شهدت مســـقط رأسه، على وجه الاحتمال، إلا أنه أقام، مثله في ذلك مثل معظـــم أســـلافه، فـــي

العاصمة الكبرى لمصر أى في "منف" في الشمال قرب رأس الدلتا. وقد ظل يقيم هناك حتى السنة العشرين من حكمه، ولكنه قرر، في أواخر العقد الثالث لحكمه، كما يبدو، أن ينقل بلاطه إلى المدينة الجنوبية: "طيبة". شهدت السنوات العشر الأخيرة من حكمه تنفيذ برنامج تشييد موسع بالإضافة إلى تجميل المقر الجنوبي الجديد للحكم. وانتصب معبد جنائزي ضخم، يقف أمام واجهته تمثالان هائلان للفرعون، يصلان في الطول سبعين قدما، وسط السهول المنبسطة غربي "طيبة" كي يضم الشعائر الجنائزية لروح الفرعون إلى أبد الآبدين. وعلى بعد نحو كيلو متر واحد إلى الجنوب خطط مهندسو الفرعون لإنشاء حوض -مرفأ ترسو فيه السفن التجارية، بعد شقه في طرح النهر، وربطه بقناة خاصة بالنيل. وعلى الجانب الغربي لهذا الحوض تقوم أرصفة إصلاح السفن والمخازن بالإضافة إلى مستوطنة وقصر ضخم مؤقت أقيم على وجه السرعة لرجال البلاط.وكان مشيدا من الطوب الأخضر (النيء) والخشب ومواد خفيفة أخرى، وعندما انتهى البناؤون من استكمال المجمع بلغ طول ضلعه الشرقي – الغربي نحو ٤٠٠ متر وضلعه الشمالي – الجنوبي ٦٥٠ مترا. وضم المجمع قصرا للفرعون وأجنحة لزوجاته، وقاعة لاستقبال الجمهور، تحتوى أقساما خاصة. كما يضم قصرا كذلك للملكة "تي" وعددا من "الفلل" لكبار المسئولين ومساكن للخدم، ومعبدا للإله "أمون". ورغم الألوان الزاهية، إلا أن الشكل العام كان يترك، دون شك، إنطباعا غير مريح على نحو طفيف، عند الناظر بسبب ما يبدو عليه من عدم تناسق إن لم نقل من هيئة بائسة أو "شرك" (١٦).

وعلى النقيض من ذلك كانت "بيوت الإله" التى شيدها الفرعون على الضفة الشرقية للنيل، نماذج للتصميم الفائق التنسيق فى ضوء أفضل التقاليد التى تعرف باسم الطراز الاحتفالى للمعابد. وكان الحجر الرملي هو الذي وقع عليه اختيار بنائي المعابد الجديدة التى اتسمت بالروعة والفخامة لإله الحرب "مونتو" إلى الشمال، والإلهة "موت" الإلهة الأم إلى الجنوب من معبد الكرنك. وكان نفس الحجر هو الذي استخدمه البناءون في تشييد ذلك المعبد الجميل للإله "أمون" في "أوبت" الجنوبية (الأقصر الآن) على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات جنوبي الكرنك على ضفة

النيل. ويبدو من المرجح أن يكون الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، (أو مهندسوه المعماريون)، هو الذي تصورّ إمكانية ربط مجموعة المستوطنات المتناثرة التى تشكل طيبة القديمة في وحدة عضوية عن طريق شق عدة طرق تحفها كباش أبو الهول على الجانبين. وكانت تلك الطرق تنتهي بطبيعة الحال، عند المعابد وقدّمت نقطة وصول ملائمة حيث يتعّين إقامة صروح عملاقة. وكان ذلك يعنى مع معبد "أمون" الهائل الحجم مواجهة الطرفين الغربي والجنوبي لمحوري المعبد، بمدخلين أشبه بحصنين. وقام الفرعون "أمين -حوتب" الثالث بإزالة خليط متنوّع من المزارات الصغيرة، واستراحات الطرق والصواديد، التى تضرب في القدم إلى المملكة الوسيطة وكانت تقف فيما مضى بين صرح "تحوت-موسي" الأول (وهو الآن الصرح الرابع) وبين رصيف المرفأ. واستخدم كم الحجارة، الذي نتج عن هدم كل الأبنية القديمة كمواد حشو في الصرح الجديد. وهذا الصرح، الذي أصبح الآن الصرح الثالث، وقف أمام الصرح الأقدم لـ " تحوت - موسي" الأول، وقصد من ورائه أن يمثّل الواجهة الأخيرة للمعبد، ولكي يحُول دون أى خلف والتفكير في تشييد أى مبنى آخر إلى الغرب، شق الفرعون قناة وحوضاً لتحويل اتجاه السفن أمام البوابة العملاقة، (ولعل من المفارقات أن هذا المكان بالذات بُنى فيه - ولم تكد تمر أكثر من سبعين سنة وحسب -قاعة مسقوفة ضخمة لمعبد الكرنك "الحديث"، حجبت إلى الأبد الصرح الهائل الذي بناه "أمين -حوتب" الثالث. ولكن التداعي التدريجي لهذا الصرح أدى إلى عودة الكتل المنقوشة والصور البارزة المحطمة الأوصال، للأبنية الأسبق التى كانت تتكون منها يوماً ما، مرة أخرى، إلى النور). وإلى الجنوب من معبد "أمون" أقام "أمين - حوتب" الثالث صرحاً آخر، وإن كان أصغر حجماً، يواجه حرم معبد الإلهة الأم "موت"، كما نصب تمثالين عملاقين، لشخصه واقفاً على جانبي هذه الواجهة الخارجية. ولكن الفرعون لم يزيّن هذا الصرح (يعد بشيراً بالصرح العاشر الذي شُيّد في وقت لاحق) فلقد هُدم قبيل نهاية القرن وحل محله صرح آخر. ولم يتبق من أطلال هذين التمثالين العملاقين المهشمين الآن في ذلك المكان سوى قدم واحد ضخم(١٧).

كان إنفاق الثروة الذي يمثّله كل ذلك التشييد ضخماً بصورة غير عادية. والأرقام المسجّلة للمعادن والأحجار الكريمة التى دخلت في بناء معبد إله الحرب "مونتو" تصيب المرء حقاً بالذهول:

٢٥ , ٣ طناً من الإلكتروم.

٢,٢٥ طناً من الذهب.

١،٢٥٠ رطلاً من اللازورد.

٢١٥ رطلاً من الفيروز.

١,٥ طناً من البرونز.

١٠ أطنان (ويزيد) من النحاس الأحمر المطروق.

وتلك لم تكن سوى بعض ما درّه الاستثمار فى بناء إمبراطورية على مصر!

لا يسير امتلاك ثروة لا حدود لها والاستعداد لإنفاقها، بصفة دائمة، جنباً إلى جنب مع تملّك ذوق رفيع. ولكن فى حالة هذا الفرعون كان وجود ذوق سليم أمراً لا جدال فيه. فالفنيون يكشفون، في عهده، عن سيطرة راسخة القدم وكاملة على أدواتهم سواء في مجال المعمار الضخم الأبعاد أو التصوير أو الرسوم الجدارية أو فيما دون ذلك من فنون، سيطرة لم تعرف شبيهاً مرة أخرى طوال الألف وخمسمائة سنة التى عاشتها بعد ذلك الثقافة المصرية في ظل الفراعنة. فالرهافة والأبعاد المتوازنة للأعمدة البردية التيجان في معبد الأقصر، والفخامة والجلال اللذان يكتنفان تمثالي "ممنون"، معاً، تبعث الرهبة التى تُبهر الأنفاس أمام المهارة الفائقة والخيال الواسع فضلاً عن المدى الذي بلغه طموح كل من الفنان وراعيه في آن واحد. وإذا كان "أمين -حوتب" الثالث قد وضع شخصياً معيار التقييم الجمالي، فإن بلاطه لم يتخلّف كثيرًا عنه في هذا السبيل. فمقابر الوزراء الجميلة تزدان بجداريات رقيقة وهامسة تصوّر سيدات رشيقة ورجال متأنقين يجلسون معاً إلى موائد الطعام، وتقتنص هذه الجداريات الطبيعية الشفافة لأثوابهم المصنوعة من الكتان الفاخر. وكان الفنان بارعاً، كذلك، في نقل الإحساس بليونة انحناءات الأجسام النسائية. وكذلك أيضاً فيما يتعلق بانتظام التجاعيد الدقيقة

التى تتكون منها البواريك (جمع باروكة). وعند هذه النقطة يرى المرء لزاماً عليه أن يَخلُص إلى أن ذلك البلاط كان عاشقاً للذات، ولا يولي لحجم الإنفاق أى اعتبار. وكان في وسعه أن يشبع كل نزعة جمالية، مهما كانت ! (أنظر لوحة رقم ٣-١).

"أمين- حوتب" الرئيس ومجلس وزرائه

يبدو أن هذا الفرعون كان حكَماً بارعاً بطبعه على الأشخاص، إذ بدون ذلك يتعذّر علينا أن نفسّر نجاحه في استقطاب طاقم من الإداريين اللامعين الذين استمر صيت حكمهم وإنجازاتهم يتردد لعدة قرون تالية. وكان كل منهم يحمل لقب "وزير ملكي" وهو اللقب الذي يشير إلى أرفع مرتبة في الدولة، فضلاً عن أن حامله يصل إلى أن يصير أحد أصفياء الملك. وبصرف النظر عن هذا اللقب الذي يحمل في طياته مرتبة صاحبه، وهى المرتبة التى نستطيع أن نقارنها بمرتبة عضو مجلس الوزراء في العصر الحديث، فكان كل منهم يحمل أيضاً لقباً خاصاً آخر يحدد الإدارة الحكومية التى يرأسها (١٨).

نما إلى علمنا في الآونة الأخيرة أن الحقائب التى عرفها مجلس الوزراء الفرعوني كانت تشمل حقيبة، ولو أنها كانت الأهم خلال حكم "أمين -حوتب" الثالث، هي منصب "كاتب المجنّدين" وهو منصب يستتبع في غالب الأحيان قيادة شبه عسكرية أى ما يوازي الآن "وزير العمل" الذي يأخذ على عاتقه مسئولية القوى العاملة. وتشمل هذه المسئولية الإشراف على سجلات أفواج العمل، ودفعات المجندين وشئون الأفراد العسكريين فكان يراقب عملية التجنيد، ويتابع الالتزام بقوائم التجنيد، ويطمئن إلى توفُّر أيدٍ عاملة رهن الطلب لمشاريع الدولة سواء المدني منها أو العسكري. وكانت اختصاصاته تمتد لتشمل تحصين القلاع سواء داخل مصر أو في مقاطعات الإمبراطورية، وتوزيع وتسجيل الأسرى، وتجييش وإرسال فرق الجيش وأفواج الحجّارة إلى المحاجر، وكتائب التشييد إلى مواقع البناء، بل ويقع أيضاً في نطاق اختصاصاته حتى الإشراف على نقط الجمارك

والنزوح إلى مصر عند مداخل النيل. ولعله من الواضح تماماً أن ازدهار مصر في عهد "أمين – حوتب" الثالث ما كان ليستمر دون عبقرية ذلك المسئول المكلف بعمليات الإمداد والتموين.

ورث "أمين – حوتب" الثالث مسئولاً من هذا النوع يدعى "حور – إم – حب"، أحد مريدي عبادة "أمون"، الذي تقلد منصب "كاتب المجندين" في ظل والده "تحوت – موسي" الرابع ولكنه سرعان ما أحل محله "سنو"، الذي كان يشغل أيضاً منصب رئيس الرسل الملكيين. ورغم أن عدد الذين شغلوا ذلك المنصب المساعد، لا يقل، على وجه الاحتمال، عن ستة أشخاص، تحت ظل حكم "أمين – حوتب" الثالث، إلا أن أكثرهم نجاحاً وأطولهم بقاءً فيه كان ذلك الذي خلف "سنو" في المنصب، يدعى "أمين – حوتب – ابن حابو"(١٩) الذي انحدر من أصول متواضعة من مدينة "أتريب"* في الدلتا. فلقد انتقاه الملك منذ وقت مبكر، ورقّاه بناء على سداد النصائح التي أسداها، ورفعه على أقرانه. ويخبرنا في واحد من النقوش العديدة التي وصلت إلينا: *لقد فضّلني الإله الطيب، ملك مصر العليا والسفلى " نيب – ماعت – رع "، ابن "حور ـ آختي" البكر، وعيّنني نائباً لوزيره، وأدخل اسمي في كتاب الإله (أي سجل مكتبة المعبد). ولقد اطلعت على أدوات الإله "تحوت" (أي العلامات الهيروغليفية)*، وتبحّرت في أسرارها، *ونّقبت في كافة فقراتها الصعبة، وطلب الكثيرون مشورتي في مراميها*". وبعد إتمام مرحلة التعليم جاء تعيينه عضواً بمجلس الوزراء: *"كان جميع سكان مصر خاضعين لإشرافي بصفتي كاتب جلالته الذي يتولى مسئولية جميع المجندين" ولقد حشدت جميع من شملهم تجنيد جلالته للعمل. وقام قلمي بتسجيل أعداد تفوق الحصر... وقررت الضريبة الواجبة على الممتلكات الثابتة بعد حصرها، وجردت الممتلكات المنقولة، وسجّلت المجندين*". وكان في طوعه أن يقول قبيل وفاته:

"أنا رجل عادل، لم أحاب أحداً على حساب آخر. ولم أعقد أي اتفاق مع شرير. سلوكي مستقيم، وكل ما قدّمته يداي واضح أمام أعين الجميع. كنت مستقيماً صادق الاستقامة حتى سنوات عمري الأخيرة. ولقد بلغت ثمانين سنة في ظل رضى الملك. ولسوف أكمل مائة سنة وعشر" (٢٠). ورغم أن أمل "أمين –

حوتب ابن حابو" خاب على وجه الاحتمال في قضاء مائة وعشر سنوات كرجل صالح قيد الحياة، إلا أن صيته امتد إلى ما بعد وفاته. إذ ظل مبجّلاً كرجل حكيم ونصف إله يحوز قدرة على شفاء المرضى، حتى بعد وفاته بألف سنة (٢١).

نستطيع أن نذكر أيضاً، بين أعضاء مجلس الوزراء المصغّر، هذا، والمتميّز "خاع – إم –حات" المعروف بالورع، الذي احتل منصب كاتب الفرعون وناظر شون الغلال . وكان والد "خاع – إم – حات" يسمى "إى – إم – حوتب" عضواً في هذا المجلس المصغّر، هو الآخر، في مطلع حكم الفرعون، نظراً لشغله منصب ناظر مخازن الذهب والفضة. ولما كان "خاع – إم – حات" قائماً بالإشراف على زراعة الحبوب وحصد المحاصيل، ليس داخل مصر وحسب بل في طول الإمبراطورية وعرضها كذلك. فلقد عمل معه جيش حقيقي من كتبة الحقول (لتقدير المحاصيل قبل الحصاد)، ورجال بوليس، وجباة ضرائب. وفى السنة الثلاثين سلّم "خاع – إم –حات" لجلالته ضرائب محصولية وفيرة بشكل استثنائي، الأمر الذي جعل الفرعون يكافئه مع طاقم العاملين تحت رئاسته، وهو الامتياز الذي صوّره الرجل في مقبرته. ولقد تفاخر بمعرفته، وكان ضليعاً متبحراً، بكل الآلهة، بالاسم، وبتقريب القرابين بصفة منتظمة إلى أرواح الراحلين سواء من الأهالي أو الأسرة المالكة.

واستقرت مسئولية الخزانة في أيدي عائلة واحدة طوال ثلاثة أجيال. وكان أبناء هذه العائلة يفضلون اتخاذ أسماء مركبة على اسم الإله التمساح: سوبك. فكان المسؤول الواسع النفوذ على عهد "أمين –حوتب" الثالث، هو كاتب الملك والمشرف العام على الخزانة: "سوبك – حوتب" إبن المشرف العام على الصندوق الخاص "سوبك ــ موسي"، وكان مكلفاً بالحصول على المعادن الثمينة، وبالتالي كان منخرطاً بشكل مباشر في عمليات التعدين. وقد بلغ دون شك إحدى ذرى حياته العملية في شتاء السنة السادسة والثلاثين من حكم "أمين –حوتب" الثالث، فبينما كان جلالته مقيماً في "المدينة الجنوبية" في قصره غربي "طيبة". آنذاك حوّل إلى عناية كاتب الملك والمشرف العام على الخزانة "سوبك – حوتب" وكنيته "Panehsy "بانحسى" أى "الجنوبي"، أن يحضر حجر الفيروز، في الوقت الذي كان جلالته فيه

يحتفل بيوبيله الثالث (٢٢)، وهـو الأمر الذي استلزم منه رحلة طـويلة وشـاقة إلى مناجم " سيناء " مع جيش من العمال والنقّابين والمُعدّنين، إلى جانب طاقم مـن الأفراد المعاونين، إلا أن المهمة حققت نجاحاً كبيراً، وكانت يد الملك سـخية فـي جزل العطاء.

وكان الأمناء الرئيسيون من بين أبرز كتبة الفرعون، ونستند في هذا الحكـم إلى اتساع مقابرهم وغناها. فالأمين الرئيسي أو رئيس الديوان يأتي مباشـرة بعـد وزير العمل في حجم ما يملكه من سلطة ونفوذ، إذ نستطيع أن نقول عنه أنه كـان بمثابة مدير تنفيذي لممتلكات الفرعون، التى نمت في تلك الفترة من تاريخ مصـر إلى أبعاد رهيبة. ففي الوقت الذي كان الفرعون فيه لا يزال يقيم في "منـف" إبـان شبابه، وقعت عيناه على ابنين من أبناء أحد الأعيان يدعـى "إى -إم - حوتـب"، ناظر المواشى وشون الغلال في أملاك الإله "أمون" في الدلتا.وقام الفرعون بتعييـن أكبرهما وهو "أمين - حـوتب" كـ "أمير وراثي"، ومحاسب، وحـامل أختـام الفرعون، وكاتبه والأمين الأول في "منف"، كما تولى أيضاً منصب كـاتب الملـك لشئون المجندين لفترة ما.

واستند طموح "أمين -حوتب"، هذا، في كسب الصيت في تصـوّره، علـى بناء ذلك المعبد الفخـم لجلالته في "منف" وبالتالي أسند الفرعون بناء المعبد إلـى الكاتب الذي نجح، قبيل وفاته ؛ في أن يضمن نفس الوظيفة لابنـه: "إيبـو - وى"، الذي امتد به العمر إلى ما بعد وفاة "أمين -حوتب" الثالث. أما ابـن "إى - إم - حوتب" الثاني، الأصغر واسمه "رع - موسي" فلقد تولى في وقت لاحق منصـب وزير الفرعون لشئون الجنوب وأقام في "طيبة".

وكان هناك في الجنوب أيضاً شخص يدعى "أميـن -إم - حـات" وكنيتـه "الواثق" وكان يتولى منصب الأمين الأول. وكان والده "إتى - توى" (من الشـمال ؟) يشغل منصب ناظر قطعان "أمون"، واقتفى ابنه في بداية حياته الوظيفية خطـى والده كمشرف عام على مواشي ومراعى "أمون"، والمشرف العام علـى بوابـات "أمون"، وكاتب خزانة الإله "أمون". وفى الوقت الذي انتقل البلاط فيه إلى "طيبـة"، كان "أمين - إم - حات"، قد تدرّج في الوظائف حتى حصل على مركز "الأمـير

الوراثي" (الذي يورث لقبه لابنه. م) والصفّي منقطع النظير الذي يتمتع بحق الاقتراب من سيده، والأمين الأول وكاتب الفرعون.. وحامل المروحة عن يمين الفرعون، والنبيل في بيت الفرعون.

وهناك قطبان آخران، بلغا منزلة كاتب الفرعون بصورة غير صريحة رغم أنهما لم يشغلا منصب الأمين الأول. ويرجع هذا التميُّز الذي تمتّعا به إلى أدائهما لوظيفة جعلتهما مقرّبين من ذوى الملك – الفرعون وخصوصاً الملكة. أحدهما "نفر – سي– خرو"، ابن "وجيه" ميسور الحال شغل في وقت ما لفترة ما منصب المشرف العام على قطعان "أمون"، وهو الذي ظهر في "طيبة" كالنديم الأول للفرعون، والمتمتع بحق المثول في حضرة "حورس في قصره...كاتب الفرعون وأمين بيت "نيب – ماعت – رع قرص – الشمس الباهر" (أى القصر الطيبي). أما الآخر فهو "خرو – إف" الذي لم يكن سوى ابنٍ لموظف بسيط، وأصبح أميراً وراثياً ومشرفاً عمومياً على مخصصات الفرعون، والرسول الأول للملك، والكاتب الصادق للفرعون، وأمين بيت زوجة الفرعون الرئيسية "تي".

وقبيل نهاية حكم الفرعون "أمين– حوتب" الثالث، تقلّد "ريا" وهو شخص بارز، شغل في وقت سابق وظيفة "كاتب حسابات الغلال" تحت ظل ولاية "خاع– إم – حات" ؛ منصب الكاتب الصادق للفرعون وصفيّه والمشرف العمومى على شئون الغلال في الوجهين البحري والقبلي، والأمين الأول للفرعون ، وذلك خلفاً على وجه الاحتمال لـ "أمين– إم – حات" ، "الواثق" في الجنوب.

ونستدل من حجم مقابر هؤلاء الأمناء ومحتوياتها وحدها، على أنهم كانوا واسعي الثراء. وتعد مقبرة الأمين الأول "نفر –سى –خرو"، ولو أنها لا تزال رهن الفحص، واحدة من أجمل المقابر في "طيبة" بأسرها. كما تعتبر مقبرة "الواثق" المنحوتة في صخور "طيبة" فائقة الضخامة، إذ تمتد، نحتاً، في الصخر الحي (أى غير المنقول إلى مكان آخر غير مكانه الطبيعي. م) لمسافة تصل إلى نحو ٢٥٠ قدماً في أعماق الجرف الصخري الشاهق، وتحتوى على قاعة تضم سبعين عموداً. وتعد مقبرة "خرو – إف" واحدة من أكبر المقابر الخاصة التى عثر عليها كافة المنقبين منذ بدء عمليات التنقيب في "طيبة". فهي تحتوى على دهليز

ضيق يقود إلى فناء ضخم ملئ بالأعمدة، وقاعة مستعرضة (أى تمتد بـالعرض. م) تضم ثلاثين عموداً، ثم نقابل قاعة مستطيلة تضم ثمانية عشر عموداً، بالإضافة إلى عدد آخر من الدهاليز والغرف. ويصل إجمالي الطول ٣٦٠ قدمـاً. وقـد تحـوّل الموقع في أوقات لاحقة إلى جبّانة واسعة للدفن (٢٣). وليس في وسع أحد لم تكتحل عيناه بمرأى تلك المقابر أن يقف على البراعة الفنيـة، علـى مسـتوى التكنيـك، للجداريات المنقوشة هناك أو مستوى الذوق الفني الذي تعكسه.

ومع ذلك، فرغم ضخامة الثروات التى حازها أمناء القصـر أولئـك إلا أن استمرارهم في ولايتهم لمناصبهم كان في المعتاد مزعزعاً بصورة تدعو للذهـول. فهناك أكثر من أمين واحد فقدوا الحظوة التى يتمتعون بها بشـكل مفـاجئ وفـى ظروف غامضة. ورأوا بأعينهم آثارهم وأملاكهم وهي تُصادَر. ويبدو أن تعاملـهم في مثل تلك الثروات الهائلة برهن على أنه إغراء لا يمكن مقاومته. كما يبـدو أن أصولهم المتواضعة، نسبياً، التى انحدر منها بعضهم خلقت غيرة قاتلـة بيـن مـن يفضلونهم ممن جرى تجاوزهم عند إسناد هذه الوظـائف إليـهم. فرائحـة تفـوح لفضيحة أو حسد يعتمل في الصدور ضد ذوى النفوذ همـا العنصـران الوحيـدان اللازمان، في دولة شرقية، حتى إلى اليوم لسقوط مسئول كان يومـاً مـا مقربـاً، وبدون أدنى شك، مفعماً بالولاء!

لا تزال هناك حقائب وزارية لم نعرض لها. ويجب أن نذكـر الـمندوب السامي في "كوش" واسمه "ميرى – موسي" حامل المروحة عن يمين الفرعـون، وكان يشغل منصب كاتب الفرعون، المسئول عن مناجم الذهب في أفريقيا. وكـان هناك أيضاً كاتب الفرعون، نائب وزير الفرعون وعمدة "منف" ويسـمّى "ميـن–خبر"، وكان هناك كذلك كاتب الفرعون، الذي يشغل منصب القائد العـام لجيـش سيد الأرضين، ويعرف باسم "تاخت – مين".

إلا أن منصب الوزير، وهو منصب قديم ومهيب، لم يكن ليندرج تحت ذلـك المسمى الوظيفي "كاتب الفرعون" ؛ إذ كان في حقيقة الأمر منصباً أرفع من ذلـك المسمّى الذي انطوى على كل تلك الوظائف السابق ذكرها، فيما عدا وظيفة أميـن الصندوق.

كان منصب الوزير ينقسم إلى شعبتين، الأولى للوجه القبلي والأخرى للوجه البحري، وكان الوزير مسئولاً عن الشئون اليومية لمدينة الإقامة، وتسيير كافة أعمال الموظفين العموميين بشكل متناغم. وكان شاغل المنصب مسئولاً في العادة عن كافة عمليات التشييد في طول وعرض نصف المملكة الذي يتولى وزارته.

ونستطيع أن نذكر – إلى جانب "رع – موسي"، الشقيق الأصغر لـ"أمين – حوتب" الأمين الذي تولى وزارة الجنوب خلال السنوات الأخيرة من حكم الفرعون "أمين – حوتب" الثالث، واكتسبت مقبرته صيتاً عريضاً، تستحقه بجدارة، لجدارياتها الرائعة ـ: "بتاح – موسي"، وهو شخصية غير معروفة على نطاق واسع ويكتنفها الغموض إلا أنه تولى لمدة ما منصب عمدة "المدينة الجنوبية" أى "طيبة" بالإضافة إلى منصب الوزير. وظهر قبيل نهاية حكم "أمين – حوتب" الثالث على وجه الترجيح بصفته أمين أملاك الإله "أمون" وكبير كهنة مصر العليا ومصر السفلى ". والكاهن الأعلى لـ"أمون". تُرى من يكون ذلك الرجل ؟ لابد أن يكون قد وصل، بصفته كبيراً للكهنة وفى وقت سابق وزيراً أول ليصبح أوسع الوزراء نفوذاً في البلاد.

"أمين – حوتب" الثالث واحتفالاته

شهد العقد الأخير من حكم الفرعون "أمين –حوتب" الثالث أى، في الوقت الذي أقام فيه في "طيبة" الاحتفال بثلاثة أعياد من أعياد الـ "سد" Sd في السنوات التالية: ٣٠، ٣٤، ٣٧ لحكمه (٢٤). وإذا كان لنا أن نستند إلى عدد الجداريات واللوحات المرسومة المعاصرة لتلك الوقائع، والمخصصة لتخليد تلك الاحتفالات في إصدار حكم ما، فلابد أن ننظر إليها بصفتها أهم الأحداث التى وقعت خلال حكم ذلك الفرعون. وقد جرت كلها في "طيبة"، في قصره أى في "بيت البهجة" أو قصر "الملقطة"*

الجديد إلى الغرب من "طيبة"، وهو القصر الذي أصبح كعبة يقصدها جميع الوجهاء من كافة أنحاء الإمبراطورية**. وكانت التبرعات: "عنو" تستقطع من كبار المسئولين على هيئة أطعمة وأشربة. ولكن هؤلاء المسئولين المحترمين كانوا يقدمون تلك التبرعات عن طيب خاطر، خاصة وأنهم كانوا يستشعرون التكريم بانخراطهم في تلك الاحتفالات المقدسة كمحتفلين Celebrants فالذين يتباهون منهم في مقابرهم، إلى جانب الألقاب التى حازوها والمناصب التى تولوها أثناء حياتهم، بوصف الدور العابر الذي لعبوه في الاحتفال باليوبيل، لم يكونوا بالقليلين. وعلى هذا الأساس قام كل من "نفر – سى –خرو" الأمين و"ميرى – موسي" المندوب السامي بدور "ضبط ومراقبة العرش المزدوج" وقام "خوو – إف" بدور "مراقب القصر" أما "أمين –حوتب" الوزير فقام هو و"أمين – –إم –حات" الأمين، و"نفر– سي – خرو"، المذكور سابقا، بدور حراس علامات الحدود (؟) في القاعة الواسعة". وكان "خاع –إم –حات" يقوم بوظيفة كاهن الإله "أنوبيس". وكان "أمين – حوتب" ابن حابوا أميرا وراثيا في المناصب الخاصة باحتفال الـ "سد".

وكان الملوك الأجانب أو سفراؤهم أيضا يحضرون مناسك تلك الاحتفالات، على نحو ما تصوره الجداريات التى تقدمهم لنا بصفتهم: "*رؤساء كل البلاد البعيدة الذين لم يعرفوا مصر*". (لوحات ٣من٢ إلى ٥). ولابد أنه كان خلال إحدى هذه المناسبات أن قدم ملك بابل شكوى على هيئة رسالة خطية حول غياب قواعد البروتوكول السليم فيما يتعلق بمبعوثيه وعجلاتهم الحربية: "*صفت عجلاتهم الحربية وسط العجلات الحربية للعمد المصريين، ولم تلق إليهم بنظرة واحدة*"(٢٥) كما شكا أيضا من أن بلاط الفرعون لم يرسل السفير المصري كي يعلن عن الـ "سد": "*عندما أقمت مهرجانا كبيرا، لم ترسل رسولك كي يقول: كلوا واشربوا، كما أنك لم تبعث بهدية المهرجان*" (٢٦). واعترف الفرعون "أمين –حوتب" جهارا بصحة الاتهامات، ولكنه قرع الرسل البابليين على النحو التالي: *في إحدى المناسبات عاد رسلكم إلى والدك كي تنطق أفواههم بالسوء والبغضاء*: وهذه هي

المرة الثانية التى يعودون فيها إليك كي يتحدثوا بالسوء والبغضاء" (٢٧) وبناء عليه أنهى "أمين – حوتب" قوله بأنه قرر ألا يعطيهم شيئاً في المستقبل، وذلك لأنهم يحرّفون نواياه مهما صنع من أجلهم.

ولكن ما من شكوى بابلية تستطيع أن تُخمد الحماس لحضور تلك الاحتفالات: فالأطعمة كانت حاضرة بوفرة هائلة، والخمور تتدفق بسخاء بالغ. وعلى هذا الأساس يعلن الفرعون "أمين – حوتب" الثالث بفخر أن كل الطقوس أُوديت، وفقاً لأقدم مراسم الأداء، وهى الأصول التى عثر عليها الفرعون في "كتابات الأقدمين" التى يغطّيها التراب في الأراشيف. والحقيقة أن هذا الفرعون كان يستشعر، على ما يبدو، بهجة المولعين، بكل ما يعود إلى عصور أشد قدماً. ولقد ظهر إلى النور لوح " بدائي " من الإردواز، يرجع إلى فجر التاريخ المصري أى قرابة ألف وستمائة سنة قبل ذلك الحين بفضل صورة تمثّل الملكة "تي" الزوجة الرئيسية على ظهره ، أى ظهر اللوح.

وقبيل وفاته، مرض "أمين – حوتب" الثالث. وتكشف مومياؤه، رغم ما هي عليه من سوء حفظ، عن عجوز أصلع مكتنز قضى سنواته الأخيرة منعّماً منغمساً فى الملذات. ولابد أن أسنانه سبَّبت له آلاماً حادة فلقد وُجدت في حالة سيئة من التآكل بالإضافة إلى تقيّحات عديدة في اللثة. ويبدو أن حالته الصحية السيئة دفعته، في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه إلى أن يرسل إلى صهره (شقيق زوجته. م) "توشراتا" ملك الميتانيين كي يستفسر عما إذا كان بوسعه أن يشير بأية أدوية. ورد "توشراتا" على الرسالة التى تلقاها بأن "عشتار" إلاهة "نينوي" قد أنزلت للتو وحياً غيبياً: *إلى مصر، تلك البلاد التى يحبها فؤادي سوف أذهب*" وبناء عليه حزم "توشراتا" التمثال الذي تُعبد "عشتار" على هيئته إلى مصر، مصحوباً برجاء رقيق: *ليتْ شقيقي يكرم وفادتها، وليته يعيدها مرة أخرى مطوقة بالسرور، ولعلها تعود، ولعل " عشتار " سيدة السماء تحفظ شقيقي وتحفظني... ولو أن" عشتار" معبودتي وليست معبودة شقيقي*" (٢٨).

وأثبتت قدرات "عشتار" العلاجية عدم فاعليتها. وبعد مرور سبعة شهور وحسب من السنة الثامنة والثلاثين أى في يناير – طوبة سنة

١٣٧٧ق.م (٢٩)، وافى الأجل "حورس" (أى الفرعون) في قصره غربي "طيبة". وعلى نحو ما كان نص النعي الرسمي ليقول: حلّق الصقر في أجواء السماء وحلّ آخر محله. أما من ذا يكون ذلك الآخر، فسرعان ما ستعرف مصر وهو الأمر الذي سيُصيبها بذعر قاتل.

الباب الثاني

حكم الفرعون المارق



الفصل الرابع

"أمين حوتب" الرابع ومشكلة الحكم

يبدو أن الشهر الخامس من التقويم المدني في السنة الثامنة والثلاثين من حكم والده (أى في يناير – طوبة سنة١٣٧٧ق.م) شهد صعود "أمين – حوتب" الرابع إلى عرش حورس الحيّ . وإذا كان النحّاتون قد بدوا حيارى أمام كيفية التعامل مع ذلك القوام الغريب لفرعونهم الجديد في المجال الفني، فلقد عكسوا صورة التردد والحيرة بشأن ما يتوقعونه من ذلك الحاكم الشاب المجهول.

الفرعون الشاب

على النقيض من ظهور إخوة وأخوات "أمين - حوتب"، الإبن الثاني لـ "أمين – حوتب" الثالث ، كان أخوه الأكبر قد وافته المنيّة في ميعة الصبا ، بصورة متكررة في آثار والدهم، فإن غيابه منها يتّضح بصورة لا تخطئها العين. ويبدو أن هناك من دفعه عمداً إلى منطقة الظل نتيجة لاعتلاله الخلقي، وهو الاعتلال الذي جعله شنيع المنظر (اللوحتان ٤–٢،١). ولقد مكنتنا ذخائر الأعمال الفنية التى وصلتنا من "أخيتاتون" من الوقوف، بجلاء، على المظهر الخنثوي للشاب: الجمجمة المستطيلة، الشفاه المكتنزة، العيون المسحوبة، الأذن الممدودة، الفك البارز، الأكتاف الضيقة، البطن الكبيرة، الأرداف الضخمة، الأفخاذ الممتلئة والسيقان الطويلة **. ولقد اتجه الخبراء في الآونة الأخيرة إلى توصيف حالته كنوع ما من الاضطراب الهرموني، الذى تعجز فيه السمات الجنسية الثانوية عن النمو، الأمر الذي يؤدى إلى ظهور "شبه الخصائية" (١).

أياً كان الأمر، فالثابت أن "أمين – حوتب" ؛ هذا ؛ لم يظهر له لا رسم ولا نحت في الآثار خلال حكم والده. ويبدو أن الإشارة الوحيدة المؤكدة له، خلال تلك

الفترة كلها موجودة على ختم مطبوع على دن نبيذ، وصل إلينا من "الملقطة"، حيث يظهر اسمه في هذه العبارة "عزبة "أمين -حوتب" الإبن الحقيقى (؟) للفرعون"(٢) وكان عمره قد بلغ وقت ذاك المرحلة التى يستطيع فيها أن يقيم لنفسه منشأة خاصة، أى خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم والده، وكان، كما ينبغي علينا أن نتوقّع، يقيم خلال تلك الفترة مع بقية البلاط في "طيبة". أما أن يكون قد وُلد في وقت مبكر من حكم والده، عندما كان يتخذ في "منف" مقره الملكي فأمر مستساغ، وإن لم يكن قابلاً لإقامة الدليل عليه.

ورغم أنه من الأفضل أن نقر بجهلنا إزاء الموضوع الذي يدور حول المكان الذي تلقى فيه "أمين - حوتب" الرابع تعليمه ومن الذي تولاه، إلا أن هناك شيئاً واحداً يبدو مؤكداً: تعليمه الأولى لم يمضِ به بعيداً، إذا كان قد مضى أصلاً، عن بلاط والده، وبكل تأكيد لم يمض به خارج حدود مصر. وليس هناك دليل على أنه مكث في "منف" بعد انتقال والده جنوباً إلى "طيبة" في السنة التاسعة والعشرين على وجه التقريب من حكمه، أو أنه أقام في أى وقت من الأوقات في "أون" (هيليوبوليس) مركز عبادة الشمس. والافتراض القائل بأنه تلقى "قدْراً" من التعليم في هذه المدينة، لمجرد تفسير تفانيه في سبيل اللاهوت الشمسي، ليس ضرورياً بحال من الأحوال. فإله الشمس ولاهوته يخترقان الديانة المصرية إلى حد يتعذّر معه أن يعزل أحد أميراً شاباً عن التأثّر الشمسي أينما توجّه كى يتلقى تعليمه. حقاً كان خاله(٣) "أنين" كاهناً أعلى لإله الشمس، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بعبادة الكرنك الأقل شأناً لـ "رع" ، كما يبدو مرجحاً، وليس بعبادة "أون"، فإن هذا اللقب الذي حازه "أنين" يكون قد استمر مع وصوله لإحدى أهم الرتب فى كهنوت الإله "أمون" في "الكرنك".

وعلى نحو ما سنرى في الصفحات التالية، ترجع التغيرات التى دخلت على صوغ الأيقونات الشعائرية، والقرارات، دون شك، التى اُتخذت بتشييد مبانٍ جديدة لإله جديد، إلى البدايات الأولى، دون شك، لحكم "أخناتون". ويتساءل المرء عما إذا كان الأمر أمر تكليف صادر إلى "رع - موسي" بالبدء في العمل، ذلك الذي خلّده في مقبرته. لكن المؤكد أن عبارات الملك، وردود "رع - موسي" عليه،

يشيران ؛ رغم ما هي عليه من حـــالة مهشّمة، إلى عمليات تشييد: *(الكلمات التـــى نطق بها) "الملك الذي يقتات بالصدق، سيد الأرضين (نفر-خـــبرو - رع) منـــح (الحياة) للأمير الوراثي كـــاتب الحســابات، العمـــدة، والوزيـــر "رع - موســـي" (المرحوم!) الكلمات التى سقتها لرعايتك (...)..شـــكلها (؟) (...) أصـــدرت بـــها أوامري. كل ذلك الذي في (..) أكثر من..للملوك منذ عصر الإله..".* ويرد "رع - موسي" : *(لعل قرص..(يصنع) كما جلالتك (..) ولسوف تخلد آثارك خلود السـماء، فآثارك أشبه بالقرص الذي في كبدها. ولسوف تحيا آثارك مثـــل الأحيـــاء الذيـــن يحيون في السماء. فأنت فرد فريد..بنصائحه. فالجبال تغدق كنوزها بغـــزارة بيـــن يديك وصيحتك تخلع قلوبها مثلما تفعل مع قلوب الرجال. وهى تنزل عند طـــاعتك كما يفعل الرجال سواء بسواء !*(٤) وقد يكون التوجيه الذي تنطوي عليـــه كلمـــات الملك، هو نفس التوجيه الذي وردت الإشارة إليه في النقش الذي عثر عليـــه فـــي محجر "السلسلة": *المناسبة الأولى التى أصدر فيها جلالته أوامـــره.. بالمضي في كافة الأعمال من جزيرة "اليفانتين" حتى "سيما - بحدت" وإلـــى قـــادة الجيـــش أن يجنّدوا عمالاً يشتغلون، سخرة ؛ فى محاجر الحجر الرملـــى، فـــى ســـبيل تشـــييد الـــ"بنبين" العظيم لـــ"رع - حور - آختي" باسمه "ضوء الشـــمس الكـــائن فـــي القرص"في الكرنك. وكلف الأمراء ورجال البلاط والمشرفين والضباط . المزوّديـــن بالهراوات بتولي مسؤولية جيشه من المجندين في نقل الأحجار"*(٥).

ونستطيع أن نستشعر بعض الروح الشمولية الكامنة وراء هـــذه المشـــاريع الأولى بمجال التشييد في النقوش التى خلّفها وراءه "بار - إن - نفر" إذ عيّن هـــذا الوجيه رئيس خدم الفرعون وغسّال يدي جلالته في منصب رئيس الكهنة (أى كبير أنبياء كافة الآلهة). ولما كان "بار- إن - نفر" هذا محدث نعمة، كما هو واضـــح، فلقد كان في مدحه للملك الجديد مثيراً للاشمئزاز: *التحيات لك. يا ابن القرص الحي "واح- إن- رع" الفرد المنقطع النظير، من نشأني ورعاني !"*

ويصوّره أحد المناظر في مقبرته أثناء تكريمه بأسلوب كان ليصبح إلى هـــذا الحد أو ذاك نموذجاً يُقاس عليه لمدة تصل إلى ثلاثة قرون ونصف. إلا أن المناسبة التى كُرّم فيها ليست معروفة بشكل محدد. ولقد أسندت إلـــى "بـــار - إن- نفـــر"

مسئولية القرابين في المعابد الجديدة. وقت ذاك كانت كميات ضخمة من القرابين قد حُولت إلى "القرص" على حساب سائر المعابد الأخرى. وأشار "بـــار – إن – نفـــر" باقتضاب إلى أن المسئولين الذين لم يتكيفوا مع الأوضاع الجديدة سوف يقطعـــون أعناقهم بأنفسهم: *والآن يعرف "برع" * أي الموظفيـــن المثـــابرين علـــى تقريـــب القرابين. والموظف الذي يتوانى في تقريب القرابين للقرص يكون قد ســـلّم نفســـه لسلطان الملك، لأن رسوم الغلال لكل إله تكيّل وحسب بالويبة*، ولكنها للقـــرص تكيّل بأكثر من ذلك بكثير "* (٦).

طيبة لدى تنصيب المارق

بدا المجمع الضخم للإله "أمون" في "طيبة"، لدى وفـــاة "أميـــن – حوتـــب" الثالث، وقد وصل مرحلة الاكتمال من الناحية الإنشائية (شكل (٣) لوحة رقـــم ٤–٣) (٧) فإلى الغرب وقف صرح "أمين – حوتب" الثالث (رقم (III) كواجهة للمعبد، إذا كان القادم يسير بسفينته على امتداد القناة التي تربط بين نهر النيـــل وحـــوض التحويل. وإلى الجنوب، وبُعيد الصـــرح الأخير صرح الملكة "حتشبسوت" رقـــم ٨ يقف صرح تتساوى أبعاده مع أبعاد نظيره الغربي، فيوفّر مدخلاً مهيباً للقادمين مـــن معبد "موت" الإلهة الأم. وإلى الشمال يقف المزار الجديد الـــذي ابتنـــاه "أميـــن – حوتب" لإله الحرب "مونتو" مع فنائه الرحب كي يوازنـــا المجمـــع الـــذي ابتنـــاه لـــ"موت" إلى الجنوب، أما جهة الشرق فهي الوحيدة التي لم يُقم عليـــها أي بنـــاء. وكان "تحوت – موسي" الرابع قد نصب، هذا صحيح، هنا أي بُعيد ســـور الفنـــاء المبنى من الطوب الأخضر (الني) حول معبد الإله "أمون" ؛ مسلة واحدة كان قـــد عثر عليها في أحد المحاجر وقد أهملها البناءون منذ وفاة "تحوت – موسي" الثـــالث قبل ذلك بخمس وعشرين سنة، فاستكمل "تحوت – موسي" الرابع زخارفها ونذرهـــا لـــ"رع – حور – آختي". ولكن هذا القطاع لم يعرف أي بناء آخـــر، فـــي نطـــاق معلوماتنا، سواء قام به "تحوت – موسي" الرابع أو "أمين – حوتب" الثالث.

استمرت أعمال النحت والزخرفة المعمارية ذات الطابع التقليدي تسير علـــى

قدم وساق لعدة شهور أو ربما لسنة كاملة خلال الحكم الجديد. إذ استمر العمل تحت حكم "أمين – حوتب" الرابع في صرحين في الكرنك، كان والده قد توفى عنهما، وهما لا يزالان يفتقران إلى حد كبير إلى الزخارف. فتلقى الصرح الثالث القائم إلى الشمال من سور رواقه، منظراً تقليدياً لضرب العنق، تحمل فيه خراطيش الملك المنتصر اسم " أمين –حوتب " الرابع. ولسبب ما تلقى الصرح الجنوبي لـ"أمين –حوتب" الثالث (في موقع الصرح العاشر حالياً) عناية أكبر بصورة ملحوظة. إذ زُخرفت البوابة بسلسلة من السجلات التي تضم مناظر كاملة بذاتها، وفى كل منظر منها يلوح "أمين –حوتب" الرابع في الزي التقليدي للملك أثناء تقريبه قرباناً لإله الشمس الذي يحمل رأس صقر (لوحات ٤ من ٤ إلى ٦). على أن تصوير هذا الإله ليس جديداً، اللهم إلاّ فيما يتعلق بصفته الكلية الوجود المكتوبة على هيئة أعمدة فهي الوحيدة الجديدة".. *هو الذي يبتهج في الأفق في اسمه ضوء الشمس الكائن في القرص* " وسميت البوابة باسم "أمين – حوتب" الرابع (٨) كما زُخرف البرجان المجاوران للصرح، بصفة جزئية بمناظر لتقريب القرابين.

وقت ذاك كان "أمين – حوتب" الرابع قد بدأ الشك في الأعراف التى تسود الفن والشعائر، تلك التى تربى عليها، رغم ما قد يبدو عليه الشكل من طابع تقليدي. فكانت العظمة التى خايلته أثناء البحث عن الذات (الروح)، الذي انغمس فيه الملك الجديد، بكل تأكيد، هي الصورة الذهنية لذلك اليوبيل الذي احتفل به في بواكير حكمه. أما الدافع الذي يقف وراء، مجرد، إضمار تلك الصورة الذهبية فأمر مجهول بالنسبة لنا اليوم، تماماً مثلما كان مجهولاً على وجه الترجيح بالنسبة لمعاصريه. فالاحتفال باليوبيل لا يُنصب، في ظل التقاليد المرعية، قبل السنة الثلاثين من حكم الفرعون (٩) .ومع ذلك، ففي مطلع السنة الثانية من حكمه على أكثر تقدير، انعقد عزم "أمين – حوتب" الرابع على الاحتفال بيوبيل، أو مهرجان "سد" كما كان يطلق عليه وقت ذاك، على غرار المهرجان الذي أقامه والده خلال العقد الأخير من حكمه. وتم التجاوز عن بضعة شهور قليلة، من ثم، حتى يتوافق المهرجان مع الذكرى السنوية الثالثة لصعوده إلى العرش.. وجمع الملك نحّاتيه الرئيسيين حوله، وعلى رأسهم النحات البارز "بيك" ابن وخليفة "مين" نحات والده

الخاص، وأصدر إليهم أوامر جديدة. كانت صورة الملك لتبدو على ذلك النحو الذي يبرز السمات التى تميزها عن أى موضوع ملكي تقليدي: شبابه، عضلاته، جماله (لوحة رقم ٤-٢).

هناك قدر ملحوظ من الاختلاف في تناول الفنانين لوجه الملك خلال السنوات الأولى من حكمه، الأمر الذي يجعل من الصعب علينا أن نقطع بقرب هذا التناول أو ذاك من الحقيقة. ويبدو أن الحيرة مزّقت الفنانين بين ضرورة الالتزام بما أصدره إليهم الملك من أوامر ؛ وتوقهم إلى الصدق الفنى مع المثال: أى مع "الوجه أو البروفيل التحوتموسي". وإذا ما أمعن المرء النظر في الملامح المشتركة في كافة مناظر الجداريات التى يظهر فيها الفرعون وارتأى فيها مؤشرات يعوّل عليها في حد ذاتها لخصائص وجهه، فالقائمة، عندئذ، سوف تشمل ما يلي: عظام خد بارزة وشفاه مكتنزة وحواجب مقوّسة ورقبة نحيلة، وسيماء متشامخة نوعاً ما (١٠).

أطلق قرار الاحتفال بعيد يوبيلي شرارة البدء في برنامج تشييد نشط في "طيبة". ولقد مررنا قبل قليل بالمراسيم الملكية التى صدرت باستخراج الحجر من المحاجر ورسم الخطط الميدانية. وتعطينا الوثائق التى وعاها لنا التاريخ فكرة واضحة عن طبيعة المباني التى كانت لتقام. فهذه الوثائق تشير إلى أربعة مبان كبرى. وإذا كان في التكرار النسبي للتقارير الممهورة بالإمضاءات دليل على الأهمية النسبية أو الحجم، فإننا نستطيع أن نرتب هذه المعابد الأربعة على النحو التالى: "جم – ت – با – أتون" ويعنى حرفياً: *قرص–الشمس* اهتدينا إليه"، و(حوت – بينبين) ويعنى حرفياً: "بيت حجر البينبين" وشئ ما يشبه المسلة يقال له: "في جم (ت) – با – أتون"، و"رود – منو – إن – أتون – آر – نحح"، ويعنى حرفياً: "ثابتة تلك هي آثار *قرص– الشمس* إلى الأبد" و"تنى – منو – إن – أتون – آر – نحح" (حرفياً: مبجّلة تلك هي آثار *قرص – الشمس* للأبد) أما التلميحات المتفرقة إلى أربعة مبانٍ إضافية، بينها "القاعة المستعرضة" و"بيت البهجة" فقد تنطوي على الإشارة إلى مبان كانت قائمة بالفعل في "طيبة" لدى تنصيب الملك الشاب. ورغم ورود ذكر هذه المباني الأربعة بين الحين الآخر، إلا أننا لم نعثر

على أى وصف لها في أى مكان. ولم يتضح لأحد الغرض الذي أنشئت لأجله.

اكتشاف التلاتات

يأخذ وصفى لهذه النقطة شكل القصة البسيطة. وكان ذلك فى طوعنا نتيجة للأدلة التى فى حوزتنا، وإن لم تكن غزيرة بحال من الأحوال إلا أن تفاصيلها، على الأقل، كافية فى تصويرها للواقع، إلى حد يمكّننا من رسم صورة شبه كاملة: الأسماء، الوجوه، والسير الذاتية، والحملات، وعمليات التشييد والمهرجانات وكل ذلك يساهم في ملء ثنايا القصة، بل ونستطيع في غالب الأحيان أن نستشف الأفكار الكامنة وراء إجراء معين أو سياسة محددة بقراءة ما بين السطور.

ولكن ذلك لا ينطبق، حتماً، على الفترة الزمنية القصيرة، وإن كانت بالغة الأهمية، التى سأمضي حالاً إلى وصفها: تمثّل السنوات الخمس الأولى من حكم "أمين – حوتب" الرابع فجْوة مفجعة في معرفتنا التاريخية، إذ استؤصلت آثار تلك الفترة بدقة فائقة غداة حقبة "أخيناتون" سواء تمثّلت تلك الآثار في جداريات المعابد، أو "الصواديد" أو المقابر، إلى الحد الذي بقى معه أقل القليل، إذا كان قد بقى منها شئ أصلاً، كي تقع عليه أعين الأجيال اللاحقة. ولعله من المعروف أننا لا نستطيع أن نقف على جلائل الأعمال التى قام بها الملك إلا عن طريق مثل تلك الجداريات و"الصواديد"، ولولا المقابر فإن نبلاءه كانوا ليزوون فى مجاهل النسيان .ومع ذلك فليس في طوعنا أن نصوغ حكاية متماسكة في هذا الصدد. وعوضاً عن ذلك سوف ينصب همنا، في الوقت الحاضر على البحث عن، واسترداد، الدليل الأساسي، بدلاً من سلْك مثل ذلك الدليل، في النسيج الأكثر إحكاماً واتقاناً في إطار سرد تاريخي.

لا يعد موقع أو تخطيط المباني التى أقامها "أمين – حوتب" الرابع أقل العناصر التى تشكل الغموض الذي يكتنف سنوات التكوين الأولى في حياة الملك الشاب. إذ ينظر الزائر المذهول اليوم إلى مدينة الكرنك الحديثة، لعل عينيه تقعان،

بين مختلف المجمعات الشاسعة المخصصة لكل من "أمون" و"خونسو" في مواقعها الأصلية، على أثر متخلف عن هذه الفترة، لكن نظراته تذهب سدى. فليس هناك أطلال لأساسات مكشوفة تبرز فوق سطح الأرض ولا هناك أعمدة متساقطة تحمل أسماء ملكية وتشي بمبنى كان قائما. فلقد كان التدمير كاملا ودقيقا، ذلك الذي قام به الفرعون "حور – إم – حب" الذي وضع حكمه حدا لفترة "أخيناتون"، إلى الدرجة التى لم يترك معها حجرا على حجر بالمعنى الدقيق للعبارة. ومع ذلك فالمحاجر، التى آلت إليها معابد الشمس تلك، لم يجهز عليها تماما.

ظلت الأدلة تترى، شيئاً فشيئاً، لما يزيد على قرن ونصف، وتحتشد في سبيل حل المشكلة الخاصة بالمواقع التى قامت عليها يوماً ما معابد ذلك الملك (١١). وكان الباحثون قد أصبحوا بالفعل خلال الربع الثاني للقرن التاسع عشر على علم بوجود عدد من الكتل الصغيرة التى تحمل خراطيش بأسماء "أمين – حوتب" الرابع مع صور لقرص الشمس، وسط الأنقاض التى كانت وقت ذاك ملقاة على الجانب الجنوبي للكرنك. ولقد تعرفت عليها بعثة النقوش الكبرى برئاسة "ريتشارد ليبسيوس" ورعاية ملك بروسيا، ونسخت نقوشاً وجدتها على كتل حجرية إضافية في نفس المنطقة في أربعينات القرن التاسع عشر. وكانت كل تلك الكتل مهشمة ومفككة، وتكاد أن تكون كلها بأبعاد متساوية ٥٢ x ٢٦ x ٢٤ سنتيمتراً. وكان أبناء الكرنك يطلقون على هذا الحجم من الكتل الحجرية اسم "تلاتات". وهذه كلمة "مصرية" لا تزال رهن جدال طويل حول ما إذا كانت صيغة الجمع لكلمة "تلاتة" (بالتاء وليس بالثاء. م) ، وهو الأمر الذي يمكن أن يشير إلى أن مثل تلك الكتل تصل في الطول إلى ثلاث قبضات، أم الكلمة الطليانية Tagliata أي البنيان المنحوت Cut Masonry وقد ظهرت في لغة أهل الكرنك ككلمة مستعارة. على أى حال استمر المصطلح قيد الاستعمال في اللغة الدارجة، وها هو الآن يكتسب استقراراً ورسوخاً في أدب الباحثين.

وتمثل أول قطاع تخرج منه النماذج الأولى من كتل التلاتات تلك ؛ في الأرض غير المستوية الواقعة حول الصرحين التاسع والعاشر، ولكن سرعان ما ظهر أن هذه الكتل لم تكن قد مكثت طويلاً في ذلك المكان، بل تساقطت في حقيقة

الأمر من داخل الصرح التاسع من جراء زلزال وانهيار أرضى طبيعـــي. وكـــان الفرعون "حور – إم – حب" قد استخدم هذه "التلاتات" بالآلاف كحشو حجري داخل هذا الصرح، الذي أقامه في سياق برنامج التشييد الذي نفّذه في "طيبة" فـــي الفـــترة من ١٣٤٠ – ١٣٣٠ ق.م. ولقد أقنـــع مسح هذه المنطقة فـــي ١٨٨٢ – ١٨٨٣ السير "جاستون ماسبيرو" المدير السابق لهيئة الآثـــار المصريـــة، بـــأن المعبـــد "الصغير" لقرص الشمس قائم في مكان ما بالقرب من الصرح التاسع، وأدلى بـــوأي "خاطئ" بأن "أمين – حوتب" الثالث هو الذي بدأ بناءه (١٢).

ومع ذلك، سرعان ما اكتسبت المشكلة تعقيدات أكثر. ففي تسعينات القـــرن الماضي. كشف رفع المخلفات من معبد الأقصر على بعد حوالي ميليـــن جنوبـــي الكرنك أن صرحه الضخم الذي بناه رمسيس الثاني في سنة ١٢٩٥ق.م على وجـــه التقريب، كان محشواً بالكامل بكتل "التلاتات"، وأن مئات إضافية من الكِســـر قـــد استُخدمت في وقت لاحق في بناء البيوت في العصـــر الرومـــاني حـــول الفنـــاء Temenusويرى "جورج دارسي" أن هناك معبداً آخر في الأقصر منذوراً لقـــرص – الشمس، ومختلفاً عن أى معبد يكون قد أقيم في الكرنـــك (١٣). وعلـــى نفـــس المنوال، فسّر المنقّبون في "المدامود" على بعد ثمانية أميال شمال شرقي الكرنك في عشرينات القرن الحالي وجود عشرات المئات من كتل "التلاتات" في ذلك المكـــان، أي المدامود، كدليل على وجود معبد لقرص الشمس هناك. وفى نفس الوقت شهدت العقود الأولى من قرننا العشرين رفع المخلّفات من الصرح العاشر فـــي الكرنـــك، وهو الصرح الذي أثبت هو الآخر أنه كان محشواً بأحجار معابد "أمين – حوتـــب" الرابع، ولكن بالإضافة إلى كتل "التلاتات" كانت هناك أيضاً كتل ذات أبعاد ضخمة، تحمل خراطيش بأسماء الملك السابق ذكره. ولما كانت تلك الكتل تحمل في كثـــير من الأحيانٰ صوراً لإله الشمس على هيئة رجل برأس صقر، مصحوبة بهذا الاســـم الذائع الصيت " رع – حور – آختى "، فلقد شرع الدارسون يتكـــهّنون بوجـــود معبد، خلافاً لذلك لم يُستدل عليه، بناه "أمين – حوتب" الرابع باســـم "رع – حور– آختى" (١٤).

أجمعت الأدلة الواردة من الكرنك، في أقل القليل، على الإشارة إلى "حـــور–

إم – حب" بصفته الفرعون الذى فكّك الأبنية التى بناها "أمين – حوتب" الرابع، واستخدم مكوّناتها الحجرية كحشو نسيجى فى الإضافات المعمارية التى أقامها فى معبد الإله "أمون" ومنذ ما يصل إلى مائة سنة مضت سجّل المؤرخ الألمانى الكبير "أوجست فيدمان" August Wiedman هذه الحقيقة التى نستطيع أن نراها رأى العين: الصرح الثانى فى المعبد، الذى كان الفرعون "حور– إم – حب" قد بدأ بناءه، هو والقاعة الكبرى خلفه، أمام واجهة "أمين – حوتب" الثالث لمعبد "أمون"، كان محشواً حتى الطفح على حوافه بآلاف "التلاتات"(١٥). ويبدو جلياً كما لو كان الأمر على هذا النحو: أينما قام بناء لـ"حور – إم – حب" فإن نواته بل وأساساته أيضاً (كما اتضح فى وقت لاحق) تحتوى على الأرجح كتلاً حجرية من ذلك النوع: تلاتات.

وكان أن بُذلت جهود طويلة في الأونة الأخيرة لاسترداد هذه "التلاتات" من أماكنها غير الأصلية، تلك التى كانت قد استقرت فيها. وأدى برنامج الترميم الذي وضعته هيئة الآثار المصرية لإعادة صقل وتدعيم الكرنك إلى استحداث تكنيك جديد في تفكيك مباني الفرعون "حور– إم – حب". وطالما استخرجنا "التلاتات"، صار في وسعنا، عندئذ، أن نعيد بناء القشرة الخارجية لحيطان الصرح، مع حشو نواته بأحجار حديثة، ووقع الشطر الأكبر من هذا العمل على كاهل المفتش "هنري شيفرييه"، الذي امتدت خدمته الوظيفية في الكرنك إلى أكثر من ربع قرن (من ١٩٢٥ إلى ١٩٥٣). ولقد نجح "شيفرييه"، باستخدام الاعتمادات المحدودة والمعدات الفقيرة –تشير تقاريره باستمرار إلى أن يديه كانتا مغلولتين– خلال العشرينات والثلاثينات ثم مرة أخرى في أواخر الأربعينات، في استرداد ما يزيد على عشرين ألف كتلة منقوشة من "التلاتات" (بالإضافة إلى أكثر من ذلك العدد دون نقوش) من الصرح الثاني ومن أسفل قاعة الأعمدة المسقوفة (١٦). كما بدأ برنامج مماثل من التفكيك الدقيق في الصرح التاسع، وهو البرنامج الذي واصل تقدّمه، رغم فترات التوقف الطويلة، بإشراف كل من المرحوم رمضان سعد المسئول بهيئة الآثار المصرية و"لوفري" و"جلفان"، وهذان الأخيران كانا يعملان كمديرين للمركز المصري – الفرنسي لترميم الكرنك، وذلك منذ أواسط

الستينات(١٧).

وأدى هذا العمل، بحلول ١٩٦٥، إلى التوصل إلى نحـــو ٤٥ ألــف كتلـــة منقوشة ومزخرفة من ذلك النوع المعروف باسم "التلاتات" ، كل كتلة منها كـــانت تشكّل، يوماً ما، عنصراً مكوناً في حائط، وكانت منحوتة في إطار جدارية وملوّنـــة بصورة مشرقة. ولما لم يكن في حوزتنا أى وسيلة بصرية مباشرة تفيدنـــا بشـــيء حول أي الكتل من هذه "التلاتات"، هى التى كانت متلاصقة في الأصل، فإن مـــن الواضح أننا نواجه لعبة ملغزة Jigsaw puzzle ؛ تنطوي على عدد هـــائل مـــن القطع المبعثرة التى تحتاج إلى ترتيب. وتمثلت المشكلة في تقليص حجم هذا اللغـــز العويص إلى أبعاد نستطيع التعامل معها بكفاءة، سواء في المكتبة أو الأســـتوديو أو المعمل. وبالتالي أصبح التصوير الفوتوغرافي، وفق مقياس معين، لكافـــة القطـــع المنقوشة بمثابة الخطوة الأولى في عملية التحليل.

إلا أنه قد يكون في طوعنا أن نسلّم منذ البداية بتوفّر عامل مـــن شـــأنه أن يُعيننا على هذا الترتيب المنشود. فكل المؤشرات تُنهى إلينا أن رجـــال الفرعـــون "حور – إم – حب" نهضوا بمهمتهم في تفكيك المعابد المنذورة لـــــ *قـرص – الشمس*" بطـــريقة منظّمة. فكانوا ينقلون كتل "التلاتات" فـــور تفكيكـــها، مدماكـــاً فمدماكاً، إلى قواعدها الجديدة سواء في الصرح الثاني أو الصرح التاسع أو قاعـــة الأعمدة المسقوفة أو في أى مبنى آخـــر. وبناء عليه، ينبغي علينا أن نتوقـــع أن تكون هذه "التلاتات" مرصوصة في هذه المواقع الثانوية بـــترتيب عكســـي علـــى الغالب. وفى أقل القليل يجوز لنا أن نتعلّق بالأمل في أن تكون الكتل التـــى وقفـــت يوماً ما جنباً إلى جنب لا تزال تتمتع بقدر ما من القرب داخل موقعها الجديد فـــي النواة التى تضمّها صروح الفرعون "حـــور – إم – حـــب". ويبـــدو مـــن واقـــع الإشـــــــارات المتناثرة التى تركها "شيفرييه" أن الأمـــــــر كان كذلك. ولكن للأسف، لم ير "شيفرييه" أو الذين جاءوا من بعده، سبباً للاحتفاظ بسجلات كاملـــة لكل كتلة من تلك "التلاتات" لدى استخراجها، فلم تُؤخـــذ صـــور فوتوغرافيـــة أو مقاسات دقيقة إلا لقلة قليلة منها. فالكتل التي شُوّنت ذات مرة في الـــهواء الطلـــق، نُقلت مرات عديدة إلى أماكن أخرى، وأعيد تكويمها المرة تلو المـــرة، حتـــى أدى

الأمر بنا اليوم أن تبوء كل فرصة تسنح لتجميع المناظر الأصلية، بمجرد ملاحظة "التلاتات" في أماكن التشوين الحالية، بالفشل التام: لقد دبّت الفوضى المطلقة في كل نظام كانت عليه الكتل في أى وقت مضى. اللوحتان (٤-٧،٨).

تثَبّط قطع الرجاء، كما بدا عليه الأمر، من أى مشروع يسعى إلى لملمة نثار اللغز مرة أخرى همم الباحثين. إلا أن بعض "التلاتات" المنفصلة التى تحمل جداريات أو نقوشاً هامة جرى نسخها وتصويرها فوتوغرافياً، بين الحين والآخر، وفى بعض الأحيان وجدت طريقها إلى أدب الدارسين. بل ووجدت بعض الكتل، وخصوصاً، تلك التى تحمل رأساً لملك أو ملكة طريقها بصورة غير مشروعة عبر التهريب إلى أسواق الفنون التشكيلية سواء في أوروبا أو أمريكا، وذلك لتراخى قبضة الأمن (المصري) خلال العقود الأولى من القرن الحالي ولكن ما يزيد على ٩٥ بالمائة من "مواد" الجداريات لا تزال غير معروفة وغير مدروسة .وبناء عليه، فالكتب التى تتناول فن أو تاريخ "أخيتاتون"، المنشورة قبل ١٩٧٠ تعانى من عيب خطير، وهو الأمر الذي لم يكن مؤلفوها بصفة عامة غافلين عنه: لم تستطع هذه الكتب أن تعرض إلا لرأس جبل الجليد وحسب.

ولولا الدرس المكثف لتلك الكتل، وهو العمل الذي جاء في إطار "مشروع معبد أخناتون" لما أدرك الدارسون النطاق الكامل للأدلة المستمدة من النقوش والأيقونات على سنوات الكرنك للفرعون المارق. ولقد أدت دراسة هذه "التلاتات" كل على حدة، إلى اكتشاف معلومات جديدة ووفيرة، ولكن هذه المعلومات زادت أضعافاً مضاعفة لدى رؤيتها أى رؤية تلك "التلاتات" وقد جُمعت لتشكّل مناظرها الأصلية التى كانت الحوائط تتكون منها. ومن ثمّ اتجهت كل الجهود نحو حل تلك اللعبة الملغزة (١٨).

هناك مفاتيح يسيرة معينة يعثر عليها المرء في غالب الأحيان خلال التجربة والخطأ، وهى المفاتيح التى مدت إلينا يد العون في عملية التجميع والتوفيق. فالكتلة من تلك الكتل، أى "التلاتات"، يمكن أن تحمل زخرفة لجدارية بالطول أي على الجانب الطويل، وفى هذه الحالة كنا نطلق عليها اسم "مدّادة" أو تحمل زخرفتها بالعرض أي على الجانب القصير فنسميها "عزّاضة". إلا أن بعضها، وكان ذلك

نادراً، كان يحمل زخارفه على جانبيه الطويلين أو على الجانب الطويل والجـانب القصير معاً. ولقد علّمتنا التجربة شيئاً فشيئاً أن البناءين أيام "أمين – حوتب" الرابـع كانوا يبادلون، خلال عملية التشييد، المداميك، أى يصفّون مدماكاً بـالطول علـى مدماك بالعرض، وهو تكنيك بسيط، إلا أنه ساهم إلى حد كبـير فـي تفـادى أى توفيقات ممكنة، لكنها غير صحيحة. وعود على بدء ، مالت المناظر إلى القولبـة والتكرار إلى حد الإملال Ad Nauseam فمنظر القربان على سبيل المثال سوف يتكوّن بصفة دائمة من نفس العناصر: مُقرّب القربان (وعادة ما يكـون الفرعـون وأحياناً الملكة) الذي نتعرّف عليه من خلال الألقاب والخراطيش التـى لا تعـرف التغيير ومائدة القربان وقرص الشمس والقرابين المقرّبة إلى الإلـه..الـخ .ومـتى تعرّف المحلل على تفاصيل مثل ذلك المنظر، فإنه لا يحتاج إلى أكثر مـن كتلـة واحـدة تحمل مفتاحاً أو "أمارة" كي يصير في طوعه أن يعيد بناء المنظر بأكملـه. وعلى نفس المنوال فإن شروح الصور التى تحمل اسم وألقاب الملك أو الملكـة أو بناته، متماثلة أينما وُجدت، إلى حد يُمكن معه، مرة أخرى، إعادة بناء منظر كـامل إستناداً إلى شطفة واحدة، فنجد صورة "قرص – الشمس"، الذي يبـدو فـي كافـة الزخارف كليّ الحضور، مزوّدة بشرح متكرر (منقوش على هيئة أعمدة) يعرّفه على هذا النحو: *قرص – الشمس هو الحي العظيم الذي حضر احتفال اليوبيـل، سيد السماء والأرض..*" والعنصر الوحيد الذي يتغير في هذا اللقب يتمثل فيما يـأتي بعد ذلك، وعلى وجه التحديد ...هـو الذي يقيم (في معبد كذا أو كذا). واستناداً إلـى اسم هذا المعبد، الذي نتعرّف عليه نستطيع أن نفرز المناظر الجدارية التى تخـص كل معبد من المعابد الأربعة المذكورة.

حتى تاريخه، وفّق المشروع أكثر قليلاً من ألفـىْ "منظـر مؤقـت" (وهـو المصطلح المستخـدم في "التوفيقات" الفردية للعبة الملغزة). وبعض المنـاظر لا يزيد عدد كتلها عن اثنتين أو ثلاث كتل، ولكن كثيراً منها يتكـوّن مـن عشـرات الكتل، ويضم أكبر منظر حوالي ١٦٠ كتلة. وفي غالب الأحيان كنـا نصـل إلـى تحقيق هدفنا عندما يرفض المنظر بإصرار أى إضافات أخرى، حتى يتبّين لأحدنـا أن عدداً من الكتل مختلفة تماماً يقبل في الواقع أن يكمل أحـد أطـراف المنظـر.

وفجأة كنا نجد المنظر الأصلي يمتد إلى ضعف عرضه. ويبدأ المرء في الإلمام بالشكل العام للشكل الأكبر والخطة الشاملة للتكوين الفني.

ولقد ساعدتنا إلى حد كبير عملية فصل الجداريات من كل معبد على حدة على أساس شرح الصور الخاصة بـ"قرص – الشمس" في الكشف عن برنامج التشييد الذي قام به "أمين – حوتب" الرابع في مطلع حكمه، وذلك لسبب محدد: لقد ساعدتنا على الخلاص من عدد من المسلمات التى لازمتنا في وقت سابق دون استنادٍ إلى أدلة كافية. فلم تُبن أى معابد لـ"قرص – الشمس" سواء في الأقصر أو في "المدامود". وكتل "التلاتات" التى عُثر عليها في هاتين البقعتين نُقلت إليها فيما بعد من موقعها الأصلي في الكرنك، في وقت ما بعد حكم الفرعون "حور – إم – حب". وكذلك الأمر بالنسبة لمعبد "رع– حور – آختى" المفترض بناؤه. فلقد اختفى هو الآخر تحت ضوء إمعان النظر في الأمر: إذ جاءت الكتل الضخمة التى تحمل صوراً تقليدية للملك والإله، في واقع الأمر من البوابة الجنوبية للفرعون "أمين – حوتب" الثالث، تلك التى تركها وراءه دون زخرفة إثر رحيله وعلى نحو ما سبق لنا أن ذكرنا، لا يرجع تاريخ بناء أى مبانٍ مزخرفة بجداريات تتبنىّ الأسلوب الجديد إلى ما قبل القرار الذي اتخذه "أمين – حوتب" الرابع بالإحتفال بيوبيل خاص. ولعل أقدم مبنى من هذا النوع يتمثل في معبد "جم – ت – با – أتون" أي "قرص الشمس اهتدينا إليه" إذا كان لنا أن نحكم فى هذا الصدد إستناداً إلى المحاولات التجريبية وشبه الاختبارية نحو تبنى الشريعة الجديدة. وأعقب ذلك على وجه الاحتمال، وفى غضون سنة واحدة بناء كل من "رود – منو ..." أي "ثابتة تلك هى آثار قرص – الشمس إلى الأبد " و"تني – منو..." أي "مبجلة تلك هي آثار قرص – الشمس إلى الأبد" وأخيراً وفى السنة الرابعة على وجه التقريب أضيف "حوت – بينبين" أي "بيت حجر البنبين" إلى "قرص – الشمس اهتدينا إليه". ويستمد هذا التأريخ التقريبي تأييده من تصوير عائلة "أمين –حوتب" الرابع الآخذة بالنمو. ففي معبد "قرص – الشمس اهتدينا إليه" لا تقع العين إلا على البنت الأولى (لوحة رقم ٤–١٥) رغم أن ذلك لا يحدث إلا بين الحين والآخر، أى بشكل متقطّع، بينما أخذت بنت ثانية تظهر بين الحين والآخر إلى جوار أختها الأكبر، في

الوقت الذي كان فيه معبد "بيت حجر البينين" قد أصبح جاهزاً لتلقّى زخرفته. وقبيل مغادرة جلالته لـ"طيبة" بوقت وجيز في السنة الخامسة من حكمه شرعت بنت ثالثة في الظهور، وأخذ ثلاثي من الأميرات الصغيرات يظهرن سائرات خلف أمهن، ولو أن ذلك كان نادراً بشكل خاص.

معابد الشمس الأربعة

يشير الفحص التفصيلي للجداريات على هذه المعابد إلى عدد من الاختلافات التى تثير الفضول، وإن عزّ علينا أن نجد لأي منها أى تفسير، فمعبد "مبجلة تلك هي آثار *قرص – الشمس* إلى الأبد"، على سبيل المثال، يُظهر لنا أقساماً رئيسية لحائط مزخرف بمناظر من الغرف الداخلية، وبأنواع من الأنشطة الخاصة مثل خبز الخبز، وتخزين النبيذ التى تجرى في الأجنحة الداخلية للقصر الملكي (١٩). لكن ذلك لا يعنى أن ذلك المعبد نفسه كان بمثابة القصر. وتُظهر مناظر أخرى عديدة، مما أُستخدم يوماً ما في زخرفة نفس المبنى، الملك وقد انخرط في مراسم معتادة لتقريبْ قربان ما، وبصحبته الملكة بينما يعلو *قرص – الشمس* رأسيهما. وعلى نفس المنوال يصوّر معبد "ثابتة تلك هي آثار *قرص – الشمس* إلى الأبد" أو "رود – منو... " مناظر ذات مضامين شعائرية، رغم أن مشاهد تقريب القرابين كانت تجرى في ذلك الوقت داخل سلسلة من الأكشاك غير المسقوفة مما سوف نألفه في سياق تناولنا لمعبد *قرص – الشمس* اهتدينا إليه" أو "جم – ت – با – أتون"، وبالإضافة إلى ذلك تظهر على حوائط معبد "ثابتة تلك هي آثار *قرص – الشمس* إلى الأبد" أو "رود – منو ..." مناظر عديدة يبدو فيها الملك وقد خرج مع رجال بلاطه راكباً إلى الخلاء كي يزور منشآت في الهواء الطلق تضم صفوفاً، صفاً بعد صف، من حوامل القرابين يصل ارتفاعها إلى عشرة أقدام، وكل حامل منها ينوء بما عليه من قرابين الطيور والخبز والنبيذ. (شكل ٤). ويصطف على حوائط أخرى، صفاً إثر صف، خدم المنازل وهم يتقدّمون، وقد حمل كل منهم

ماعونا مملوءا بالمواد الغذائية على رأسه، وهو يترنم بهذه العبارة التي تجلب البركة: *يا أنت يا "نفر - خبرو - رع" يا طفلا جميلا خرج من صلب قرص -الشمس، فليشملك قرص -الشمس بعطفه* (لوحة رقم ٤-٩).

وتتمثل إحدى المفاجآت (وهناك مفاجآت عديدة كما سنرى في أوقات لاحقة) التي أسفرت عنها الدراسة المتأنية لكتل "التلاتات" في الحضور الدائم لمرافقين عسكريين في معية الملك بل ويلتف جنود مسلحون، وخصوصا في معبد "ثابتة تلك هي آثار *قرص*- الشمس إلى الأبد" حول "أمين - حوتب" الرابع، عند مغادرته القصر، فنجدهم يجرون خلف عجلته الحربية عندما ينحدر مع الطريق، ويركعون وسيوفهم منكسة، ورماحهم معكوسة نحو الأرض، عند دخوله المعبد (لوحة رقم ٢-١) وثمة رماحون (طاعنون بالرماح) ورجال صاعقة، وهؤلاء وأولئك، مصريون بالإضافة إلى احتياطيين (معاونين) من سوريا والنوبة، وليبيين يضعون الريش على رؤوسهم ومزودين بعصي- الرمي. وفي كل مكان يبدو "الرواد" والأحرى "الصاغات" العسكريون ببيارق وحداتهم. وهناك أيضا وحدات شبه عسكرية بكثافة. ويرى المرء رجال بوليس مدججين بهراواتهم ، يركعون لدى مرور الحاشية الملكية بالقرب منهم، وخلف سيدات البلاط يقف نظار حريم الملك باستمرار متيقظين. ويرى المرء هناك أيضا "المخبرين السريين" الذين يعملون في خدمة السيدات، وهؤلاء يتسلحون عند الاقتضاء، أيضا، بالعصي. ومن الملاحظ أن حاملي البيارق من العسكريين يقفون دائما بالقرب من الملك ورهن إشارته لدى مثول الملوك الأجانب بين يدي جلالته لتحيته برفع أيديهم عاليا، وهي مفتوحة الراحة. (شكل ٥+ لوحة رقم ٣-٤).

يخفى علينا الغرض الذي أنشئ لأجله كل من معبد "ثابتة هي آثار..." أي "رود - منو ..." و"مبجلة هي آثار ..." أي "تني - منو..."، إلا أن التكهن بأنه كان غرضا شعائريا بصورة أو بأخرى، لا يبتعد كثيرا عن الحقيقة. وعلى أي حال لم تتجمع بعد، أي كتل منقوشة تستطيع أن تلقي ضوءا على وظيفتيهما، بل ولم نتوصل بعد على نحو ما سنرى، إلى معرفة موقعيهما الأصليين.

ولكن الأمر مختلف مع أكبر هذه المعابد الأربعة أي مع "قرص - الشمس

إهتدينا إليه" أي "جم – ت – با – أتون"، فلقد اكتشفنا الآن كلاً من غرضه وموقعه. ولكننا سنعرض لهذا الموضوع بشكل مفصل في الفصل السابع، وبالتالي نرجئ مناقشته الآن عند هذه النقطة.

وينفرد معبد "بيت – حجر البينبين" بين هذه المعابد الأربعة بالتمتع بعلاقة ما مع مستلزمات ومعدات العبادة الشمسية السابقة في "أون". فحجر "البينبين"، على سبيل المثال، الذي يُصوّر بطرق متنوعة، على هيئة مخروط، أو هريم صغير أو شكل مدرج، كان مقدساً لارتباطه بالإله الشمسي "رع" منذ الأزل. ويعيد شكله إلى الأذهان المنظر الجانبي لأهرام الأسرة الثالثة، والآثار الجنائزية التى ترجع إلى أوقات لاحقة، أى حوالي ألف ومائتي سنة قبل عصر "أمين – حوتب" الرابع، تلك الآثار التى تكشف بحد ذاتها عن منابع الإلهام في العبادة الأونية (نسبة إلى "أون". م) ويرجع كثيرون "البينبين" إلى تجسد التل الأزلي، الذي كان أول ما ظهر من سطح اليابسة من المحيط الأزلي، ومن عليه قام الإله الشمسي بخلق مخلوقاته. ولعله غريب حقاً على أقل تقدير أن يكون "أمين – حوتب" الرابع قد أفسح لمثل هذه الأيقونة (البينبين) التى ترتبط بقصة ساذجة على هذا النحو للخلق مكاناً في تفكيره، في ضوء ما هو معروف عنه من بغض للرمزية التعددية. ولكن الواضح أن حجر "البينبين" لم يكن ليوحي للملك بتلك الارتباطات المرفوضة لهذه الأسطورة على نحو ما قد نتوقع.

ولكننا عندما نفحص تهجئة إسم "حوت بينبين" في الكتابة الهيروغليفية المستخدمة على كتل "التلاتات" فإن سمة خاصة تشرئب فوراً برأسها: علامة التخصيص * لا تدل على الصورة المتوقعة لهريم صغير أو شكل مدرج. وعوضاً عن ذلك تحمل الكلمة مخصصاً فريداً لمسلة واحدة ! والآن، الكلمة التى تعنى مسلة ليست بينبين Bnbn بل وليس هناك أى صلة اشتقاقية معها. وعلاوة على ذلك كانت المسلات تُقام بصفة دائمة أو تكاد، أزواجاً ؛ وليس فرادى. ولكن الفرعون "تحوت–موسي" الرابع،جد "أمين – حوتب" الرابع كان قد نصب في "طيبة"، وعلى نحو ما ذكرنا في مطلع هذا الفصل، مسلة مفردة على الضلع الشرقي للكرنك،

ومتمركزة بدقة كافية على المحور الرئيسي الشرقي – الغربي للمعبد .ومما ينطوي على مغزى، أن الإله الذي نُذر له هذا الرمز لم يكن سوى "رع – حور - آختي"، وهو نفس شكل الإله الشمسى الذي اعتنقه "أمين –حوتب" الرابع ! هل يكون من الممكن أن ذلك البناء "المعروف باسم "حوت بينيين " Hwt Bnbn قد بنى بمسلة مفردة بصفتها بؤرته وسبب وجوده Raison d'etre ؟

يكشف معبد "بيت حجر البينيين" أيضا عن مسلات أخرى غريبة. فرغم أن التخطيط الأرضي للمبنى لا يزال مجهولاً، إلا أن عدداً كبيرًا من الحوائط الداخلية كان، بالضرورة، رفيعاً، ذلك لأننا نجد كتلاً عديدة من "التلاتات" المستخرجة من هذا المصدر مزخرفة بالصور الجدارية على وجهيْها المتقابلين، وهو الأمر الذي قد يُشير إلى أن سمك الحوائط التى استُخرجت منها لا يزيد عن ٥٢ سنتيمتراً. ومرة أخرى كشف التوفيق بين كتل "التلاتات" والدراسة المدققة عن أن الأبواب داخل لمبنى بُنيت على هيئة صروح مستطيلة ورشيقة يعلوها ذلك "الكورنيش المنقوص" لمألوف. (شكل ٦).وهناك عنصر معماري آخر وربما يكون قد شكّل جزءاً (واجهة ما ؟) من معبد "بيت حجر البنيبيين"، رغم أن النصوص تذكر في هذا الشأن معبد قرص– الشمس اهتدينا إليه" وحسب، ألا وهو رواق الأعمدة بقواعدها المربعة التى ترتكز عليها. ويرجع الفضل كل الفضل إلى الجهد الشاق الذي بذلته الباحثة "أسمهان شكري".عضو بعثتنا العلمية في إيضاح الطبيعة الحقيقية والأبعاد الخاصة بتلك القواعد الحجرية. ولقد جمعنا ووفّقنا ما يصل، على وجه التقريب إلى اثنتي عشرة قاعدة حتى تاريخه يبلغ ارتفاع كل منها ٩,٥ متراً، ولكن الكتل والشطف الزائدة قد تُثبت وجود ثلاثة أضعاف ذلك العدد في الأصل. رغم أن رواق الأعمدة بدا مفتقراً، لدى تجميع وتوفيق كتله لأول مرة إلى "الأغربة" (أى تلك العوارض التى ترتكز على الأعمدة .م) وهذه، كان "رمضان سعد" قد قام بنقلها قبل عدة سنوات منذ جرى التعرّف عليها في حشو الصرح التاسع. (انظر شكل ٧).

وتتمثل إحدى الحقائق التى لم يتوقع أحد ظهورها خلال الفحص المكثف لجداريات معبد "بيت حجر البينيين" في شخصية المشارك (المحتفى) صاحب الشعيرة: في كل الشعائر لم تكن سوى "نفرتيتي" ملكة "أمين –حوتب" الرابع .

فهي التى تقرّب القرابين إلى قرص الشمس، ســـواء في هـــذا المعبـد أو رواق الأعمدة الذي وصفناه للتو. (لوحة رقم ٤-٩) أما "أمين -حوتب" الرابع نفسه فـــلا تُوجد له أى صورة في زخارف هذين البناءين. فمن يا ترى تكون هذه السيدة التـــى تستطيع صورتها أن تسيطر على هذه المجموعة من المناظر المتكررة، التى كـــان الفنانون مضطرين إلى العمل فيها إلى حد يصل إلى إستبعاد زوجها المجيد ؟

العائلة الملكية على كتل "التلاتات"

لا نحوز في الوقت الحاضر أى نص يعّين لنا نسب "نفرتيتي" غير أن الاسم نفسه الذي يعنى حرفياً "الجميلة أتت" ، وهو اســـم مصـــري يطلـــق علـــى الصغيرات عند ولادتهن، قد ينطوي على وجه الاحتمال على إشارة إلى مـــهرجان (مولد. م) كان يقام لإحدى الآلهة الأنثوية ؛ ومن ثم، فليس هناك مـــا يدعـــو لأن نفترض، بمجرد الاستناد إلى معنى الاسم ، أن صاحبته منحدرة من أصول أجنبيـــة. وفضلاً عن ذلك فأن ترضع في طفولتها من مرضعة مصرية، بل وتنتمي لطبقـــة النبلاء في مصر، أمر ينتصر بقوة لصالح الحجة التى تؤكد أنها وُلدت في مصـــر داخل دائرة البلاط. وقد تكون على وجه الإمكان ابنة عم "أمين - حوتب" الرابـــع، ولكن حتى هذا القول لا يعدو كونه ضرباً من التكهنات(٢٠).

إلا أن ما يستحق منا اهتماماً أكبر هو دورها البارز بشكل غير متوقع خلال الفترة الطيبية من حكم "أمين - حوتب" الرابع (لوحات ٤ من ١٠ إلـــى ١٥). فلـــم تظهر صورها وحدها في زخارف معبد "بيت حجر البينبين" وحسب، بل وعندمـــا نقوم بإحصاء مجمل المناظر المستقاة من كتل "التلاتات" فإننا نجـــد أن "نفرتيتـــي" تظهر ضعف عدد المرات التى يظهر فيها زوجها الملك ! كما قام الفنانون بترجمـــة "الموتيفات" الفنية التى ابتكروها في الأصل من أجل جلالته، واستلهموها منه، إلـــى لغة أنثوية. فهي أى "نفرتيتي" التى تقبض على مقبض العصا أو السيف في منـــاظر ضرب الأعناق، والأسيرات يصطففن (الشقراوات ثم السوداوات بالتناوب، شـــقراء

فسوداء فشقراء) لتمثيل الإمبراطورية من طرفيها، ويركعن حول قاعدة عرشها (الأمامية). وتشارك الملكة "نفرتيتي" في عدد كبير على نحو يثير الدهشة من الشعائر، التى تستلزم أن يؤديها "أمين – حوتب" الرابع. إلا أنه، لم يكن في وسعها، بطبيعة الحال، أن تستولي على اليوبيل لصالحها الخاص. لكنها تصاحب زوجها في غالب الأحيان ويصوّرها الفنانون أصغر حجماً بدرجة طفيفة، ومنتصبة خلفه، تهز الصلاصل والأحرى "الشخشيخة" المقدسة. وعند مرحلة ما، لا تزال مجهولة خلال حكم "أمين – حوتب" الرابع، وإن كانت قبل نهاية السنة الخامسة بوقت لا بأس به، أسبغ الملك على زوجته لقباً جديداً، شرع من ذلك الحين وصاعداً في الظهور مع اسمها، وهو: "نفر – نفرو – أتون" أى "الجمال الرائع *لقرص – الشمس*".

يصعب علينا أن نتفادى النتيجة التى تقول بأن المكانة العالية التى تمتّعت بها "نفرتيتي" خلال السنوات الخمس الأولى من حكم "أمين – حوتب" الرابع تنهض دليلاً على أهميتها السياسية ولكنه يكون من الحمق أن نمضي إلى أبعد من هذه العبارة المجردة التى يحوطها التشكك. إذ يتعّين علينا أن نقر بأننا لا نعرف شيئاً عنها عند هذه المرحلة، وبالتالي يكون مضيعة للوقت أن نتكهن بشيء حول طبيعة سلطاتها.

غير أن الغموض يكتنف سيدات أخريات في البلاط بنفس الدرجة. إذ نرى في معظم الجداريات سيّدات يرتدين ملابس أنيقة، ويصحبهن مسئولو الحريم، يشكلن ما كان يطلق عليه في اللغة الدارجة في مصر القديمة إسم "حُلى الملك"، ولكن ما من إسم واحد من أسمائهن يرد في أى جدارية. وقد لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا تكهّنا بأن ذلك الحشد النسوي يضم أخوات، وبنات عمومة وخؤولة وبنات إخوة وأخوات للملك، إلى جانب زوجات وبنات النبلاء. ولكن سيدة واحدة برزت بشكل واضح من حشد الجميلات أولئك المجهولات، وهى الملكة الأم "تي" فرغم أننا لا نستطيع التعرّف عليها في الجداريات، إلا أن رسائل "أخيناتون" تدلّنا على أنها كانت لا تزال تقيم في البلاط وقت ذاك، وكان الملوك الأجانب لا يزالون يخطبون ودها.

تمدنا الجداريات الموفّقة من كتل "التلاتات"، إلى حد استثنائي بأدلة

صريحة، لا لبس فيها أو إبهام بشأن عائلة "أمين - حوتب" الرابع. فنرى حتى في أقدم تلك الجداريات "نفرتيتي" تسير في معظم المناظر، مصحوبة بابنة صغيرة تسير خلفها وترتدى نفس زي أمها، وتهز الصلاصل أو (الشخشيخة) (لوحة رقم ٤-١٠) أما نص الشرح المصاحب للصورة الجدارية فيتكرر دون تغيير، إذ يعرّفها على هذا النحو باستمرار: *"ابنة الملك"، التى جاءت من صلبه، والتي يحبها ؛ "ميري - ت - أتون" ؛ التى أنجبتها نفرتيتي الزوجة الرئيسية للملك فلتنعم بالحياة"*. وإذا كانت "ميري-ت-أتون" قد أصبحت الآن طفلة تستطيع المشي في السنة الثانية من الحكم، عندما كان العمل قد شرع في الأبنية التى قدّمت لنا كتل "التلاتات"، فإن مولدها لا يكون بحال من الأحوال قد جاء إلا خلال الشهور الأولى لولاية والدها للعرش. أما الإبنة الثانية، فلم تظهر في تلك الجداريات إلا بعد ذلك بوقت طويل. فكما سبق أن ذكرنا، لم تقع أعيننا على طفلتين تنقلان خطوات ضعيفة خلف أمهما الملكة، إلا في زخارف معبد "بيت حجر البينبين" الذي لا يرجع على وجه الاحتمال إلى أقدم من السنة الرابعة للحكم. وهاتان الطفلتان تُعرّفهما أعمدة النص فوق رأسيْهما على هذا النحو. "ميري - ت - أتون" و"مكي - ت - أتون". ولا نرى ثلاث بنات مجتمعات في الجداريات التى وصلتنا عن الفترة الطيبية، إلا ثلاث مرات وحسب، وهو الأمر الذي يفضي بنا بالضرورة، إلى أن "عنخ- إس - إن -با - أتون" التالية في سلسلة البنات، وُلدت في السنة الرابعة على وجه التقريب. وهؤلاء الثلاثة وفى الحقيقة كل ذريته التالية، تعرّفهن شروح الصور الجدارية على هذا النحو: *"بنات الملك اللواتي جئن من صلبه،...وأنجبتهن زوجة الملك الرئيسية "نفرتيتي"*، وهو الأمر الذي يبدو وكأنه يضع نسبهن فوق كل مظانة. ولكن إذا كان "أمين - حوتب" الرابع، وكما استقر عليه إجماع الأطباء، يعاني من مرضٍ ما يؤدى إلى "شبه الخصائية"، فهل يكون في قدرته أن ينجب أى أطفال ؟ وعود على بدء، في ضوء استحسان ذلك العصر لإظهار البنات وحسب في الحاشية

الملكية، فأي حد من الوثـــوق ينبغـــي للمـــرء أن يضعـــه فـــي الإيمـــاءة التـــي تحملها الجداريات بأن العائلة الملكية لـــم تضـــم "أولاداً" بيـــن صفوفـــها ؟ هـــذان سؤالان سوف نعود إليهما فـــي الفصليـــن ٨، ١١. ونكتفـــي عنـــد هـــذه النقطـــة بمجرد الإشارة إلى الخط العـــام لشـــكوكنا.

مصدر كتل "التلاتات"

استمرت عملية توفيق كتل "التلاتات" كي تُنتج مناظر دائمة النمـــو، جاريـــة على قدم وساق لمدة تقرب من عشر سنوات اعتباراً من سنة ١٩٦٦. وخلال هـــذه الفترة تم التوفيق بين ما يتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ بالمائة من تلك الكتل التى يصـــل مجموعها إلى ٤٥ ألف كتلة. ورغم أن هذه النسبة تبدو بصفة إجمالية ضئيلـــة، إلا أنه من اللازم ألاّ يغيب عنا أن التكرار الدائم للموتيفات جعل استكمال كل منظـــر على حدة عملاً غير ضروري. وسرعان ما أصبح من الممكن على سبيل المثال أن نعيد تكوين مناظر تقريب القرابين أو مشاهد المواكـــب الدينيـــة بكـــل تفاصيلـــها والمقياس المناسب، بمجرد الاستهداء بقطعة واحدة أو قطعتين كانتـــا جـــزءاً مـــن المنظر أو المشهد. وبناء عليه أخذ المشروع يركن بصورة مـــتزايدة إلـــى إعـــادة تكوين الجداريات عن طريق رسم الخطوط العامة للمناظر، التى سبق لنا أن وفّقتـــا لها "كولاجات" (قصاقيص. م) فوتوغرافية.

بحلول سنة ١٩٧٥ كانت فترة العائدات المحدودة من كتـــل "التفاتـــات" قـــد حلّت وكنا وقت ذاك قد كوّنا فكرة طيبة عن مجمل ذخائر الزخارف الفنية للمعـــابد، ولكن التوفيقات كانت قد أصبحت أقل، بصرف النظر عن ذلك الاكتشاف الضخـــم الذي يطرأ بين الحين والآخر بأن مجموعتين كاملتين من القصـــاقيص تتفقـــان أو تناسبان كل منهما الأخرى. إلا أن الأسئلة الحائرة ظلـــت بحاجـــة إلـــى أجوبـــة، وخصوصاً تلك التى تتعلق بأغراض التشييد. ترى ما هي النسبة التى تمثلها الخمس وأربعون ألف كتلة، التى وصلت إلى أيدينا من المجموع الكلى للكتل ؟ هل لا يـــزال الشطر الأكبر من الحجارة التى استخدمها "أمين - حوتب" الرابع في تشييد معابده،

بعيدة عن متناول أيدينا داخل الصروح الممتدة ؟ كم كان يبلغ ارتفاع حوائط تلك المعابد ؟ وما هي أنواع التهريمات أو التفريزات التى استخدمها البنّاؤون سواء في قمم الحوائط أو قواعدها ؟. ولو أننا نعرف منذ قليل أن بعض أوجه الحوائط كان بالضرورة شاهق العلو. فلقد نجحنا في تجميع وتوفيق وتكوين بعض الرسومات الضخمة للملك والملكة، يصل أطوالها إلى ما يقرب من ثلاثة عشر متراً. وعود على بدء، رغم أن الجداريات التى تزخرف الحوائط كانت معروفة بدرجة معقولة لنا، فإننا لم نعرف شيئاً عن الخطوط التى تسير عليها تلك الحوائط: كان ضرورياً بالتالي، أن نكشف الخطط الأرضية للمباني التى كنا منخرطين في إعادة تشييد حوائطها استناداً إلى العدم على وجه التقريب ! ولكن كان يتعّين علينا قبل أن نفوه بأى لفظ حول التصميم (التخطيط) المعماري لمعابد "أمين – حوتب" الرابع *لقرص– الشمس*، أن نتعرّف على المواقع الأصلية التى أقيمت فيها تلك المعابد.

في سنة ١٩٧٥ لم نكن نعرف شيئاً عن أى موقع محدد لمعبد منذور لقرص – الشمس في الكرنك، إلا أننا لم نكن نفتقر تماماً إلى كل مؤشّر في هذا الشأن. فرغم السجلات الهزيلة التى جرى تدوينها خلال السنوات الأولى لبرنامج استرداد كتل "التلاتات"، إلا أننا تمكّنا خلال قدر من التقصي والتحرّي أن نكتشف مصدر كثير من كتل "التلاتات" وعلى سبيل المثال، الكتل التى ترجع في الأصل إلى معبد "ثابتة تلك هي آثار *قرص – الشمس* إلى الأبد" جاءت بشكل كامل على وجه التقريب، إما من أوطأ المداميك السفلية في نواة الصرح التاسع أو من المنطقة التى يقع فيها معبد الأقصر. أما المداميك المتوسطة أى التى في أواسط الصرح التاسع فلقد طرحت كتل "التلاتات" المزخرفة بمناظر من معبد "مبجلة تلك آثار *قرص– الشمس* إلى الأبد"، بينما ضمّت الأجزاء العليا من نفس الصرح مواد أخرى من معبد *قرص – الشمس* اهتدينا إليه". إلا أن المصدر الرئيسي لهذا المعبد الأخير فكان الصرح الثاني، حيث جاء منه أكثر من ثمانين بالمائة من الكتل التى ترجع إلى هذا المعبد الذي يعد أكبر معابد *قرص– الشمس*. وخرجت كتل "التلاتات" التى ترجع "إلى معبد "بيت حجر البينيين" وحسب من الصرح الثاني وأساسات قاعة الأعمدة المسقوفة، بينما يعود النثار الذي يضم عدة مئات من الكتل في المزارات

الواقعة شمالي الكرنك، بالمثل، إلى معبدي "بيت حجر البينبين" أو *قرص - الشمس* اهتدينا إليه".

وبناء عليه، أخذت الأدلة تشير إلى وجود فصل فراغي في وضع كتل "التلاتات" عند الاستخدام التالي (أى الثانوي وغير الأصلي. م) لها، فكتل معبدي "ثابتة تلك هي آثار *قرص - الشمس* إلى الأبد" و"مبجلة تلك هي آثار *قرص- الشمس* إلى الأبد" موجودة بشكل نسبى جنوبي الكرنك، بينما وجود كتل معبدي *قرص- الشمس* اهتدينا إليه" و"بيت حجر البينبين"، محصور في شماليه. فهل لذلك أى صلة بالمواقع الأصلية لتلك المعابد ؟ هل تكون محض صدفة أن تدخل عبارتا: "ثابتة تلك هي آثار *قرص - الشمس* إلى الأبد و"مبجلة تلك هي آثار *قرص- الشمس* إلى الأبد" في أسماء مباني أخرى سواء مباني سابقة أو لاحقة في المنطقة المجاورة بشكل عام للصرح العاشر ؟

إهتدى المنقبون إلى مؤشر مثير بدرجة أكبر، ومجزٍ، في نهاية المطاف، أعظم من ذلك الاكتشاف الذي حدث بمحض الصدفة في سنة ١٩٢٥. ففي تلك السنة كان الحفر جارياً في خندق حول أطلال الكرنك في سبيل الحصول على صرف أفضل للمياه الجوفية التى كان منسوبها آخذاً في الارتفاع. وخلال عملية الحفر في قطاع المجرى الواقع في اتجاه الشرق تماماً، للبوابة الشرقية للكرنك، تلك التى أقامها في سنة ٣٥٠ ق.م. على وجه التقريب، الفرعون "نختنبو" Nectanebo ظهر في باطن الأرض صف من التماثيل العملاقة المتصدعة للملك "أمين- حوتب" الرابع وتولى المفتش "شيفرييه" الذي كان قد وصل لتوه إلى الأقصر كممثل لهيئة الآثار المصرية في مهمة استكشاف هذا "الكنز" الذي عُثر عليه.

ومنذ سنة ١٩٢٦ وحتى تقاعده من العمل في الهيئة بعد ما يزيد على ربع قرن، لم يترك الرجل سنة واحدة تمر، دون أن يوجه بعض وقته وميزانيته لمواصلة الحفر في "شرق الكرنك". وهذا ما عرفناه في وقت لاحق (شكل ٨) ولقد اكتشف "شيفرييه" أن صف التماثيل العملاقة يستمر في اتجاه شرقي-غربي لمسافة تصل إلى نحو مائتي متر. ولو أن بعض هذه التماثيل العملاقة لم يكن قد تبقى منها سوى شُطف وحسب، وكلها كانت مدفوعة نحو الشمال، وها هي الآن

ملقاة على وجهها. وخلفها، وبإتجاه الجنوب سار صف من كِسر مهترئة من الحجر الرملي، تشي بأنها كانت مبنية في وقت ما. ورجّح البعض في ذلك الوقت أن تكون قواعد أرضية تقع على أبعاد يفصل بينها متران ونصف، وخلف هذه القواعد، وعلى مسافة مترين تقوم مداميك الأساسات لما بدا وكأنه حائط. ولقد اقتربت التماثيل الساقطة، والقواعد والحائط إلي حدود نحو تسعة وسبعين متراً من بوابة الفرعون "نختانبو" ثم رسمت زاوية قائمة باتجاه الشمال. إلا أن الأطلال سرعان ما أخذت تضمحل أكثر عن ذي قبل، خلال المحاولة التى قام بها عمال "شيفرييه" نحو تتبع آثار المجمع باتجاه الشمال حتى انتهت تمامًا على بعد حوالي عشرة أمتار. وقد حاول "شيفرييه"، بإستماتة، أن يكشف عن بعض الآثار على هذا الضلع الغربي لذلك المبنى أيا ما كان هو، الذي صادفه، ولكن محاولة الرجل ذهبت أدراج الرياح. فالتدمير كان على ما يبدو شاملاً. ولا يزال في طوعنا أن نرى اليوم جهوده الأخيرة المحمومة التى بذلها في مطلع الخمسينات بمساعدة خط سكة حديد ضيق، متمثّلة في تلك الحفرة الهائلة التى حفرها رجاله باتساع تسعين متراً في الاتجاه الشمالي تماماً من المنعطف الذي وصفناه قبل قليل. ولقد صادف نجاحاً أكبر في الاتجاه الغربي، إلا أنه سرعان ما وجد الأطلال مطمورة تحت مباني قرية حديثة.

ما الذي عثر عليه "شيفرييه" ؟ بدا واضحاً أنه بناء من نوع ما، يزيّنه صف من الأعمدة، تقف أمامها تماثيل هائلة لـ"أمين – حوتب" الرابع ولكن الرجل لم يشر إلى وجود أى كتل منقوشة أو مزخرفة، ومرّ على المنظر، وهو لا يزال متردداً أمام ما اكتشفه واستمرت التكهنات تترى، إلى جانب التقديرات الخيالية حول أبعاد ذلك البناء.

وفي سنة ١٩٧٥ غدا واضحاً أن توفيق كتل "التلاتات" قد أعطى أقصى فائدة تُرجى من ورائه. ومالم تظهر إلى الوجود أدلة جديدة معينة تتصل بالمسألة، وتنطوي، بوجه أخص، على معلومات محددة حول الخطط الأرضية لهذه المعابد، فلا أمل لنا في بناء سياق للمناظر على حوائطه. وما كان منا إلاّ أن لجأنا إلى الحفر، ولكن كان لزاماً أن ينطوي على أحدث المناهج: فلقد ولّدت أعمال الحفر

التى قام بها "شيفربيه" إحساساً، ولو أنها كانت قيّمة إلى درجة محدودة، بأنها دمرت أدلة أكثر كثيراً مما أزاحت عنه الغطاء. فلا معنى هناك للحفر، دون رويّـــة، فـــي مستويات متراكبة الواحد على الآخر أو الواحد تحت الآخر دون حفظ أى سـجلات، لمجرد الوصول إلى معبد. وهنا سنحت الفرصة لتطبيق منهج شديد التدقيـــق علـــى هذا الموقع أو ذاك، يتمثل في "حلبه" للحصول منه على كل "نتفة" دليل على نطـــاق عريض من المسائل: تاريخ الموقع ككل، بيئته والأنشطة التى قامت عليه، والنظـــام الغذائي للمقيمين فيه، وكيمياء تربته، وأنواع الحيوانات المعروفة فيه، ومنتجاته مـــن الحبوب. وهل هناك نقطة نستطيع البدء منها، أفضل من المنطقـــة الوحيـــدة التـــى وجدنا فيها مواداً ترجع إلى عصر "أمين – حوتب" الرابع أى في موقعها الأصلـــي وبالتحديد في الأرض المائجة أو غير المستوية في شرق الكرنك ؟

في مطلع ١٩٧٥حصلنا على إمتياز من الحكومة المصريـــة للتنقيـــب فـــي القطاع المعروف باسم شرق الكرنك. ووضّح العقد منطقة الامتياز على هذا النحـــو: يحدّها شمالاً الزاوية الشمالية – الشرقية لفناء الكرنك، وجنوباً فنـــاء معبـــــــــد الإلهة الأم "موت"، وشرقاً خط السكة الحديد الأقصر – القاهرة، وغرباً سور فنـــاء الكرنك. وهذه المنطقة الكثيرة التعاريج تعد شاسعة: نحو ٨٠٠x ٢٥٠ متراً. ترى كيف سيكون في طوعنا أن نُوفيها حقها ؟

الفصل الخامس

أعمال التنقيب في شرق الكرنك

تدين الرقعة الشاسعة لشرق الكرنك بمنظرها الموحش الحالي إلى تلك الأحداث التى وقعت في أواخر القرن الرابع ق. م. والواقع أن ذلك المنظر الكئيب لم يكن قائماً هناك باستمرار كي يطالع الناظر من مجمع الكرنك باتجاه الشرق. فعندما وقعت "طيبة" في سنة ٧١٢ ق.م تحت هيمنة أولئك الملوك السود المتطهرين القادمين من السودان، والمعروفين في التاريخ باسم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، عرف هذا الموقع عودة إلى الرخاء وزيادة ملحوظة في عدد سكانه. أما العنقود الصغير من المعابد الصغيرة التى تمتد شمال شرقي المعبد الرئيسي المنذور للإله "أمون"، وهو الأمر الذي يُثبت الاهتمام المتزايد الذي أولته الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون * بالأراضي المهجورة إلى الشروق، فلقد جرى تجميله بإضافات جديدة. كما أخذت مزارات عبّاد "أمون" الاجلاء تتناثر حولها. وأضاف الفرعون "طاهركا"* كُنّة جديدة إلى البوابة العليا القديمة التى كان رمسيس الثاني قد بناها، وفى نفس الوقت أخذت بيوت الأهالي في الانتشار شرقاً في موقع البناء الذي شيّده "أمون - حوتب" الرابع، الذي كان لـ "شيفرييه" أن يكتشفه في وقت لاحق (شكل ٨). وكان هذا الموقع قد استمر يُستخدم كمقلب زبالة لما يقرب من ستة قرون كاملة، وهو الأمر الذي أوجب تسوية سطحه باستخدام مخزون من الحشو المجلوب. وجرى شق مسار محوري، كي يواصل امتداد محور الكرنك، كما أقيم سور دائري، الأمر الذي خلق شكلاً من أشكال المجتمع "التابع" ورغم الغزو الآشوري، الذي وصل في خضمه أى في ٦٦٣ ق.م الملك الآشوري آشوربنيبال والأحرى "أشور - بنى - بعل" إلى "بطيبة" وأسلمها للنهب والسلب، إلا أن هذا الحيّ الشرقي الجديد شهد بعد ذلك عهداً من الازدهار. فلقد أعيد بناء البيوت في أواسط القرن السادس، وأصبحت وقت ذاك تكشف عن سمات التكدس والتزاحم. وتناثرت أفران صنع الأواني الفخارية (الفواخير) على

امتداد الشارع جنوباً، وكانت مطابخ الكتبة ومنازل الكهنة تفتح على الناحية الشمالية. وحتى الإطاحة، ذاتها، بالأسرة السادسة والعشرين لم تغير كثيراً من الظروف التي يعيشها شرق الكرنك: إذ استمرت عملية الاستيطان طوال القرن الخامس ق. م.تحت الحكم الفارسي بنفس الطريقة التي كانت تسير عليها بصفة رئيسية في الماضي. ولا ينهض لدينا أي دليل على حدوث تغيّر ما إلا مع بزوغ فجر الاستقلال تحت قيادة "أمورتايوس" في الأسرة الثامنة والعشرين في سنة ٤٠٦ق..م. إذ لحق الدمار بالبيوت القديمة، ولكن قامت مكانها بيوت جديدة وأكبر، وبدا أن التزاحم لم يعد وقت ذاك يشكّل مشكلة حادة. إلا أن القرن الرابع شهد قرب خواتيمه أجلها المحتوم. فلقد حمل الغزو الفارسي الثاني بقيادة "أرتاكسيركس" الثالث (٣٤٣ق.م) وصعود الهيمنة اليونانية مع ارتفاع نجم الإسكندر الأكبر ووريثه السياسي في شمال أفريقيا: بطليموس لاجوس، نذُر النهاية التي حلت بالمدينة الجنوبية "طيبة". فهُجرت معظم البيوت، واستُنقذ أثاثها الخفيف خوف الضياع، واستُخدمت حجراتها المتصدعة كمقالب للزبالة. وهنا وهناك تشبث بعض الأهالي بالبقاء في بعض البيوت القديمة ، إلا أن قمع الانتفاضة الطيبية في سنة ١٨٦ ق.م لابد وأن يكون قد إقتلع منها حتى أولئك. وبحلول القرن الأول ق.م، كان شرق الكرنك قد أصبح قفراً، وتحرّك قلب المدينة جنوباً إلى الأقصر حيث ظل هناك منذ ذلك الحين.

واليوم تترامى المنطقة الواقعة شرقي بوابة الفرعون "نختانبو" في سور الفناء على هيئة سلسلة عشوائية من الكيمان والنقّر، تقطعها المدقات التي مهدتها حوافر الحمير (لوحة رقم ٥-١) وتجور قرية بائسة تسمى "النجع الفوقاني" (والاسم يحمل صدى البوابة العليا أو الفوقانية التي بناها رمسيس الثاني، على الحافة الشرقية للموقع القديم) وإلى الشرق تحاصرها قضبان السكة الحديد. ولقد استخدم المنقبون ومفتشو مصلحة الآثار المنطقة لما يزيد على قرن كامل كمقلب مناسب خلال عمليات التطهير التي يقومون بها في حوش معبَد الإله "أمون"، وهو الأمر الذي نجم عنه كم من الأنقاض يصل عمقه إلى ٣,٥ متراً، ويقف على رأس منطقة خماسية الأضلاع، تبلغ مساحتها ١٠٠x١٥٠ متراً على مشارف بوابة الفرعون

"نختانبو". وهى تعمل، وحسب، على تعميق الوحشة التى ينطوي عليها المكان: ترعى المعيز نباتات العقول وتحك جلودها، والحمير تتهادى في المدقات التى تنتهي إلى القرية، وعندما يحل الظلام تتدافع الحيات وتنبح الكلاب الجربانة، ويغطي التراب والحصا كافة مداخل المنطقة ومخارجها. أما الجو فلا يكون محتملاً إلا في الفترة من نوفمبر - هاتور حتى فبراير - أمشير. وبحلول موسم الخماسين في مارس - برمهات وأبريل - برمودة تهب الرياح في غالب الأحيان كي تقذف الأتربة في دوامات هوائية أو "عفاريت"، ويجعل العكيك الرطب العالق في الجو ظروف العيش غير مستساغة على وجه الإطلاق.

بحثاً عن معبد المارق

في يوم مثل تلك الأيام بدأ بحثنا (١). وأنفق فريقنا الذي ضم عدداً محدوداً من المنقّبين ربيع سنة ١٩٧٥ مع صيفها كله في التنقيب في ربع دائرة لا تزيد مساحته عن ٨ X ١٢ متراً، قمنا باقتطاعه خلف الضلع الجنوبي للخندق الهائل الذي حفره "شيفرييه" في محاولته للكشف عن تماثيل "أمين - حوتب" الرابع. وكانت عملية إزالة مقلب الزبالة القديم قد استغرقت نحو عشرة أيام. إلا أن الطبقة البكر، التى ظهرت تحت ذلك المقلب مباشرة، أثمرت لنا "مادة" يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الرابع ق.م. وفى نهاية المطاف كشف التنقيب الذي تابعناه، عن حوائط منزلية غير مألوفة بالإضافة إلى سبع أرضيات - أسُطح مبسوطة الواحدة على الأخرى ترجع إلى ثلاث مراحل بنائية كبرى في الفترة من ٧٠٠-٣٠٠ ق.م. ولم يكن هذا هو الهدف الرئيسي الذي استهدفت حملتنا استكشافه في البدء. ولم تكن الأطلال لتنطوي على قيمة كبرى سواء على المستوى التاريخي أو الثقافي. ولكن علم الآثار لا يستطيع أن يحابى مادة على أخرى، ويتعيّن على الأثرى أن يتحلى بروح التدقيق في تحليله كما ينبغى على المحلل أن يكون دوماً. فلا ينبغى للأثرى أن يقول بالمرة: هذا مالا أريده ثم يهجر الموقع. وبالتالي فعندما اتضحت معالم هذه المستوطنة المتأخرة التاريخ أكثر فأكثر أمام أعيننا، خلال شقنا

لأرباع دوائر ومربعات في سنة ١٩٧٧ وما بعدها، بدأنا نجرى دراسة مدققة لكافة مظاهر الحياة المنزلية القديمة، بما تمكننا منه وسائلنا الحديثة، لما وصل إلى أيدينا من القرون الأربعة محل الدرس.

سرعان ما اتضح لنا أن سكان حي شرق الكرنك كانوا يتمتّعون بمستوى معيشة معقول رغم أنه لم يكن أكثر أحياء طيبة رخاء. فكانت بعض الأواني الفاخرة تزيّن رفوف دواليبهم، وبعض التماثيل الصغيرة الجذابة تجمّل حجراتهم. وفى كل مكان كانت موجودة تلك الدمى التى تتخذ هيئة الحيوانات وتماثيل "الخصوبة" التى تتخذ سمات أنثوية متفجّرة . وبين الحين والآخر كنا نصادف إناء يحمل وجه الإلهة "حتحور" * على سطحه الخارجي مما كان يُستخدم في الشعائر. إلا أن أحد الملامح الغريبة التى حيّرتنا لمدة ما، كانت النسبة العالية نسبياً بين العينات الأصطلوجية (نسبة لعلم دراسة العظام.م) من عظام البقر. ولقد ظننا في البداية أن الأمر راجع إلى خطأ وقع منا في تكنيك التعيين ، (أي فرز العينات.م) الذي لجأنا إليه في موسمنا الأول. ولكن عظام الأبقار والثيران إستمرت تشكّل الأغلبية بين العظام التى تخرج إلينا حتى بعد أن محّصنا مناهجنا. فهل كان سكان "طيبة" القديمة يتمتّعون بنظام غذائي أغنى في لحم البقر مما هو الحال في أى مكان آخر فىالمناطق المجاورة بشكل عام ؟ الجواب واضح. لقد ضمّت "طيبة" في القرنين السابع والسادس ق.م. شبكة من المعابد الكبرى للإلهين "آمون" و"مونتو" إلى الشمال و"خونسو" و"موت" إلى الجنوب مثلما كانت تفعل طوال ألف سنة، وكان يقوم على خدمتها مئات الكهنة بشكل يومي إذ كانت شعيرة تقريب القرابين تمثّل أحد المحاور التى يقوم عليها تنظيم أى معبد مصري قديم. وكانت القرابين تُوضع أمام الإله على كل مذابحه، وهو الأمر الذي يشمل بصورة حتمية، وضمن أشياء أخرى تقديم لحوم البقر. وإذا كان معبد متوسط الحجم يقع في مصر الوسطى للإله - الكبش "حرى - شا - إف" أو أرسافيس Arsaphes (كما نطلقه اليونانيون. م) يقرّب ثوراً كاملاً بصفة يومية، جاز لنا حقاً وصدقاً أن نتخيّل ذلك القدر الذي يحتاجه، والحالة هذه، ذلك المجمع الطيبي، لتلك المعابد، وهو الأكبر من ذلك المعبد بصورة هائلة. وبطبيعة الحال، لم يكن أحد ليسمح ببقاء أفخاذ اللحم

وشرائحه على موائد القرابين أمام الآلهة، بعد تقريبها إليها حتى تتعفّن. إذ كان المصريون بنزعتهم العملية يقومون بإبعادها بعد أن يتناول الإله منها كفايته، ثم يجري توزيعها في هيئة حصص على جميع أبناء مجتمع المعبد سواء أكانوا من الكهنة أو الأهالي. وإذا كان سكان شرق الكرنك قد تغذّوا بكمية من اللحوم أوفر في العصور القديمة مما يفعلون اليوم، فإن ذلك راجع إلى أن المعابد كانت في تلك الأيام "شغلاً شاغلاً" بصفة مستمرة.

وكشفت المستويات التى تقع أسفل أقدم طبقات البناء الثلاثة عن أدلة على نوع مختلف تماماً من وضع اليد. فلقد كان شرق الكرنك مستخدماً قبل سنة ٧٠٠ ق.م كمقلب زبالة، واضطر البناؤون إلى تسوية سطحه قبل الشروع في بناء البيوت عليه. وكان لحسن الحظ، تاريخ بدء استخدامه في هذا الغرض والتاريخ الذي توقف عنده هذا الاستخدام، واضحين.

وخلال المستويات التى أعقبت القرن السابع ق.م. قابلنا بالفعل قوالب جيدة النوع من الطوب المحروق، وقد بُنيت كيفما اتفق في حوائط منزلية. وهذه الحقيقة وحدها تنطوي على أهمية بالغة في ضوء تفضيل القدماء بصورة شبه مطلقة لاستخدام الطوب المصنوع من الطمي والمجفف في حرارة الشمس، دون المحروق، في البناء المنزلي. وعلاوة على ذلك استمر الدارسون لمدة طويلة يطمئنون إلى فرضية لا دليل عليها بأن مصر لم تعرف هذا الطوب الأحمر قبل الحقبة الرومانية. وكانت هناك مفاجأة أخرى في انتظارنا: كان كثير من قوالب الطوب تلك قد خُتمت قبل حرقها بختم يحمل اسم ولقب المسؤول المعاصر، الذي صُنعت تلك القوالب خلال حكمه. وتسعة وتسعون بالمائة من مئات القوالب التى وصلت إلي أيدينا تحمل ختماً بيضاوياً مزدوجاً يحمل هذا النقش: الكاهن الأعلى للإله "أمون": "مين - خبر - رع"، وهو شخصية ذائعة الصيت في التاريخ المصري، وسليل مشهور لعائلة من كبار الكهنة، تولّت رئاسة الكهنوت، وحازت حتماً، بالتالي، سلطة دنيوية، في مصر العليا، بعد انهيار المملكة الحديثة في ١٠٧٠ق. م . وكان "من - خبر - رع"، هذا، قد تولى منصبه ذاك إعتباراً من ١٠٢٠ حتى ١٠٠٠ ق.م. ويبدو أن الإنجاز الذي قام به في "طيبة" هو بناء حائط-

سور حول الضلع الشمالي لمعبد الإله "أمون". ويقول "مين - خبر - رع" في نقش يحمله "صادود" قاوم، لحسن الحظ، عوادي الدهر حتى وصل إلى أيدينا، من البوابة الشرقية التى بناها رمسيس الثاني، أنه: *"بنى من أجله* (أى من أجل "أمون". م) *حائطاً ضخماً للغاية شمالي الكرنك بغرض حجب والده "أمون - رع" عن الأنظار وتخليصه من الدهماء بعد أن وجده محاصراً بالبيوت التى بناها العامة في أفنية بيت "أمون"* ...." (٢) أين كان ذلك الحائط - السور ؟ لا يزال الأمر غير مؤكد ولكن قوالب الطوب المختومة باسم "مين - خبر - رع" كان قد عُثر عليها، متناثرة، في الركن الشمالي الغربي للكرنك. والآن يعيد عثورنا على عدة مئات من قوالب الطوب المختومة بنفس الختم طرح السؤال. ولعل أفضل تكهّن في هذا الصدد يتمثّل في أن نفترض وجود حائط - سور يسير إلى هذا الحد أو ذاك بامتداد الخط الحالي لحائط سور الفناء Temenos الشمالي، لكنه دار إلى الجنوب كي يحيط بالبوابة العليا التى بناها الفرعون رمسيس الثاني. وإذا كانت قوالبنا هذه، قد جاءت، وهو ما يبدو مرجحاً إلى حد كبير، من هذا الحائط - السور، فلابد أن تكون هذه القوالب قد أخذت في الوقت الذي كان قد وقع طي الإهمال. ولما كان مقلب الزبالة الذي أشرنا إليه في السابق يحتوى نماذج من قوالب "مين - خبر - رع" في مستوياته (أى مستويات المقلب. م) العليا، فالثابت أن يكون قد وصل إلى حالة من الدمار بالفعل في القرن الثامن قبل الميلاد.

على أنه ليس من الصعب، كذلك، إثبات بداية مقلب الزبالة. فالمستويات الدنيا تكشف عن أواني فخارية ترجع إلى أواخر المملكة الحديثة، أو عصور الرعامسة. وقد حملت بعض مقابض الجرار ختماً باسم المؤسسة التى ترجع إليها، ويكشف عن هويتها على هذا النحو: الدوّار (أى المعبد الجنائزي) الخاص بـ"مين - ماعت - رع - سيتى - ميري - إن - بتاح). وهذا يعني بالضرورة أن المنطقة بدأت كمقلب زبالة مع بداية الأسرة التاسعة عشرة ١٣٠٠ق.م على وجه التقريب، واستمرت على هذا الاستخدام لستة قرون.

ومع مواصلة التنقيب في المربع A من هذا المقلب، رأينا أن المستويات التى أخذت تصبح إلى هذا الحد أو ذاك أفقية كلما اتجهنا إلى أعلى، بدأت تضمحل

بصورة حادة كلما اتجهنا شمالاً. ومن المحقق أن منحدراً ملحوظاً يجرى من الشـــرق إلى الغرب كان موجوداً هنا عند نهاية الأسرة الثامنة عشرة ولم نتبّين، إلا في وقـــت لاحق، الحقيقة التى تنطوي على مغزى هام: هذا الخندق كما إتضح لنا، يسير بحـذاء المحور المركزى لمعبد الكرنك بإتجاه الغرب !

إختتمنا موسمنا السنوي في توت – سبتمبر ١٩٧٥، باكتشاف نذر محـــــدود من الآثار التى تشير، مع ذلك إلى فترة "أمين – حوتب" الرابع. حقا، كانت بعـض قطع كتل "التلاتات" التى أعيد استخدامها في غرض ثان فـــي المســتويات العليــا، تظهر إلى النور بين الحين والآخر. ولكن هذه القطع يمكن أن تكون قد نقلت إلـــى هذا الموقع من مكان ما. وكان واضحا، مع ذلك ، أن عمق الطبقـــات المصطنعـة غير المكتشفة لا يزال هائلا في المربع A، ونحن مصممون على مواصلة التنقيـب في هذه المنطقة حتى يعوق منسوب المياه الجوفية كل حفر آخر، بصـــرف النظـر عما إذا كان أملنا قد خاب تماما في العثور على أى بناء يستخدم كتل "التلاتات".

وفى يناير – طوبة سنة ١٩٧٦ إستؤنف العمل في شرق الكرنـــك ، وفـــى أثناء ذلك بنينا منزلا للبعثة. والآن، وفى نهايـــة المطـــاف بـدأت الأرض تجـود بعطاياها. ففي كل مكان في النصف الجنوبي من المربع رقم A، ظـــهرت، تحـــت مقلب الزبالة مباشرة، أكداس من كتل "التلاتات" المكسرة، يصل عمقها في بعـــض الأماكن إلى نحو خمسين سنتيمترا (لوحة رقم ٥– ٢)، وإلى الشمال وعلى نحو مـــا أوحى به مقلب الزبالة المترامي، انحدر الدقشوم إلى خندق يتجه من الشـــرق إلـــى الغرب ويصل عرضه عند قمته إلى نحو ثلاثة أمتار. وعلـــى الطـــرف الشـــمالي، ظهرت سمة غاية في الغرابة وإن كانت كاشفة: أربع ركائز، متساوية الأضـلاع أو مستطيلة من شطف الحجر الرملي تصل أبعادها إلى ١,٨٠ x مترين على وجـــه التقريب، وتسير بالتوازي مع الخندق في اتجاه شرقي–غربي. ولم تكن هذه الركائز إلا أن تكون ؛ بل وأثبتت في وقت لاحق أنها لم تكن سوى ؛ أساسات "الميد" (جمـع "ميدة". م) الخشنة التى كشف عنها "شيفرييه" في أواخر العشرينات. ولكنه تصـــور أنها الركائز التى كانت التماثيل العملاقة التى وجدها ملقاة أمام كل منـــها ؛ تقـف عليها. حقا كانت الكتل نفسها قد سرقت من المربع رقم A، ولكن ركائز الشـطف

كانت كافية للتدليل على أنها كانت موجودة في وقت ما من قبل.

ومن الواضح أن هذا الخليط من السمات طـــرح احتمــالات مغريــة حقــاً لاستخلاص الهويات من الظلام الحالك. وانتعشت الآمال خلال الأسبوعين الأوليــن من شهر يناير – طوبة. فأشار دقشوم كتل "التلاتات" إلى فترة "أميـن – حوتــب" الرابع، بما أنه هو الذي بدأ واستمر في استخدام هذا الحجم (أى حجــم "التلاتــات". م)، في بناء مبانيه ولكن هل نستطيع إقامة دليل حاسم على هذا التكهن الصــرف ؟ ليس هناك شك في أن ذلك الدقشوم يرجع إلى أحد معابد "قرص الشمس" التى قــام الفرعون "حور – إم – حب" بهدمه واستخدم كتله كحشو في أحد المباني التى بناهــا في الكرنك. ولكن هل بوسعنا التوصل إلى معرفة هذا المعبد بالاســم علــى وجــه التحديد ؟ هاجمنا شعور مقبض بأن كافة كتل الواجهة، التى حملت فــي يــوم مــا جدارياتها، ربما تكون قد نُقلت ولم تتبق منها أى شطفة مزخرفة واحدة، على مـــا يبدو، بين الدقشوم كي تمدنا بالمفتاح أو الخيط الذي نحتاج إليه حاجة ماسة. ولحسن الحظ، كنا مخطئين. ففي أعقاب الكشف عن أول كومة من هذه الأحجار المهشـــمة جاء العمال يجرون نحونا كي يزفّــوا هذا النبأ: إحدى قطع هذه الأحجار منقوشـــة أو "حجر مكتوب" بلغتهم. ولم يكن هذا الحجر بأكمله سوى قالب عرّاضـــي، مــع علامات تشير إلى أقدام بشرية تتحرك مارة بعامود. وفى نفس اليوم ظهرت إلـــى النور قطعة أخرى تحمل رأس رجُل مع قمعــولة (حلية معماريـــة معروفــة. م) لعارضة خشبية على كتفه. واشتبهنا في أن تكون القطعتان قد جاءتا مـــن منظــر لتختروان ملكي مع حامليه، وهو الأمر الذي ثبتت لنا صحته عندما اكتشــفنا كتلــة جميلة غفلت عنها عوادي الدهر وقد نُقش عليها حُمّال بالعوارض الخشـــبية علـــى أكتافهم. (لوحة ٥-٣) وعلى أثر ذلك بدأت القطع المنقوشة تترى بسرعة وكثافـــة. وأظهر قالب عرّاضي، جيّد الحفظ، كهنة راكعين ببيارقهم المقدسة، مع إسم "قــرص – الشمس" ، بينما حمل قالب أراضى آخر صورة لرُكَب حاملي التختروان، وقـــد التقط الفنان حركة انثنائها كي يُنزلوا الحمولة الغالية. وعلاوة على ذلك نجد رجـــال البلاط يركعون، ونوبيون يؤدون شعائر التوقير، وجلالته يقرّب قرابيـــنه، وأشـــعة "قرص الشمس". ولكن في الغالب لم يتبـــــق من هـــذه "التيمـــات" (المواضيـــع)

سوى بعض الشُطف المحدودة، إلا أن معرفتنا الحميمة بهذه النماذج المكررة مكنتنا لدهشتنا وبهجتنا فى نفس الوقت، من التعرّف عليها من فورنا. وفى نهاية المطاف استطعنا أن نسجّل وجود أكثر من مائة قطعة منقوشة استخرجناها من المربع رقم A، ولم يفلت من بين هذه القطع سوى قلة قليلة لم نستطع التحقق من شخصيتها الأصلية.

ولكن ما هو المعبد الذي خرجت منه تلك القطع ؟ الإجابة غاية في الوضوح. كان في طوعنا أن نوفّق ونسكّن كل القطع، على وجه التقريب، في نوع من المناظر الذي طالما ألفناه من جرّاء تجميع وتوفيق كتلنا من "التلاتات" خلال السنوات الأولى للمشروع. ولم يكن ذلك المنظر سوى المنظر الاحتفالي الذي يظهر فيه الملك، محمولاً في تختروانه على الأعناق من القصر إلى المعبد، وهو الأمر المقصور على سلسلة المناظر المكررة التى تصوّر مواكب اليوبيل، وبهذه الصفة نعرف أنه يرجع إلى معبد "قرص – الشمس اهتدينا إليه" أو "جم ت – با – أتون" دون سواه. وسرعان ما وجدنا بين أيدينا دليلاً ساطعاً على ذلك في قالب عراضي يحمل التاج الأبيض (تاج الوجه القبلي. م) يخرج من قلب المربع A، وقد ظهر عليه هذا النقش الناقص: *"قرص... العظيم" الذي يقيم في معبد "قرص الشمس اهتدينا إليه"*، وبذلك تكون المشكلة قد وجدت حلها: لقد وجدنا معبدنا المنشود !

الفصل السادس

شرق الكرنك قبل "أمين - حوتب" الرابع

عندما صعد "أمين–حوتب" الرابع إلى العرش، كانت مدينته "طيبة" المدينة الجنوبية أو "أون مصر العليا" كما كانت تُسمى في بعض الأحيان، تتمتع بالفعل بتاريخ عريق ومرموق. حقاً تعرضت مساحة أحيائها السكنية على امتداد القرون للجزر والمد، إلا أن معظم بيوتها في أواسط الأسرة الثامنة عشرة انتظمت، على ما يبدو، على امتداد نهر النيل. والموقع الذي اختاره "أمين - حوتب" الرابع لبناء معبده *قرص- الشمس* اهتدينا إليه" يقوم شرقي المعبد الضخم للإله "أمون". وهنا، كانت تمتد، خلال السنة الأولى من حكمه مساحة شاسعة من الأرض الفضاء، التى لازمها الإهمال لما يزيد على قرنين من الزمان. ترى لماذا هُجرت مثل هذه الرقعة البكر ؟

تمثّلت إحدى المشاكل التى فاجأتنا خلال عمليات التنقيب التى قمنا بها في شرق الكرنك في منسوب المياه الجوفية الذي كان أعلى بصورة ملحوظة عما كان عليه في العصور القديمة (١). وقد يُعزى هذا الأرتفاع إلى السد العالي، بل هو السبب وراءه على وجه الاحتمال، إذ قلّص السد العالي الآثار التى نجمت عن الفيضان السنوي فيما أدى إلى إبقاء منسوب المياه في وادي النيل شمالي أسوان عند ارتفاع ثابت. ولكن في منطقة "الكرنك" هناك تذبذب في منسوب المياه الجوفية يرجع بصفة جزئية إلى فتح وإغلاق قنوات الري المجاورة. إلا أن أقصى اختلاف لا يزيد على حوالي ٧٥ سنتيمتراً، ولا يتجاوز أبداً متراً واحداً، وهذا ما خَبرناه خلال تجربتنا التى دامت خمس سنوات من الحفر الدائم.

استطعنا، رغم حالة المستويات الأدنى ؛ المشبعة بالماء، التوصل إلى ما يمكن أن يكون أقدم مرحلة لوضع اليد في شرق الكرنك وتعود الطبقات الدنيا، حتى نقطة ١,٣ متراً فوق منسوب المياه الجوفية، إلى المملكة الوسيطة. واكتشفنا خلال عملية الحفر في أول مربع وهو رقم A، وكان ذلك في مطلع ١٩٧٦ بيتاً صغيراً

مبنيا بالطـوب الأخضر، وحوائطه رفيعة، لا يزيد عرض بعضها عن سمك طوبة واحدة، وكان تاريخ الأواني الفخارية التى يضمها البيت واضحا لا لبس فيه، رغم ما تعرضت له المنطقة من عمليات حفر مكثفة في أوقات لاحقـة: كـانت أوانـي الفخار يخالط لونها حمار البرقوق أو البني اللميع، وهى الأواني التى درج معظم خبراء الخزف في "المصريات" على إطلاق هذه التسمية الفضفاضة عليها: "أوانـي المملكة الوسيطة". ولقد كشف هذه البيت عن مرحلتين متميزتين من البناء .وتحتـه كانت تقف حوائط تنتمي إلى أبنية أقدم عهدا، الأمر الذي يعنى أن السـياق الكلـى ربما يمثّل مـــرور قرون عديدة. وقد تأكّدنا، رغم أن التنقيب لم يكن قد شـملها (أى تلك الحوائط. م) بعد، من أن حوائط البيت التى تعود إلى تاريخ مماثل للمملكـة الوسيطة تمتد تحت الموقع بأكمله، على الأقل حتى منزل التنقيب المؤقت شـمالاً، (أى حتى الركن الشمالي الشرقي لفناء الكرنك الحالي). وكانت عمليـات التنقيـب التى قام بها كل من "هيلين وجان جاكييه" تحت رعاية "الإفاو"* (المعهد الفرنسـي للآثار الشرقية) قد كشفت عنها، أى عن تلك الحوائط، عند مستوى ممـاثل علـى الضلع الشمالي للكرنك أيضاً. ولقد مر نحو عقد من الزمان منذ عثر "جان لفـراي" الذي تولى يوماً ما منصب مدير المركز المصري الفرنسي بالكرنك CFE* علـى أطلال لبيوت مماثلة ترجع إلى المملكة الوسيطة داخل فناء الكرنك، على بعد نحـو ١٦٠متراً إلى الغرب تماماً من المنطقة التى نقوم في الوقت الحاضر بالتنقيب فيـها. وأخيراً وفى سنتي ١٩٧١-١٩٧٢، اكتشف بيوتاً ومخازن يرجع تاريخها إلى نفـس الفترة بالتحديد، وذلك فوق منسوب المياه الجوفية بالضبط في الفناء الأمامي لمعبـد *"أوزيريس سيد الأبدية"* * داخل الزاوية الشرقية لفناء الكرنك.

تعطينا هذه الأدلة (أى البيوت المكتشفة. م) إنطباعاً واضحـاً عـن مدينـة ضخمة للغاية من المملكة الوسيطة، تمتد لمائتي أو ثلاثمائة متراً وشـمالي"أخ – منو"* الحالي الذي بناه" تحوت – موسي" الثالث في نفس موقع سور الفناء الخاص بمعبد الإله "أمون" وهو الموقع الأقدم الذي يعود إلى المملكة الوسيطة، وظل يطـوّق مناطق عديدة كي لا تغطيها بيوت الأهالي مرة أخرى حتـى العصـور الكوشـية والصاوية، ويتعّين على المرء أن يستبعد خلال أى إعـادة بنـاء، علـى مسـتوى

الخيال، أى أسوار لأفنية تستهدف صد الزحف العمراني ، مثل تلك التى بناها في وقت لاحق الفرعون رمسيس الثاني أو "نختانبو" الأول: إذ كان البناء يمتد، على ما يبدو في سائر الاتجاهات، في ظل الافتقار إلى التخطيط العمراني على نحو ما تُشير إليه معظم الأدلة التى تحت أيدينا. فما نراه في المستوى الذي يرجع إلى المملكة الوسيطة في الكرنك ليس إلا دليلاً من مستوى المياه المرتفع على مدينة كانت لا تزال حتى وقت ذاك مدينة إقليمية مزدهرة. وبفضل حروب التوحيد التى شنها الفرعون "مونتو- حوتب" الأول وجدت تلك النجوع العشوائية الواقعة على السهل الطيبى نفسها وقد تحولت فجأة إلى مقر ملكي بل وعاصمة لوقت ما. وحتى عندما سادت الأسرة الحادية عشرة، كانت الحاشية الأثرية الفخمة التى قررت إضافتها على هامش المتن من نصيب الضفة الغربية وحدها. وقام البناء الفخم الوحيد الذي يليق بمستقر ملكي على الضفة الغربية ويتمثل في المقبرة - المصطبة التى أقامها الفرعون"مونتو- حوتب" في الدير البحري * بصفوف الأعمدة التى تحيطها وفنائها الأمامي التى تحدّه سطور الأشجار. حقاً كانت هناك معابد على الضفة الشرقية، متواضعة الحال، إستبق ظهورها، وحسب، الانتصار الذي حققته "طيبة" في أوقات لاحقة: مثل معبد إله الحرب "مونتو" الذي يحمل رأس صقر شمالي الكرنك، ومعبد "موت" الإلهة الأم إلى الجنوب، ومعبد "أمون" أى "الباطن"، في نفس موقع الكرنك الحالي على وجه الاحتمال. ويبدو من المرجّح أن الذين تعطّفوا من ملوك المملكة القديمة ومنحوا هذه المزارات الريفية بعض التذكارات الصغيرة لم يكونوا سوى قلة قليلة، إلا أن "طيبة" ذاتها ظلّت بالنسبة لفراعنة الألف الثالث ق.م.، بناة الأهرامات، تقع خلف الأحراش البعيدة.

غير أن كل ذلك تغيّر بالنسبة للمدينة، خصوصاً على الضفة الشرقية بصعود الأسرة الثانية عشرة إلى سدة الحكم في مصر (١٩٩٠ ق.م على وجه التقريب). ومع أن مؤسس هذه الأسرة إتخذ قراراً بارعاً بنقل عاصمته إلى مدينة جديدة على بعد نحو ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوبى "منف"، إلا أن إبنه وخلفه "سنوسرت" الأول هو الذي ضم "طيبة" إلى الأبد إلى قائمة مدينيه، ببناء معبد جديد للإله "أمون" تحت هذا اللقب الشمسي: "أمون - رع" باسم "عروش الأرضين" وفى محراب هذا

المعبد الذي يُسمّى "أفضل الأماكن المختارة" بنى "سنوسرت" الأول مذبحاً ضخماً من المرمر، وزيّن المنافذ إليه بعدد من المباني الملحقة، إكتشف المنقبون أحدها وأعادوا بناءه وهو عبارة عن مصلّى جميل، على جانب الطريق، من المرمر. وإلى الجنوب شيّد الكاهن الأعلى بيته. وعلى سور الفناء المبنى من الطوب النيئ وعلى الضلع الشرقي يظهر الملك في منظر مرسوم بالألوان وقد استوى على العرش على منصة خاصة وهو يستقبل رجال البلاط، ويصاحب المنظر نص باللغة المصرية القديمة (في المرحلة الهيروغليفية. م) يرجع إلى السنة التاسعة من حكمه، يسجّل، على وجه الترجيح شبه المؤكد، وقائع الاجتماع الذي شهد الإعلان عن عزم الفرعون بناء المعبد. وقد هدم الفرعون "تحوت – موسي" الثالث هذا السور بعد ذلك بخمسة قرون كي يفسح الطريق أمام قاعة تستقبل يوبيله، لكنه حافظ على ذكرى سلفه، باستنساخ المنظر القديم فى الحجر على السور الخارجى الجنوبي لمجمع الملكة "حتشبسوت". حقاً لم يعد لمعبد الفرعون "سنوسرت" الأول وجود على سطح الأرض، ولكن يبدو مرجحاً أنه كان في حالة تكامل مع المعبد اللاحق للفرعون "تحوت – موسي" الأول (أواخر القرن السادس عشر ق.م). وإذا كان الأمر كذلك، فالمبنى كان مستطيل الشكل، ويسبقه صرح من الطوب الأخضر (النيء) الذي يُسلم إلى حوش غير مسقوف تحيط به تماثيل أوزيرية للفرعون (كانت إعادة "تحوت – موسي" الأول بناء المبنى لتتم بالحجر دون أن يعمد إلى تغيير التصميم).

انبثقت نقطة هامة حول العلاقة بين المعبد الجديد الذي بناه الفرعون "سنوسرت" الأول وبين المدينة أو البلدة المحيطة. فكل البيوت في هذه البلدة، سواء أكانت تقع شرق الكرنك أو شماله أو في قلبه، كانت تصاميمها مُتّجة نحو الجهات الأصلية الأربعة وهو ما يمثّل بالضرورة الاتجاه الأصلي للمستوطنات البدائية، تلك التى يعود تاريخها إلى عصور المملكة القديمة، إلاّ أن معبد الإله "أمون" الذي بناه الفرعون "سنوسرت"، مع ذلك ليس مبنياً في نفس الاتجاه على الإطلاق، ولكنه مُخطط بحيث يمتد محوره الأطول (الشرقي- الغربي) بمحاذاة مبنى ما مفقود (معبد ؟ قصر ؟) في "دراع أبو النجا"* في الجانب الآخر لنهر النيل في اتجاه

الغرب، بينما يمتد الطرف الجنوبي للمحور الشمالي - الجنوبي، المتاخم لمعبد الإلهة الأم "موت" بمحاذاة طريق مقبرة الفرعون "مونتو- حوتب" في الدير البحري. وقد تكون خطوط التنظيم الجديدة للعظمة الأثرية في "طيبة" رمزية في جوهرها، إلاّ أنها تُثبت أيضاً أن معبد "سنوسرت" الأول بُنى في وقت لاحق في مدينة كانت مستقرة في الوجود بالفعل ولا تبدى أى إستعدادٍ لقبول أى تغيير في تخطيطها كي تتواءم مع هذا المعبد.

قد لا يكشف التنقيب تماماً عن الإجابة، إلا أن هناك دليلاً ضئيلاً توفَّر الآن كي يُثبت لنا إلى أى حد امتدت المدينة إبان المملكة الوسيطة في اتجاه الشرق. فعندما واصلنا حفائرنا في عام ١٩٧٧ بإضافة المربع رقم AB ، غربي المربع رقم A قابلنا في مستوى المملكة الوسيطة حائطاً ضخماً من الطوب النيء (الأخضر) يصل سمكه إلى ما يزيد على ستة أمتار بيسير ، في الحقيقة ، من الشمال إلى الجنوب. والحائط الذي كشفت عنه حفائرنا في الموسم الماضي يقع شرقي هذا الحائط. ولما كان حائط بهذه الضخامة لا يمكن إلا أن يكون سوراً يحيط بمنطقة ما، فإن التأمل يدفع إلى الذهن أن ذلك الحائط قد يكون السور الشرقي للمدينة. وإذا كان الأمر كذلك فإن البيت الذي عثرنا عليه في المربع رقم A يمكن أن يكون واقعاً خارج نطاق المنطقة المسوّرة. وأيا كان حجم الحقيقة في هذه الفرضية، فإن المربع رقم G الذي حفرناه على بعد حوالي سبعين متراً شرقي أو شمال شرقي المربع رقم A لم يكشف عن أى شئ يعود إلى المملكة الوسيطة. وكان آخر متر فوق سطح المياه الجوفية في المربع رقم G قد كشف طبقة إثر طبقة عن شُقف تم "تستيفها" بإحكام، تعود إلى المملكة القديمة، الأمر الذي يوحي بأن سطح المملكة الوسيطة عند هذه النقطة على الأقل، كان قد آل إلى الزوال بشكل شبه حاد.

صار واضحاً إلى حد معقول ذلك المصير الذي انتهت إليه مدينة المملكة الوسيطة، غير أن السبب وراء تلك النهاية لا يزال مجهولاً. كان البيت الذي اكتشفناه في المربع A قد أتت عليه النيران في ذلك الزمن البعيد. وتركت أطلال جدرانه مكشوفة في العراء لمدة طويلة. فأطارت الريح بطبقة الرماد، المتخلّفة عن الحريق، في حجراته، كي تتكوّم بسمك أكبر في أركانه عما في وسطه. وأخذت

الريح تحمل الرمل في هبوبها شيئاً فشيئاً حتى حجبت الأطلال المتآكلة عن النظـر. وليس هناك شاهد على وجود شاغلين آخرين لهذا البيت لقرون لاحقة، ولعل سكانه أو من بقى منهم على قيد الحياة إثر الحريق قد ارتحلوا إلى مكان ما كما يبدو جلياً.

ينبغي لأدلتنا المستقاة من النصوص المعاصرة لتلك الوقائع أن تلقى بمزيـد من الضوء على الأدلة الأثرية. ولكن هل ما في حوزتنا من تلك الأدلة يؤدى هـذه المهمة ؟ (٢) ليس هناك دليل من أى نوع على أى تدهور في حياة الرخـاء التـى عاشها الطيبيون عندما بسطت الأسـرة الثانيـة عشـرة سـيطرتها. والحقيقـة أن السجلات النصوصية والأثرية، التى تمتد حتى نهاية حكم الفرعون الثاني للأسـرة الثالثة عشرة تتفق على استبعاد إمكانيَّة حدوث أى اضطراب سياسي خطـير فـي الجنوب. إلا أن الصورة بعد ذلك تغيّرت. فقد خلفه أحد عشر فرعوناً، الواحد بعـد الآخر، في تتابع سريع. فلم تتجاوز مـدة حكمـهم مجتمعيـن أكـثر مـن عشـر سنوات.ومثل هذا التوالي السريع يشير في العادة إلى انهيار السلطـة المركزيـة، وهو الأمر الذي ينجم عنه ضعف القانون وتردّى النظام، إن لم نقل السـقوط فـي وهدة الفوضى الشاملة. ولكن الفرعون "سوبك – حوتب" الثاني استعاد النظام فـي سنة ١٧٤٠ ق.م، هو وخلفاؤه الثلاثة الأشداء، الذين جلسوا في عرش البلاد. ولكـن استعادة الأيام السعيدة لم تدم طويلاً. إذ احتل العرش ثلاث شخصيات تافهة، لمـدد قصيرة فاستمر حكمهم مجتمعين لنحو ثلاث سنوات وحسب. حمل أحدهـم إسـماً بغيضاً هو "إمراميشا" (أى جنرال الجيش) والثاني إسماً فظيعاً هـو "سـوتيخ"، أى "سيت". إلا أن أربعة فراعنة أشداء هم "سوبك – حوتب" الثالث و"نفـو – حوتـب" الأول و"سي – حتحور" و"سوبك – حوتب" الرابع استعادوا مرة أخرى أيام الرخاء من سنة ١٧٤٩ ق.م حتى سنة ١٧٢٥ ق.م، غير أنه، في الوقت الـذي انتشـرت آثارهم في سائر أرجاء مصر، إلا أنها لم تكن "تحفاً" يعتد بشأنها . Risorgemento

وفى أعقاب ١٧٢٥ ق .م بدأ تدهور بطئ. وبعد أن حكم اثنا عشر شـخصاً الواحد بعد الأخر، لم يترك هؤلاء المحتلون للعرش سوى آثار أقـل فـأقل، حتـى وجدنا أنفسنا أمام "قائمة تورينو" * ليس إلاّ، وهى عبارة عن السجل الوحيد الـذي نحوزه بأسماء الملوك. فالقاعة لم يبق فيها سوى الأسماء وحسب، وكلها في حالـة

مهشمة إلى الحد الذي يستعصي عليها الترميم، وخصوصاً بعد سنة ١٦٨٢ ق.م.

عصر انتفت فيه سلطة القانون، وصعد فيه إلى القمة حملة السيوف المولعون بالضرب والحرب، والأسماء التي تفتقر إلى ملامح، والغُمْز الصبيانيون وهناك، على سبيل المثال، "صادود" المجاعة الذي نصبه "سخم -عنخ -توى، نفر - حوتب"، الذي أقدم، بما يتناسب حقاً مع المناسبة، على إضافة خرطوش جديد إلى اسمه (في ومضة ميمونة من ومضات الأصالة) "أخر - نفرت". حرفياً: *ذاك الذي جاء حاملاً أشياء محمودة"، "محبوب الإله أمون"، ذاك الذي دخل مدينته، ومقومات الحياة تمشى أمامه، (الملتحف) بالأعياد، الملك الجبار الذي يحبه جيشه،، الإله حورس الطيب الذي يأتي بالقرابين ويمنح الحياة لمدينته، التى وقعت فريسة العوز: قائد طيبة الجبارة، الإله الطيب محبوب رع، ابن الإله "أمون" ملك الأرباب، حامى مدينته عندما سقطت تحت...المدافع عنها (؟) ضد الأجانب (الذين...لها. البلدان الأجنبية التى تمرّدت، صعقها الرعب من والده "أمون": الذي أطاح بمعارضة الذين ثاروا ضده"* (٣).

يستطيع المرء أن يظفر في ثنايا هذا النص، على ما هو عليه من بعض المبالغة والرطانة والطنطنة بلمحة من "طيبة" وقد ضربتها المجاعة، وأحدقت بها عصابات النوبيين التى يسيطر عليها الاستياء (؟) وأنقذها تدخل قد يكون بلا جدوى كبيرة، قام به ملك لو لم يقدم على ذلك التدخل لما استمر طويلاً في عرشه.

لكن النص يتصف أيضا بصفتين: عنهجية وطنية وهراء. ويطلعنا نص غير منشور، منقوش على "صادود" نصبه ملك يدعى "مونتو- حوتب" على الصفة الأولى. فـ"مونتو - حوتب" هو: *"حورس الذي يحبه جيشه، إني أنا الملك...الذى رد كيد كافة البلدان الأجنبية وأنقذ مدينته من (العوز)..شبيه "سخمت" * في سنة الوباء..."طيبة" هذه هي مدينتي. سيدة البلاد جميعاً. المدينة المنصورة.* (٤)

وهكذا كانت "طيبة" في حاجة إلى الإنقاذ، والبلاد الأجنبية تشكّل تهديداً، والنصر لا يأتي إلا خلال الحرابة الشرسة، و"طيبة" منصورة، وتقف على رأس كافة البلاد. وتلك هي "التيمات" التى تستدعى إلى الذهن في ذات نفس الوقت الأعراف السامقة للأسرة الثانية عشرة والإفلاس التام للثالثة عشرة.

أما المشهد الأخير فقد يكون في مقدورنا أن نطلق عليـــه ("طيبــة" تغــرق والحاكم يلهـــو). فلقد ترك لنا "سوبك - حوتب" الثامن "صادوداً"، وإن كان غير متقن الصنع في معبد الكرنك، مزار العائلة، يقــول فيه ما نصـه: *"ليحيا ابن رع، سوبك - حوتب"، محبوب الفيضان المعظم. يطول عمره للأبد. سنة الحكم الرابعة، الشهر الرابع من فصـــل الشومو * (الصيف. م) اليوم الخامس من أيام النســئ ؟ * "Epagomenal" تحت حكم الإله، يطول عمره للأبد ! تقدم جلالته إلى القاعـــة الواسعة لهذا المعبد (الكرنك) كي يلقى نظرة على الفيضان المعظم، وعندما خطـــا جلالته إلى القاعة الواسعة في هذا المعبد كان الفيضان المعظم. قـــد بلــغ أقصـــاه وعندئذ خاض جلالته فيه".*

نظام ري منهار، وحاكم لا يقع اختياره على أى مأثرة Res gastae تحـت ظل حكمه للاحتفال بذكراه إلا "حفل طرطشة ماء". حقاً كانت النهاية على وشـك أن تحل. ويبدو واضحاً أن الأدلة الأثرية على التدمير العنيف للمدينة التى قامت إبـــان المملكة الوسيطة تجد تعزيزاً وتفسيراً لها في "أزمنة الاضطرابات" التـــى ألمحـت إليها على استحياء النصوص التى فحصناها قبل قليل.

غزت شعوب ناطقة بالسامية الغربية مصر في وقت ما في مطلـــع القــرن السابع عشر ق.م (نحو ١٦٧٠ق م.)، وهى الشعوب التى إنقضت تخــرّب الدلتـا ومصر الوسطى حتى القوصية Cusae وأعطى قادة الغزاة، الذين أطلــق عليـهم المصريون مصطلح "حقاو- خاسوت" (أي الحكام الأجانب. م) الذي حُـــرّف فـي أوقات لاحقة إلى "الهكسوس"، البلاد الأسرة الخامسة عشرة التى شملت سلسلة مــن ستة ملوك حكموا مصر لما يزيد قليلاً على القرن. وإبان ذلك العهد انتقل مركـــز السلطة إلى الدلتا ووقع مصير نصف البلاد في أيد أجنبية.إلا أن "طيبيـــن" فقــراء ظلوا يتمتّعون، بفضل عوامل الجغرافيا أكثر من جهود "طيبة" ذاتها، بنوع ما مـــن الحرية بعيداً في جنوب البلاد.

بين الدمار الذي لحق مدينة "طيبة" خلال المملكة الوسيطة في أواخر القــرن الثامن عشر ق.م (؟) ومطلع القرن الرابع عشر، استقرت النظـرة إلـــى المنــاطق الشاسعة المتاخمة لشرق الكرنك كمناطق غير صالحة لسكنى البشـــر. ولقــد أدت

الملاحظة العابرة على امتداد الخمس والسبعين سنة الماضية بعديد من علماء المصريات، واستناداً إلى المادة المتوفّرة من الشّقف وحدها، أن يرتأوا أن المنطقة استخدمها شعب القبور- القدور كجبانة، وهذه كانت تضم قبور جماعات المحاربين النوبيين الذين انخرطوا تحت إمْرة ملوك "طيبة" من الأسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة منذ المراحل الأولى لمحاربتهم الغزاة الأجانب للدلتا، وهم معروفون جيداً من واقع جباناتهم التى تمتد من أسوان حتى أسيوط. وتقوم على أصولهم الجنوبية شبه البدوية شواهد بليغة من فخارهم، وعظام الثيران التي ظهرت في قبورهم، وأسلحتهم. إلا أننا لم نكتشف حتى تاريخه قبوراً - قدوراً سليمة، رغم أن أطفالاً من المنطقة كشفوا النقاب عفو الخاطر عن أحد تلك القبور التى ترجع إلى الأسرة السابعة عشرة .

الفصل السابع

معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه"

(جم - ت - با - أتون)

لا يزيد معبد *قرص - الشمس* - إهتدينا إليه" أو باللغة المصرية في مرحلتها الهيروغليفية "جم - ت - با - أتون" ، في حدود الأضواء التى ألقتها عليه حفائرنا، عن مستطيل بسيط، وإن كان رحباً، تبلغ مساحته حوالي ١٣٠ في ٢٠٠ (؟) متراً، ينظر باتجاه الشرق. ويتكوّن من فناء مكشوف مقسّم على ما يبدو، بجوائط وبوابات جانبية، ويسير حول محيطه الخارجي رواق مسقوف من الأعمدة المربعة، يجاوز ارتفاع الواحد منها سبعة أمتار، بالإضافة إلى ارتفاع أعلى بالتناظر مع السقف. وإستناداً إلى كل عمود يقوم تمثال للملك ينظر باتجاه الفناء (شكل ١٠،١١ لوحة ٤-٢). والتماثيل منقوشة بألوان زاهية وتصوّر الملك بتلك الطريقة الغريبة والشاذة عن المألوف التى تسيم سنواته الأولى في الحكم. حقاً هناك اختلاف بسيط في ذلك الجزء من الفناء حيث تقلّصت عوادي الدهر إلى أقصى حد (أى في الركن الجنوبي الغربي). فالتماثيل تبدو وكأنها تتناوب ارتداء غطاء الرأس المعروف عن إله الهواء "شو"*، وهو الغطاء ذو الريشتين، والتاج المزدوج الذي يرمز لحاكم الوجهين القبلي والبحري. والزي ,وهو على أى حال لا ينطوي على أى جديد عما كان عليه خلال عهد والده الفرعون "أمين-حوتب" الثالث، إلاّ أنه أمعن في تكرار رسمه حتى حدود الإملال. وهو لا يزيد على نُقبة من الكتان الخالص لا تصل إلى أبعد من قصبة الرِّجل، منشّاة ومثنّاة والأحرى مكسّرة وتلف حول الردفين، ومعقودة تحت السرّة. (لوحة رقم ٧-١) ومعظم التماثيل التي تكشف عن هذه النقبة محفورة في الحجر، ولكن أحد التماثيل يكشف عن بدن عار دون أعضاء تناسلية ! ولقد أثار هذا التمثال الغريب الذي خرطه فن النحات ؛ عدداً لا نهائياً مّن التساؤلات الرزينة بين زملاء لا ينقصهم الوقار. أيكون هذا التمثال في حقيقة الأمر للملكة "نفرتيتي" ؟ هل يريد النحّات أن يصوّر "أمين - حوتب"

الرابع كُخنتى ؟ هل يعبر الأمر عن مذهب لاهوتي عميق ؟ إلا أنني أستطيع، من جانبي، أن أتصوّر أن الأعضاء ربما كانت مكسوّة بنوع ما من رداء مناسب. وفى سائر الأحوال لا أراني بحاجة ماسة إلى الإشارة إلى أنه من سوء التقدير أن ننقّب عن معانٍ عميقة في مثل هذه الشطفة من دليل واه.

فن العمارة

كانت أعمدة الرواق منحوتة من حجر رملي خشن نوعاً ما، مغطى بقشرة من حجر من نوع آخر، فاخر أكثر. وتصل مساحة قاعدة كل عمود إلى ١٫٨٠ x ٢ متر وكانت الأعمدة مفصولة الواحد عن الآخر بما يصل إلى مترين. وكانت معظم الأعمدة بطول الضلع الجنوبي بأكمله منزوعة القشرة حتى فَرْشات الشّطف التحتية، فيما عدا تسعة أعمدة فى الركن الجنوبى الغربى (ستة إلى الجنوب، وثلاثة إلى الغرب) وحسب تكشف عن كوم من الحجارة لا تزال باقية من تلك القشرة.

يشكل حائط المعبد على الجانب الجنوبى ظهر الرواق خلف الأعمدة، وهناك مسافة تصل إلى مترين على وجه التقريب تشكّل ممشى مسقوفاً. أما الحائط نفسه ؛ الذى عثرنا منه، فى المربعين A ؛ AB على ثلاثة مداميك، لا تزال باقية فى (أساس الخندق) فوصل سمكه عند القاعدة مترين وعشرة سنتيمترات. وكانت هذه المداميك تتكون من أربعة صفوف من القوالب العراضى (أى تلك توضع بالعرْض. م) تتناوب مع نواة تتكوّن من ثلاثة صفوف من القوالب العراضى تواجهها على الجانبين القوالب المدادية (أى تلك التى توضع بالطول. م) وهذا الأمر أدى بالتحديد إلى ما كان الحساب التقريبى المستمد من التجربة والخطأ قد تكهّن به، أقصد: مداميك متناوبة من القوالب العراضى وتلك المدادى فى وجه الحائط. إلا أن الحائط كان منزوع القشرة تماماً إلى ما دون مستوى الأرضية المعاصرة. ولكن زوجاً من المداميك يرتفع عن مستوى سطح الأرض نجا من عوادى الدهر، لحسن الحظ، فى الركن الجنوبى الغربى، فضلاً عن سلامة لفيفة

الحلية المعمارية (لوحات أرقام ٧-٣ حتى ٥). ولقد كشف القطاع خلال الحـــائط، على النحو الذى بدا عليه، عن "بَرُو" بسـيط ، وإن كــان واضحــاً علــى الوجــه الخارجي. أما الوجه الداخلى الذى نُحتت عليه الجداريات، فكان بطبيعـــة الحـــال، خلواً من أى "بَرْو" من ذلكَ النوع الذى كنا قد إستنتجنا وجوده منذ وقت طويل عنـد التوفيق الفوتوغرافى الذى بدأنا به لكتل "التلاتات".

يدور سور الفناء (شكل ٩) المبنى من قوالب الطوب المجففة فــى حــرارة الشمس، حول محيط المعبد بأكمله، على مسافة تبعد خمسة أمتــار مــن الحــائط الحجرى الذى وصفناه للتو. ولم تكشف عمليات التنقيـب حتــى الآن عــن سـمك السور، إلا أن أطلاله إستمرت على قيد البقاء فى بعض المواضــع إلــى ارتفــاع ملحوظ نستطيع أن نقول عنه، من الناحية الأثرية، أنه يصل إلــى مــتر أو أكــثر. وعلى نحو ما هو معروف عن كثير من أسوار الأفنية فى تــاريخ لاحــق، فــإن مداميك الطوب تكون متماوجة، عند النظر إليها أفقياً، علـــى مســافات منتظمــة. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المدماك العازل للرطوبة عند قاع خنـــدق الأســاس تتناوب قوالبه عند هذه المسافات، بين قوالب مبنية رأسياً مع قوالب أخــرى مبنيــة أفقياً. وكان باقى الأساس"مستَفاً" بقوالب موضوعة بصورة متســرّعة مــع بعــض الدقشوم، إلاّ أن هذا الترتيب الساذج لأول مدماك أرضي ترك أثره على أوضـــاع كافة المداميك التى تلت مستوى الأرضية.

وإذا كان المعبد ينظر بإتجاه الشرق، على نحو ما تشير إليه كافــة الأدلــة المتاحة، فينبغى علينا أن نتوقّع وجود بوابة أو ربما مدخل فخــم علــى الجــانب الغربى. وهنا نجد أن كافة الأطلال قد تعرّضت لنهب شديد. ترى أين يحق للمــرء أن يتوقّع وجود قائمة البوابة أو برجيْ الصرح ؟ لم يبق من كل ذلك شــيئ اللــهم سوى حفرة عميقة تقف على جانبها كتلة ضخمة من الجرانيت .وشــماليّ المحــور الشرقى- الغربى، ذلك المحور المظنون للبناء مربعان غير منتظمين غائران فــى منطقة سبق لــ"شيفربيه" أن طهّرها. فهنا يسير صفّــان مــن القواعـد الحجريــة المستطيلة، يصل طول كل منها إلى٠,٨٠ ×١ ٢٥و١ متراً فى إتجاه شرقي-غربــي، ويتاخمها على الجانب الجنوبى حائط مبنى من كتل "التلاتات" يبلــغ ســمكه ١,٦٠

متراء ويسير فى نفس الإتجاه (شكل ١٢) ويكشف وجود هذا البناء غير المتوقع عن شذوذ فى تناسق المعبد فى ضلعه الشمالي، وهو أمر يسبب لنا الحيرة. فهل هذه الأعمدة تشكل، مع الحائط، جزءا من منفذ إضافى من نوع ما، أم أننا بإزاء مبنىً منفصل يتطفل على الضلع الغربى لمعبد *قرص – الشمس* إهتدينا إليه" أو "جم – ت – با – أتون" (لوحة رقم ٧-٦).

إلى هنا زاغ منا السور – الحائط الشمالى، وبالتالى تقدير عرض المعبد على نحو دقيق. وفى سنة ١٩٧٦ أجرينا مسحا بالماجنيتومتر * فى أجزاء متعددة من شرق الكرنك، وكان إختيارنا قد وقع عليها لإجراء عمليات التنقيب. وتمثل أحد أهدافنا ؛ فى هذا الصدد ؛ عبر سياق من القراءات التى تجرى من الشمال إلى الجنوب، فى محاولة الوصول إلى الحائط الشمالى، الذى سيكون فى إستطاعتنا فورئذ أن نتعرف عليه، أو هكذا شعرنا، بصفته شذوذا بارزا. وكنا قد رصدنا مثل ذلك الشذوذ عند نقطة تبعد حوالى تسعين مترا شمالى الحائط الجنوبي، إلا أنه لم يكن واضحا على نحو ما ذهب بنا الأمل. فمع الأسف، وعلى نحو ما اكتشفنا عندما بدأنا حفائرنا فى هذه المنطقة فى ١٩٧٩، التقط "الماجنيتومتر" وجود الحوائط الأساسية لبيت يعود إلى العصر الصاوى أى القرن السابع والسادس ق.م: لكننا لم نعثر على شئ بالمرة عند مستوى الأسرة الثامنة عشرة الأشد إنخفاضا.

وبناء عليه قمنا بتحديد أو تجنيب قطاع جديد لإستطلاعنا، تصل حدوده، شمالا، إلى أقصى ما يسمح به الإمتياز الممنوح لنا. ووقع إختيارنا على خندق من نوع "أنبوب الغاز" * تصل أبعاده إلى ٣ x ١٠ أمتار ويسير فى الإتجاه الشمالى الجنوبى بعمق شبكة من الخوابير تبلغ ٧٠x ١٧٠مترا. وأصبح لزاما على هذا الخندق أن يتحرك شمالا إنطلاقا من منخفض غاية فى الإتساع، ومملوء جزئيا بالماء، وهو الإنخفاض الذى وقفت عنده آخر الحفائر الميئوس منها، التى قام بها "شيفربيه" في سنتي ١٩٥١، ١٩٥٢، قبيل إعتزاله العمل فى هيئة الآثار المصرية. وكان الرجل قد قام خلال هذين الموسمين بمحاولة أخيرة، على نطاق واسع، كى يصل إلى الضلع الشمالي للمعبد. فأنشأ خط سكة حديد ضيقا ونقل الرديم

على عرباته. إلا أن الحظ لم يحالفه في مسعاه، فلم يكشف أي دليل يستحق منه التقدير (ولو أن المرء يعتقد أن الرجل حصد، على ما يبدو، محصولاً وفيراً من المعلومات). نزلنا بالخندق الذى حفرناه وأطلقنا عليه اسم F.E إلى مستوى الأسرة الثامنة عشرة في غضون موسمين، وفي أواخر يونيو- يونية ١٩٨٠ ، كنا قد بلغنا سطح كتل "تلاتات" مهشّمة من الحجر الرملي- كانت حوافها المسحوبة ظاهرة، بجلاء للعيان- وتتشابه بصورة واضحة مع مستوى الدمار الذى قابلناه قبل أربع سنوات على الضلع الجنوبي. وعندئذ بدا لنا وكأنّ الضلع الشمالي قد أصبح على وشك الكشف عن نفسه !

كانت هناك إشارات مواتية كذلك. إذ ظهرت إلى النور ثلاث شُطف تماثيل، إحداها، ورغم أنها أصغرها، ما كانت إلا لتشكّل جزءاً من صدر تمثال عملاق. أيضاً أشار، وجود ثلاث قطع كانت فى الأصل جزءاً من لفيفة حلية معمارية، ولو أنها لم تكن فى مكانها الأصلي In situ لحظة الكشف عنها، إلا أن أحد الأركان (وهو شمالي غربي دون شك) لم يكن ليبعد كثيراً عنا وتقضى قواعد الإتساق أن يتكرر تنسيق الرواق الجنوبى بأعمدته وجدارياته وتماثيله العملاقة فى الشمال: هذا الدليل الذى إستمدّناه من الخندق FE كان متفقاً مع فرضياتنا تمام الإتفاق.

وعود على بدء، كان الإحباط ليصيبنا. فمستوى الحجر الرملي المهشّم لم يكن ليزيد فى السمك على خمسة عشر سنتيمتراً بالكاد، ولما كان الحجر قد تفتت إلى نوع من الجريش المندّى بالرطوبة، فلقد تبين لنا أن ملامح الكتل عبارة عن أشباح، وشعرنا أن العثور على قطع لا تزال تحمل نقوشاً ليس إلا من قبيل الظنون (ولم نجد لدينا دليلاً على خندق أساس ولا قواعد لأعمدة، رغم أننا لم نكن على مسافة كبيرة من ذلك الدليل. وحاولنا التخفف من فكرة مثبّطة للعزم لبدت في تلافيف أدمغتنا: ماذا لو كان "شيفرييه" قد دمّر، فى غضون حفائره المهووسة، هذا الركن دون قصد ؟

زخرفة الجداريات

لم تكن أكوام كتل "التلاتات" المهشمة، تلك التى تمثّل مرحلة تدمير المعبـــد، محصورة فى المربع رقم A ولكن اتضح لنا أنها ممتدة بإحكام أقل إلى الخلف: أى جنوبيّ الرواق الجنوبي ومنحدرة إلى الركن الجنوبى الغربي. بل ولم تتوقف هنـــا، فلقد إستمرت تسير بإمتداد الضلع الغربي كذلـــك. (لوحـــات ٧ مـــن ٧ حتـــى ٩) والحقيقة، حيثما سارت حوائط كتل "التلاتات" أيقّنا من العثور على أكوام من شطف الحجر الرملي. وفى كل هذه الأنقاض المترامية الأطراف، كانت قطـــع مزخرفـــة بالجداريات من الحوائط القديمة تظهر، بالضرورة أمام أعيننا. وحتى تاريخه ظـــهر لنا، من هذا النوع من القطع ما يزيـــد على ٣٥٠ قطعة، وإن لم نستطيع الإهتـــداء لها كلها، على الأماكن الصحيحة.

صار واضحاً منذ مرحلة مبكرة فى عملنا أن التعيين الدقيق لموقع الشـــطف المزخرفة فى أكوام الرديم ، كان على درجة فائقة من الأهمية. ولما كـــانت هـــذه الشطف لا تزال ملقاة حيثما سقطت لأول مرة من نقطة محددة على إمتداد الحـــائط، ولم تتعرض للنقل بعد ذلك، فإنها تستطيع أن توفّر لنا، إذا ما تمكنّا مـــن التعـــرّف عليها مفتاحاً ، والأحرى "أمارة" إلى نوع المنظر الخاص الذى إستخدمه الفنـــانون فى زخرفة هذا القطاع المحدد من الحائط. وهنا قفز إلى ذهننا فوراً إحتمال توليـــف سياقات كاملة من جداريات ظلت غير مترابطة حتى ذلك الحيـــن، علـــى إمتـــداد مساحة متّسعة من الرواق. وبدأنا ندوّن، بعناية فائقة، مواضـع كل القطع المزخرفة، بصرف النظر عما قد تكون عليه من صِغر. ومع حلول نهاية موسم ســـنة ١٩٧٨، كنا قد تمكّنا من إعادة تشييد ما يصل طوله إلى أربعين متراً من حائط يقع بـــإمتداد الضلع الجنوبي، شرقيّ الركن الجنوبي الغربي وما يصل طوله إلى عشرين مـــتراً بإمتداد الضلع الغربي . وتُعـــيّن الخريطة رقم (١) الشّطف الرئيسية التى نجحنـــا فى التعرّف عليها فى ضوء المربع الذى تنتمى إليه والمسافة التـــى تبعدهـــا عـــن الركن، على إمتداد الرواق، كما أن هذه الخريطة تحدد نوع المنظر الـــذى جـــاءت

منه تلك القطع.

هناك مفاتيح عديدة هنا تشير إلى طبيعة المناظر وسياقاتها. فالخراطيش الرأسية الضخمة التى أثبتت وجودها القطع القريبة من الركن، على سبيل المثال، تؤيد الظن الذى راودنا طويلا، نتيجة لتوفيق كتل "التلاتات" خلال المرحلة التى عملنا خلالها فى المكاتب، من المشروع. ففى تلك المرحلة تعرفنا على نوع من الكتل، يشغل الزاوية الداخلية لركن ما، ويحمل على وجهه آثارا منحوتة لرموز هيروغليفية ضخمة. وكشف التوفيق بين مثل هذه الكتل عن أعمدة رأسية من الخراطيش والألقاب لإله الشمس وهذه تنتهى، بجلاء، بالحدود الرأسية عند نهاية الحائط.

أدى وجود مناظر لرجال بلاط فى وضع الركوع مع بقايا نتف من كلامهم بنا إلى أن نخمن وجود نظائر لها. حقا لم نكن قد توصلنا إلا إلى عبارات محدودة، إنبثقت خلال عملية التوفيق، وكانت كلها على لسان الملك. أما الردود الناعمة التى تتسم بالمداهنة، فكانت، من جانب رجال البلاط المجتمعين، عنصرا ذائع الصيت فى مناظر الجداريات المصرية حيث يلقى الملك، خلال "جلسة ملكية" خطابا يحدد فيه الخطوط العامة لاقتراح ما. ولا غرابة البتة فى أن يصور الفنانون مثل هذا الخطاب الذى تتضمنه الإحتفالات على جدران معبد *قرص- الشمس* إهتدينا إليه" أو "جم – ت – با – أتون".

ولكن الإكتشاف الأكثر إثارة، والمستمد من توفيق القطع التى خرجت من حفائرنا هو الحضور الكلي للمنظر الذى يصوّر موكب الإحتفال باليوبيل. (لوحة رقم ٧-١١) وكان قد إتضح منذ وقت طويل أن هذا النوع من المناظر هو الأكثر شيوعاً بين ما يمكن أن نتعرّف عليه من مناظر خلال عمليات التوفيق بين الكتل التى قمنا بها، ولكننا ظللنا نجهل كيفية إستخدام هذا النوع من المناظر والأسباب التى جعلتها تتكرر إلى هذا الحد الذى صادفناه حتى بدأنا حفائرنا. ولم يكن "الموتيف" ليتغير إلا بصورة طفيفة ويشمل سلسلة من النقوش التى تتتبع سياق الحركة. فالملك والملكة يظهران أثناء مغادرتهما القصر وجلوسهما فى الكرسيين الإحتفاليين اللذين سيحُملان فيهما، بينما يخر الحجاب على وجوههم (لوحة رقم ٧-

١٢) وعندئذ يحمل الحمّالون حمولتهم، ثم يصطف حملة الشماسى ويرفعون مراوحهم الضخمة ويركع رجال البلاط (لوحة رقم ٧-١٣) وهنا ينطلق الموكب من القصر، ويصوّر الفنانون تقدّمه فى السجلات الأدنى للحائط. ولكننا لم نستطع حتى الآن، للأسف أن نُعيد بناء أى منظر يحتوى على تلك الأجزاء التى تصوّر لحظة الوصول إلى المعبد فالكتل المعنية مفقودة باستمرار: (لوحة رقم ٧-١١) ولكن ليس هناك شك فى أن الموكب وصل، كما هو الحال فى "أخيتاتون" إلى صرح ما وتلقى تحيات الكهنة. (شكل رقم ١٤) على أن فناء المعبد مصوّر على نحو جيّد فى المناظر التى قمنا بتوفيقها. (شكل رقم ١٥) ودرجت العادة على تصوير الحائط الواحد متعرجاً داخل دائرة مزدوجة، كخط متموّج. وتقطع البوابات السرية بين الحين والآخر إستمرار الخطوط. وفى بعض الأحيان نجد صرحاً (تذكارياً) ضخماً بصوارى الأعلام والرايات المرفرفة أمام كل ذلك. وداخل الفناء، المحدد وفقاً لرسم بيانى، تظهر العديد من السجلات المصغّرة للملك أثناء تجواله بين جواسق (أكشاك. م) صغيرة غير مسقوفة. ويصاحب الملك فى تجواله ثلاثة من كبار الشخصيات: الكاهن الأعلى للشمس، كبير الكهنة المقرئين، والكاهن الأعلى لـ"نفر - خبرو- رع، واع - ان -رع" (أى الملك ذاته). وتحتل رحلة العودة من المعبد إلى القصر السجلات التى تعلو مباشرة تلك التى يظهر فيها الموكب الخارجى ؛ حتى تكفى نفس الرسوم فى القصر والمعبد لتصوير المسيرتين، المتجهة إلى الخارج، وتلك العائدة إلى مقر الحكم، وتقوم بمثابة الحدين، الأيمن والأيسر، لـ"وحدة عضوية" لمنظر جدارى.

تكشف الشطف التى إستخرجناها خلال حفائرنا، بوضوح، أن مثل هذا المنظر يشغل حائط الرواق فى قطاع المربع رقم A وينبغى على المرء أن يتوقف بوجه خاص أمام الدليل القائم بين علامة ٨-٣٢ متراً، وهو الدليل الذى يشير إلى وجود حائط متموّج وصرح. وهذا هو النهج الذى يجب علينا أن ننتهجه تجاه المعبد، وتلك فرضية يبدو أن وجود أجانب يركعون، وحضور كهنة فى نفس المنطقة بوجه عام يؤيدانها. وعلى نحو ما كان بوسع المرء أن يتوقع لم نكد نمضى نحو ٣٢ أو ٣٦ متراً من الركن حتى عثرنا على شطف تحمل صورة التختروان،

قبل وبعد حمله على الأعناق، مع حماله. وهنا نكون، بكل تأكيد، قد اقتربنا من ذلك الجزء من المنظر الذى يصور حركة الإنتقال إلى ومن المعبد. وقد يشير حمّالو التختروان الراكعين على بعد نحو ٣٧ متراً على وجه الترجيح، إلى نهاية الرحلة ودخول الملك مرة أخرى إلى قصره. وعندئذ تشغل المسيرة بأسرها، من القصر إلى المعبد نحو سبعة أمتار على إمتداد الحائط، ولعله مما ينطوى على مغزى هام أن المنظر كان أكبر منظر جداري إستطعنا توفيقه حتى تاريخه، أى رقم TS 235، وهو يعد تصويراً مفصّلاً رائعاً لإجراءات الموكب، ويشغل مساحة تصل إلى نحو ٧,٥ متراً من واجهة القصر إلى عتبات المعبد ! ولقد إكتشفنا شطفة فى المربع رقم AIII يظهر فيها الملك وقد ارتدى التاج الأبيض (تاج الوجه القبلى.م.) ويبدو أنها تكمل جزءاً من المنظر TS 235 ، وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا المنظر ذاته الذى وجدت كتله وقد أعيد إستخدامها فى الصرح التاسع، سوف يكون قائماً على امتداد الرواق الجنوبى على بعد نحو ٢٩ إلى ٣٧ متراً من الركن (١) أما جزء المنظر رقم TS235 الذي يظهر فيه القصر فيمكن أن يقع على وجه الإحتمال، والحالة هذه، عند نقطة تبعد من ٣٧ إلى ٣٨ متراً: ولكن الشطف على بعد ٣٨ إلى ٤٠متراً على الحدود الشرقية لحفائرنا فى المنطقة A تؤيد وجود تصوير لمعبد آخر، لم نهتد إليه بعد، مع الاحتفالات التى جرت هناك. ولابد أن يشكّل هذا التصويرالطرف الغربي لمنظر يصوّر "موكباً" آخر، وهو المنظر الذى يمكن أن يمتد بطول الرواق لمسافة أكبر بإتجاه الشرق (حيث يقع الآن خندق الصرف). وعود على بدء إلى الغرب، وبينما تنم الشطف المستخرجة من مسافات تتراوح بين ٢٦و٢٠ متراً من الركن عن وجود مناظر للشعائرالتي تُقام في المعبد، وبالتالى يكون لزاماً أن ترجع فى أصلها إلى الوحدة رقم TS 235 فإن تلك الشّطف التى عثرنا عليها بين علامتى ١٥،١٨ متراً تؤيد وجود القصر مرة أخرى • فيما بين ٨ و١٤متراً يشير الحائط المتموّج مرة أخرى إلى وجود مجمع المعبد، حتى أن منظرا "مواكبياً" آخر، لم نهتد إليه بعد، لابد وأن يكون موجوداً بين نقطتى ٨و ٢٠ متراً.

تجمع الأدلة التى مررنا بها، خلال معاينتها، إذن، على تأييد الرأى الذى

يذهب إلى أن الحائط الجنوبي للمعبد كان مزخرفا بسلسلة من "وحـــدات جداريــة" تتخذ من مواكب اليوبيل موضوعا لها. ولا يزال بمقدورنا التعرف على بقايا ثـلاث من هذه الوحدات، التي تغطي في مجموعها قطاعا من الحائط، يمتد لما يقل عـــن خمسين مترا من الركن. ويظهر في كل من هذه الوحدات التي تغطي في مجموعها قطاعا من الحائط، يمتد لما لا يقل عن خمسين مترا من الركن. يظهر في كل مـــن هذه الوحدات، القصر والمعبد والأنشطة التي تجرى في كل منـــها، عنــد طرفـــي الوحدة، مفصولة بمدونات مخصصة لتصوير الموكب ذاتـــه. وينبغـــي علينـــا أن نقـــدر أصلاً، أن كل نمـــوذج من "الموتيف" متماثل مع ذلك الذي يقع بجـــواره وبالتالي فالوحدة الأشد قرباً من الركن يبدو أنها إنطوت على عبارات طويلة علـــى ألسنة رجال البلاط أثناء ركوعهم، رغم أننا لا نستطيع التأكد ممـــا إذا كـــان ذلـــك يحدث في القصر أو المعبد أو في الطريق بينهما. وكان النموذج التالي للموتيف في جهة الشرق مصحوباً بمناظر لجزارين منهمكين في عمليات الذبح. ونعـــرف مـــن مصادر أخرى أن الإحتفال باليوبيل كان بمثابة فرصة سانحة للملـــك كـــي يُولـــم للشعب على موائد فاخرة تحتل فيها أطباق لحوم البقر مكانـــة بـــارزة . وصـــور الجزارين والثيران المذبوحة في المجزر تغص بها الكتل التي وفقناها مع بعضـــها البعض الآخر. وفي أحيان كثيرة كانت الجداريات تصوِّر بشكل خاص ثوراً ســميناً أثناء "ترقيمه" بينما تقوم جماعة من الخدم الذين يتدفّقون حماساً بجره علـــى متـــن عربة أو زحافة: فلقد ألزمه علافوه القعود لمدة بلغت من الطول حداً أعجزه عـــن المشي على قدميه وتقوست معه حوافره إلى أعلى . وكثيراً ما تحتل مناظر الجزارة مواضع منخفضة على الحائط، كنوع من التخوم الأفقية على امتداد قاع هذا المنظر أو ذاك، أوعلى الأقل كان ذلك هو الانطباع الذي خرجنا به حول كيفية اســـتخدام مناظر الجزارة تلك على الحائط في نطاق المربع رقم AB

ولما كان الرواق الجنوبي قد سُهدم تماماً إلى ما دون المستوى الأرضـــي، فإنه يغدو من الصعوبة بمكان أن نؤكد ما إذا كانت البوابات السرية قـــد اخـــترقت الحائط في نقط معينة. وفي مربعات معينة (مثل AIII ، AIV وكل AC) لاحظنا أن عدد الشطف المزخرفة يقل بشكل مفاجئ وحاد، بالمقارنة مع المنـــاطق الموجـــودة

على أى من الجانبين، وهو الأمر الذي يشي بوجود فتحة مـــا، وبالتـــالي بتقلـــص مساحـــــة الحائط، التى تسمح بالزخرفة. وفى مربعيAII ، AIV تقطع حفرة عميقة مليئة بكتل من الحجر الرملي خط الرواق، كما لو كانت مخصصة لرفع بناء علوي ثقيل، وعلاوة على ذلك فالشطف الراجعة إلى تماثيل مهشمة (إحدى هذه الشـــطف تشير إلى صادود) موجودة في المربع AII ، ولما كانت مثل تلـــك التمـــاثيل تُقـــام بالقرب من إحدى البوابات، فإنها تؤيد الفرضية التى تقول بوجود فتحة من نوع مـــا هنا.

استمرت تظهر عينات كتل "التلاتات" المهشمة، تلك التى قدمت مثـــل ذلـــك الدليل الكاشف في المربعات الأربعة من A حتى AD دون نقصان في مربعي(E) و (E E)على الضلع الغربي للمعبد. وكان الخندق الذي حفره "شيفربيه" قـــد أنـــزل كافة الكتل من الركن الجنوبي الغربي باتجاه الشمال لمسافة عشرة أمتار. ولكن عند تلك النقطة (أقصد عرض مربعي(E) و (E E)وعارضتهما) فإن مســـتوى التدمـــير القديم ، المكتشف ، سليم على حاله لم تلمسه يد.

تقدم الخارطة رقم ٢، للشطف المكتشفة التى يربـــو عددهـــا علـــى ١٢٠ شطفة، دليلاً على توزيع "الموتيفات". ومضمون نقوش الجداريات في هذا القطـــاع، لو كان لنا أن نقف عليه، أيسر على التعرّف من ذلك المضمون في منطقةA وعود على بدء ، ولمما ينطوي على إثارة بالغة أن تتناول مواكب الاحتفـــــال بـــاليوبيل. ولكننا هنا نجد تصويراً أكثر سهولة وعلى جانب من التفصيل واللمسات المنزليـــة في شطف القصر، المستخرجة من نحو ١٤ – ١٥ متراً، ورغم أنها معروفة جيـــداً في المناظر الموفقة أى تلك التى وفقناها، إلا أنها غائبة فـــي منطقـــةA بمحـــض الصدفة، وهو ما يرتاب فيه المرء. (شكل ١٦) فمناظر القصر يظهر فيـــها، فـــي العادة، كل من الملك والملكة وقد جلسا الواحد أمام الآخر عبر مـــائدة تئـــن تحـــت الأطعمة، بينما يطوف الخدم حولهما حاملين قناني النبيذ. وتعزف فرقـــــة، بعـــض أفرادها عميان من آسيا، للزوجين بغية الترفيه عنهما، وعما قليل سوف يطل الملـــك والملكة من "شرفة التجلي" ويلقيان تحياتهما على رجـــــال البـــلاط المجتمعيـــن – تحت – في فناء القصر. وتبرهن آثار "التختروان" وحامليه، فيمـــا بيـــن ١٤ و١٨

متراً، على وجود موكب مرتقب إلى المعبد وآخر عائد منه، وفـي نفـس الوقـت تصور معظم، إن لم نقل كل، القطع المستخرجة من المربع رقمE (أقصد مـن ١٨ إلى ٢٧ متراً) ذلك الموكب.

إلا أن مناظر المعبد بدت مختلفة بعض الشيء عن تلك المناظر المصـورة على امتداد الضلع الجنوبي المجاور: ولا يبدو أن هنا وجوداً لأي مناظر للملـك أو لمعيته من الكهنة أثناء تقريبهم القرابين في المزارات غير المسقوفة، ولكن شـطفة تحمل رسماً لأحد رجال البلاط خلال قيامه بصب قربان النبيذ في أحد الأحـواض، تلقى بنا في خضم سياق "موتيف" قامت عليه أدلة قوية في المجاميع المكررة التـى وصلت إلى أيدينا من زخارف معبد *قرص – الشمس* اهتدينا إليه". فالملك يقـرّب قرابينه على مائدة ضخمة، وأمامه سلسلة من الموائد الأخرى، بمقـاييس أصغـر، يقف خلفها رجال البلاط ، وكل منهم يرفع مبخرة تجاه الملـك و/أو يصـب بـاليد الأخرى قربان النبيذ. ويعلو رأس كل منهم نص هيروغليفي موجز يسجّل عبـارة تبرّك، جذلة مفعمة بالمديح، وتقول كلماتها شيئاً ما لا يخرج عن : فليرعاك قـوص – الشمس، وليهبك آيات الصحة، أيها الحاكم "نفـر – خـبر – رع"...! ولابـد أن يكون هذا النذر للقرابين قد سبق مد مأدبة على نطاق واسع وعلى نحو ما ذكرنـا في وقت سابق فإن مثل هذه المظاهر التى تتخذها عطايا الملك تشكل إحدى السمات الخاصة باليوبيل. ولعله يقع في نطاق مملكة الإمكان أن يكون مد البساط، على نحو ما أكدته الأدلة في القصر عند ١٣ – ١٥ متراً مرتبطاً بهذا الكم الهائل من القرابين المنذورة.

عيد "السد" في مصر

تتخذ معظم، إن لم تكن كل، زخارف الجداريات التى أفصحت عنها الشـطف المكتشفة من معبد *قرص – الشمس* اهتدينا إليه" عيد يوبيـل الملـك، أى باللغـة المصرية (القديمة) "عيد السد" ترى ماذا تكون، في حقيقة الأمر، تلك الشعيرة التـى سيطرت على العاصمة، إلى ذلك الحد، خلال السنوات الأولى للحكم الجديد[٧] ؟ لمـاذا

استولى مستقبل مثل ذلك الاحتفال على لب "أمين – حوتب" الرابع؟(٢).

يعد السؤال الأول أسهل بكثير من السؤال الثاني لمن يبحث عن جواب. فعيد "السد" كان شعيرة ضاربة في القدم، تقوم عليها شواهد قوية منذ الأسرة الأولى (القرن الواحد والثلاثين والقرن الثلاثين ق.م)، بل وتعود جذورها إلى العصور قبل التاريخية وهي تنشد العودة إلى تأكيد قدرة الملك ومسئوليته في حكم مصر. وتشير بعض الأدلة إلى صلة قديمة بين هذا العيد وورود فيضان عال بصورة خاصة، وما ينجم عنه، بالتالي من خصوبة تؤدى إلى جنى محصول وفير بصفة استثنائية. وسواء أكان الأمر كذلك أو لم يكن، فإن "عيد السد" يعد، من جانب الفرعون خطوة لتجديد شبابه، وينطوي على الاستخدام البارز لصور التتويج وتجلياته. ورغم أن الوقت المحدد بالاحتفال به خلال الحكم قد يختلف، إلاّ أن "عيد السد" كان في الغالب الأعم يجرى الاحتفال به في السنة الثلاثين من حكم الفرعون.

نصادف على امتداد التاريخ المصري إشارات غزيرة إلى هذا اليوبيل الثلاثيني سواء في الفنون أو الآداب، إلا أن اكتشاف ترتيب دقيق لشعائره لا يزال في رحم المجهول. فلم يصل إلى أيدينا في هذا الشأن سوى أربع نبذ ضافية لجداريات وصفية، لكنها موزّعة على امتداد ألفى سنة من التاريخ، تلك التى وصلتنا من "أبو غراب" وترجع إلى الفرعون "نـي – ووسـر – رع" (٢٤٠٠ ق.م)، وجداريات الفرعون "أمين – حوتب" الثالث من معبد "طيبة" المنذور لإله القمر "خونسو" ومن أماكن أخرى، (حوالي ١٤٠٠ ق.م)، والمجموعة التى بين أيدينا حالياً، لمناظر كتل "التلاتات" المستمدة من معبد *قـرص – الشمس* اهتدينا إليه" (ولعلها أكثر النُبذ تفصيلاً)، وتصوير عيد الفرعون "أوسوركون" الثاني في مدينة "بوباسطة" (حوالي ٨٤٠ ق.م) وكافة هذه المجاميع ناقصة، فضلا عن أن السياق الذي ينتظم نتفها لا يزال محل جدل. إلاّ أن الفصول الرئيسية التى تمر بها الشعيرة لم تعرف تغييراً ذا بال على امتداد مجرى التاريخ المصري، ولا يحول بيننا وبين الإقرار بسريانها على هذا النحو إعتباراً من الأسرة الأولى حتى عصور البطالمة سوى اكتشاف سجل مكتمل لتلك الفصول التى تتجلى خلاله الشعيرة. والمحاولة الراهنة للكشف عن تفاصيل المناظر وسياقها على امتداد

جدران معبد "قرص – الشمس اهتدينا إليه" يقرّبنا من الأمل، بشكل محـــدد فـــي أن نعيد في نهاية المطاف بناء الترتيب الذي كانت تمر خلاله شعائر عيد "السد" وهـــو الأمر الذي سيُعيننا، عندئذ، في دراسة جداريات "أبو غراب" و"تل بسطة". وحتـــى في هذه المرحلة المبكرة من بحثنا، فإن المجاميع الثلاثة الأخـــرى تبـــدو شـــديدة الإيجاز بالغة الهيكلية، مما يزيد أكثر في قيمة إعادة بناء زخارف معبد"*قـــرص – الشمـــس* اهتدينا إليه".

يشكّل "عيد السد" بصفة أساسية إجتماعاً للآلهة والأعيان من مختلف أنحـــاء المملكة. وهم يُستدعون قبل بدء الاحتفال بوقـــت كـــاف. ويُعـــرف عـــن بعـــض الاحتفالات أن الدعوة إليها سبقت البدء فيها بما يصل إلى سنة كاملة، حيث يجتمـــع الضيوف المدعوون سواء من بين الأحياء الفانين أو الخالدين المقدّسين في مجمـــع ضخم من المباني التى تبنى خصيصاً لاستقبال هذه المناسـبة فـــي "منـــف". إلاّ أن مطرح سير الأحداث قد يتغيّر بين الحين والآخر، إعتماداً على المكان الذي يتخـــذ فيه الفرعون مقره الملكي. وكانت التماثيل التى تُعبد عليها الآلهة تُسكّن (أو تُخزّن) على هيئة مجاميع في مزارات تُنصب لهذا الغرض في فناء غير مسقوف وأخيانـــاً على جانبيه، ويُعرف هذا الفناء بـــ"فناء الكبار" وكانت المـــزارات تنقسم إلـــى قسمين تفصل بينهما مساحة خالية : القسم الأول يعد نموذجـــاً بـــالحجم الطبيعـــي لـــ"بيت اللهب"، وهذا المزار الصغير للإلهة الحارسة للوجه البحري : "واجيـــت". أما القسم الآخر فكان عبارة عن نموذج لـــ"البيت العظيـــم"، ضريـــح "تخبيـــت"، الإلهة الراعية للوجه القبلي. وكان الزوار المقدسون تُخصص لهم أمـــاكن مؤقتـــة لإقامتهم وفقا للصُقع الذي جاءوا منه من أصقاع البلاد.كما نجد أيضاً منصة تظلـــها مظلة أنيقة بالقرب من ذلك الفناء، وانطلاقاً من الرمزية المزدوجة للعيـــد، كـــانت المنصة تضم عرشين للملك ظهر الواحد لصق الآخر. وفى ضوء اشـــتمال العيـــد على مباني أخرى مخصصة لأداء الشعائر التى ترتبط بالطبيعة المزدوجة للملكـــة، ومضماراً رمزياً للمدى الذي يصل إليه ملكه، فإن المجمع يرتدى طـــابع صـــورة مصغرة لمصر ذاتها !

ومتى نُذرت المنشآت المختلفة الخاصة بـــ"عيد السد"، وطـــهُرت بموكـــب

من حملة المشاعل فإن الدراما المقدسة تبدأ بموكب يضم الآلهة وبيارقهم، ثم الوفود (الأجنبية) وحاشية الفرعون، وبعد ذلك يأتي الفرعون ذاته وقد اعتلى تختروانه الذي يرافقه حملة المراوح. وكان هذا الموكب، باستثناء الآلهة (الذين يكونون منذ ذلك الوقت قد اتخذوا أماكنهم في المزارات المخصصة لهم)، يعود إلى التكرار مرات عديدة على امتداد الأيام المتتالية، كلما قام الفرعون بزيارة كافة المزارات، كل مزار بدوره، في "فناء الكبار". وفى كل مزار يقرّب قرابينه للرب المقيم فيه، وينول، في المقابل، القبول باستمراره في الحكم. وبطبيعة الحال كان الفرعون يتخذ الزي الذي يناسب الآلهة الذين يزورهم، فكان يرتدى التاج الأبيض أثناء زيارته للآلهة القادمين من الوجه القبلي ويلبس التاج الأحمر عند زيارته لأرباب الدلتا.

ويتمثل أحد أبرز الفصول التي يمر بها عيد اليوبيل في إعادة مراسم التتويج. فعلى أثر فوز الملك بالقبول من جانب الآلهة، يصعد إلى المنصة كي يُتوج، مرة مع ارتداء التاج الأبيض على أحد العرشين ومرة أخرى مع لبس التاج الأحمر على العرش الآخر. ثم يتبع ذلك استعراض يضم كبار المسئولين والوفود الأجنبية وبينهم عشرة "رؤساء" من الوجه القبلي ومثلهم من الوجه البحري يتقدمون إلى العرش كي يقدموا فروض الطاعة والولاء للفرعون الذي يكون قد تُوج للتو. وكان هذا التتويج ينطوي على أهمية كبرى في سير الإجراءات حتى أن المزار المزدوج المنقوش على المنصة أصبح بمثابة الرمز الهيروغليفي الذي يعني "اليوبيل".

وكان الفرعون، عند نقطة معينة في الاحتفال يقوم بأداء جرية شعائرية حول أضلاع مساحة خالية مستطيلة الشكل، وهو يمسك في يده بوثيقة تطلق عليها النصوص اسم "سر الرفيقين" (أى "حور" و"ست ") أو "وصية والدى". وأثناء الجرى كان الفرعون يهتف : "*جريت ممسكاً بسر الرفيقين، أى الوصية التى منحها والدي لي أمام إله الأرض "جب"* *. *مررت خلال الأرض وبلغت جهاتها الأربع، وجست في أرجائها كيفما حلا لي*". والرمزية تبدو واضحة : المضمار هو مصر. أما "السر" أو "الوصية" فهو حق الفرعون في الاستمرار في سدة الحكم، وبالجري في كافة ربوع البلاد ممسكاً تلك الوثيقة في يده يكون جلالته قد استحوذ على إرثه،

وأعاد تأكيد حقه في تولي حكم مصر، وعود على بدء وعلى غـــرار المـــزار - المزدوج، فإن صورة الفرعون وهو يخطو خطوة واسعة، قد غـــدت، فـــي الفـــن، بمثابة اختزال فعّال لمجمل الاحتفال، بل ومؤثر في الشعائر الأخرى التى لم تكـــن في أصلها تتصل، من قريب أو بعيد، بعيد "السد".

وكان ختام الاحتفالات قصيراً. فهناك إطلاق الأسهم بصورة شعائرية، فـــي الجهات الأصلية الأربع، مع الشدو بالترانيم ثم ينخرط المشاركون في الاحتفال مرة أخرى في استعراض تحفه هالة الهيبة والجلال. وكـــان الجـــو مشـــحوناً بـــالمرح والفرح، ويمكننا الآن، وكذلك في المستقبل، أن نلقى بقدر من الأضـــواء الجديـــدة على تفاصيل هذا العيد، وبصفة خاصة خلال مجاميع المنـــاظر المتكـــررة، التـــى اكتشفناها، تزخرف الرواق الجنوبي، وتصوّر الزيارات التى قام بها الفرعـــــون إلى مزارات الآلهة في "فناء الكبار". وتحمل كتلتان من الصرح الثاني نصاً مهشـــماً يشير إلى تجلّى الفرعون (في المعبد ؟ على العرش ؟) كي يؤدى الشعائر خــــلال "أيام التاج الأحمر" ويشير نص موازٍ إلى ذهاب الفرعون إلى : *تجلى جلالته فـــي البيت العظيم" ... خلال أيام التاج الأبيض*". ويشكّل هذان النصّـــان إيمـــاءة إلـــى إجراءات تقريب القرابين في مزاري الوجهين القبلي والبحري فـــي ســـبيل الفـــوز بقبول آلهة كافة ربوع البلاد. وينطوي هذا، بوضوح، على أن زيارات الفرعـــون للمزارين، كل مزار على حدة، كان عملاً "ممطوطاً" يستغرق أياما عديـــدة، وكـــان ليشتمل ليس على موكب واحد، بل على مواكب عدة إلـــى المعبـــد والعـــودة إلـــى القصر. ولعل هذا هو السبب في وجود أمثلة عديدة إلى ذلك الحد من "الموتيفـــات" في المناظر التى تحملها كتل "التلاثات"، وفي أن أربعة مناظر مشهود على وجودها على امتداد الحائط، متّحدة الاتجاه على الركن الجنوبي الغربي. بـــل وقـــد يشـــير الأمر، إلى أننا نستطيع، طالما ظهرت للعيان حدود الحائط بشكل كامل، أن نضـــع تقديراً دقيقاً لعدد "الأيام" المخصصة لكل تاج على حدة بمجرد أن نعد عدد المـــرات التى يتكرزها المنظر : ذلك لأن كل وحدة مواكبية يمكن أن تناظر علـــى وجـــه الإحتمال الشعائر التى تُؤدى في يوم كامل.

كان المعماريون والمخططون المصريون شغوفين بالتناسق والتمـــاثل فـــي

تصاميمهم.وعلى نحو خاص، كانت الأيقونات الخاصة بأحد وجهي مصر سواء أكان القبلي أو البحري، تجد مكانها وحسب على الحائط الملائم : "فموتيفات" الوجه القبلي تقع على الحوائط الجنوبية، و"موتيفات" الوجه البحري على الحوائط الشمالية. وعلى نحو ما توقعنا بالضبط، كان الملك يرتدى بصفة منتظمة، في المناظر الذي كشفناها في الرواق الجنوبي التاج الأبيض الطويل، تاج الوجه القبلي، وهذه لابد وأن تكون "أيام التاج الأبيض" وهى تتفتح أمام أعيننا، وبالتالي ستكون "أيام التاج الأحمر" بمثابة الموضوع الذي تنصب عليه الجداريات على الرواق المقابل على امتداد الحائط الشمالي. (لوحة رقم ٧-١٧).

يبدو أن مأدبة عامرة كانت تُقام في نهاية كل يوم عقب عودة الحاشية إلى القصر. وكان الملك والملكة يتناولان عشاءهما في قاعة فسيحة في الداخل، أما رجال البلاط والمسؤولون والموظفون فيتناولون طعامهم في الخارج، أى في حوش المعبد. وكانت هناك "شرفة التجلي" (شكل ١٧) وهو عبارة عن نوع من شرفة (بلكونة.م.) في الطابق الثاني، تُطل على الحوش، وبينما كان المدعوون يلتهمون مأكولاتهم يتعطف كل من الملك والملكة عليهم بين الحين الآخر بالتجلي أمام أعينهم. وعندئذ كانت الهتافات تدوي والأذرع ترتفع إبتهالاً وإمتناناً. وفي نفس الوقت كان الجوق ينهض بصورة تلقائية هاتفاً : "*عديدة تلك العطايا التي يستطيع قرص – الشمس أن يمنحها، حتى يروى أشواق قلبه*". وإذا ما عدنا إلى الداخل، وجدنا الخطوات أكثر لياقة وإحتشاماً، فبينما يدور الخدم والحشم بصواني الطعام أو يفضّون سدادات قناني النبيذ، تقوم فرقة موسيقية نسائية بشكل كامل، بإدخال السرور على قلب الزوجين الملكيين بالعزف على "الهارب"، والعود والأرغول وآلات النقر. وبين الحين والآخر كانت مجموعة من الموسيقيين تنضم إلى العزف بأغطية رؤوسهم، الطويلة المخروطية الشكل وعصابات العميان التي يضعونها على أعينهم، كرمز، على ما يبدو، إلى أن العمى والبراعة في الموسيقى صنوان، يسيران جنباً إلى جنب في غالب الأحيان. أما ملابسهم النسوية الغريبة فلربما تشير إلى أنهم مخنثون في أزيائهم. ونستطيع أن نستدل على وجود نظائر لهؤلاء في نطاق الثقافة الأكادية. ولكن الأصول التي ينحدرون منها، على وجه التحديد،

تظل طي الغموض. غير أن معداتهم تشير إلى انتمائهم إما إلى شمال سوريا أو أواسط بلاد الرافدين.(لوحة ٧-١١).

لا يزال موقع هذا القصر، الذي كان الموكب ينطلق منه بصفة يومية، مجهولاً. إلا أنه لم يكن ليبعد كثيراً عن معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه"، نظراً لأن الموكب كان يسير على الأقدام، دون حاجة إلى الحناطير. والآن يقع معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه"، على نحو ما كشفت عنه حفائرنا شمالي المحور المركزي الشرقي - الغربي،وإن كان متاخماً له، وهو موقع يصرخ طلباً لبناء موازن يقوم إلى الجنوب من المحور. ولقد كشفت قناة الصرف التى حُفرت في هذه المنطقة عن قواعد معينة لأعمدة ما، وهي قواعد تبرز من الشاطئ لمسافة تصل إلى حوالي ثلاثين مترا جنوبي الرواق الجنوبي. وتشهد مناظر القصر بصورة زائدة على وجود أعمدة كثيرة عند بناء ذلك المبنى. وأعترف أن هذا دليل هزيل، لكن هل يمكن للقصر أن يكون بمثابة البناء الذي يتطلبه التناسق المطلوب ؟

هناك بعض الأحداث الهامة التى تجرى في "عيد السد"، ولم تظهر بعد، إلا بصورة باهتة في الصور التى تحملها كتل "التلاتات" فالجري الشعائري، على سبيل المثال، ليس موجوداً هناك. وليس هناك كتلة واحدة أو كتلتين من تلك الكتل، تُصوّر، كما هو الحال في "بوباسطة" Bubastis "فلاحى الملك" داخل نطاق تحده أحجار موزعة على هيئة حدوة. ويبدو أن منظر الملك وهو مستوٍ على عرشه على المنصة الخاصة، أثناء استقباله الوفود، لم يكتب له، هو الآخر، البقاء . ولست أعرف شيئاً عن وجود أى تصوير لمنظر إطلاق السهام.

يكشف تناقض غريب عن نفسه بصورة متكررة في مقاومة "أمين - حوتب" الرابع لوجود "الآلهة" في الاحتفال. ففي "فناء الكبار" على سبيل المثال، يصوّر الفنانون المزارات الخاصة وقد انتصبت واقفة، كما لو كانت تتأهب لاستقبال "الزوار" المقدسين، إلا أننا نرى نفس الإله مرسوماً في كافة المزارات وكأنه مقيم أصيل : *قرص - الشمس* يهطل أشعته التى تنتهي بأياد إنسانية خلال السقف المفتوح في كل مزار على الملك في الداخل ! وتقريب القربان "شبت" أى "قربان الطعام" على المنصة الكبيرة

محذوف ؛ ولكن الملك يصعد، مع ذلـــك الـــدرج بمصاحبـــة الموســـيقى وغنـــاء الجوق الذي يضم "أطفال الملـــك". ونجـــد الكهنـــة وقـــد حملـــوا علـــى أكتافـــهم البيارق المقدسة، التى ترمز إلى الآلهة الخاصة، وتوصـــف فـــي أحـــد الشـــروح المصاحبة للصور بأنها "الآلهة علـــى صواريـــه ". ولكنـــهم لا يلعبـــون أى دور في أى مكان آخر. ولم يكن الملك، على مـــا يبـــدو ليشـــعر بـــأي نفـــور تجـــاه الإلهة – العقربة "سرقت" التى يحمل كاهنـــها تمثالـــها خـــلال الموكـــب (لوحـــة رقم ٧-١٨) كما سمح المنظمون برفع ترنيمـــة للإلهـــة "حتحـــور" ولكـــن بعـــد تنقيحها على نحو ملائم بحيـــث تتخلـــص مـــن كـــل ســـمة ملحوظـــة لتعدديـــة الآلهة. بل وكانت الآلهة العظمى واضحـــة الغيـــاب. فـــلا ذكـــر هنـــاك ســـواء لـــ"أمون" أو "بتاح" أو "تحوت" أو لأي إله من آلهـــة الـــدورة الأوزيريـــة.

رجال البلاط وعبادة الشمس

كان "أمين – حوتب" الرابع يقلد، على نحو ما رأينا، والده الفرعون "أميـن – حوتب" الثالث تقليداً حرفياً، ليس في الشكل العام لعيد اليوبيل وحسب، بـــل وفـــى التفاصيل وأحجام تصاوير الجداريات المخصصة لتلـــك المناســـبة كذلـــك. إلا أن مجموعتي الصور الخاصة بهما افترقنا المجموعة عن الأخرى، وكمـــا حاولنـــا أن نوضح، في ملمح هام، ألا وهو غياب معظم الآلهة في مناظر "أميـــن – حوتـــب" الرابع، لكن هناك تناقضاً لا يقل إثارة للذهول.

ففي جداريات العيد التى زين بها الفرعون "أمين – حوتب" الثـــالث معبـــده الجنائزي على الضفة الغربية للنيل، وهى الجداريات التـــى لا نعرفـــها إلا خـــلال الشطف التى وصلت إلى أيدينا نرى أن كبار المشاركين في الاحتفالات من رجـــال البلاط والكهنة مذكورون بأسمائهم وألقابهم معاً. وبذلك نستشعر أننا شاهدو عيـــان نتابع حدثاً تاريخياً تترى فصوله أمام أعيننا، ويشارك فيه أناس نعرفهم مثل "أميـــن – حوتب ابن حابـــو" و"رع – موسى" وآخرون غيرهما. ولكننـــا نلاحـــظ فـــي جداريات "أمين – حوتب" الرابع، على الجانب الآخر، عدم ذكر أى أسماء، اللـــهم

سوى تلك التى يحملها أعضاء العائلة الملكية. حقا نقابل عدداً وفيراً من الألقاب، لكنها لا تهدينا إلاّ إلى الوظائف التى يتولاها أصحابها وحسب. وبالتالي نجد أنفسنا وحدنا أمام التخمين فيما إذا كان هذا المحتفل هو "ميري – رع" أو أن ذاك هو والد الإله : "آي"، أو أن ذلك الشخص هو "بار – إن – نفر". حقاً كانت تلك هي الأعراف السائدة وقت ذاك، وجداريات "أمين – حوتب" الثالث هي التى تشكل شذوذاً. ومع ذلك فهذا عينه ما يدفع عيد اليوبيل الذي أقامه "أمين – حوتب" الرابع إلى عالم الأزل المفارق للواقع.

وإليكم قائمة بشروح الصور، تستهدف نصوصها أن توصل إلينا الأهمية المسنودة للوظيفة ، عوضاً عن الشخصية التى تؤديها في الجداريات. ولقد تكورت معظم هذه النصوص بصورة مرهقة، كلما صوّر الفنانون الحدث المعنى، ولعلها تلقى فى روع المرء بقدر ما من الاستثارة والغيظ.

١-(إلى جوار حملة كرسي التختروان الخاص بالملكة) : حمَل الزوجة الرئيسية للملك في أعقاب جلالته خلال أداء شعائر عيد "السد".

٢-(فوق الكاهن الذي يحمل مبخرته وينحني جانباً أمام الملك الذي يخطو) : حرْق البخور قدام جلالته (لوحة رقم ٧- ١٢)

٣- (فوق صف من الأشخاص يسجدون عند مغادرة الملك لقصره) : تقبيل أمناء البلاط للأرض.

٤- (فوق الملك ؟) مستريحاً في المعبد (في ؟) بيت قرص – الشمس...معطيا أوامره (إلى ؟)

٥- (فوق الوزير) مؤدياً طقس الإبتهال أربع مرات). عمدة المدينة والوزير.

٦- (أمام الملك الذي يحمل صينية القرابين). الملك "أمين – حوتب "رافعاً القرابين إلى *قرص – الشمس*.

٧-(فوق الملك الذي يسير) نازلاً بسلام نحو بيت *قرص – الشمس* في "أون"الجنوبية* ...كل البلاد متمددة تحت قدميه، وتؤدى كل ما يدخل السرور على قرص – الشمس.

٨- (السياق غير واضح) تنصيب الملك في "أون" الجنوبية في بيت *قرص*–

الشمس.

٩-(فوق أحد رجال البلاط الذين يبخرون ويؤدون شعيرة "الصببان" (صب النبيذ. م) أمام الملك) : فلتتقبل هذه الأشياء الرائعة الحرة الصافية لروحك، يا أنت يا ابن قرص الشمس.

تكتنف هذه الشروح المتكررة صور الملك والملكة. حيث تعطى الملك كافة ألقابه كي يتجلى كـ :

"حورس ؛ الثور الجبار، طويل الريش، (صفي السيدتين)، عظيم الملكية في الكرنك حورس الذهب : ذاك الذي يعلو هامته تاجان في "أون" الجنوبية، ملك الوجهين القبلي والبحري، ذاك الذي يقتات بالصدق، سيد الأرضين. نفر - خبرو - رع، واع - إن - رع ابن رع، الذي يقتات بالصدق، "أمين - حوتب" المقدس، حاكم طيبة ليتمتع بعمر مديد "أما صفات الملكة فتكاد تجعلها تبدو وكأنها صورة حية من السحر : سليلة النبل، عظيمة الحظوة، صاحبة الفتنة، نافحة الغبطة، سيدة الوجهين القبلي والبحري، الجميلة المليحة في ريشتيها، مسكنة قلب الملك في بيته، ناعمة الصوت في سائر الأوقات "تلك التى يبتهج الشعب لسماع صوتها، زوجة الملك الرئيسية، التى يهفو إليها فؤاده، سيدة الأرضين، "نفرتيتي" (لوحة رقم ٧-١٩)(٣).

وتأخذ الأسماء في الاختفاء أسفل الصف الذي يضم كريمة الملك. وتحضر سيدات الحريم (؟ م)على هيئة مجاميع، وقد بدا عليهن جميعا الشموخ، فيسرن بصحبة الملكة ولا يركعن أبدا لأحد. إلا أن الأمر متروك لنا كي نخمن أيهن أخوات الملك وأيهن بنات عمومته أو خؤولته ومن منهن عماته أو خالاته. ونرى الكهنة رافعين بيارقهم، وآباء الإله * يقدمون باقات الزهور، والوزير، والكاهن الأعلى للترتيل ورجال البلاط، ونكاد نوقن أننا نشاهد أمام أعيننا شخصا نظنه الوزير "رع - موسي" أو كاهن الترتيل "ميري - ماعت" ولكن تعوزنا الأسماء ، التى كانت لتؤكد ظنوننا هذه.

القواعد السارية على معبد الشمس

كان "أمين – خوتب" الرابع أشد حرصاً على تدوين التعليمات التـــى كـــانت لتحكم سير العمل في "مزاراته" الجديدة. فالصواديد بل والحائط نفسه، قرب مداخـل معابده، تحمل الإرشادات الرسمية بشأن القرابين التى يتعيّن تقريبها بصفة يوميـــة لإله الشمس منقوشة لكل من يرى (٤) . وكنا قد اكتشفنا واحــــداً مــن مثـل هــذه الصواديد، ضمن ما اكتشفناه، في حشو الصرح التاســـع، إلا أن هــذه الإرشـــادات وجدناها مصورة في الجداريات التى تحملها قطع "التلاتات" خمس أو ست مـــرات. ويقول أحد النصوص النموذجية في هذا الصدد ؛ رقم : T S 256 (هذه هي قرابيــن الإله التى قررها جلالته لوالده *قرص – الشمس*" في قائمة بالأطعمة التي يجـب أن تُقدّم بصفة يومية على (مذبح) رع الكائن في (مساحة متروكة خالية) : بيت– Bit خبز، حصة الخباز * التى تبلغ أربعين. (عدد غير محـــدد) أرغفـــة، بســن Pisn– أرغفة حصة – الخباز التى تبلغ أربعين، سبعة وثمانون رغيفاً : أباريق من البـيرة، في حصة الخمارة التى تصل إلى عشرين، ٣٣ أبريقاً..إجمـــالى مختلــف (أنــواع الطعام في قرابين الإله، ٢٥٦ : حِمام. اثنان، بخور. هِن Hin قنينــــة (واحـــدة) : خضراوات حزمة. خضراوات، أربع حزم. لبن (عدد غير محدد) من الأقســـاط..) وهكذا. وتشير قوائم القرابين التى وصلتنا بالأطعمة اليومية لمعبد الشمس في "منف" إلى كميات أكبر.

ولقد نجت أيضا إرشادات القرابين المقربة إلى مزارات أخرى من عــــوادي الدهر كي تصل إلينا سليمة. وبناء عليه فإننا نجد لذلك البناء المسمى : بيـــت ذاك الذي يبتهج في الأفق، ولا نعرف عنه شيئا آخر ما يلـــي : *قرابيــن الإلـــه التـــى وضعــــها جلالته لوالده (قرص – الشمس) خلال راحته في "بيت ذاك الذي يبتهج في أفق قرص الشمـــــس في أون" الجنوبية، أول الأماكن الراقية التى استقر فيــها "رع": بيت Bit خبز...أباريق مملوءة بالبيرة : ستة عشر، حمـــام : ثمانية (...) ذلك الذي أعطاه والد الإله، الأول المقيم في بيت قرص الشمس وخـــبز بيــت أبـــاريق*

مملوءة بالبيرة. حمام : ثمانية. باقات زهور : أربعة. حـزم مـن الخضـراوات : سبعة.لبن : ثلاث (؟) سلطانيات...).

وليس من المسـتغرب بحـال مـن الأحـوال أن يتكفّـل كبـار الكهنـة بتقريب جزء من هذه القرابين. وكان دخل المعابد مـن الأطعمـة يـأتي، عـادة، عن طريق فرض ضريبة، أو مكس على هيئـة حصـة نسبية (عينيـة) علـى قرى وعزب ووحدات إنتاجية معينة بالإضافة إلـى المسـئولين الرئيسـيين فـي المنطقة المحيطة. وكان يتعيّن دفع هـذه الضريبـة بصفـة سـنوية، إلـى أبـد الدهر، بصرف النظر عن أى تغيّر قـد يطـرأ علـى المسـئولين فـي الجهـة المعنية (كالعزل أو الوفاة الخ) ولقد سـبق لنـا أن سـمعنا "بـار – إن – نفـر" يشْمت، بأن تحويل دخـول أمـلاك المعـابد الأخـرى إلـى معبـد *قـرص – الشمس*، أدى على وجه الاحتمال، إلى زيـادة ثروتـه(أي ثـروة ذلـك المعبـد) بصورة تتجاوز حـدود المعقـول. ويبـدو أن "بـار – إن – نفـر" كـان يدير الحديث، على وجـه الاحتمـال، حـول الحصـص النسـبية التـى كـانت قـد أصبحت مقررة وقت ذاك لصـالح المعـابد الجديـدة. ويشـير أحـد النصـوص وهو رقم TS 8842 إلى الخبز والبيرة التى تشـكّل الحصـص النسـبية المقـررة بصفة سنوية، الموجّهة إلى "بيت قـرص – الشـمس"، ويمضـى "بـار – إن – نفر" في سياق متقطع كي يومئ ضمناً إلـى أن الكـاهن الأعلـى للشـمس كـان مسئولاً بصـورة أو بـأخرى عـن الأمـر. ويحـدد منظـر رائـع التلويـن لمواشي مسمّنة أثناء سوقها إلى زرايب المعبـد وعـدد الأبقـار والثـيران التـى دفعها المسئولون عن المنطقة كمكوس. وتشـير الكتـل التـى بيـن أيدينـا إلـى هذه الضريبة التى تدفع كرؤوس مواشي (تتراوح في العـادة مـن خمـس إلـى عشر رؤوس لكل مسئول) كانت تفرض علـى عمـد، مـا يصـل علـى وجـه التقريب، إلى ست قرى في الوجـه القبلـي. ولكـن هنـاك نصـاً جديـداً أكـثر إحتمالاً اكتشفه المركز المصـري الفرنسـي C. F. E. ولسـوف يحـدد مـن خلاله "كلـود ترونيكـر" فـي القريـب العـاجل بتفصيـل ملحـوظ التبرعـات المنتظرة من كبار الشخصيات والمديريـات فـي سـائر أرجـاء مصـر، وقـد

أدرجت في قوائم خاصة في ترتيب جغرافي. ولعلــــه لمــن المحتمــل أن السـلع أى المواد المصنعة كانت تأتى أو من المنتظــر أن تـأتى لـــــ"عيـد – السـد" بوجه خاص من الشرائح الدنيا والوسطى من الموظفيـــن. ويشــمل هــذا النــص – القائمة الوالـــد الأول لإلــه المعبـد وحــاكم "سـايس"، ومحاسـب المواشـي وناظر منابع النيل، وأمين صنــدوق بيـت *قـرص – الشـمس*، وكــاتب شـون الغلال، وراعى المواشي المختــص بأغنــام النـهرالغربي ورئيــس المشـرفين علــى مخــازن البـيرة فــي الحــي الجنوبــي وراعــى المواشــي المختــص بالماعز...فى الحي الجنوبي، ورئيـــس المشــرفين علــى مخــازن البـيرة فــي زمام النهر الغربـــي.

ويمكّننا عدد من كتل "التلاثات" التى استخلصناها بصورة أساسية من حشــو الصرح الثاني، من إلقاء نظرة عميقة على ثروات المعابد الجديدة التى أنشئت فــي "طيبة" أو "أون "الجنوبية إذ يبدو أنها، أى تلك الكتل تعدد أملاك المنشأة وموظفيــها : أثاثات بيت قرص – الشمس الذي (..) ٦,٨٠٠ شخصاً، (...) (مستحقا) تهم فــي كل (سنة) قدمت إلى بيت قرص – الشمس (ثم تتبع ذلك قائمة بالأقمشـــة) ٣,٦٢٢ شخصاً (عدد غير محدد)...رعاة قطعان (..) رئيس "بتاع" (..) ١٠٤٩ شخصاً (..) مستحقاتهم في (السنة..) قدمت إلى بيت قرص الشمـــس (ثم تتبع ذلك إشارة إلـــى الفضة). ويبدو في مواضع أخرى أن الإجمالي يتراوح حول ٤٠٠ ألف صنف غير محدد بالإضافة إلى ٢٢ ألف رغيف أبيض كبير، وأكثر من ٢٦٠ برميلا من النبيـذ الخ. ويبدو أننا أصبحنا هنا بازاء مواد تموينية جُمعت خصيصاً مــن أجـل عيـد اليوبيل.

ويقدّم لنا هذا الكم الهائل من الأطعمة، التى جمعتها الدولة كي تغـــدق بــها على الأهالي خلال عيد اليوبيل من باب السخاء الملكي عوناً أكبر في تقييـــم جــو الغبطة العميقة والولاء الحار اللذين كانا يأخذان بأفئدة العوام الذين ينتظرون قــدوم العيد. وليس هناك وسيلة أفضل يمكن أن تمر بالخيال لجمع الأمة المصرية وتذكـير مواطنيها بالنظام السياسي الذي يدينون له بكل ما يملكون. وكان مثل ذلـــك العيــد بمثابة واحدة من المناسبات القليلة التى تمر بهم، في حياتهم القصيرة نسـبيا، التـــى

يستطيع خلالها الفلاح والأجير والحرفي أن يستمتعوا بوجبة مشبعة ولا عجب للأيدي التى ترتفع إبتهالاً نحو "شرفة التجلي"، ولا للأحواش الملكية التى تضج تحت جوق يضم آلاف الأصوات في قصيدة طويلة من ديوان المديح. فأن تحوز رضا الملك يعنى أن تنال الطعام.

الفصل الثامن

أفق قرص الشمس

انتقل الفرعون المارق ببلاطه، في وقـت ما من سنته الخامسة في الحكم من "طيبة" إلى عاصمة جديدة في مصر الوسطى. وقد يبدو أن الانتقال حدث بصورة فجائية، إلا أن النية كانت في حقيقة الأمر، معقودة عليه. ولقد أثبت ذلك الانتقال أنه كان بمثابة أبرز خط فاصل في تاريخ فترة "أخيناتون" وعند هذه النقطة، بالتالي، دعونا نجرى جرداً سريعاً، للمرحلة السابقة أى مرحلة "طيبة"، من هذا الحكم غير المسبوق، قبل أن نمضي قدماً نحو حل عقدة الدراما.

الطابع العام للسنوات الطيبية

لابد وأن يكون عيد اليوبيل، بطبيعة الحال، بالنسبة لمعاصريه أعظم حدث خاص في تلك السنوات. ولا يستطيع المرء إلاّ أن يرى الاحتفالات الموالدية (من مولد.م.) الثلاثة التى شهدها العقد الأخير في حكم "أمين – حوتب" الثالث قد أثرت على "أمين – حوتب" الرابع الشاب في اختياره لشكل العيد وساحته. فمعظم الشعائر الخاصة، والنصوص التى استخدمها "أمين – حوتب" الثالث عادت إلى الظهور، بعد "تطهيرها" من سمات التعددية، بشكل ملائم، في عيد اليوبيل الذي أقامه ابنه "أمين – حوتب" الرابع. ولا ينبغي أن ننسى في هذا الصدد أن "أمين – حوتب" الثالث ذكر يوما أنه اكتشف نظاماً قديماً لشعائر "عيد السد" في الأراشيف (١). ولقد اقتفى "أمين – حوتب" الرابع، دون شك، أثر الأصل المنقّح للعيد الذي عثر عليه والده. ولكن مشكلة ما، مع ذلك، تظل قائمة، تتمثل فيما دعا "أمين – حوتب" الرابع إلى اختيار الذكرى الثانية لارتقائه العرش كالمحور التقويمي لاحتفاله.

ولعل الاكتشاف الأعظم الذي توصل إليه البحث الحالي هو المكانة الرفيعة التى تمتعت بها الملكة "نفرتيتي" في فترة أخناتون. ولقد فسرنا الأدلة، المستقاة في هذا الصدد، من مجال الفن بصورة كاملة بصفتها تعكس أهمية دينية وسياسية، إلا

أننا لا نستطيع المضي في الوقت الحاضر إلى أبعد من ذلك. هل كانت نفرتيتي من أهالي "طيبة" ؟ هل كانت سيدة متسلطة ؟ هل كان كثير من أفكار الملك، زوجها "الثورية" في الأصل من بنات أفكارها هي ؟ هل هناك أب آخر، خلاف "أمين – حوتب" الرابع لبناتها ؟ ليس في طوع هذه الأسئلة أن تتلقى كلها إجابة بالإيجاب، إلا أنها تساعدنا في رسم مجرى لتأملاتنا في الوقت الراهن. وتتلخص المشكلة في هذا المجال في أن طبيعة الأدلة تنطوي على مفاجآت غير متوقعة بالمرة. فمن كان يظن على سبيل المثال، أن معبد "بيت حجر "البينبين" قد خُصص لاستعمال الملكة ؟ ويبدو أن إقحام الملكة في مثل تلك الموتيفات الحربية الطابع كمناظر ضرب الأعناق واضحة إلى درجة كافية فيما ترمي إليه بصفة عامة. ولكن إذا كانت جلالتها قد تمتعت بكل ذلك الحضور السياسي، لماذا لا يرد لها أى ذكر في المراسلات الدبلوماسية التى أجراها زوجها؟ ولسوف نرى عما قريب تدهورا تدريجيا خلال فترة "أخيتاتون" في أقدارها، إلا أنها ظلت في الصورة على الأقل حتى رحيل زوجها بل وربما بعد ذلك.

تصدمنا الابتداعات التى أدخلها "أمين – حوتب" الرابع، مثلما صدمت، على وجه الإحتمال، معاصريه بفُجائيتها التى تثير الذهول. ويفترض البعض أن عدداً كبيراً من الأشكال التى إستصوبها جلالته، مستلهمة من اللاهوت الأوني. فالتصميم البسيط المكشوف (غير المسقوف) الذي تبناه لمعابده، على سبيل المثال، مشتق، فيما يقال، من أصل "أوني" (هيليوبوليتي). وقد يكون الأمر كذلك، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول أنه كذلك بصورة مؤكدة. فنحن لا نعرف إلاّ أقل القليل عن "أون"، فلم نخضع الموقع وليس في مقدورنا أن نخضعه للتنقيب إلى حد كاف، حتى نخطو باطمئنان، خلال تتبعنا لمنابع عناصر العبادة الجديدة حتى أشكالها الأولى في موطنها الأصلي هناك. ولا نستطيع أن نتوقع من الأدلة المستقاة من مجال الفن، بحال من الأحوال، الكشف عن ردود الأفعال التى أبداها الأهالي تجاه الصدمة الأولى التى تلقوها عندما وجدوا معابد قديمة مغلقة وأخرى جديدة مفتوحة ومزخرفة، أيضاً، بأسلوب جديد فاقع. فليس في وسعنا أن نعثر في الوجوه السعيدة سواء لرجال البلاط أو الكهنة أو عامة الشعب من العلمانيين أى (غير رجال

الدين.م.) ممن يحيطون بالملك في الجداريات أى ظل للاستهجان. والجيش موجود في كل مكان أما خلع الولاء فلا أثر له. وهذه قراءة دقيقة على وجه الترجيح الكامل للأدلة المستقاة من فن التصوير : إنطوت العبادة الجديدة، وبصفة خاصة، عيد اليوبيل، على مثل ذلك الإنفاق الواسع من ثروة الملك على هيئة أطعمة متنوعة وهدايا مختلفة لجموع الأهالي، مما يخفف معه الامتنان بادئ ذي بدء أى قدر من السخط. ومع ذلك فهناك نوع ما من "البرطمة" لا تخطئه أذن. ففي نص يرجع إلى وقت لاحق، يقسم فيه "أمين – حوتب" الرابع ألا يغادر بالمرة مقره الجديد في مصر الوسطى . ويشير خلاله، من طرف خفي إلى ما أسماه "الكلمات الآثمة"، التى كان والده وجدّه مضطرين إلى الإنصات إليها، بل واضطر هو شخصياً في عصره إلى سماعها. إلا أننا لا نستطيع أن نمنّى أنفسنا بطبيعة الحال بأن نعثر على أى توضيح لهذه الإيماءات المبهمة، ولكنها تعكس ، بقوة ، نقداً عاماً للخطوات التى إتخذها الملك.

وسواء أكانت المعارضة خطيرة أو غير مؤثرة، سافرة أو خفية، فلقد إتضح أن الخطوة التالية التى خطاها الملك مباغتة ولا رجعة عنها : هجر هو وبلاطه "المدينة الجنوبية". ولم تكن "طيبة" هذه، هي المدينة الوحيدة التى انتفعت من الزخرفة وفقا للأساليب الجديدة التى جاءت بها العبادة الجديدة : كانت "أون" قد حصلت على معبد – شمسي يدعى : "أمين – حوتب" هو مُمجد القرص" (٢). وكانت "منف" بمثابة الموضع الذي أقيم فيه أحد المزارات وفق أحدث الطرز (٣). وفى النوبة في أقصى الجنوب بدأ المهندسون والفنيون في إنشاء معبد على غرار *قرص – الشمس* اهتدينا إليه" أو "جم ــ ت ــ با ــ أتون" أطلق إسم "جم ــ أتون" أو *قرص الشمس* وجدناه" ، وربما تباهت "سام – بحدت" في شمال الدلتا بمعبد آخر للشمس كذلك، إلا أن الملك لم ينتقل إلى أى من هذه المواقع. فلقد وقع اختياره على موقع إختاره له – كما يقول – قرص ــ الشمس نفسه، وهو موقع قد يكون الملك قد اكتشفه خلال رحلة ما، غفل عنها التدوين، انحدر فيها مع نهر النيل. ويصفه "أمين – حوتب" الرابع كـ"مقر *قرص – الشمس* لدى الحدث الأول" أى لدى اللحظة الأولى للخلق، وهو المقر الذي أوجده لنفسه حتى يستقر فيه متى شاء".

ولم يكن ذلك الموقع سوى سهل فسيح تذروه الرياح، تبلغ مساحته سبعة أميال طولاً وحوالي ثلاثة عرضاً، ويقع على الضفة الشرقية للنيل في "مديرية الأرنب" في مصر الوسطى.وإذا ما نحّينا جانباً ، ذلك التشابه الغامض، وإن كان مثيراً للفضول، بين الموقع عندما ينظر إليه المرء من النهر وبين الرمزالهيروغليفي لكلمة "الأفق" (٤) فإن ذلك الموقع المقفر لا يملك شيئا ذا بال يزكيه. فالصخور الوعرة تتقهقر عن النيل تاركة خليجاً رملياً عميقاً، لا ماء فيه، وترتفع حرارته إلى درجات قصوى، ولا يملك سوى أضيق شريط من الأرض القابلة للزراعة على إمتداد نهر النيل. ويقترب الموقع من الطريق الذي يقود إلى محاجر المرمر في "حاتنوب" وقبل أن ينحت نبلاء المديرية مقابرهم في الصخور التى تطل على الطرف الشمالي لذلك السهل بألف سنة. وإذا صرفنا النظر عن الأطلال الباقية من قرية أو قريتين ترجعان إلى تاريخ أقدم فإن "أفق – قرص – الشمس" أو "أخيتاتون" ذاك، كما دعاه الملك "أمين – حوتب" الرابع لم يكن سوى موقع بكر، وحتى مدينة الأشمونين العتيدة، موطن "تحوت" إله الحكمة، والواقعة أمامه بالضبط على الضفة الغربية للنيل لم يترك أثراً ثقافياً على سائر المنطقة التى ضمته.

ورغم أن عزم "أمين – حوتب" الرابع كان قد إختمر في السنة الرابعة من حكمه، فلا يبدو أنه إتخذ أى خطوة نحو الإنتقال إلى الموقع الجديد حتى سنته الخامسة. وعندئذ ظهر المخططون والمسّاحون والبناؤون في هذا الموقع المختار وبدأ العمل بوتيرة محمومة.

إلا أن الملك لم يكن قد إنتهى تماماً من "طيبة". فقبيل الرحيل، وعلى غرار الطلقة الفارسية (أى طلقة الانسحاب.م.) على وجه التقريب كشف عن نواياه الحقيقية في تحطيم التقاليد المتوارثة. فأعلن أن الإله "أمون" ملعون، وغير إسمه من "أمين – حوتب" المقدس، حاكم "طيبة" إلى "أخناتون" التى تعنى على وجه التقريب : ذاك الذي يخدم "قرص – الشمس" أو "روح قرص – الشمس التى تحفها هالة المجد". وفى كل مكان، سواء في "طيبة" أو غيرها من المدن، غطى العمال في كل معابد الشمس التى بناها جلالته، الجزء الثاني من الخراطيش الملكية بعجينة من

الجبس، وأعادوا نقش الاسم الجديد مطرح القديم (اللوحتان رقم ٨-١،٢) وفي نفس الوقت، ودون شك، أرسل حاملي البلط كي يطوفوا خلال سائر المعابد في أرجاء البلاد لينتهكوا قدسية اسم "أمون" أينما ظهر، سواء على الحوائط أو الصواديد أو المقابر أو الأعمال الفنية. ولم تسلم من الكشط أيضا أسماء الآلهة الشبيهة، "موت" الإلهة الأم و"أوزوريس" إله الموتى وآخرين، ولكن بدرجة أقل .وبلغ برنامج الكشط هذا من الاتساع والتدقيق في حقيقة الأمر، حداً يستطيع معه الباحثون اليوم في غالب الأحيان أن يحددوا تاريخ أثر ما وما إذا كان سابقاً أو لاحقاً لفترة "أخيتاتون" بفحص الرمز الهيروغليفي للإله "أمون". ويبدو واضحاً، وإن كنا لا نملك على ذلك دليلاً، أن هذه الفترة شهدت مصادرة ممتلكات المعابد، بصورة رسمية وقت ذاك، بعد أن ظلت تعانى لخمس سنوات متتالية من انخفاض عائداتها. وبحلول السنة السادسة كان العائد الذي تغله أملاك "أمون" في طريقه للتحول إلى "بيت القرص" في المدينة الجديدة "أخيتاتون". كما توقف العمل كذلك، في بناء معابد الشمس في "طيبة". ونزل الصمت وقت ذاك على أفنية معبد "قرص الشمس اهتدينا إليه" بعد أن ضجت في يوم ما بتهليل الجموع الحاشدة خلال "عيد السد"، بل وهُجرت لاثنتي عشرة سنة. وتركزت الجهود الآن على تشييد المدينة الجديدة "مدينة الأحلام": "أخيتاتون" أو "أفق ـ القرص" (٥).

تشييد أخيتاتون

في وقت ما خلال السنة الخامسة لحكمه، وصل "أمين – حوتب" الرابع أو "أخناتون" كما سنسميه من الآن وصاعداً، إلى موقع التشييد مع بلاطه، ولم يكن قد اكتمل بناء أى مبنى حتى تاريخه، بل ولم تكن المباني في معظمها أكثر من تخطيط مرسوم على الأرض، إلا أن الملك كان يريد، بفارغ الصبر، أن يعيش مع أبيه "قرص – الشمس" في مدينته الخاصة. وفى سبيل ذلك كان على استعداد لأن يحتمل السكنى في أجنحة مؤقتة. ولقد أقامت العائلة الملكية بقية تلك السنة وجزءا لا بأس به من السنة السادسة في نزل سابق التجهيز، قد يكون على وجه الاحتمال أشبه

بالخيمة، تسمى في النصوص "غرف" (؟) الخيمة" (٦).

تمثل أول الأمور في رسم حدود الموقع. ولعله من الواضح أن "أخناتون" تخيل رقعة لوالده قرص – الشمس، أوسع قليلاً من هذه التخوم الضيقة للضفة الشرقية لنهر النيل، رغم أن تلك كانت الرقعة المخصصة لتشييد المدينة ذاتها. فنحت الفنيون ١٤ صادوداً في الصخور الحية لتحديد التخوم، وامتدت هذه الصواديد على هيئة قوس ضخم عبر نهر النيل وبحر يوسف (حالياً) حتى حافة الصحراء الغربية ثم عادت مرة أخرى وبالتالي حددت معالم مدينة "أخناتون" (الكبرى). وكان الفنيون قد نحتوا بصورة متقنة، كل صادود حاملاً الإعلان الرسمي للملك بتشييد المدينة، مع رسم زخرفي جميل يصور العائلة أثناء أداء شعائر عبادة إله – الشمس.

في أحد الأيام الأولى من شهر إبريل – برمودة سنة ١٣٧٠ ق.م وبينما التشييد في الموقع الذي سيضم المدينة جارياً حقاً على قدم وساق، ظهر الملك على متن عربته الضخمة المصنوعة من الإلكتروم (خليط الذهب والفضة.م.) مثل قرص – الشمس عندما يشرق على أفقه ويغمر الأرض بدافئ حبه..تهللت الأرض بالبهجة وعم السرور القلوب عندما اكتحلت عيونهم بمرآه (أى الملك) أثناء قيامه بالوليمة الكبرى التى شملت مائة رأس لوالده (قرص – الشمس) بالإضافة إلى الخبز والبيرة والمواشي الطويلة والقصيرة القرون والحيوانات البرية والطيور والنبيذ والفواكه والبخور و"الصبيان أى صب النبيذ وكافة أنواع الخضراوات الطازجة (٧). وكان الملك إبان إقامته في "طيبة" يغدق في غالب الأحيان في تقريب مثل هذا النوع من القرابين إلى *قرص – الشمس*، فلقد كان مشغوفاً بالإفصاح عن ورعه خلال هذه الطريقة. إلا أن هذه المرة كانت فريدة، وعقب تقريب القرابين:

"أعلن جلالته : إليّ برجال البلاط الملكي، والشخصيات البارزة في القصر وضباط الجيش (و) وسائر أفراد الحاشية فمثلوا جميعًا في حضرته ثم انكفأوا على وجوههم، وهم يقبلون الأرض أمامه فقال جلالته لهم : أنظروا ها هي (أخيتاتون) التى شاء قرص – الشمس أن تُبنى لجلالته كأثر خالد يحمل إسمه. والآن : لقد كان قرص – الشمس والدي هو الذي طرح المشروع (حرفيا : شاهد) الخاص

بـ"أخيناتون" ولم يطرحه أى مسئول، ولا أى شخص في مختلف أنحاء البلاد..ولقد كلمني والدي قائلا : لسوف تكون لي كأفق القرص لأبد الآبدين" (٨).

ويتقدم الملك كي يعطى لمحة مختصرة عن خططه للموقع والمباني التى يرغب في إقامتها : "*بيت قرص – الشمس*" و"*دوار قرص – الشمس*" و"ضليلة للملكة" و"بيت البهجة" بالإضافة إلى غرف ملكية لجلالته وأخرى للملكة ومدينة للأموات أى جبانة.

وبعد ذلك بتسعة أيام، وفى "يوم تأسيس "أخيناتون" لقرص – الشمس الحي"(٩) عاد الملك مرة أخرى كي يدور مرة بعد أخرى على الصواديد الحدودية على عربته وفى كل دورة كان يرفع يده نحو السماء ويقطع على نفسه عهدا بألا يجور أبداً على أى أرض أخرى وراء هذه الحدود، وبألا ينتقل إلى أى موقع آخر. وهكذا غدت "الهجرة" رسمية : وأصبح لمصر الآن عاصمة جديدة أى مركز محوري جديد للحكومة (١٠).

كانت المباني التى بنيت في مدينة "أخيناتون" مثلما هو الحال مع كافة المباني التى أقيمت خلال حكم "أخناتون" مخططة في تسرّع ومجمّعة في تعجّل. وإذا ما طلبنا من مهندس معماري أن يلقى حكماً على معبد "قرص – الشمس اهتدينا إليه" في شرق الكرنك، فلن يكون في وسعه أن يقول أى شئ آخر تنوى أنه بناء "مطلصق " Jerry-built. وفى طوع هذا الرأي أن يسير دون شك، على أبنية المدينة الجديدة. وكان البناؤون لا يزالون يستخدمون، هنا، الحجر الرملي على هيئة كتل منحوتة بخشونة، وأصغر قليلاً من كتل "التلاتات" التى عرفها البناء في الكرنك . إلا أنهم لجأوا، أيضا، إلى إستخدام الطوب النيئ على نطاق واسع في الحشو – النواة. وقت ذاك كان الحجر الجيري قد دخل نطاق الاستخدام بشكل عام كقشرة خارجية ينحت الفنانون على سطحها الجداريات. وعلى غرار ما كان عليه الأمر في "طيبة" توسع المهندسون في اللجوء إلى الأعمدة والخوازيق". وتظهر الأعمدة بنوعيها، لوتسية الشكل والنخيلية (نسبة إلى نخيل.م.) الجذع. وكان المهندسون يستخدمون في بنائها كلاً من الأحجار والأخشاب كمواد خام. وقت ذاك أخذت المناظر الملونة تظهر، بقدر من الإسراف، على الحوائط الداخلية وكذلك

الخارجية، وكزخارف على الأرضيات المغطاة بالملاط. وكان الفنـانون يزيّنـون الحوائط والأرضيات أيضاً، بالبلاطات القيشاني . وهذه عادة يرجع أصولها أيضـاً، وعلى ما يبدو إلى "السنوات الطيبية" من حكم "أمين – حوتب" الرابـع. إلا أن المؤكد أن "الأصول الطيبية" تقف وراء كثير من "بوابات الصروح بـ "كرانيشـها "غير المكتملة ، تلك البوابات التى سبق ورأينا فيها إحدى العلامات البـارزة التـى تميّز معبد "بيت حجر البينبين" في الكرنك.

كان الملك "أمين – حوتب" الرابع مطلق اليد، نظرا لخلو الموقـع مـن أى احتلال أو وضع يد سابقين، في تصميم مدينته كيفما شاء وشاء والـده "قـرص – الشمس". وكان لزاماً أن تنتظم أجزاء الكل خلال طريق يخترقها من الشمال إلـى الجنوب. (أطلق عليه المحدثون : الطريق الملكي) ويبلغ طـوله ما يزيد علـى ثمانية كيلومترات، ويمتد من "الحواتة الشرقية" – حالياً – في الجنوب حتى "شـمال المدينة" وراء السفوح الصخرية التى تضم مقابر المملكـة القديمـة. وفـى نهايـة المطاف شمل التخطيط ثلاثة "أحياء" كي تشكل مراكز للمباني "السكنية" والإدارية :

ضم قلب المدينة كلاً من القصر والمعابد والمخزن والمدن الصغيرة التى تـدور، شمالاً وجنوباً، في فلك المدينة الأم. وإلى الغرب من "الطريق الملكي"، وباتساع كل المساحة على وجه التقريب التى تمتد حتى نهر النيـل، بُنيـت الغـرف الفخمـة والواسعة لواحد من أكبر القصور التي عرفها الشرق الأوسط طوال تاريخـه (١١). على أن المساحة الأكبر لهذا البناء الهائل، بما في ذلك المداخل القادمة من النـهر، غدت مدفونة في الوقت الحاضر تحت الزروعات، وهو الأمر الذي لا يحول، عقلاً ، دون القيام بعمليات تنقيب واسعة في المستقبل. غير أن الجزء الأكبر الذي خضـع للتنقيب من القصر حتى الآن كان يرتكز على حوش واسع غير مسقوف، تحوطـه من جانبين على الأقل تماثيل للملك، أكبر من الحجم الطبيعي لـه. وكـانت تلـك التماثيل التى تقف على الجانب الجنوبي تحمل نفس السيماء، إلى حد كبـير، التـى تحملها تماثيل الكرنك. وخلف هذه التماثيل يمتد رواق بأعمدته المنحوتة وبمنـاظره الجدارية، وهذه تتشابه مرة أخرى مع نظيراتها في معبد "قرص – الشمس اهتدينـا إليه" في "طيبة".

ويبدو أن غرف الملك الخاصة كانت ممتدة على الجانب الشرقي للطريق العام، بالعرض مباشرة من القصر. وفى وقت ما بعد السنة التاسعة تقرر وصل القصر بالغرف عن طريق "كوبري" يستند إلى "قواعد" من الطوب الأخضر (النيئ)، ولكن الدليل يعوزنا إذا اعتقدنا أن الملك أطل يوما من "شرفة التجلي" على هذا الكوبري. فالمناظر الجدارية تشير إلى أن الشرفة كانت مفتوحة في واجهة القصر، كما هو الحال، في "طيبة"، وتطل على فناء القصر. (شكل رقم ١٦).

وجنوبي القصر، وعلى نفس جانب الطريق، وقف "دوار قرص – الشمس"، الذي يعد أفضل الأطلال القليلة التى قاومت عوادي الدهر في هذا الموقع. ولعله من المثير حقا للاهتمام أن "دوار قرص – الشمس" هذا يملك إلى هذا الحد أو ذاك نفس الأبعاد ١٢٧ X ٢٠٠ متراً، التى قدرناها لمعبد "قرص– الشمس اهتدينا إليه" في الكرنك. وقد يثبت ترتيب الأفنية (الأحواش) على نحو تلتقي معه نهاياتها، وتفصل بينها الحوائط المستعرضة وبوابات الصرح، أنه سمة أخرى من السمات المشتركة بين هذا المبنى وذاك. ولكن المقارنة تصل هنا إلى نهايتها. فحتى الآن وكما هو معروف لا يزال البناء الجديد مفتقراً إلى تماثيل عملاقة وأروقة بأعمدتها، إلا أنه أضاف أكتافاً خارجية إلى المحيط الدائري. وهذه سمة لم نعثر لها (حتى الآن) على أثر في الكرنك. وفى الحوش الثالث، الواقع في أقصى الطرف الشرقي لـ"دوار قرص – الشمس" يقوم قدس أقداس، مشيد بشكل منفصل، وتمتد أمامه كُنة مسقوفة ولو أن الوظيفة المحددة التى بُنى من أجلها هذا المبنى لا تزال مجهولة حتى الآن ؛ والقول الذي يذهب إلى أنه كان "مصلى ملكياً" ليس إلا شطحة من شطحات الخيال. والأقرب كثيراً من الحقيقة، في ضوء الاسم والتوجه، وتمشياً مع الوادي الذي يضم المقبرة الملكية، أن يكون الهدف من المبنى، وكما ذهب البروفيسور "إن – بي.ميلليه" أن يقوم مقام المعبد الجنائزي للملك.

وعلى الضلع الشمالي للحى المركزي، وإلى الشرق أيضاً من الطريق يقع أكبر معبد بين سائر معابد المدينة وهو "بيت قرص – الشمس" الذي يتكون من حوش فسيح مسور مستطيل تصل مساحته إلى ٧٦٠ X ٢٩٠ .متراً، وبداخله تقوم معابد عديدة مستقلة. وهذه المعابد، تتوالى، من الطرف الغربي، الذي يعتبر

المدخل الذي يقود إلى الكل : "بيت البهجة"، وهو عبارة عن قاعة أعمدة، من نوع ما، تشرف على معبد "جم – أتون" أو "قرص – الشمس وجدناه"، ثم سلسلة تضم ستة أحواش متناقصة في المساحة، الواحد عن الآخر، ومفتوحة على السماء، ثم معبد "بيت حجر البينبين" في الطرف الشرقي، وهو المعبد الذي يتصل بـالمجزر. وعلى غرار معظم منشآت العبادة سواء هنا أى في "أخيتاتون" أو في "طيبة" كانت كل الأفنية مفتوحة على السماء حتى يشع *قرص الشمس* على كافة الشعائر التى تقصد وجهه. وكانت موائد القرابين التى تئن تحت النعم التى أنعم بها قرص الشمس، ممتدة في كل مكان. فاستمرار تيار الزمن وانضباط التوقيت يعتمدان بصفة كاملة على الانتظام الذي لا يكل ولا يمل لدوران *قرص – الشمس*، فيما يبدو وكأنه احتفاء بالمدار السنوي، إذ تمتد ٣٦٥ مائدة قرابين بطول ضلع معبد "جم – أتون" أو *قرص – الشمس* وجدناه" و٣٦٥ مائدة مماثلة بطول الضلع الآخر (١٢). ورغم أن معبد "بيت – حجر بينبين" يذكرنا بـ"طيبة"، فإن الأحجار المقدسة التى إستخدمها البناؤون في "طيبة" اكتسبت شكلاً جديداً. فلقد مضت تلك المسلة التى جعلت من نفسها مخصصاً ضخماً لإسم ذلك المعبد الذي يضم حجر البينبين، وحل محلها صادود مدوّر القمة ، يقف على منصة بارزة. وتظهر المناظر التخطيطية لهذا المعبد في المقابر الخاصة جوقاً من العازفين العميان يصاحبهم مغنون قرب الصادود.

يشكل التغير الذي دخل على "البينبين" لغزاً آخر من ألغاز عصر "أخيتاتون". لماذا تلاءم شكل الصادود المدوّر الرأس مع الملك على نحو أفضل من الشكل الجليل للمسلة الممشوقة ؟ أيا كانت الإجابة، فلقد وجد المنقبون في معبد "بيت *قرص – الشمس*"، وعند النقطة التى أشارت فيها مناظر المقابر إلى وجود "البينبين"، شطفاً من حجر المرو (الكوارتز) منثورة على الأرض. ونفس هذا الحجر هو المادة التى قطع منها صادود سامق مدوّر الرأس، أكتشف منذ مدة طويلة في "أون"، وهو الصادود الذي يصوّر "أخناتون" وعائلته أثناء ركوعهم في حضرة الشمس – الإله (١٣). ولما كان وضع الركوع من الأوضاع النادرة التى اتخذها الملك، فإن ندرتها تنم عن إستهدافها هدفاً خاصاً. هل يكون الصادود

"الأوني" هو حجر "البينبين" المقدس الذي أستخدم في مدينة الشمس كمركز محوري للعبادة ؟

داخل نطاق "بيت البهجة" المبنى إزاء سور الفناء إنتصب عدد من المصليات الصغيرة و"الضليلات". وهذه كانت تخص، في الأصل الملكة، وربما عضوات أخريات (؟) في العائلة الملكية. إلا أن كريمات الملك وضعن أيديهن عليها في وقت لاحق. ولولا عمليات التنقيب التى قام بها الألمان في الأشمونين حيث انتقلت كثير من كتل البناء من مدينة "أخيتاتون"، في أعقاب تدمير المدينة، لما كان في طوعنا الآن وصف أى زخرف من زخارف هذه المصليات، وربما ولا زخارف "بيت قرص – الشمس" بصفة عامة (١٤). ولم يكن ولع "أخناتون" بتقريب قرابينه إلى قرص – الشمس كالموضوع الرئيسي لزخارفه قد ضعف منذ أيامه في "طيبة": فعلى غرار ما كان عليه الأمر في الكرنك، كان المنظر السائد، على ما يبدو، في "أخيتاتون"، هو ذلك الذي يظهر فيه الملك "أخناتون "والملكة "نفرتيتي" وإحدى بناته يؤدون الشعائر الدينية أمام المذبح. وكان هناك بطبيعة الحال أربع بنات حتى وقت ذاك، وبنتان أخريان في الطريق. ولكن المنظر الأصلي الذي لا تظهر فيه سوى طفلة صغيرة تسير في ذيل أمها كان لا يزال يسيطر على خيال النحاتين. كما خصصت مساحة كبيرة بشكل ملحوظ من الحائط أيضا لتصوير الغرف الملكية والمخازن، التى لابد وأن تكون قد قامت بوظيفة تفصيلية مصاحبة في المناظر التى تتناول الأنشطة الملكية. وبدت واجهة القصر وكذلك أفنيته ذات الأعمدة مشابهة بصورة ملحوظة لما كنا قد ألفناه في الكرنك : فالبوابات والأعمدة و"شرفة التجلي" والسلالم والأثاث، لا تكشف عن تعديلات ذات بال عند مقارنها مع سابقاتها في "طيبة". واستمرت مناظر العربات (والأحرى الحناطير.م) الضخمة تزيّن الحوائط على نحو ما كانت تفعل في معبد "ثابتة تلك آثار قرص – الشمس إلى الأبد" أو "رود منو ..." في "طيبة"، وظل الفنانون يستشعرون البهجة في نقش كميات كبيرة من الأطعمة في كل مكان ؛ على المذابح والموائد وفى غرف التخزين.

وتتمثل إحدى سلاسل الجداريات، التى يلفت غيابها النظر، في تلك التى تصور "عيد – السد". وليس لدينا أى دليل على أن "أخيتاتون" احتفلت بأي أعياد –

يوبيل أخرى. وحتى تاريخه لم يظهر في "أخيتاتون" ما يمكن أن نقارنه بالجداريات اللانهائية المخصصة لذلك الموضوع في "طيبة".

وسرعان ما اكتظت كل المساحات المتاحة في قلب المدينة بمبان ثانوية. فالمخازن الطويلة امتدت على جانبي المعبدين الكبيرين، وقامت بيوت الكهنة قريبة ورهن الإشارة في أفضل المواقع. كما وقفت المصالح الحكومية ودور الأرشيف وقشلاقات (ثكنات) البوليس والجيش إلى الشرق تماماً من مقر إقامة الملك. وفى أطلال مبنى الأراشيف عثرت فلاحة مصرية في شتاء سنة ١٨٨٧ – ١٨٨٨، بمحض الصدفة على خبيئة على جانب كبير من الأهمية لمراسلات الدولة فيما عرف باسم "ألواح أخيتاتون". وفى العمق الشرقي شُيّدت قرية مسوّرة للعمال الذين انخرطوا في عمليات التشييد في الموقع. ومتاخمة لسفوح الجبال الشرقية.

امتدت منطقة سكنية إلى الجنوب على جانبي "الطريق الملكي" ضمت "الفلل" (والأحرى البلل. م) الواسعة الخاصة بأعيان المدينة الجديدة. فهنا قام بيت الوزير "ناخت" الذي شغل مساحة ثمانية آلاف قدم مربع، بما في ذلك جناينه والأبنية المنفصلة التابعة له. وهنا أيضا سكن الكاهن "بواح"، وكذلك النبي الثاني للملك – الإله "بانحسي". وكانت الرابطة مع الملك والعائلة الملكية في هذه الدوائر الخاصة وثيقة وشخصية تماماً : ففي أى مكان في البيت كان لينتصب صادود كرمز للتوقير، يحمل صورة الزوجين الملكيين وأطفالهما، أو جديهما "أمين – حوتب" الثالث و"تي". وفى الغالب كانت لهجة الأيقونة هذه هادئة وحميمة. فـ "أخناتون" يهشّك الأطفال أو يربّت على ركبة زوجته : أما والده فيسترخي في كرسيه وقد لف ذراعه حول قرينته "تي". ترى هل كانت هذه الصواديد هدايا من الملك، صُنعت في ورشة ملكية تحت إشراف عام من أعلى ؟ أم يحق لنا أن نرى فيها تُعبيراً عن رؤية رجاله المقربين له ولزوجته وذريته ؟

بينما كانت المقار الرئيسية لإقامة الملك تقع، دون شك في قلب المدينة، إلا أن هناك سبباً قوياً يدعونا إلى الاعتقاد بأن الملك ربما يكون قد فضّل أن يتخذ مقره الرئيسي في "فيلا" (والأحرى بيللا. م) فسيحة قرب الضلع الشمالي للمدينة. ففي الطرف الشمالي الأقصى للسهل، حيث يقترب الجبل الصخري من النيل، يقوم

بناء ضخم بواجهة فخمة غربي الطريق الملكي، معطيا ظهره للنيل.، ولما كان هـذا البناء يرقد ممتدا في الوقت الحاضر تحت الزروعات، وتعـــرض لعمليـــة تحـــات شديدة إلى حد ما في تاريخ لاحق لتشييده، فإننا لا نستطيع أن نقول إلا أقل القليـــل حول الغرض الذي شيد من أجله هذا القصر، أو حتى تخطيطه ذاته. (ولا نقدر إلا أن التخطيط كان لقصر) من ناحية أخرى يقوم ما ندعوه بـــ"القصر الشمالي" الـــذي قاوم بصورة أفضل عوادي الدهر، على بعد حوالي ٦٠٠ مترا في العمق الجنوبـــي على نفس الجانب للطريق الملكي. ولقد بنى هذا "القصـــر الشـــمالي" علـــى هيئـــة مستطيل (١٢٠ X ٢٩٠ .متراً)، حول فناء مفتوح على السماء (غـــير مســـقوف) وجنينة، ويضم مجاميع من الغرف التى تشمل أجنحة منزلية وغرفة للعرش. كمـــا تشمل أيضاً مع ذلك، غرفاً تُستخدم كمخازن وشُون (جمـــع شـــونة. م) وزرايـــب للمواشي. وهذه الزرايب تستدعى إلى الذهن ثور مينوفيس المقدس، ذلك الحيـــوان المنذور في "أون" (هليوبوليس) للشمس، وهو نفس الثـــور الذي قدســـه "أخنـــاتون" هو الآخر في إطار عبادته الجديدة التى دعا إليها، وهو نفسه الذي يقـــول عنـــه أن جلالته أعد له مثواه الأخير في الموقع الجديد أى في "أخيتاتون".

وجنوبي المدينة، وبالقرب من قاعدة الجبال الصخرية شديدة الإنحـــدار فـــي الجنوب قام ذلك المجمع الغريب المعروف باسم "مارو – أتون" وهو عبـــارة عـــن حوش فسيح مسور تحفُه الجناين وأحواض السباحة التى تضم جزيـــرة صناعيـــة، وجواسق (أكشاك.م.) في الهواء الطلق. ولقد ظن المنقبون الأوائل للموقع أن هـــذا الـــ"المارو – أتون" منتجع، إلى هذا الحد أو ذاك من منتجعات المتعـــة. ورغـــم أن جواً ريفياً كان يحيط بالموقع، إلا أن الفرعون "أمين – حوتب" الثالث يتحدث عـــن الـــ"مارو" الذي ابتناه لـــ "أمون" بصفتـــه محفوفـــاً بالجنـــاين وتكـــاعيب العنـــب، وأحواض السباحة، ويبدو أن الغرض الرئيسي، دون شك كبـــير، مـــن وراء هـــذا المبنى كان دينياً. وفى أوقات لاحقة زوّدت معابد الآلهة الشمسية بـــ"مارو" وتشـــير النصوص الواصفة والاسم ذاته (الذي يتخذ رسم العين كمخصص) كلاهما، إلـــى أن "مارو" تعد ترجمة لـــــ"مطرح الرؤية" والحقيقة أن الـــ"مارو" كان "خُـــص الإلـــه "(المفتوح الجانب. م) أو Gazebo

رجال مدينة "أخيتاتون" ونساؤها

انتقل حشد من الأنصار من مختلف المشارب، في أعقاب ملكهم، إلى الموقع الجديد في المديرية الخامسة عشرة. ويقف المرء مذهولاً أمام الافتقار الملحوظ لطابع الاستمرار بين "طيبة" و"أخناتون": معظم الوجوه جديدة. وغاب "الحرس القديم" إلا أقلّه(١٥).

قام الملك نفسه بتعديل أسمائه بما يعطى سيادة أكبر لعلاقته بقرص – الشمس وبالمدينة الجديدة. فاسمه الحوري (من حورس.م.) أخذ يظهر منذ الآن على هذا النحو : "محبوب قرص الشمس" وإسمه الذي يتضمن "السيدتين" ("اللتين تشيران إلى الوجهين القبلي والبحري.م.") ظهر كـ"صاحب المُلْك في "أخيتاتون"، وإسم "حورس الذهبي" أصبح يعبّر عن فكرة "تمجيد إسم قرص – الشمس" وإلى جواره، بطبيعة الحال كانت زوجته "نفرتيتي" التى سرعان ما أنجبت ثلاث بنات أخريات : "تفر – نفرو – أتون" الصغرى و"نفر- نفرو- رع" و"سا – تي – بن – رع" ويبدو أن ثلاثتهن كن قد ولدن على وجه الاحتمال بحلول السنة العاشرة، إلا أنهن لا يظهرن، إلا نادراً، في الجداريات، وربما يكون قد وافهن الأجل في طفولتهن .وكانت المربيات حاضرات في كافة المناظر الجدارية، وهن يحمن بحدب، حول عهدتهن. وإحداهن معروفة لنا بالاسم وهى "تيا" مربية كريمة الملك "عنخ – إس – إن – با – أتون". وفى معية الملك انتقلت والدته الملكة "تي"، رغم أن إقامتها في المدينة الجديدة ربما لم تكن دائمة. وبصحبتها جاء، بدوره، مدير أعمالها "حويا" ذلك الذي يفضله سيد الأرضين، ناظر حريم الملك، وأمين الخزانة، الوْصيف (؟) الأول في بيت أم الملك "تي". كما انتقلت كذلك شقيقة الملكة "موت – نجمت" ورغم أن هذه السيدة تحوم في الظل، إلا أن دوراً بارزاً كان ينتظرها خلال الفترة التى أعقبت عصر "أخيتاتون". وكذلك إنتقل "ميري – رع" الأمين الأول للملكة "نفرتيتي" وسائر خدمها وحشمها. لكن الغريب حقاً في الأمر كان وجود الزوجة "الأخرى"!

رغم توفر الأدلة منذ سنوات طويلة، فالملكة "كيا" لم تعرف على نطاق واسع في الدوائر العلمية إلا في الآونة الأخيرة، نوعا ما، خـــلال أبحـــاث البروفيســور "فيرمان" بجامعة "ليفربول" في إنجلترا (١٦) .وكان الأجل قد وافاها قبل "أخنـــاتون"، ومعظم الآثار أو الجداريات التى حملت إسمها أو رسمها إما أنها نهبت أو حطمـت. وإذا شئنا منحها ألقابها بالكامل فهي : الزوجة المحبوبة للغاية من ملك مصر العليـا والسفلى الذي يقتات بالصدق "نفر – خبرو – رع، واع – إن – رع"، الطفـــــل الجميل الذي أنجبه قرص – الشمس" الذي سيحيا أبد الآبدين، "كيـــا". ونلاحـــظ أن ألقابها، تزهو، خلافا للألقاب التى حازتها "نفرتيتي" بمكانة زوجها، الأمـــر الـــذي يشير، على وجه الترجيح، إلى أنها كانت تحتل منزلة أدنى بصـــورة نســبية بيــن زوجاته. ومع ذلك، كانت تستحوذ على قدر من الأهمية يكفى لأن تظهر في بعـض الجداريات، بل وربما تكون قد أنجبت طفلة (ولو أن هذا أمرا غير مؤكد). وهنـــاك نظرية تذهب إلى أن "كيا" ليس سوى إسم دلع حملته "نفرتيتي" نفسها. ولكـــن هـــذه النظرية تتبدد، في تصوري الخاص، في ضوء الاختلاف البـــارز بيـــن مجموعـــة الألقاب التى حملتها. ولو أن هذا الاسم : "كيا" يحمل كل قسمات أســـماء "التدليـــع" وهو عبارة عن شكل مختصر لاسم طويل. ولطالما تساءل صاحب الكتـــاب الـــذي بين يدي القارئ عما إذا كنا نجد في اسم "كيا" شكلا مختصرا للاسم "جيلو – خيبـــا" Gilu khepa الذي تكتب الأبجدية المصرية حرفه الأول : "الجيم" كافا، وهو إســـم الأميرة الميتانية التى كانت قد دخلت في صباها المبكر، قبل خمس وثلاثين سنة في سلك حريم الفرعون "أمين – حوتب" الثالث. وليس هناك شـــئ مســـتبعد بطبيعـــة الأمور في هذا الصدد : لم تكن "جيلو – خيبا" قد تجـــاوزت الثامنـــة والثلاثيـــن أو الأربعين على الأكثر، من عمرها عند الانتقال إلى المدينـــة الجديـــدة "أخيتـــاتون"، ويمكن أن تكون قد حازت، لدى الإبن، نفس الإعجاب الذي حازته لدى الوالد.

احتل طاقم الملك الخاص مكانة بارزة في المقر الجديد. وأحد أعضاء هـــذا الطاقم، وأوسعهم نفوذا، الذي قدر له أن يلعب دورا هاما في الفـــترة التى تلـــت عصر "أخيتاتون" كان "آي" ؛ الذي يفضله الإله الطيب، حامل المروحة التى علـــى يمين الملك، الكاتب الصادق للملك ووالد الإله، والمؤتمن في سائر أرجاء البـــلاد،

وقائد عربات الخيول (١٧)، ولقد ظن البعض أن اللقب الذي كان "آي" يفضله لنفسه أى "والد الإله" يعنى أن "آي" كان حما "أخناتون" إلا أننا لم نصادف في أى مكان آخر أى إشارة للرجل بصفته والداً سواء لـ"نفرتيتي" أو "كيا" زوجتي الملك – الإله، ومن جانب آخر، نجد أن إسمه ذاته والوظيفة العسكرية التى شغلها تربطه بصورة وطيدة مع عائلة "يويا"، والد الملكة "تي" ولعلنا لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا اعتبرناه إبناً لـ"يويا" و، أخاً، لكل من "تي" و"أنين". وبالتالي فإن صلات عائلته كانت كافية وحدها لرفعه إلى أعلى الدوائر في البلاد، إلا أن المصادر النصوصية أى الكتابية ظلت تتجاهله، على نحوٍ مستغرب، حتى وصلنا إلى "أخيتاتون". ولقد كانت زوجة "آي" هي مرضعة "نفرتيتي"، وهو الأمر الذي ساهم، دون شك، في تعزيز حُظوته مع الجانب الأموي في نسب العائلة المالكة.

كما يظهر في "أخيتاتون" كذلك "بار – إن – نفر" النظيف – اليد، الذي شغل منصب رئيس خدم جلالته، ورأيناه في "طيبة". وكذلك الأمر مع "توتو" كبير الأمناء في بلاط سيد الأرضين وأمين الصندوق و"خاي" كاتب الترابيزة أو المائدة لسيد الأرضين و"رع – نفر" القائد الخاص لعربة الملك. ولقد إصطنع بعض هؤلاء الوجهاء، ألقاباً متكلّفة وعتيقة الطابع نوعاً ما فـ"أح – موسى" الذي كان يشغل منصب أمين الملك على سبيل المثال، يطلق على نفسه ألقاباً مثل ؛ حامل أختام الملك لشؤون الوجه البحري، والصديق الفريد الذي يسير في كعب سيد الأرضين، والممدوح على لسان الإله الطيب، والمحبوب دائماً من شغاف قلب سيده، والكاتب الصادق للملك الذي يحظى بحبه، كبير مدبري بيت "أخناتون" وناظر الباب العالي... الذي يستطيع الاقتراب من الأعضاء المقدسة، أوجه الوجهاء، أول رجال البلاط...إلخ. ولقد اقتبس كبير الأمناء وكبير الأطباء "بنتو" نفس هذا الرطان لدى تلقيب نفسه، وأضاف نعتا غدا شائعا في المدينة الجديدة، وهو : السادن الأول لـ "قرص – الشمس".

ولما كانت "أخيتاتون" قد أصبحت مقر الحكومة، فلقد تقاطر عليها الوزراء والمسئولون الحكوميون. ولقد سنحت لنا الفرصة في وقت سابق كي نذكر الوزير "تاخت" الذي يعاونه "رع – موسى" ناظر شون الغلال، الذي كان يشغل

أيضا منصب قائد عجلات الخيول، ومنصب أمين معبد "بيت ـ أتون"، "حـوت ـ أتون"، و"حوى" أمين الصندوق، و"أبيا" الأمين الأول المكلف بـ"منف" و"رع – موسى" كاتب التجنيد، و"ماحو" قائد البوليس، و"نفر – خبرو – حر – سي – خبر" عمدة المدينة. ولما كانت أعمال التشييد تتصدر على وجه التقريب قائمة الأولويات في رأس الملك، فلقد إحتل المهندسون المعماريون بالتالي مكانة بارزة. ويبدو أن رجلين مثل "با – أتون – إم – حب" و" معا – إن – خوتيف"، اللذين عرفناهما، الأول خلال إحدى المقابر، والآخر خلال قائمة خشبية لأحد الأبواب، كانت لهما بالضرورة مهام ما عملية في البناء.

وعلى غرار ما كان عليه الحال في "طيبة"، حيث كان الجنود منتشرين في كل مكان، وبأعداد كثيفة حول الملك : كان أفراد سرايا "أخيتاتون"، يسيرون بخطى عسكرية سريعة أو بخطى مسترخية أو يركعون، إلا أنهم لا يبتعدون، في سائر الأحوال، كثيرا في أى وقت من الأوقات عن شخص الملك. وتكفى نظرة واحدة نلقيها على صور وجداريات مدينة "أخناتون" كي نتحقق من أن ضباط تلك السرايا كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة. فكان "مايا" ؛ المولع بالطنطنة والشقشقة ؛ يحمل لعب "جنرال جيش سيد الأرضين"، لأنه كان دون شك (وحسبما يقول هو) " يحظى بثقة كبيرة عند سيده ،،القادر الأوحد في حضرة سيد الأرضين الذي ملأ أذني حورس (أى الملك) بما هو حق، ذاك الذي رفع الملك شأنه نتيجة لخصاله الحميدة ' ذاك الذي يعد النافع الأوحد في نظر الملك، ومن فرزه الملك كمسئول تنفيذي بارع (حرفيا : من يأتي بأعمال ناجعة) وكان في طوع الملك أن يستدعي، دون شك "رع – موسى" جنرال الجيش "أو" نها (؟) إم – با ـ أتون "قائد الكتائب أو "رع – نفر" أو "آي" قائد عجلات الخيول، طالما كان "مايا" بعيدا عن منصبه لسبب أو لآخر، ولو أن ذلك كان أمرا نادرا. وبطبيعة الحال كان أولئك ضباطا ورثوا ـ بصرف النظر عن خدمتهم في سلك العسكروت (أو افتقارهم إلى هذه الخدمة) – تقاليد عسكرية تستحق الفخر : كان سابقوهم تحت السلاح وكان بعضهم لا يزال على قيد الحياة) قد زحفوا على أربعة أركان المعمورة وغزوا الشطر الأعظم منها. ويحتاج كسب الحرب باستمرار إلى قدر ما من العُجْب والخيلاء كي يلازما، بالضرورة،

عملية الانخراط في سلك العسكروت، أو الجندية، أو على الأقل هذا ما قد يذهب إليه بعض القدماء وبعض المحدثين على حد سواء.

لا عجب في المنزلة الرفيعة التى احتلها الكهنة في النظام الجديد. ولسوف نتوقف عما قريب أمام الخدمات التى قدموها للعبادة الجديدة. ويكفينا في الوقت الحاضر أن نضع قائمة بأسمائهم. فكاهن الشمس الرفيع الذي طالما رأيناه بصحبة الملك في "عيد السد" يظهر في "أخيتاتون" باسمه وكامل ألقابه المقدسة. فهو : أعظم أنبياء قرص – الشمس في "أخيتاتون"، وحامل أختام الملك لشئون الوجه البحري، والصديق الفريد، وحامل المروحة عن يمين الملك، "ميري – رع". ويبدو أن شخصا من سلك الكهنوت ، لم تكشف جداريات الكرنك عن اسمه، قد ظهر في المدينة الجديدة. وقد رفع القناع عن وجهه، أقصد : "ميرايا" كاهن الترتيل والسادن الأول لـ "بيت قرص – الشمس" (١٨). وكان في طوع رجال من أمثال "بنتو" الطبيب أو "با – نحسي" راعى زرايب المواشي أو "توتو" العظيم ذاته أن يطلقوا هم أيضا، على أنفسهم لقب "السادن الأول لقرص – الشمس". وبخصوص "با – نحسي"، على الأقل تكشف ترجمة اللقب عن دور إشرافي، أسند إليه، على مجزر المعبد. على أن مسئولين آخرين عن المعابد في مدن أخرى في البلاد قدموا للإقامة في "أخيتاتون". ولقد تمتع كل من "بواح" كاهن الشمس الرفيع الشأن في "أون" و"مايا" الجنرال بدور إداري في نفس الدائرة.

لم تكد سبع سنوات تمر على صعود "أخناتون" إلى العرش، وكان النسق الموحد على مستوى السياسة والاقتصاد والدين، ذلك النسق الذي ظلت مصر لا تعرف سواه لسبعة عشر قرنا قد دخل عليه تعديل حاد، إن لم نقل انقلب رأسا في عقب. حقا بدا الأهالي في المدينة الجديدة سعداء ومتخمين إلى حد البشم : إذ اتضح أن الأسلوب الجديد للحياة مثير وحتى ذلك الوقت ناجح. إلا أن تركيز الانتباه على مدينة "أخيتاتون" قد ينسينا الأوضاع التى كانت قائمة في أماكن أخرى. فلقد وقف المركزان الإداريان اللذان عرفا الإزدهار يوما ما : "طيبة" و"منف" عاطلين دون عمل. فأغلقت المعابد والمصالح الحكومية فيهما أو كادت. ووجد أبناء البيوتات الراقية

الذين كانوا في خدمة الفرعون، أنفسهم على حين غرة مجردين، ليس من وظائفهم وحسب بل ومن صلاتهم بالبلاط الملكي أيضاً. ترى من كان السبب في كل ذلك ؟ ومن ذا يكون ذلك الـ "أخناتون" ؟ لقد أرجأنا المحاولة التى سنبذلها نحو تقديم إجابة على هذا السؤال بما فيه الكفاية. أليس كذلك ؟

الباب الثالث

قرص - الشمس الحي المعظم



الفصل التاسع
البيئة الروحية وراء رد فعل "أخناتون"

مال المصريون القدماء في تأملاتهم حول بداية وأصل الكون ووضع مصير داخله ميلا قويا نحو تفسير التعددية الواضحة للكون في ضوء وحدة كامنة. أحد الأنساق التي عرفتها مصر، وقد يسمى، بحق "الأونى" يفضل "أتوم"، "الكامل" و"الواحد" الذي خرجت منه (عن طريق الانبثاق والامتزاج اللاحق للمواد الأولية) كافة أشكال الوجود في الكون. أما النسق "المنفى" فيعظم شأن القلب (العقل) بصفته العنصر الأولى. فالقلب هو الذي خلق الأشياء عن طريق الفكر أى الإسقاط المتجسد للفكر الذي تحدوه الإرادة. وإذا مددنا هذه الفكرة على استقامتها المنطقية فإنها تقودنا إلى النتيجة التى تقول أن الوجود كائن والأشياء موجودة بقدر ما يوجد القلب. وكل ما هو موجود ليس في حقيقة الأمر إلا تجل متنوع الأشكال لوحدة كامنة تدعى القلب أو العقل. وهناك نسق ثالث من الأفكار تنتسب، عادة إلى الأشمونين تصف العنصر الأولى باعتباره اللامتناهي: اللامتناهي في الحجم، اللامتناهي في الظلمة، الهلامي بصورة كاملة والباطن بصفة تامة (١)

وتلك كانت بمثابة البشائر الفلسفية التى استبقت فلسفة ما ــ قبل ــ سقراط Pre-socratics، إلا أن العبادة المفروضة، كرمز مجرد، التى جاء بها "أخناتون" كانت تنتمي لنسق غاية في الاختلاف عن تلك البشائر. فحيثما كانت العبادات الأخرى نسبية، كانت العبادة التى دعا إليها "أخناتون" مطلقة، وحيثما كانت تلك العبادات قائمة بصورة واعية على التعدد، كانت عبادة "أخناتون" وحدانية دون تردد. وبينما كانت العبادات الأخرى تبحث عما نستطيع نحن المحدثين أن نطلق عليه "السبب الأول"، لم يبد "أخناتون" في كتاباته التى وعاها لنا التاريخ أى اهتمام، مهما قل شأنه، بما لا يمكن إدراكه. ترى ما الذي دفع الملك إلى مثل هذا التحول الجذري عن الفكر التقليدي ؟

كان عصر "أخناتون" ورد فعله العنيف ضده (أي ضد ذلك العصر) نتيجتين

لصدام بين تيارات مختلفة ظلت تتنامى جيلاً بعد جيل داخل الهيئة السياسية وبين صعود مفاجئ لشخص غريب الأطوار ميّال لتحطيم القيم المتوارثة، إلى العرش.

ولكي نفهمه ونفهم ما أقدم عليه يتعيّن على المرء أن يفحص عن كثب ما يلي :

١- ظاهرة عبادة "أمون".

٢- صعود الشريحة الإدارية الجديدة.

٣- شخصية الملك ذاته.

عبادة "أمون"

تتمثل أبرز سمة على وجه الإطلاق للديانة المصرية في مطلع الأسرة الثامنة عشرة في علو شأن الإله "أمون" الذي يعني إسمه "الباطن". فلم يكل الفراعنة في تلك الفترة ولم يملوا من تكديس الغنائم التى يعودون بها من حملاتهم الأجنبية عند أقدامه، نظراً لأنهم أرجعوا فوزهم في حملاتهم الحربية، خارج الحدود، إليه وحده دون سواه. فانتفخت خزائن هذا الإله بثروة لم تشهد مصر لكمياتها مثيلاً من قبل. وخلال مناخ الشعور بالمساواة الذي ولّدته حرب التحرير (ضد الهكسوس)، لم يكن في طوع الفرعون أن يدّعى ملكيّتها أى تلك الثروة ويسلم في نفس الوقت من كل خطر. ولم يكن من المستصوب أن يوزّعها بين أعضاء أى طبقة معينة دون سائر طبقات المجتمع، وهو الأمر الذي كان ليخلق – لو حدث – عائلات واسعة الثراء. ولم يكن هناك حل أفضل من منحها لشخصية غير دنيوية، يلتف حولها أناس ما بصفتهم حراساً لها وحسب. وانضافت إلى ممتلكات "أمون" الدنيوية التى تضخمت خلال الغزو الخارجي عطايا المواشي والعقارات التى حصل عليها من داخل مصر ذاتها. وكان تقليد منح الفرعون لمثل هذه العطايا الصريحة للإله "أمون" ضارباً في أعماق القدم، ولكن نشأت مع مطلع الأسرة الثامنة عشرة على وجه الاحتمال بواعث إضافية. فمع إعادة تشكيل وادي النيل من البحر المالح حتى "دنقلة" في أقصى الجنوب تحت ظل نظام واحد، دخلت ملكية الأرض بالضرورة، في حالة من التغيّر المستمر. وهل هناك حل يضمن الإدارة الفعالة للأراضي

الخالية من الحيازة، ويحرم المزاحمين المحتملين من ركيزة لقوتـــهم ســوى منـــح مناطق شاسعة للإله ؟ وعلاوة على ذلك، طالما عاد البلاط الملكي، بقوة الانجـذاب، إلى مقره المفضل في "منف" إعتباراً من حكم "تحوت – موسى" الأول، كان لابـــد من التوصل بطريقة أو بأخرى إلى وسيلة فعالة لإدارة الأراضــــي البعيـدة عـن العاصمة في أعماق الجنوب. وكان ذلك ليتم خلال عصــر سابـــــــق بمســاعدة مديري المديريات "نومارش" Nomarchs* وحاكم الجنوب. إلا أن "بيـــت أمــون" أصبح وقت ذاك يقوم مقام نائب دائم للملك في الوجـــه القبلـــي. وبحلـــول عصـــر الفرعون "أمين – حوتب" الثالث كـــانت المؤسســـات الكـــبرى الأخـــرى المالكـــة للأراضي الزراعية في منطقة "طيبة" كالمعابد الجنائزية على الضفة الغربية للنيـــل قد أصبحت تُعامل كمؤسسات معاونة في إدارة عقارات "أمون".

ومن الواضح أن الأشخاص الذين أُسندت إليهم مهمة إدارة "بيت أمون" كانوا ينهضون بمسئولية عظمى، وكانوا بالضرورة يكوّنون فيما بينهم تشكيلاً واسـعاً (٢). ولكن حجم وتشابك كهنوت "أمون" كانا جديدين نسبياً. ففـــي المجتمعـــات المحليّـــة المحدودة الأفق التى عرفتها الفترة الانتقالية الأولى* والمملكة الوسيطة كان الأفراد المتفرغون بصفة كاملة لخدمة معبد الإله المحلى لا يشكّلون سوى طـــاقم صغـــير يقف فيه نبي الإله وكاهن الترتيل كعضوين يتمتعان بالاحترام داخـــل مجتمعـــهما. وفى النصوص التى سنحت فيها الفرصة لكاتبها كي يرتّب الكهنة بشـــكل هرمـــي وفق مناصبهم نرى كبير الأنبياء وقد جاء في المقدمة ثم يليه، وإن لم يكن بصفـــة دائمة، أمين خزانة الإله ثم كاتب المعبد ثم الكاهن المقرئ ورئيس القبيلة والأنبيـــاء الثانويون (؟) (٣) والمقرر، "ذاك الذي يقوم على الأســـرار" ومرتـــدي النقبـــة ثـــم المشرف على ورشة العبيد والأسرى ورئيس القاعة الوسيعة ثـــم المشـــرف علـــى مزار "كـــــــو"* وكاتب المعبد ثم كاتب المذبح ثم الكهنة المرتلين (٤). وفى العادة كانت القائمة أقصر حتى من اللائحة. ففي مدينة "إدفو" لا نســـمع إلا عـــن كـــاتب وكاهن مرتل والكاهن "وعب" وأنبياء وكهنة ساعات للمعبد (٥). وكان طاقم معبـــد الإله "أوزيريس" إله الموتى في المملكة الوسيطة لا يضم سوى أنبياء وكهنة "وعب" وكهنة مرتلين وكتبة (٦). أما معبد "مونتـــو – حوتـــب" الجنـــائزي خـــلال عـــ

"سنوسرت" الأول، فقائمته تضم كهنة مرتلين وكهنة "الوعب" وكهنة ساعات وفلاحين مستأجرين. وبخصوص معبد "أمون" خلال نفس العهد لا يشير المصدر الذي بين أيدينا حالياً إلا إلى قائمة محدودة تشمل نبياً واحداً وعدداً من كهنة الساعات (٧).

غير أن المملكة الحديثة في "طيبة" تواجهنا بصورة مفاجئة بكهنوت يضم عدداً ضخماً من المحترفين. ففي ظل الفرعون "تحوت – موسى" الثالث كانت القائمة في معبد "أمون" تضم بالفعل، في ترتيب تنازلي، أنبياء، وآباء إله وكهنة ومشرفين على الأسرار وفتاحي مزار وكهنة شمسيين، وكهنة ترتيل ومساعدين وكهنة – وعب، وكهنة جنائزيين وجيش من المسئولين العلمانيين ومع النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة كانت عائلات بكامل أفرادها تكسب عيشها في نطاق صفوف كهنوت "أمون"، وكانت قد ظلت على هذا الحال على امتداد أجيال عديدة.

على رأس التشكيل الوليد، الذي تحوّل بمرور الوقت ليصبح بمثابة شريحة اجتماعية مغلقة داخل الدولة، وقف النبي الأول لأمون. وكان الملك والملكة يراقبان عن كثب أعمال صاحب هذا المنصب، بالإضافة إلى منصب النبي الثاني الذي يليه في المرتبة مباشرة، وفقاً لما يخبرنا به أحد النقوش التى ترجع لعهد "أحمس". ولعل فعالية هذه الرقابة إلى جانب أبعاد ممتلكات "أمون" التى كانت لا تزال حتى ذلك الوقت متوسطة الحجم، هي التى تفسر لنا ضآلة الأهمية بصورة نسبية التى حازها شاغلو المنصب الثلاثة السابقون، والمعروفون لنا : "خونسو – إم – حب" و"جحوتى" و"مين – مونتو". ولكن مع عهد الملكة "حتشبسوت" حدث تغير في الوضع (٨). فعهدها يتميّز بوجود زمرة من كبار المسئولين الذين حازوا سلطتهم، على وجه شبه محتمل، بإيعاز منها بل وربما على حسابها هي ذاتها.وقد يكون هؤلاء المسئولون قد استشعروا الحاجة إلى إضفاء طابع التجنيد على الخدمات الخاصة بأجهزة الدولة، بما في ذلك عبادة "أمون" كي يسوغوا حكما غير شرعي، أو حكما لم تعرف مصر له مثيلاً من قبل في أقل تقدير. وتكشف الألقاب الكهنوتية التى حملها رجل دين مثل "حابو – سي – نيب" عن اتجاه مزدوج للسياسة الدينية

في ذلك الأيام، أولا : دمج ممتلكات "أمون" الدنيوية" بصورة تامة في قبضة سلطة واحدة، وثانياً: دمج ممتلكات كافة الآلهة المصرية ورجال كهنوتها في قبضة السلطة "الأسقفية "* التى يتولاها الكاهن الأعلى لـ"أمون". وبالإضافة إلى توليه منصب النبي الأول لـ "أمون" وو الد الإله الأول لـ "أمون، كان "حابو – سي – نيب" ، هذا ، مشرفاً على كافة المناصب في "بيت أمون"، فهو مشرف على أنبياء الوجهين القبلي والبحري، ومشرف على المعابد . ووفقاً لهذا النظام الذي أبتكر للتو، جرى إخضاع وظيفة المشرف على كهنة الآلهة في المديرية، وهى وظيفة قديمة قدم الزمان نفسه، وتوازى على وجه التقريب سلطة "الأسقف" في وقتنا الحاضر، لسلطة من نوع جديد تعادل سلطة "المطران".

ويبدو أن الرجلين اللذين خلفا "حابو – سي – نيب" قد اقتفيا أثره، إلا أن صعود الفرعون "تحوت – موسى" الرابع إلى العرش رافقته هزة شاملة. فلقد وقع اختيار الفرعون، كما يبدو واضحاً، على شخص يدعى "أمين – إم – حات" لتولي منصب "الكاهن الأعلى". وهو إبن إمرأة من أصل متواضع، وكان لا يزال مجرد كاهن بسيط عندما شارك في الرابعة والخمسين من عمره في الحداد على وفاة الفرعون "أمين – حوتب" الثاني. فهل كان الفرعون "تحوت – موسى" الرابع يؤكد، باختياره ذاك، وعن عمد، حقاً ملكياً خالصاً كان قد أصبح محل التجاهل ؟ وبعبارة أخرى هل تجاوز الفرعون بصورة مقصودة مرشحين أوسع صيتاً من بين مسئولين يتمتعون بـ"حقوق مكتسبة" تمسكاً بحقه الخالص في تعيين "رجل الفرعون "؟ حقاً أصبح "أمين – إم – حات" الكاهن الأعلى لـ"أمون"، والمشرف على كافة أنبياء الوجهين القبلي والبحري، إلاّ أن مناصبه المدنية كانت، على ما يبدو، قليلة. كما قام الفرعون "تحوت – موسى" الرابع أيضاً بتعيين أحد الكهنة يدعى "أمين – حوتب"، من مرتبة دنيا بالتأكيد، وإن لم تكن واضحة على وجه التحديد، في منصب "النبي الثاني" لـ"أمون". وقد شغلت مراسم التنصيب مساحة كبيرة بشكل ملحوظ في مقبرته : *لقد وجد (أى الفرعون) أنني ممن يصلحون لخدمة جلالته...وقد جرى تنصيبي...وعندما وصل الأمر إلى رجال البلاط الملكي، استبدت بهم النشوة وكالوا المديح لجلالته .وقفزت كلمة*

"*مرحبا"...على ألسنة الكهنة..فلقد رقيت إلى منصب النبي الثاني...وارتفعت كي أشاهد قدسية سيد الآلهة* "(٩) . هل ينطوي الأمر هنا على إيماءة إلى أن "أمين – حوتب"، هذا، لم يكن ينتمي حتى ذلك الحين إلى معشر الكهنة ؟ ولقد شملت التعيينات الجديدة الأخرى التى تمت تحت ظل الفرعون "تحوت – موسى" الرابع "تانونا" الذي كان يشغل وظيفة الأمين الأول في منصب المشرف على الخزانة، وتعيين "تيب – أمون" الذي كان يشغل وظيفة حامل الراية على سفينة الملك الحربية في منصب رئيس جهاز البوليس، وتعيين "سوبك – حوتب" في وظيفة بارزة في الغرف الخاصة بأطفال الملك، وربما تعيين "تيبى"، هوالآخر، في منصب عمدة مدينة "تارو".

إلاّ أن المؤسف حقاً أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن الشخصيات التى شغلت المناصب العالية في السلك الكهنوتي في ظل حكم الفرعون "أمين – حوتب" الثالث. فلا نكاد نستوثق إلاّ من شخص يسمى "ميري – بتاح" في السنة العشرين من حكم الفرعون، وشخص آخر يدعى [؟] حوتب أي (راضى)، خلال مقبرة "رع – موسى"، وشخص ثالث يطلق عليه اسم "بتاح – موسى" الذي كان قد شغل أيضاً في وقت ما من حياته المهنية منصب وزير الوجه القبلي. وبين هؤلاء الثلاثة، يبدو أن الأخير كان أهمهم، ونستند في حكمنا هنا إلى الألقاب، على الأقل، التى حملها : وقد يكون من المثير للاهتمام أن نعرف المدى الذي بلغه شأوه ونفوذه حتى شكّل في نظر معاصريه خطراً سياسياً.

ولقد شغل عدد كبير إلى حد ما من الشخصيات منصب المشرف على جميع أنبياء الوجهين القبلي والبحري إبان عهد الفرعون "أمين – حوتب" الثالث. ويصعب علينا أن نتحقق من السبب الذي يقف وراء ذلك. هل وافى الأجل بعض الذين شغلوا المنصب بفارق فترة قصيرة بين الواحد والآخر ؟ هل اشترك أكثر من شخص واحد في شغل المنصب في وقت معين ؟ أم أن الوظيفة انتقلت بشكل سريع في واقع الأمر، من شخص لآخر حسب مشيئة الفرعون، الذي كان حريصاً، فيما يبدو على الحيلولة دون أن يجمع "مطران" ما في قبضته خيوط نفوذ قوى بطول استمراره في ولاية المنصب ؟ ولقد شغل اثنان من أولئك منصب الكاهن الأعلى

لـ"أمون": وثلاثة منهم احتفظوا بصلات ما مع عبادة "بتاح" في "منف". هل ينبغي أن تذهب الظنون بالمرء إلى أن الاستحسان الذي أبداه الفرعون بالإله "بتاح" إنما يعكس محاولة حصيفة من جانبه نحو موازنة قوة النبي الأول لـ"أمون" أم أن التبادل بين المسئولين، "المنفى" (نسبة إلى "منف") و"الطيبي" (نسبة لـ"طيبة") نجم عن الحقيقة المجردة بأن الفرعون غيّر مقر إقامته المفضل بنهاية العقد الثالث لحكمه من "منف" إلى "طيبة"، وفى إطار هذه العملية اختار رجله من بين مرشحين محليين ؟

يقف "أمون" بين الآلهة المصرية في ظل المملكة الحديثة كمحدث نعمة انتهازي. ومن الواضح أن هذا القول ليس إلا صورة على المستوى اللاهوتي لحقيقة اجتماعية، تتمثل في أنه خلال صدفة تاريخية غدت عبادة "أمون" – أى كهنوته – رابطة يستطيع في نطاقها الطامحون إلى السلطة أن يحققوا ذواتهم. فالآلهة الأخرى، في معظمها تملك صفات ورموز مميزة، إلا أن "أمون" أى "الباطن" كان إلهاً باهتاً لا يستطيع المرء، من واقع تعريف الإسم ذاته أن يعرف إلا أقل القليل عنه أو حتى لا يعرف شيئا بالمرة. وقد لا يكون مثيراً للدهشة، بالتالي، أن نجد أن طبيعة "أمون" تقوم على الاقتباس، بصفة رئيسية، من مختلف العبادات الأخرى، فمن الإله – الملك اقتبس ألقاباً مثل : ملك الوجهين القبلي والبحري، وملك الأرباب، وسيد كل الآلهة، وأمير الأمراء (١٠) كما تزيى بزي ملك عظيم، جرى تفصيله على فرعون أرضى، بعد انعكاسه في السماء. وهو "ملك السماء" الذي ارتفع مثل "حور – آختي – أتوم" الذي لا يعرف أحد جسده (١١). ومن اللاهوت الحلولي الذي يرتبط عادة، بالإله "بتاح" اقتبس"أمون" فكرة التفرد (أى كونه فرداً لاشبيه له) والأولوية (أى كونه الأول الذي لا سابق له)، وأصبح العنصر الأولى في الكون، وهو الإله الفرد الذي "يحوّل نفسه إلى عدد لامتناهي الحصر من الأشكال، فكل الآلهة موجودة أو فانية فى ذاته" (١٢) وهو "أبو الآباء واللامتناهي في العدد، ولا نظير له، والفرد المتفرد، الموجد لكل ما هو موجود، والخالق لكل ما هو كائن، وهو الذي ربط بين أعضاء عشيرة الشمس * (١٣). ولما كان "أمون" قد تطابق منذ وقت مبكر مع إله الشمس، فكان من الطبيعي أن يستحوذ

لنفسه على القدرة على الخلق ومنح الخير من "رع"، وهو "قبس النور الحي الذي انبثق من الفيضان". وهو "الذي خلق كل ما هو حي، وقدَّر لكل قُوته...الراعي القوى الشكيمة الذي يسوق رعيته إلى حماه...وكافة الأراضي تهتز فرحاً كلما أشرق كل يوم (١٤). وعود على بدء "هو الذي يشق السماء كي يشرق على هيئة قرص الشمس كل صباح (١٥) " وهو ليس خالقاً وحسب، بل هو"أب رحيم وعطوف على أطفاله كذلك. *"الإله الفرد الذي لا نظير له، وهو "رع" الذي يشع نوره في الأعالي، وهو "أتوم" أي "الكامل" الذي خلق البشر، الذي يسمع دعوة الداعي كلما دعاه، وهو الذي ينجي الإنسان من قساوة قلبه. وعندما يشرق يحيا الناس وتنبض قلوبهم وتستطيع عيونهم أن ترى. وهو الذي يمنح نفس الحياة لذاك الذي لا يزال في بيضته، وهو الذي يوهب الحياة للبشر والطير ويوفر للفئران في جحورهم كل ما تحتاج إليه، وكذلك كل ما يزحف وكل ما يصفق الهواء بجناحيه على حد سواء*(١٦).

ولم يكن نفوذ "أمون" مقصوراً، مكانياً، على مصر، إذ امتد إلى سائر أرجاء المسكونة، وهو النفوذ الذي عمّقته، بقوة، الترانيم التى قصدت وجه ذلك الإله الذي ذاع صيته إبان الأسرة الثامنة عشرة. وفى ظل هذا الاتجاه العالمي للنزعة، اقتسم "أمون" مع "رع – حور – آختي"، وسائر أشكال الآلهة الشمسية، ربما خلال تماثله مع الشمس، سيادة جاءت كنتيجة روحية للظاهرة الجديدة التى تمثلت في الإمبراطورية العالمية. يقول أحد الأتقياء الذين يدينون بديانة "أمون – رع": *ترتفع ريشتاك عالياً. وبهما ترى السماء، وبهما تنظر من عل على "الأقواس التسعة"**(١٧) فإله الشمس هو : *الذي تصور كل شئ قبل خلقه.رب العالمين، الذي خلق كل ما هو مخلوق، الإله الواحد الذي يقتات بالصدق..*" (١٨) وخير ما يمثل هذه النزعة العالمية على المستوى اللاهوتي، ولو أن هذه النزعة لم تبرز بشكل واضح في ترانيم الفترة السابقة على فترة "أخيناتون" ؛ هو الترنيمة الكبرى لـ"أمون" التى ترجع على وجه التقريب إلى عهد "أمين – حوتب" الثاني : *يا من صنعت البشر وخلقت الحيوانات...خالق شجرة الحياة والحشائش التى تتغذى عليها المواشي...صانع ما هو فوق وماهو تحت..وهو الذي ينير الأرضين، ويمر في*

مركبته عبر السماء بسلام...وهو الذي خلق الأرض بأسرها، وهو الذي خص كل إله بطبائعه..لك التحيات، يا "رع" يا رب الحق الذي يخفى ضريحه على الأبصار. رب الأرباب يا "خبري" الذي يحوز صيغة الأمر "كن فيكون" التي خلقت الآلهة. فأنت "أتوم" الذي سوّى البشر وميّزهم بهيئاتهم، الواحد عن الآخر، موجد الحياة، وفارق لون الإنسان عن لون أخيه، وهو الذي يسمع دعاء الذين أذنبوا بقلب واجف عندما يسألونه التوبة (١٩)

وعندما يجمع إله في ذاته ليس قسمات عديدة من قسمات الملك على نطاق كوني وحسب، بل وكذلك قدرات كلية بصفته خالقاً لخلقه، فإن هذا الإله يكون في حقيقة الأمر قد أصبح قوة يُعمل لها كل حساب. وعندما تنعكس مثل هذه المنزلة السماوية لإله ما على المستوى الاجتماعي في قوة دنيوية تُمارس خلال طبقة ناشئة واسعة النفوذ من رجال الكهنوت على الأرض، فإن المرء لا يستطيع على وجه الاحتمال إلا أن يغفر لأسياد دنيويين آخرين خوفهم على أوضاعهم. ترى من ذا يكون ذلك الإله – الملك إلى جانب هذا الـ"أمون" الجبار، حتى ولو كان ذلك الإله – الملك أقدم، بما لا يقاس، من "أمون" ؟ وألم يندس "أمون" خِلسة حتى في السر المقدس لبنوة الإله – الملك لـ"رع" عن طريق إزاحته أى إزاحة "رع"، خداعاً وختالاً والحلول محله، أو دمجه في ذاته وحجب نوره على أحسن تقدير، وإجبار حورس الدنيوي "الظاهر" على حمل لقب "ابن أمون" ؟

دوائر الحكم

كانت هناك عوامل عديدة تعمل خلال الأسرة الثامنة عشرة في الحط من المكانة التقليدية التى ظل الإله – الطيب يحتفظ بها طويلاً على الأرض : ميل جارف نحو السلطة الأموية (نسبة إلى الأم. م)، ومشكلة وراثة الحكم التى تتفجر بشكل متكرر، والحرص البالغ على الارتفاع إلى مثال مستحيل للقوة البدنية، ونفوذ "أمون" الذي كان آخذاً في النمو بصورة مطردة، ورجحان كفة دائرة من المسئولين ذوى المناصب الرفيعة.

دفعت الأسرة الثامنة عشرة عاليا عددا من النماذج لـ "مجالس وزراء" تضم مسئولين أكفاء، إن لم نقل نوابغ، وقع عليهم اختيار الملك الحصيف أو الملكة الحصيفة حتى وإن شكل ذلك الاختيار حجبا جزئيا لهالته هو - أو هالتها - في نظر الرعايا. وتشكل مجموعة المسئولين التى كانت تحوم في الظل إبان حكم الملكة "حتشبسوت" الذي دام عقدين من الزمان إحدى الحالات التى ينطبق عليها ما نذهب إليه، إلا أن الفرعون "تحوت - موسي" الثالث كان محاطا بحاشية مماثلة من الرجال ذوى الهمة واسعى الحيلة دون إلحاق أى خدش بهالته. واختار الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، كما ورأينا، فيما قد ينطوي على مغزى ما بالنسبة لتاريخ العهد التالي، دائرة من كبار المسئولين الذين يتمتعون بقدرات بارزة وتعليم لا يضارع، الأمر الذي جاء في صالح الحكم ومصلحة العمل.

ولقد رعت عائلة التحامسة، فى ضوء حاجتها إلى رجال أكفاء يتمتعون بخيال خصب في خضم المهمة الدؤوبة التى أخذتها على عاتقها في بناء إمبراطورية، ازدهار هذا النوع من الإداريين ذوى العزم. وغنى عن البيان أن المصلحة الأولية للدولة كانت، في الأساس، مع ما قد نسميه نحن المحدثين بالنطاق "المدني - الدنيوي": قطع الأحجار في المحاجر والتشييد وأعمال الحرب وجباية الضرائب ؛ وهو الأمر الذي فرض على المسؤول المثالي إبان الأسرة الثامنة عشرة، حتى ولو كان كاهنا، أن يكون أكثر إنشغالا، وأكثر دربة، في أنشطة أخرى، خلاف تلك المتعلقة بالعبادات. وكان الشطر الأعظم من هؤلاء المسئولين، وكما أشرنا في الفصل الثاني، قد صعدوا إلى السلطة من بين صفوف أطفال القصر وكانت أمهاتهم إما أثيرات ملكيات أو مرضعات (لغير أولادهن). ونجم عن ذلك أن تشكيلة البلاط المصغر في كل حكم إبان هذه الأسرة ضخّمت، بالضرورة، التنافسات والولاءات الكامنة لمجموعة مناظرة لتلك التشكيلة، خصوصا وأن أبناء هذه وتلك نشأوا وترعرعوا وظلوا معاً منذ طفولتهم.

وأياً كان المعنى المحدد الذي رمى إليه "أخناتون" من وراء ذلك "السوء" الذي قال أنه سمعه فليس هناك كبير شك في أنه كان يشير إلى معارضة صريحة ولا هوادة فيها لمشاريعه من أشخاص غير بعيدين عنه : "لما كان والدي (القوص)

حياً ! إذا...حتى ولو كان "أسوأ" مما سمعته في السنة الرابعة من حكمي، ومما سمعته في السنة...من حكمي، ومما سمعته في السنة الأولى (؟)، ومما سمعه والدي "نيب – ماعت – رع"، أو ما سمعه "مين – خبرو – رع.." (٢٠) ولمما ينطوي على مغزى أن ينكر "أخناتون" في نفس النقش الحدودي ذاته أن يكون أى مسؤول قد أبلغه شيئاً بخصوص المقر الجديد، ويمضى كى يجزم بأن هذا المقر لم يبن إلاّ للقرص (الإله) وليس لأي مسؤول أو لأي شخص آخر، ثم يؤكد بحماس بالغ أنه لن يكون في طوع لا الملكة ولا أى من رجال البلاط المقربين أن يصرفاه عن بحثه عن "أفق" القرص (الإله) إلى أى موقع آخر. ويبدو بالضرورة أن المستويات العالية من الإدارة حازت بمطلع حكم "أخناتون" سلطة تكفى لإثارة خوف أعمى وغيظ بالغ في سليل هزيل نسبياً لبيت كان يوماً ما عظيماً. على أن الظلال الانفعالية للتعهد الذي قطعه "أخناتون" على نفسه بتجاهل نصائح الآخرين يشير، أيضاً، بوضوح إلى وخز الآلام النفسية التى يستشعرها بشأن وهن قدرته على الحسم، وحول خوفه من قوة الإقناع التى تملكها الملكة والحلقة الضيقة التى تحيط به من رجاله.

أخناتون الرجل

قد يكون حقاً ذلك الافتقار الكامن إلى الثقة في النفس هو الذي قاد "أخناتون" إلى نبذ العائلات القديمة التى تولت مناصب إدارية جيلاً إثر جيل لصالح "رجال جدد"، كثير منهم يعدّون دُخلاء على الدوائر السياسية. ولا يحتاج المرء إلا أن يمعن النظر في الشجر العائلي لأولئك الذين ظلوا لما يزيد على قرن يتولون المناصب سواء في الوزارة أو الخزانة أو إدارت التشييد أو إنتاج المواد الغذائية كي نزن، حق الوزن، السقوط المفاجئ من دست السلطة، على نحو ما حدث، لكل عائلة، على حدة ، خلال حكم "أخناتون"، فلم يكن جلالته ، ببساطة، ليعرف هذه العائلات، وهذه العائلات لم تسنح لها أى فرصة، بالمقابل، خلال عهد والده "أمين – حوتب" الثالث كي تتعرف عليه. فمثل هذا الملك الشاب، الذي انزوى بعيداً عن

الأنظار وتُجوهل، لمدة طويلة، قد يكون مفتقراً حقاً إلى القدرة على الحكم على الأشخاص، وبالتالي أصبح عرضة لاقتحام محدثي النعمة إلاّ أنه ليس من الإنصاف أن نحكم على الشخوص الدراميين الذين صعدوا على مسرح "أخيتاتون"، أولئك الذين ظهروا بشكل مفاجئ تماماً واختفوا بصورة سريعة للغاية، بأنهم جميعاً انتهازيون. غير أنني أظن أن الشطر الأكبر من القلق الذي يساور المرء حول العهد اللاحق لفترة "أخيتاتون" بشأن فئة المسئولين الحكوميين ينبع مباشرة من التجارب التى عرفها الحكم في عهد "أخناتون".

تعرف سائر البيروقراطيات سواء في العصور القديمة أو الحديثة أن إستراتيجية مكافأة الأتباع تعد بمثابة الشحم الذي يضمن استمرار آلة النظام في العمل. ولقد سبق لنا أن شاهدنا سخاء الملك، الذي ذهب، كما يبدو، إلى مدى لا يصدقه عقل، في الأعياد الضخمة التى تنصب في اليوبيل، وفى شعائر تقريب القرابين إلى إله العبادة الجديدة. والآن، وفى "أخيتاتون"، أصبح التوزيع الرسمي للمكافآت واحداً من أكثر الإجراءات الملكية شيوعاً(٢١). فلا نكاد نعثر على أى مقبرة في الجبانة "مدينة – الموتى" في "أخيتاتون" لا يظهر على أحد حوائطها، رسم يصور المراسم المستفيضة التى تمنح فيها العقود المصنوعة من الذهب، والأساور، ومختلف الجواهر الثمينة الأخرى للمحظوظ من بين رجال البلاط. ففي أحد المناظر المرسومة في مقبرة "ميري – رع" الذي شغل منصب "الكاهن الأعلى" يصدر الملك توجيهاته إلى تابعه بمكافأة كبير أنبياء قرص – الشمس في "أخيتاتون": "ميري – رع" على هذا النحو : *بالذهب طوّق عنقه دون أن تهمل منه بوصة واحدة. وبالذهب غط قدميه كلتيهما، فلقد نفّذ توجيهات الملك له الحياة واليمن والصحة، وصنع كل ما قيل بشأن تلك الأماكن الرائعة التى خصصها الملك له الحياة واليمن والصحة – في "دوار البنبين" في بيت قرص – الشمس" في "أخيتاتون"*...ويرد "ميري – رع" الممنون على ذلك بهذه الصيغة المهذبة : *فلترفل في ثوب الصحة يا "وع – إن – رع أيها الابن البهي الطلعة الذي أنجبه قرص الشمس ! فلنسأله أن يمنحك طول العمر – يمنحه لك إلى الأبد. نعم."* (٢٢) ويكون حفل المنح مناسبة لإقامة الولائم ونصب الأفراح. ونلاحظ أن الحاشية التى

حضرت حفل مكافأة "توتو" نموذجية : ستة رؤساء سوريون يقودهم مصري، ومدائح منغمة للملك، أربعة أشخاص يحملون الشماسي يهتفون : *يا بهي المحيا ! يا من يحيا الشعب برؤياه...! يا راسخاً رسوخ "قرص – الشمس" لدى البزوغ*، عديدة *تلك الأشياء التى تستطيع منحها !*" وستة كتبه يدونون، وتسعة قضاة بينهم الوزير يهتفون : *كم هي رائعة خططك يا نفر – خبرو – رع"، يا وع – ان – رع"؟ كم هو ميمون من يشمله عطفك ؟ أيها البهي الطلعة الذي أنجبه قرص الشمس...!*"(٢٣)

وإذا كان الملك يضمر، في أعمق حنايا نفسه، أى تخوف من ألاّ يروق لمعاصريه أو يكسب رضاهم، فإن إنفاق الثروات التى كدسها أسلافه كان سياسة فعالة : لقد أخلص له أهالي "أخيتاتون" الحب، فلقد كانت الأيام تمر وكأنها، كلها، أعياداً.

لعل الفرضية التى طرحناها في الفصل الرابع بأن "أمين – حوتب" الرابع حُجب في الظل قبل صعوده إلى العرش، وبالتالي كان مجهولاً إلى حد بعيد، تجد ما يعززها في مراسلات "أخيتاتون" فالخطابات التى أرسلها "توشراتا" ملك (الميتانيين) وتلك التى تلقّاها في ذلك العهد تكشف أن "تي" أم "أمين – حوتب" الرابع كانت بمثابة الشخصية الوحيدة التى تستطيع التأثير عليه، فنراها تبصّر "توشراتا" على هذا النحو : وطد مصالحك (؟) مع "تب – خوروريا". راقبه والأحرى (حط عينك عليه) ولا تكف عن إرسال الوفود المبهجة إليه "(٢٤). وفي خطابات "توشراتا" نفسه إلى الملك الشاب استمر يذّكره بأن "تي" هي الشخص الوحيد الذي إتطلع على كل الأسرار التى كانت تدور بينه وبين "أمين – حوتب" الثالث . والشكوى الرئيسية التى تتردد في هذه الخطابات تتمثل في أن جلالته لم يستجب للطلب الذي تقدم به "توشراتا" لوالده "أمين – حوتب" الثالث بشأن بعض التماثيل العالية الجودة، ولكن عوضاً عن ذلك أرسل تماثيل خشبية أقل جودة وموشّاة، وحسب، بالذهب. ويكتب "توشراتا" إلى "تي": "لقد تحدثت بنفسك معي. ولكنك لم تطرحي الأمر على "نب – خوروريا" (٢٥). ويمضى إلى القول بأنها إذا لم تطرح هي الأمر عليه فلن يفعل ذلك أحد.

إذا كان الناس قد تعاملوا مع "أمين – حوتب" الرابع في البداية بشيء ما من الحذر الذي يرجع إلى الخوف من كم مجهول، فإنهم سرعان ما لمسوا أن هذا

الملك يفتقر إلى ما كان يحوزه والده من صفات تبعث على الرهبة. والسياسة التي تستند إلى قواعد العدالة، التي أمّل "أمين – حوتب" الرابع في انتهاجها تجاه الدويلات التابعة لمصر، وكشف عنها في لحظة طيش من لحظات الصدق حتى لأقل تابعيه جدارة بالثقة، يمكن أن يأخذها كثيرون على أنها مظهر من مظاهر الضعف. وربما ينطوي الأمر منذ البداية على ضعف حقاً يسوّغه للملك لنفسه كنوع من العدل. وفى سائر الأحوال سرعان ما وجد "أمين – حوتب" الرابع استحالة في فرض إرادته في مناطق النفوذ الشرقية التى كانت خاضعة لمصر. وأخذ يؤنب المرة تلو الأخرى "عزيرو"، المراوغ، بعنف شديد، لا ينبغي أن يأتي من ملك إلا قبيل إصدار أمر اعتقال. غير أنه يرق ويسمح لهذا الوغد بمزيد من الشهور على سبيل الإمهال. وعندما يرتكب هذا التابع عملاً يمكن أن يرقى إلى الخيانة، خلال الترحيب بمبعوث قوة أجنبية والإعراض في نفس الوقت عن رسول ملك مصر، لم يتجاوز رد فعل "أمين – حوتب" الرابع رفع صوته بشكوى مولولة : "لقد رحبت برسول ملك "خاتي"، ولكن رسولي لم ترحب به (٢٦). وبلغت الحماقة بـ"أمين – حوتب" الرابع حد إبداء ملاحظة يغلّفها مصطلح يناظر عباراتنا المعاصرة : "هذا آخر خطاب نفض غلافه من..." : هل يستشعر مسئولية عن المدينة أكبر من زملائه" (٢٧) ، عندما كتب إليه ذلك الحاكم الطيب القلب سلسلة متتالية من الخطابات يشكو ويطلب فيها المدد. ولقد وجدت هذه الملاحظة أو هذه الإيماءة الساخطة طريقها إلى خطاب بعث به جلالته إلى هذا السيد الذي يدور حوله الحديث، وهو الأمر الذي سبب له قدراً من الحنق. وعلاوة على ذلك كانت سيطرة جلالته على حكامه على بلاد كنعان واهنة إلى الحد الذي سوّغ لهم أن يعترضوا بصورة مخزية طريق مبعوثين رسميين من بابل إلى مصر وينهبوهم، دون أن يلقوا أى جزاء، فيما يبدو واضحاً، على جرائمهم. ولا تشير الالتماسات التى لم يستجب لها جلالته بطلب تعزيزات عسكرية، وهو الأمر الذي يلوح بارزاً في خطابات "أخيتاتون"، إلى التنزه عن الغرض، بل إلى التردد وعدم الحزم .ولقد ألمح "أكيزى" حاكم "قطنة" بشكل واضح إلى أن فشل سياسة جلالته تجاه دويلاته التابعة في الشمال بعد مصدر إزعاج لـ"أمين – حوتب"

نفسه.

يكمن قدر من مشكلة جلالته في التعامل مع العالم الخارجي في الحقيقة التي تقول أنه اعتمد، إلى حد كبير على الوسطاء في نقل الأخبار إليه وفي الانتصاح بنصائحهم حول ما ينبغي عمله. وفي خطابات "أخيتاتون" يشكو الكتبة من أن مستشاري الملك يطعنون فيهم ويصفونهم بما ليس فيهم. والاحترام الذي يكنه "عزيرو" لـ"توتو" رئيس الحجاب وأمين الصندوق يفوق على وجه الترجيح ما يكنّه من تقدير لجلالته. ويشعر "عزيرو" باضطراره إلى إبداء أسبابه التي تحدوه إلى اتخاذ ما اتخذه من إجراءات إلى "توتو" في خطابات يوجهها إليه مثلما يوجهها إلى جلالته. ويصف "توتو" في مقبرة "أخناتون"، بما ينطوي على مغزاه، أحد واجباته على النحو التالي : " وبخصوص الرسل القادمين من البلدان الأجنبية، فلقد كنت الشخص الذي نقل طلباتهم إلى القصر" (٢٨). أما زميله "مايا" الذي حمل ألقابا أكثر منه، فكان، هو الآخر، الشخص الذي تُحال إليه كافة الأمور كي يطرحها على سيد الأرضين (٢٩) ولكي نعرف أن هذا لم يكن عرفا سائداً، لا نحتاج إلا إلى الرجوع إلى مراسلات الفرعون "رمسيس" الثاني في "بوغاز كوى "*، تلك التي توضح أنه كان على علم كامل ومباشر بما يدور في الخارج. وكان الفرعون "أمين – حوتب" الثالث، بالمثل، مهتماً بشكل مباشر بالكتابة سواء إلى رفاقه من الملوك العظام أو أتباعه من الحكام. ولا يستطيع المرء إلا أن يستشعر أن "أخناتون" نفض يده من مسئوليته بأن يظل على اتصال دائم بالعالم الذي يحيا فيه، وأوكل هذه المهمة إلى مرؤسيه.

الفصل العاشر

بواعث العبادة التي دعا إليها "أخناتون"

يصدم الباعث السلبي بالدرجة الأولى الذي يقف وراء "الإصلاح" الذي أدخله "أخناتون" على العبادة في مصر حتى المراقب العابر. فلقد اقتطع من الدين التقليدي أكثر كثيراً مما أضاف. إذ أبطل عبادة الآلهة، وجعل معابدهم تقف بلا عمل. وعلى أثر إبطال هذه العبادة، اختفت، ببساطة أساطير الإلهة التى كانت تمدنا بروح كثير من شعائر العبادة. ولم يكن إله الشمس الذي انتصر له "أخناتون" يتمتع، بطبيعة الحال بأي أساطير. ولقد مرت الشهور الأولى من حكم "أخناتون" دون أن يظفر إلهه بتصوير يخلع فيه الإنسان صفاته عليه.

ولم تكن هناك بنية رمزية أصيلة تشي بالأسلوب الفني الذي يصلح لتبجيل الإله الجديد، والأسماء والألقاب القليلة للغاية التى اقتبسها *قرص - الشمس*" تنتمي بصفة كاملة إلى عبادة "رع" الشمسية وأقران "رع" المقدس فلقد أقصى "أخناتون" عالم "الغيب" الذي اتسم بتركيب رائع عن أذهان الناس. ولم يعد الحق يصدر من أحد اللهم سوى الملك، وهذا الحق الذي يصدر عنه ضرورة تحميه بشكل كامل فلا اله إلا "أتون" ولا معابد احتفالية، ولا شعائر دينية فيما عدا تقريب القرابين وهو أمر أولي، ولا تصويراً دينياً، ولا تشبيهات للإله الجديد بالإنسان، ولا أساطير، ولا مفهوماً حول التجلي دائم التغيير للعالم المقدس. وكان في وسع العالم الروماني أن يصف "أخناتون"، بحق بأنه "ملحد" فما تركه جلالته لمصر لم يكن إلهاً بأي حال من الأحوال بل مجرد قرص في عرض السماء ! (١)

قرص الشمس في مصر
قبل القرن الرابع عشر ق.م

يميل كثيرون إلى أن يتركوا الكلمة المستخدمة للإله الـــذي عبده "أخناتون" وهى "أتون" دون ترجمة، كما لو كانت اسم علم، غير أن هذه الكلمة في الحقيقـــة، إسم عام قديم في القاموس المصري الدارج على الألســنة ولا يزيــد معنــاه عــن "قرص" ** ولقد عثرنا عليه منذ عهود المملكة القديمة مستخدما للأشياء الدائريـــة مثل المرايا أو الأجسام الشبيهة بالأقراص التى تُستخدم في العبادات. ويبـــدو مــن المرجح أن الكلمة كانت مستعملة بالفعل في نفس الوقت في التعبير الذي يقول عــن الشمس المادية : "قرص النهار". وهذا الاستعمال الأخير هو الذي أدى إلى انتشـــار مشتقات عديدة من هذا الاسم في الأدب الديني. فنسمع كثيراً أن الإله الشمســي "ر ع" بصفته "الكائن في قرصه "أى هو الذي يتجلى في قرص الشمس المادي الذي نـــراه بأعيننا.وكان الأتقياء الورعون يتوقون إلى اليوم الذي يركبون فيه، بعـــد وفاتـــهم، في"القرص" إلى جوار إله الشمس الذي يعبر السماء كل يوم. وفى مثل هذه الحالات كان الحديث يدور حول القرص بصفته كياناً متميزاً عن إلاه الشمس الذي يتجلـــى بذاته خلاله. وتربط فقرات قليلة قرص الشمس بالكلمة التى تعنى "ضوء الشمس" أو "أشعة الشمس"، وهو ربط لا يخلو من مغرى.

إعتباراً من المملكة الوسيطة، ولو أن ذلك كان على نحـــو متفـــرق، ولكـــن بشكل أكثر تواتراً في المملكة الوسيطة، استعارت لغة الإمبراطورية التى نـــهضت كظاهرة جديدة قرص الشمس كرمز ملكي وعام وشامل. وكان من الممكن أن يقـــال عن الغزو الذي يقوم به الملك أنه طوّق "كل ما يحيط به قرص الشمس": وأن يقـــال عن مآثره بل وأحيانا عن شخصه أنه يضارع قرص الشمس. كما يمكن للفرعـــون وقد ارتدى تيجانه وجواهره اللامعة أن "يضيئ الأرضين أكثر مما يفعـــل قـــرص الشمس"، وبصفته حاكماً عالمياً كان في الإمكان وصفه"بأنه "قرص الشمس كافـــة البلدان". وخلال ارتباط الحية التى تزين جبين الملك، بصرف النظر عـــن التـــاج

الذي يرتديه بـ"عين رع" أي الشمس المتوهجة، اكتسبت الحية تلك، صفات "قرص – الشمس"، كما سار قرص الشمس أمام الجيش الإمبراطوري إلى الحروب.

ويشهد ذيوع ترنيمة الشمس خلال أوائل الأسرة الثامنة عشرة على وجود اهتمام متزايد بعبادة "رع". ففي غالب الأحيان كان نص الترنيمة يُنقش على جانبي مدخل المقابر النموذجية التي كانت تُحفر داخل الصخر، مما عرفته تلك الفترة، حيث يضفي رونقاً، كما ينبغي عليه أن يفعل، على شخص المتوفى الذي يكون مرسوماً وهو متوجه إلى الخارج كي يستقبل شمس الشروق بالتحيات. ومع حكم الفرعون "تحوت – موسى" الثالث كان هناك نوع من التماثيل قد أصبح مألوفاً يظهر شخصاً راكعاً وهو شخص صاحب المقبرة، ممسكاً صادوداً نُقشت عليه ترنيمة "رع" التي صارت بمثابة ضرورة لا غنى عنها. وتختلف هذه الترنيمة عن تلك إختلافاً يسيراً في كل حالة من الحالات، ولكن اللهجة واحدة إلى حد بعيد:

" التحيات لك يا من تكون "رع" عند بزوغك وتكون "أتوم" عند غروبك الجميل. فأنت تشرق وتضيء على ظهر أمك (الأرض. م)، ساطعاً كملك للتاسوع، و" نوت" (إلهة السماء) تركع أمامك، و"ماعت" إلهة الصدق والحق) لا تكف لحظة عن احتضانك. فتعبر عباب السماء بقلب يملأه السرور... "رع" في مركب النهار، ويكون مركب الليل قد قضى بإهلاك من يحمل عليه. الجنوبيون والشماليون والشرقيون والغربيون يقطرون مركبك تمجيدًا لك. فأنت الأول، وأنت الأزلي الذي خلقت وحدك دون خالق لك ! وأنت الملك وسيد كل خلقت... يا أيها الفرد الفريد الذي ظهر إلى الوجود بين السماء والأرض في الوقت الذي لم يكن فيه للأرض أو العالم السفلي وجود. (٢)

كان "أمون" قد اندمج مع "رع" منذ وقت طويل، وأصبح الاسم المركب "أمون – رع" يدل على إلهٍ للعالمين، وملك سماوي، يشارك بشكل كامل في كافة المفاهيم الشمسية. ويستطيع المرء أن يلاحظ خلال العقود السابقة على "أخناتون" ميلاً نحو تصوّر "رع" أو "أمون – رع" في ضوء قرصه المادي، وفي إسباغ قدرات "رع – أتوم – خبري" في الخلق والحفظ على هذا القرص. ويستشعر

المرء، على نحو يضببه الإبهام أن هذه "الأيقونة" الشمسية القديمة، أى هذه الكـــرة المرئية التى تعبر عباب السماء يومياً كانت ترتقى من وضع التجلي البسـيط لإلــه الشمس إلى مرتبة إله مستقل.

تمتع كل من الفرعون "تحوت – موسى" الرابع والفرعون "أمين – حوتـب" الثالث أى كل من جد ووالد "أخناتون" بعلاقة أوثق بقرص – الشمس من سـابقيهم من الفراعنة. فأول هذين الفرعونين يطلق على قرص الشمس، في جعران تذكـاري مشهور اسم واهب النصر في ميدان المعركة. وتشير لغة البلاط البالغـة الـتزويق والتنميق إلى الملك بصفة "القرص في أفقه" وإلـى القصـر الملكـي كـ"دوار القرص". وفى ظل حكم الفرعون "أمين – حوتب" الثالث صك لقب "تيب – مـاعت – رع" (أى "أمين – حوتب" الثالث) هو قرص الشمس الباهر" وامتد اللقـب كـي يسير أيضاً بأشكال متنوعة، على القصر الملكي على الضفة الغربية لنهر النيل فـي "طيبة"، وعلى المركب الملكي، وعلى هذه الفرقة أو تلك من فرق الجيش. وخـلال حكم نفس الفرعون بدأت مظاهر إله الشمس كموضوع للتفكير والتـأمل فـي أدب الترانيـــم إلى مدى أكبر مما كان عليه الأمر من قبل : وتمتعت الآلهة الشمسية بصيت أكبر في المعبد الملكي الجنائزي مما كان عليه الحال فيما مضى. وأخـيراً تستقل ترنيمة طويلة رائعة منقوشة لإله الشمس على صـادود للمهندسـيْن التـوأم "سوتي" و"حور" بقرص الشمس كإله تام الريش (كامل النمو.م) وتصفه على هـذا النحو: "هو الذي خلق الناس جميعاً وقدّر لهم أعمارهم".

إله "أخناتون" وأيقوناته

في وقت ما خلال الشهور الأولى من حكم الابن سيئ الطـالع، للفرعـون "أمين – حوتب" الثالث أعرب لرجال البلاط عن رغبته الملكية في عبادة إله جديـد وفريد. لماذا اتجه "أخناتون" إلى هذا الإله ؟ ما هي التأملات الخاصة التى سـبقت إعرابه عن رغبته ؟ يبدو أننا لن نعرف على وجه الترجيح. ولولا الصدفة الحسـنة التى حفظت لنا كتلتين تحملان فقرة من خطبة "أخناتون" في هذا الصدد، بين حشـو

الصرح العاشر الذي ابتناه الفرعون "حور – إم – حب" لما كان في وسعنا أن نحوز حتى هذا القدر المحدود من المعرفة بالأمر. حقاً نص الخطبة مهلهل في الوقت الحاضر، إلا أننا لا نزال قادرين على قنص بعض العبارات المغرية التي تشير إلى اتجاه واحد وحسب. يقول الملك :

[...] حورس (؟) [...] معبدهم (؟) دب فيها الخراب...[أجسامهم (؟) سوف أو لا [...] [...] منذ عصر (؟)...الأسلاف] ؛ فالحكماء هم...[...] [...] ينظرون. إنني أتكلم كي أبلغ / كم [...] [...] أشكال (؟) الآلهة. أعرف معابدهم [...]. [...كتابات، ودليل جرد أجسامهم الأولية (تماثيلهم. م) [...].[...] لقد كفّوا، الواحد بعد الآخر، سواء أكانوا من الأحجار الكريمة، [الذهب]...[... ... الذي ولد نفسه بنفسه، وليس هناك من يعرف سر [...] [...] يذهب حيثما يشاء وهم لا يعرفون عن ذهابه...]. [...] إليه (؟) في (؟) الليل. لكنني أقترب [...] [الـ...التى سواها، يالهم من مبجلين ! [..] بهم [..] كنجوم. التحيات لك في بهائك، على أى صورة سوف يكون، هل سيأخذ صورة أخرى من نفس نوعك ؟ فأنت الذي [...].[...] (؟) اسم جلالتك. [...] (٣).

يكشف لنا هذا النص عن مفاجأتين مذهلتين : سجّل الملك اعتقاده بأن الآلهة قد فشلوا على نحو أو على آخر، أو "كفّوا" عن أن يكونوا فعّالين،، ويصف إلهه الذي دعا إليه في الآونة الأخيرة باعتباره فرداً لا نظير له بصورة مطلقة، وكائناً في السماء. وعلى جدران البوابة الجنوبية نفسها، التى لابد وأن يكون هذا النص قد جاء منها في الأصل، نجد رسوماً زخرفية عديدة تبيّن بوضوح تام أن الإله المشار إليه هو "رع – حور – آختي"، "رع – حورس الأفقي" إله "أون" الشمسي العظيم".

وتعد هذه المناظر المرسومة على البوابة الجنوبية، وتلك التى وصلت من الكرنك. وترجع إلى نفس الفترة الزمنية أى مطلع حكم "أخناتون" (سنته الأولى على وجه الاحتمال، بمثابة تكرار إلى حد الإملال لنفس المنظر الأساسي (اللوحتان ٤–٤،٤–٥) : رجل ذو رأس صقر يرتدى نقبة، ويمسك في يده صولجان ويعلو رأسه قرص – شمس ضخم، يواجه الملك عبر مائدة تقريب القرابين، التى تشمل ما تعودنا عليه في قوائم الأطعمة والأشربة الشعائرية : الماء والنبيذ واللحوم

والخضراوات والخبز والزهور..الخ

وتختلف صفات الإله : "إله اللحظة الأولى ذو المهابة والجلال"، "رع - حور - آختي"، قرص الشمس العظيم، صانع البهاء، "قرص الشمس الحي الذي يسطع جماله على سائر أرجاء البلاد"، غير أن *اسم* "الإله، بصفاته تلك الخاصة ظل دون تغيير : "رع - حور - آختي" الذي يبتهج في الأفق في اسمه، الضوء الكائن في أو البازغ من القرص". وهذه الصفة تضفي على الإله "إسماً" تقليدياً، وتسبغ غليه لقباً إضافياً يجعله يتطابق مع الكائن في قرص الشمس. ولسوف يعمد "أخناتون"، بصفة دائمة، مع ذلك إلى استخدام عبارة "قرص الشمس" في الإشارة بصورة جامعة مانعة إلى إلهه.

ولعله من المهم أن نلاحظ أن أقدم الصور التى تخيّلها "أخناتون" لإلهه كانت تنطوي بالفعل على علاقة وثيقة بين الملك والإله. وفى بعض المناظر يكشف ذلك الهجين أى الرجل - الصقر عن كرش بارز، بما يشبه تماما شخص الملك الواقف أمامه ! (لوحة رقم - ٤-٦).

وجاءت المرحلة الثانية والأخيرة في تطور أيقونات (تماثيل وصور .م) الإله الجديد في وقت متأخر من السنة الثانية أو أوائل السنة الثالثة من حكم "أخناتون"، وبدأت، دون شك، بشكل متزامن مع الاحتفال باليوبيل. (معظم المباني التى يظهر على جدرانها التصوير الجديد للإله مبنية من كتل "التلاتات"، إلا أن بعض الكتل الضخمة في حشو الصرح العاشر، المزخرفة بالصور الجديدة تُثبت أن زخرفة المباني القديمة كانت لا تزال رهن الاستكمال) وقت ذاك لو كان ذلك في أى وقت من الأوقات كان تحطيم "أخناتون" للأيقونات (القديمة) قد أصبح جلياً تماماً. إذ اختفى الرجل ذو رأس الصقر، وبقى منه "قرص - الشمس"، متضخماً، ومواجهاً عين الرائي على استقامتها (كما يبين ذلك وضع الحيات المقدسة التى تعلو جبينه)، وحيثما كانت صورة الإله، حلت الآن، عوضاً عنها، سلسلة من الأذرع الطويلة، الشبيهة بالعصي النحيلة، التى تمتد إلى أسفل وتنتهي بأيد بشرية، (وهذا هو التنازل الوحيد الذي قدمّه الدين الجديد لمفهوم تشبيه الإله بالإنسان) وهذه الأيدي إما مفتوحة كي تمسك بالقرابين، أو تمد رموز الحياة (عنخ) والصحة إلى

الملك الذي يحظى شخصه بالحفاوة. وأصبح الاسم أو اللقب النموذجي الآن منقوشاً داخل نطاق خرطوشين رأسيين، تماماً من نفس نوع تلك الخراطيش المستخدمة لاحتواء اسم الملك ولقبه، المنقوشة، زوجاً فزوجاً على أحد جانبي القرص، والمصحوبة بالصفة الجديدة "القرص الحي العظيم " الذي يحيا في بهجته، سيد السماء والأرض الذي استوى في... (اسم معبد) " (شكل ١٩).

بشرت التجديدات التى دخلت على أسلوب التصوير، وأقمنا على وجودها الدليل هنا بتغيّرات عميقة في تفكير "أخناتون". وتتمثل أبرز هذه التغيرات على وجه الاحتمال في الصفات الملكية التى أخذت تزحف إلى الألقاب الإلهية، وهو ما سوف نتناوله بتفصيل أكبر في وقت لاحق. وعلى نفس الدرجة من الوضوح، على وجه التقريب، نجد الوضع الذي شرع الملك في إسناده لنفسه في ترتيب الأمور. ففي النوع القديم من المناظر التى يواجه جلالته فيها الإله على جانبي الإطار المستطيل الشكل، كان التوازن محفوظاً بين كافة العناصر سواء البشرية منها أو غير البشرية، التى تدخل في بناء الصورة الزخرفية. أما الآن، وبعد تحول الإله مع قوة جذبه إلى أعلى المنظر في شكل قرص متوارعن الأنظار، ظلّت صورة الملك بمثابة أكبر عنصر يقف بمفرده في المنظر، وعلاوة على ذلك أصبح الآن يحتل المركز منه وانصب تركيز الأعين بالتالي عليه بطبيعة الحال. وكان ذلك على وجه التحديد ما قصد إليه التدبير الذي انعقدت عليه النيّة.

وأخيراً لا يعد تقليص إله الشمس إلى مجرد قرص لابشري سوى الخطوة الأوسع على طريق متدرج يهدف إلى تخليص مفاهيم القداسة بل وحتى الفن ذاته من كافة الصور التى تشبّه الإله بالإنسان أو بالحيوان.

فالتصوير التقليدي – أو أى رسم، يتناول ذلك الأمر – للآلهة لم يعد يُنحت أو يُنقش وتجوهلت سائر رموزها، فيما عدا تلك الشعارات المحدودة التى يحتاجها الاحتفال بـ"عيد السد". وشمل هذا النهج حتى الكتابة الهيروغليفية، إذ مالت إلى تجنب استخدام صور الحيوانات والبشر كعلامات ومخصصات في هذه الكتابة ولم يعد يحظى بالسماح سوى عدد محدود من الصور التى ترتبط بعبادة الشمس : الصقر. أبو الهول. القرد، الثور وعلى وجه الإجمال كان "أخناتون"

يوجه، بذلك، رداً ساحقاً لا تعقيب عليه ضد الانخراط السائد للسحّار والحرفي في تصنيع "الجسم" الأرضي للإله أى : عبادة – تماثيله. ويشير الملك، وبوضوح كامل إلى "القرص" بصفته: "الفرد الذي أنشأ نفسه بنفسه، بيديه الاثنتين..دونما حاجة إلى أى صانع كان!"

القرص المطلق

لعله من الغريب حقاً أن آلهة مصر المتعددة استطاعت أن تستمر على قيد الحياة، على هذا النحو أو ذلك خارج نطاق "طيبة" خلال السنوات الخمسة الأولى من حكم "أخناتون "رغم نفيه، بصورة لا لبس فيها لكافة الآلهة الأخرى باستثناء إلهه الخاص. فإذا كان جلالته قد حرّم عباداتها، فالمرسوم الذي أصدره في هذا الخصوص لم يكن قد وُضع بعد موضع التنفيذ فالصواديد الجنائزية على سبيل المثال، كانت، في نفس الوقت الذي تُبجّل فيه الخراطيش الملكية واسم قرص – الشمس، لتضفي تبجيلاً على آلهة مثل "نخبت" أو "أوزيريس" أو "أنوبيس". واستمرت الترانيم التى تقصد وجه إله الشمس في الظهور بين الحين والآخر، دون "تطهير" من العناصر النابعة من التعددية، بل ومثقلة بشكل واضح، بالإشارات إلى مركب – الشمس، و"توت" و"بحر النار" واتجه أمين سر الملك إلى الآلهة والإلهات التى تقيم في "منف" في ضراعته خلال السنة الخامسة من حكم جلالته، وهو أمين السر الذي مضى في هذا الشوط كي يقول أن "بتاح" هو والد "أخناتون". إلا أن الحقيقة على ما يبدو أن درجة الكثافة التى سار وفقها البرنامج، في بداية حكم جلالته، كانت تخف بشكل مطرد كلما ابتعدنا عن الحضرة الملكية.

غير أن كل ذلك تغيّر في السنة الخامسة. ففي نفس الوقت على وجه التقريب الذي كان جلالته يرسى أساس خططه للانتقال إلى الموقع الجديد في "أخيتاتون" خضع برنامجه الديني لتغيّر حاد. ولكن زخرفة المعابد الجديدة قد أوشكت على الانتهاء في الوقت الذي أعلن فيه قطع كل صلة .. بـ"أمون". وعندئذ شهد "ملك الأرباب" – الذي ظلت عبادته مباحة حتى هذه النقطة، ولو أن هذه العبادة كانت قد

خفتت حميتها على وجه الاحتمال من جراء النقص في عدد الكهان ، لعـن اسـمه رسميا وإغلاق معابده. وكان برنامج رفع الاسم الذي أعقب ذلك من الدقة إلى الحد الذي يفرض علينا أن نفترض إما إرسال جيش صغير من حملة البلط (جمع بلطة. م) إلى مختلف أنحاء البلاد، أو إرسال عدة أفواج من المفتشين مكلفين بالتحقق من أداء المسئولين المحليين ؛ كل في منطقته، للمهمة. ففي كل مكان، سواء في المعابد أو المقابر أو ورش التماثيل أو النقوش العابرة جرى كشط العلامة الهيروغليفية التي يرسم أو يكتب بها اسم "أمون" ونفس الأمر مع صوره وجدارياته، كما لقيت الأشياء التى كانت مقدسة بالنسبة له نفس المصير، وأجبر الذين يحملون أسماء مركبة على اسم "أمون" على تغييرها. وقاد الملك هذا السبيل بنبذه اسم "أمين – حوتب" الذي غدا وقت ذاك غير مقبول لصالح اسم "آخ – إن – أتون" أي "سادن – أتون". (اللوحتان رقم ٨-١،٨-٢) كما عانى "أوزوريس" وحلقته من آلهة الموتى، هم أيضا من لعن أسمائهم. وصار في مقدور الشعائر الجنائزية أن تستمر، ولكن بشرط "تطهيرها" من كافة عناصر التعددية. وأصبح في وسع الأهالي أن يواصلوا وضع تماثيل "الشوابتي" أي "المجيبين" وهذه عبارة عن تماثيل صغيرة للخدم تصاحب المتوفى إلى العالم السفلي، ولكن دون أن تحمل هذه التماثيل نقش الفصل الذي يحتوى على الرقية المخصصة لإعادة المتوفى إلى الحياة من "كتاب الموتى". أما جعارين القلب التى كانت تمنع القلب من الشهادة، في المنظومة الأوزيرية القديمة، ضد المتوفى في المحاكمة الأخيرة، فلقد استمرت على قيد البقاء، مع حملها نقشا لصيغة بسيطة لتقريب القرابين إلى "القرص". كما تجوهل كل من التاسوع و"عبيب" (أو "أبو فيس" كما نطقه اليونانيون. م) ومختلف الآلهة التي تقيم في العالم السفلي بشكل صريح في الأدب الجنائزي، ولم يعد العالم السفلي ذاته ليشار إليه إلا كمجرد مكان يخرج منه المتوفى كي يطالع وجه الشمس. وحتى الفنون الزخرفية والخطية جرى "تطهيرها" من المواد المرفوضة مثل الرموز التى تشبه الآلهة بالإنسان أو الحيوان، ومال الكتبة إلى رسم الكلمات بصورة صوتية عوضا عن الرسوم المشخصة.

وإذا كان الأمر لا يزال بحاجة إلى مزيد من البراهين على ما كان الملك

يسعى إليه، فأعتقد أن هذا الحذف الذي ينطوي على مغزى هام كاف : صيغة الجمع "آلهة" لم نعثر لها على أثر بعد السنة الخامسة من حكم "أخناتون" اللهم إلا إذا كانت مكشوطة في الكتابات التى وصلت إلى أيدينا بين الحين والآخر. فلقد تبنى "أخناتون" في برنامجه بصورة ضمنية في البداية ثم بعد ذلك بصورة صريحة وشاملة، وحدانية من شأنها ألا تطيق أى تجليات مقدسة أخرى. فـ"قرص الشمس" فرد فريد وكائن يعلو على كل الكون، ولم يكن هناك إله سواه. ولم يكن ليغيّر شكله أو يتخذ أى صورة أخرى : كان الفرد الدائم : *قرص – الشمس الحي ، ولا إله إلا هو*".

صفات "قرص – الشمس"

هذا الإله الواحد الأحد كان سيداً سماوياً للنور. وتُركز نقوش كتل "التلاتات" المستخرجة من الكرنك على الحقيقة التى تقول أنه "ارتفع" للأعالي على سائر البشر، الذين يعتمدون، بقوة، على أعمال الخير التى يجود بها دون حساب ، ضوء "القرص". "هو الذي يقدّر الحياة وهو سيد أشعة الشمس، وهو خالق الضياء" و"هو الذي يسبب الأسباب كي يحيا كل فرد، ولا يمل الناس من التطلع إليه".

ينبع الشطر الأعظم من معارفنا، في "أخيناتون"، حول طبيعة "القرص" من الترنيمة الكبرى المنقوشة في مقبرة "آي"، وهي من نظم الملك نفسه على الأرجح. فبعد نبذ "أخناتون" للأساطير وما دفعته إليه رمزيتها من حذف كل الاستعارات المماثلة من هذا النوع الأدبي أى نوع الترانيم ؛ لم يعد هناك مفاهيم يمكن طرحها بشأن الإله الجديد، اللهم سوى مفاهيم العالمية واعتماد الحياة على الشمس، والمفارقة (التعالي)، وقدرة الخلق، وتنظيم الكون، والقوة المطلقة. ولم يكن أى من هذه المفاهيم جديداً، وهذه نقطة لا ينبغي لعبقرية "أخناتون" في الصياغة الشعرية أن تحجبها عن ذهننا، فـ"القرص" هو الخالق والحافظ لكل ما على الأرض

وما تحتها : "خلقت يا ذا الجلال الأرض وما عليها في سموك عن الجميع أي خلقت الإنسان والحيوان وكافة الأسراب، وكل ما يسعى على قدمين على وجه الأرض، وكل ما يطير بجناحين في الجو، والبلدين الأجنبيين "سوريا" و"كوش"، وأرض مصر، ووضعت كل شخص في مكانه، ووفرت لهم غذاءهم. فكل من كان يحصل على طعامه، وعمره مقدّر وعلى نفس المنوال، لغاتهم مفروقة تماما الواحدة عن الأخرى على مستوى النحو. وإذا كانت ألوانهم مختلفة، فلأنك خلقت الشعوب الأجنبية مختلفة". وعود على بدء : انبثق الخلق من بين يديك، لكونك خالقهم"، وحتى الزمن ذاته فمن خلق الـ"القرص": "وأنت – ياذا الجلال – خالق الشهور وبارئ الأيام ومقدر الساعات!". وتجد مفارقته وقوته تمجيدها في هذه السطور : "وأنت – ياذا الجلال – تشع على الأفق الشرقي وتملأ الأرض بأسرها بجمالك، فأنت جميل، وعظيم وباهر، ومبجّل فوق الأراضي جميعها..فبينما تكون بعيداً بعيداً ترسل أشعتك على الأرض، وأنت في كل وجه ! لقد سويت السماء في الأعالي كي تشع فيها، ولكي ترى من عليائك كل ما صنعته يداك، وأنت تشع في تجليك كـ"القرص الحي" مشرقاً ومتألقاً ومتعالياً". وكل الأحياء يعتمدون في حياتهم على "القرص" عندما تشرق يحيون، ومتى تغرب يفنون، فأنت – ياذا الجلال – عمرهم، وفيك يحيون وكل العيون تكتحل بمرأى جمالك إلى أن تغرب، حتى يكتمل العمل". وكذلك فأشعة الشمس تعني أن يبصر كل ما خلقت. يقول البشر أن الحياة في رؤية وجهه، بل ويموتون إذا لم يروه". "والحياة السرمدية كامنة فيك كي تنعشهم، وكذلك أنفاس الحياة التي تحتاج إليها أنوفهم. تلوح أشعتك، فإذا بكافة النباتات المغذية تنبت في ثرى الأرض، وليس هناك سبب لنموها سوى أشعتك ! " و"رع – حور – آختي" هو الذي أسبغ جماله على سائر البشر، حتى يحيوا، وعندما يهب أشعته، تضيئ الأرض عند مولدك كل صباح كي تجعل خلقك يحيا "ولما كان خالقا وحافظا للخلق، فلقد حاز "القرص" سلطاناً مطلقاً على خلقه : القرص" الحي" هو سيد كل ما

خُلق وما وُجد" وعلى غرار كل ملك أرضى يبهج قدومه رعاياه : "أضاءت أشعتك الأرض من أدناها لأقصاها، وتفعم مشاهدة رؤياك كل القلوب بالسرور، فلقد أشرقت كسيد لهم" (٤)

تتخلل كل هذا الشعر دهشة عميقة الجذور أمام جمال قرص الشمس وقدرته في منظومة الطبيعة، مع عزوف راسخ عن التوسع في الشرح في صيغ أسطورية. إلا أن المفهوم الجديد للإله الذي طرحه "أخناتون" كان فاتراً. فلقد خلق "القرص" الكون "كيف ؟ ليس هناك من يخبرنا ويبدو أن هذا الأمر لم يكن ليهم الملك. وحفظ عليه استمراره، ولكنه يبدو كأنه لا يستشعر عطفاً على خلقه. حقا يمدهم بالحياة والقوت معاً، ولكن بصورة أقرب إلى عدم الاكتراث إذ لم يقع في أيدينا أى نص يخبرنا أنه يسمع صرخة الفقير أو يشفى المريض أو يغفر للمذنب. ولم يكن هناك سبب وراء كافة ما نفتقده، على نحو ما هو واضح في العبادة الجديدة سوى أن إلهاً، رحيماً على هذا النحو، لم يكن، بكل بساطة، ليخدم الغرض الذي توخاه "أخناتون".

فلم يكن *قرص ـ الشمس"* بالنسبة لـ "أخناتون" أكثر من أقنوم للملكية المقدسة، وانعكاس باهت لصورته هو على هذه الأرض، وقد أسقطت باتجاه السماء .وكانت كنية *"القرص"* الجافة قد شقت طريقها، مع عيد "السد" الأول الذي أقامه، وكما سبق لنا رأينا، إلى الخراطيش، كما لو كان ذلك "القرص" ملكاً، بل وموصوفاً بهذه العبارة التي تليق بالملوك وحدهم : *فليهب عمراً مديداً إلى أبد الآبدين"*. ولما كان هذا *"القرص"* حاكماً مطلقاً للكون، فلقد استحق التوقير الذي يجدر بالملوك : فكل الذين يكونون في معية الملك يروحون ويغدون في وضع الركوع، أو يقبلون الأرض عند قدميه .وكانت المخلوقات التي يرسمها الفنانون لأغراض الزخرفة، مثل طيور "رخيت "* أو الحيات ذات رؤوس الثعابين مزودة بأيد ترفعها تقديساً لـ *قرص ـ الشمس"*، وكانت القرود ترفع كفوفها على نفس النحو تعبداً له.

الملك و"قرص ـــ الشمس

كانت عقيدة *قرص ـــ الشمس*" تنطوي على إعادة تـــأكيد جـــازم للملكيـــة المقدسة، كما يتضح من الدور الذي أسنده لنفسه. فالنصوص التي وصلتنا مهشّـــمة من كتل "التلاتات"، وترجع إلى السنوات الأولى من حكم جلالته، تؤكد على أبـــوّة *القرص*" و"بنوّة" الملك : الملك هـــو ابـــن *قـــرص – الشـــمس*"، وهـــو الطفـــل الجميـــــل المحيا لـــ *القرص*" الذي خلق النور السماوي و"جماله"، ولقد وهـــب الوالد الملكية لابنه "أخناتون" الذي يشغل عـــرش أبيـــه علـــى الأرض : الســـماء والأرض ملك له، وحدود ملكه تصل إلى أجواز السماء، وكل البلدان تستلقي تحـــت قدميه.

وجرى تعزيز كل هذه الأركان العقائدية في "أخيتاتون" حيـــث لا تســـتطيع ذكريات صامتة أو خصوم متوفّون أن يعترضوا على نشر وإذاعة الموضوع الـــذي لا موضوع سواه. فـــ "أخناتون" هو الابن الجسدي دائماً الذي يسطع عليه .وليـــس هناك من يعرف حقاً قلب "الأب" سوى إبنه .وفي المقابل فإن هـــذا "الأب" الـــودود يصغي للصلوات التي يرفعها ابنه. فـــ "أخناتون" هو الملك على الأرض وأبوه هـــو الملك في السماء، وهو يشبه أباه. بل ويعد في الحقيقة صورة لأبيه علـــى الأرض. و"جماله" هو جمال *قرص ـــ الشمس* .ومنصب الملك نابع من *قرص ـــ الشمس* . وهو، دون سواه، الذي نصّب "أخناتون" على العرش : الملك يستوي على العـــرش الذي خلقه *قرص ـــ الشمس* : *وأنت ـــ يا ذا الجلال ـــ أي القرص قد أقمته فـــي منصبك كملك للوجهين القبلي والبحري*". ومن الطبيعي أن يحابي *قرص ـــ الشمس* ابنه .وكان جلساء الملك يقولون عنه : *لم يعظِّم قرص ـــ الشمس" اسم أي ملـــك آخر، سوى اسم جلالتك*".

وهكذا تمتّع الملك بأوثق العلاقات مع أبيه. فكان صـــورة *القـــرص*" علـــى الأرض .ولهذا السبب على وجه التحديد شغل موقع المركز في مجمل النسق .ولمـــا كان جلالته، هو ودون غيره، الذي يقف على ما ينتويه إلهه وما يرضاه، فهو وحده

الذي يستطيع أن يفسّر ما يريده لسائر البشر .والتعاليم الصادقة لا تصدر إلا عن "أخناتون"، والنصوص المتوفرة تحت أيدينا تركز على هذه "التعاليم" دون أن تحدد، مع ذلك مضمونها.

سدانة "قرص ــ الشمس"

يلفت الأنظار غياب الكهنة القدماء، وخصوصاً كهنة "أمون" (٥) خلال حكم هذا المارق، إلاّ أن ذلك لم يكن مرجعه إلى نقص في عدد الكهنة. فلربما يكون الكهنة الذين عملوا في خدمةِ آلهة آخرين في أوقات سابقة قد جرى تجنيدهم وقت ذاك كسدنة للإله الجديد .وفي "طيبة "كانت الدرجات هي نفسها في أي مكان آخر فـ "حم نوتر" أي "خادم الإله" وإيت نوتر" أي "والد الإله" و"وعب" أي كاهن عادي. أما في "أخيتاتون" فلقد سمعنا عن سدنة "القرص" في "دوّار الشمس" في "أخيتاتون". كما تطلب الاحتفال بعيد "السد" وجود "الكاهن المرتل"، ولكنه من المشكوك فيه أن يكون قد رتّل أو قرأ من كتاب الشعائر الخاص به، في ضوء المقت الذي أفصح عنه "أخناتون" للعبادة التقليدية.

اقتبست هرمية العبادة الجديدة بعضاً من تنظيمات كل من "أمون" و"رع". فعلى غرار "أمون "سدن" نبي أول "أي كاهن أعلى "قرص ــ الشمس"، إلا أن هذا الكاهن الأعلى لم يكن أي شخص فانٍ، بل كان الملك ذاته .وعلاوة على ذلك فلقد تقلّد الرائي الأول لـ "رع ــ حور ــ أختي"، وهذا لقب مشتق، بشكل واضح من مصطلح عبادة الشمس في "أون" ، هذا المنصب أول الأمر في "طيبة" ثم في وقت لاحق في "أخيتاتون" .وقد يكون من الضروري أن نرى في هذا الكاهن، العقل المدبر للعبادة الشمسية، ولو أننا لا نراه في مختلف جداريات الكرنك بطولها إلاّ كتابع لجلالته، مرتدياً نقبة وطربوشاً بزر، ويحمل إما مبخرة أو صولجاناً في يده مع قنينة صببان النبيذ .ويبدو أن كل وظائفه الرئيسية لم تكن لتتجاوز وظيفتين: مناولة الملك الذي يدور حوله الاحتفال الأدوات التي يحتاج إليها، أو التبخير أمام جلالته أينما حل .وبصفته إلهاً على الأرض، أي الشخصية المحورية في إدارة

شؤون الأرض بأسرها، كان لجلالته كهنوت خاص يقوم على خدمته برئاسة شخصيّتين يشغلان منصب النبي الأول والنبي الثاني للملك : "نفر ـ خبرو ـ رع ، وع ـ إن ـ رع". ويبدو أن النبي الأول منهما كان بمثابة "لبّيس" (شماشرجي. م) الملك، إذ يظهر في الرسوم التي وصلتنا، سائراً في أعقاب الملك عند تأدية شعائر العبادة، وهو يحمل كرسياً خشبياً بلا مساند بالإضافة إلى صندل سيده.

تعد السدانة المقدسة الموقوفة على "قرص ـ الشمس" تقليصاً حاداً لشعائر تقليدية، خصوصاً وأن العقيدة الجديدة كانت قد فرضت حذف كافة كافة أشكال الرمزية الأسطورية على سبيل "التطهير". ولم تبق هذه العقيدة إلا على الشعيرة الرئيسية التي تتمثل في تقريب القرابين، وهي الشعيرة التي تكرّرها الجداريات إلى حد الإملال .والعبارة الأكثر شيوعاً لتقريب القرابين هي "سماع ـ عابت" أي "أداء التقريب العظيم"، وهي العبارة التي حددها أحد النصوص، بصفتها تشتمل على : الثيران ذوات القرون القصيرة والنبيذ وكافة الأشياء الفاخرة والطاهرة وكل الخضراوات". ويمتد منظر سوّق المواشي وطرحها وذبحها في شريط طويل على امتداد قاع مناظر اليوبيل في معبد "جم ـ ت ـ با ـ أتون" أو "قرص ـ الشمس اهتدينا إليه". ففي كل مكان نشاهد السدنة يحملون الخبز والحلوى وأفخاذ الثيران وقناني النبيذ ...الخ.

في كل مثل هذه المناظر يجري التركيز على موضوع واحد : كرم الملك وجود والده "القرص" فالوفرة التي تغلها أراضي مصر، تعتمد عليهما دون سواهما ، والملك هو "النيل الذي يغمر سائر الأراضي" ويوجه إليه الخطاب بصفته "النور" (شو) : "أحيا على رؤيتي لك، ويشتد أزري بسماعي صوتك" وينتقل عالم الطبيعة بسهولة كبيرة في العقل المصري إلى عالم الأخلاق، والاستدلال على القدرة الكلية للزوجين المقدسين معروف عند القدماء. فالملك هو "الذي يهب لمن يحب، وهو الذي يرتّب شعائر الدفن لمن يسكن قلبه "وانطلاقاً من هذه المقدمة المنطقية تصدر تلك النصيحة الكلاسيكية من فم والد الإله : "آي"، تلك التي نسمع فيها أصداء نفس اللحن الذي يرن خلال عبارة "بتاح ـ حوتب" أو "سي ـ حوتب ـ إيب ـ رع ـ

عنخ" التي وجهها إلى "آني": *ايه يا كل الأحياء الذين يدبون على ســـطح الأرض، وأولئك الذين سوف يغدون شباناً يافعين يوماً ما ، لسوف أحدثكم عن طريق الحياة، ارفع آيات المديح إلى الفرعون "الحي ولسوف تسعد بحياة اليسر والرخاء، ادعـــوه قائلين : فلتمنح الحاكم الصحة بلا حـــدود، وعندئـــذ يضـــاعف لـــك العطـــاء ... عظّـــم* جلالة *الملك الذي يضاهي الفرعون" في تفرده، فليس هناك قرين آخـــر بجواره . وعندئذ سوف يهبك عمراً ترفل فيه سعيد القلب، خلال العون الذي لاينثـــي يحبو به الناس"* (٦) فالملكية هي المركز، وهي وحدة غير قابلة للتقسيم وفريـــدة لا شبيه لها ولا نظير .وهي كذلك سواء في الأرض أو في السماء، وهي شمسية فـــي أصلها وتجلياتها .وليس في طوع أي من كان أن يهرب من ســـلطانها أو حقوقـــها عليه أو واجباته نحوها.



الباب الرابع

الغروب



الفصل الحادي عشر
عن السياسات والشؤون الخارجية

تنقصنا معلومات كثيرة فيما يتعلق بتاريخ السياسة الداخلية لهذا الحكم .ولا غرابة في ذلك طالما كانت كافة النصوص المنشورة، بصفة رسمية، قد استهدفت محو كل أثر عقب أفول نجم النظام الذي أسسه "أخناتون". بل ولم تستطع حتى أعمال التنقيب التي قمنا بها في منطقة الكرنك، أو قامت بها البعثة البريطانية التي استأنفت العمل أن تفعل شيئاً ذا بال في سبيل ملء الفراغ الذي نعانيه بالنسبة للمصادر التاريخية عن تلك الفترة من الحكم .وقد يكون في طوعنا أن نلملم أطراف تاريخ ما، يعدد الأحداث التي نعرف، أو نظن، أنها وقعت، إلاّ أن الأمانة العلمية ستتخلّى عنا إذا لم نشر إلى أن مصادر معلوماتنا عشوائية، وفي غالب الأحيان بعيدة الاحتمال وشبه خيالية .ولا يعد ما تحمله البطاقات الملصوقة على قناني النبيذ أو العلامات الأصلية المنقوشة عليها عند صنعها بالنصوص المأمولة التي يستطيع المؤرخ أن يعوّل عليها ! وبالتالي فإننا لا نملك فكرة واضحة عما إذا كان تأريخنا ذاك يشمل الأحداث الهامة حقاً ويحمل سجلاً بشكل عام، حتى ولو كان موجزاً، لحكم المارق.

تأريخ فترة "أخيتاتون"

أثمر النشاط المحموم الذي شهدته السنوات الأولى في الموقع الجديد كثيراً من الثمار. ففي الذكرى التاسعة لارتقاء "أخناتون" العرش؛ كان بوسعه أن يرنو إلى مدينته التي كانت مبانيها الكبرى قد انتهت أو أوشكت على الانتهاء .ويبدو أن عيد "سد " آخر جرى الاحتفال به، على ما يبدو، على نطاق أضيق من الاحتفال الأول الذي شهدته "طيبة" (١) .وفي السنة التاسعة أو نحوها، ولسبب

مجهول، قـــــرر "أخناتون" أن يغيّر ذلك الاسم الرســـمي التعليمـــي : "قـــرص ــ الشمس"، الذي ظل ينتصر له لأكثر من عقد من الزمان، وهو الاسم الذي اســـتمر لمدة طويلة يدخل في الخراطيش .ولقد شطب التغيير بصفة رئيسية إسميْ "حـور ــ أختي" و"شو" من اللقب، وحاول ملء الفجـــــوات التي نشأت، بإدخال اسم "رع".
أما الاسم الجديد أو "الأخير"، كما كان يسمّى، فكان : "رع" الحي، حـــاكم الأفـــق، الذي يبتهج في الأفق في اسمه "رع" ، الأب الذي تجلى كـــ *قرص ــ الشمس*".

وكانت "نفرتيتي" لا تزال حاضرة هناك، إذ أن بطاقات النبيذ التي تعود إلـــى السنة العاشرة والحادية عشرة تقول : "نبيذ بيت نفر ــ نفرو ــ أتون"، وهذه إشـــارة إلى الملكة (٢)، إلا أن المرء يستشعر أن نفوذها أخذ يتقلص بالتدريج كلما كـــبرت بناتها.

وشهدت السنة الثانية عشرة حفل استقبال فخماً للسفراء الأجانب الذين قدمـــوا حاملين الجزية في نوع من الاستعراض الدوربـــار durbar ، (إذا جـــاز لنـــا أن نستعير هذا المصطلح من الحكم البريطاني) .ولقد وقف الملك في جوسق (كشك. م) في السهل الواقع شرقي المدينة على وجه الاحتمال، بينما أخذ في التدفق في كافـــة الأرجاء الرسل القادمون من النوبة وليبيا وسوريا بالإضافة إلى مبعوثي الحيثييـــن.
ووضع الذهب والفضة وسائر المعادن النفيسة والملابس الثمينـــة والمصنوعـــات الغالية على الأرض في حضرة الملك .وفي نفس الوقت ســيقت المواشـــي وهـــي تخور. وكل ذلك لا يشكّل سوى "العطايا" الواجبة على، والمنتظرة من الأعيان فـــي مختلف ربوع الإمبراطورية .وكانت "نفرتيتي" وبناتها الست بصحبة الملك.و لكنـــها كانت المرة الأخيرة التي نرى فيها العائلة مجتمعة الشمل. (٣)

رحلت إلى العالم السفلي "مكت ــ أتون" الابنة الثانية للزوجين الملكيين فـــي وقت لا يبعد كثيراً عن السنة الرابعة عشرة .ويبدو أن الموت خطفها عن عمـــر لا يتجاوز الحادية عشرة .ونرى حداد الملك والملكة بتعبيره المشـــحون فـــي منظـــر جداري منحوت في مقبرة الملك، رغم الغرابة التي ينطوي عليـــها اختيـــار هـــذا الموضوع في سياق جنائزي خاص بجلالته.

ووافى الأجل أعضاء آخرين في العائلة المالكة في تتابع ســريع .وتوفيـــت

"كيا" قبل زوجها "الملك" على وجه الاحتمال. (ورد ذكرها لآخر مرة مع لقبها "المحبوبة" في السنة السادسة) (٤) .وظهرت "تي" الملكة الأم للمرة الأخيرة في السنة الرابعة عشرة عندما ظهرت، هي وابنها، في جدارية في إحدى المقابر، وهما يزوران أحد المعابد .ويبدو، وعلى سبيل التخمين، أنها رحلت قبل نهاية حكم جلالته بوقت طويل. كما اختفت، كذلك، البنات الثلاث الأصغر سناً من السجلات سواء المكتوبة أو المرسومة بُعيد السنة الثانية عشرة .والواضح أنهن توفين، دون شك، قبل وفاة والدهن. إلاّ أنه يصعب علينا أن نقول أي شيء بشأن تبدل صروف الدهر في أحوال سائر المقرّبين من الملك. فالمقابر الخاصة التي نُحتت في صخور الجبال الشرقية عثر عليها المنقّبون خالية في حقيقة الأمر، إلاّ أقلها، من مومياواتها .ولكن البداهة لا تقبل ألاّ يلقى أحد من حاشية الملك حتفه طوال فترة حكمه.

قد تجد الوفيات المفاجئة التي نعرفها إعتباراً من السنة الحادية عشرة على وجه التقريب وما بعدها، تفسيراً في عواقب وباء الطاعون الذي اجتاح ـ كما أشار عالم المصريات الألماني "هيلك" Helck ـ بلاد المشرق في ذلك الوقت. (٥) ولقد سمعنا عن هذا الوباء لأول مرة في رسائل "أخيتاتون"، تلك التي جاءت من الساحل الفينيقي. فهناك، تفشى الوباء .وبدأ في مدينة "سومور" مقر الحكم المصري للإقليم، ثم انتقل في وقت لاحق إلى مدينة "بيبلوس"، الأمر الذي لم يلق بالرعب في قلوب السكان وحدهم، بل وفي أفئدة المسؤولين المصريين المقيمين في الإقليم كذلك .ولقد بلغ الخوف بحاكم "بيبلوس" من احتمالات فرض الحجر الصحي على مدينته، وهو الأمر الذي كان ليؤدي إلى عدم تلقي أي عون آخر، أن يكتب بصورة مهووسة، إلى "أخناتون" على هذا النحو : "هم يتجهون إلى ارتكاب جناية كبرى عندما يلقون على مسامعكم بقول مثل" هناك طاعون في تلك الأنحاء ! فلا تنصت لأقوال أولئك الأشخاص"! فليس هناك وباء في هذه البلاد ! والأمور تسير على ما يرام مثلما كانت تسير من قبل" (٦) ومع ذلك فإن الحديث لم ينقطع عن وجود الوباء في مراكز ساحلية أخرى على اتصال بكل من "سومور" و"بيبلوس"، فضلاً عن تفجّر نفس الوباء بعد ذلك بعشرين سنة بين الحيثيين .ولما كانت الروابط بين

الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبين مصر أوثق مما بينه وبين "خـاتي" أي بلاد الحيثيين، فالاحتمال الأقوى أن يكون ذلك الوباء قد امتد إلى مصر وأنزل بـها هلاكاً مماثلاً.

وعلى غير ما هو متوقع، وفي الوقت الذي كان فيه حكم "أخناتون" يقـترب من نهايته، اقتربت كبرى بناته "ميريت ـ أتون" من دائرة النفوذ. ففـي السـنوات الأخيرة لحكم والدها دأبت بطاقات قناني النبيذ، وكذلك منـاظر الجداريـات علـى الإشارة إليها بصفتها "ابنة الملك (المحبوبة)". وذات مرة، وردت الإشارة في السنة الـ ١٦ إلى "بيت المحبوبة". ولكن المسألة ليست محسومة حـول مـا إذا كـانت "ميريت ـ أتون" هي المقصودة بذلك اللقب : "المحبوبة"، خصوصاً وأن "كيا" حملته في وقت أسبق من حكم جلالته. إلاّ أننا لا نشك كثيراً في أن "ميريت ـ أتون "حلت محل الكثيرات في الاستئثار بحب والدها، إذ يشير ملك "بابل"، "بورنابورياش" فـي جـواب أرسله لـ "أخناتون" إلى : "كريمتـك "مايـاتي"، بصفتـها "سـيدة بيتك"(٧) .ويشكو الملك البابلي في جوابه من أنها لم ترسل أي هدية أو أي عبـارة "شد حيل" أثناء مرضه .والهدايا ورسائل تطييب الخاطر لا يتوقعها ملك إلاّ من ملك آخر وقرينته، وليس من مجرد أميرة بين أميرات عديـدات .ويبـدو واضحـاً أن "ميريت ـ أتون"، وصلت منذ آخر مرة رأيناها فيها، بطريقة أو أخرى، إلى هـذه المنزلة الرفيعة .وبناء على ذلك أخذت "ميريت ـ أتون "تظهر وقت ذاك في مناظر الجداريات، وقد نُحتت صـورها "فوق" صـور سـيدات ملكيـات أخريـات، وخصوصاً "كيا" بل و"فوق" صـور والدتها "نفرتيتي".

واعتباراً من السنة الخامسة عشرة، على وجه التقريب، أخذت "مـيريت ـ أتون" تظهر بعض الأحيان سواء في فن النحت أو الجداريات بصحبة شخص ذهب كثيرون إلى أنه زوجها الشاب. (٨) ويشـار إلى اسمه بين الحين والآخـر كـ "سنخ ـ كا ـ رع "أي" ذاك الذي مجّدته روح رع"،ويجـوز أن يُضاف إليـه نفس اللقب الذي حملته "نفرتيتي" منذ السنة الثانية أو الثالثة على أبعد تقدير : "نفـر ـ نفرو ـ أتون". وهذا اللقب يبدو، في الحقيقة، أكثر تردداً من الاسم ذاته، رغـم أن هذه النتيجة قد تكون خطيرة، في ضوء قلة الأمثلة نسبياً. فلقد تمتّع "سمنخ ـ كـا

ـــ رع" بكل تأكيد بنفس القدر الذي تمتعت به "ميريت ـــ أتون" من حب "أخنـــاتون".
فمنذ اللحظة التي ظهر فيها في فن "أخيتـــاتون"، أدى "ســـمنخ ـــ كـــا ـــ رع" دور شريك الملك في الحكم : حصل على الاسم الأول "عنخ ـــ خبرو ـــ رع" أي "خبرو ـــ رع ـــ الحي" بالإضافة إلى ألقاب من قبيل "محبوب نفـــر ـــ خـــبرو ـــ رع" و"محبوب رع ـــ إن ـــ رع". وهذان اللقبان يكشفان في بنائهما ليس عـــن انشـــغال بشخص "أخناتون" وحسب، بل عن استخدام اسمه مطرح إســـم الإلـــه، وذلـــك لأن الألقاب التي تبدأ بـــ "محبوب كذا" تنسب الحب إلى إله كامل الريش . كما يمكن أن نقدّم أدلة إضافية في هذا الصـــدد على وجود علاقة حميمة مـــع "أخنـــاتون" مـــن التحف الفنية الصغيرة، فبعضها يصور ملكين يداعب كل منهما الآخر، ولكن نظـــراً لافتقار هذه التحف إلى نصوص مرفقة تكشف عن شخصية هذين الملكيـــن، فـــإن تأييدها للفرضية المطروحة أقل وقعاً مما قد يبدو لأول نظرة .ولقد أوحت قوالـــب الطوب المختومة باسم "سمنخ ـــ كا ـــ رع" التي استخرجها المنقّبون مـــن إحـــدى القاعات ذات الأعمدة جنوبي حجـــرات القصر، للبعض بأن القاعة شُيِّدت خصيصاً بمناسبة تتويجه، إلاّ أن ذلك لا يخرج في الوقت الحاضر عن كونه تخميناً.

لا يزال السؤال حول ما إذا كان "سمنخ ـــ كا ـــ رع" و"ميريت ـــ أمون" قـــد تبوآ عرش البلاد، وحدهما، في أي وقت من الأوقات رهن البحث. إذ يبدوان علـــى جدران إحدى المقابر، بوضوح تام، وقد تزيّا بالأزياء الملكيـــة، أثنـــاء مكافأتـــهما لصاحب المقبرة .وفي هذا المنظر لا تقع العين على أي أثر لـــــ "أخنـــاتون" (٩). وعلاوة على ذلك يرجع تاريخ البطاقات التي تحملها قناني النبيذ وتشير لعزبة مـــا لـــ "سمنخ ـــ كا ـــ رع" إلى السنة الأولى من حكم ملك ما (ولا يرد ذكـــر لاســـم الملك الحاكم في مثل هذه البطاقات) (١٠)، كما يعود نقش جرافيتي (مخربشات. م) في مقبرة من "طيبة"، وهو النقش الذي يشير، بصورة عابرة إلى معبد نذره "ســـمنخ ـــ كا ـــ رع" لـــ "أمون" (هكذا !) في السنة الثالثة (١١) من حكـــم ذلـــك الملـــك. والآن يعزي المؤرخون، في العادة، السنوات الأولى والثانية والثالثة في أحد نقـــوش المخربشات، وكذلك بطاقات النبيذ إلى "توت ـــ عنخ ـــ أمون" رغم أننا لم نســـتطع التوصل إلى أي نص فوق الظنـــون لحكم هذا الرجل أدنى من السنة الرابعة .وهـــذه

مشكلة قد تجـد حلاً لها في الافتراض الذي يذهـب إلى أن "توت ـ عنـخ ـ أمون"، واصل، عند وفاة "سمنخ ـ كا ـ رع" في السنة الثالثة لحكمه، التسلسل العددي لسلفه هذا، كسنوات حكم له هو .ومن جانب آخر قد تكون سنوات "سمنخ ـ كا ـ رع" في الحكم متزامنة، بصفة كاملة، مـع السـنوات الأخـيرة مـن حكـم "أخناتون".

لا ينازع أحد في أن "سمنخ ـ كا ـ رع" بدأ قبل عدة شهور من وفاته فـي أعمال تشييد لـ "أمون" في "طيبة". ولكن عودته شخصياً إلـى المدينـة الجنوبيـة القديمة "طيبة" تعد أمراً أبعد كثيراً عن اليقين، ولو أن إكتشافاً تم في وادي الملـوك قبل سبع وسبعين سنة يشير إلى أنه دُفن على الأقل هناك.

وفي سنة ١٩٠٧ اكتشف فريق أثري يعمل تحت رعاية المليونير الأمريكـي "تيودور ديفز" مقبرة صغيرة منحوتة في صخر الجبل يصل إليها المرء عبر دهليز وعدد من درج السلالم قرب المدخل الذي يقود إلى أعماق وادي الملـوك .ولكـن القبر ذاته كان منهوباً بصفة جزئية، رغم كونه مختوماً. وكان التلف قـد دب فيـه نتيجة للنشع والمطر .وكان المدفن قد أقيم في تسرّع، وزوّد بـالحد الأدنـى مـن المستلزمات، وما بقي من الأثاث العادي والأواني والأثاث الجنائزي يحمـل فـي الغالب إسمَيْ "أمين ـ حوتب" الثالث و"تي". وقد توصّل المنقّبون إلى نتيجة مفادهـا أن المقبرة هي مقبرة الملكة "تي"، ونشروا المقبرة باسمها. إلاّ أن مشـكلة عميقـة سرعان ما أطلّت برأسها. فبينما نجر صندوق المومياء، كما هـو واضـح، إبـان عصر "أخيناتون" المزدهر لسيدة تنتمي إلى البلاط وتسري في عروقها دماء ملكيـة، إلاّ أن أدوات الإعراب، في النقوش التي يحملها الصندوق على لسان شاغله، دخـل عليها تغيير دقيق، من حالة المؤنث إلى المذكر ! كما اتضح أن الجسد المسـجى، الذي أعلن أحد أطباء التوليد في وقت سابق أنه لامرأة، هو لرجل عندما قام أحـد أطباء التشريح بفحصه بدقة أكبر في القاهرة. إلاّ أن ميل بعـض أجـزاء رفـات الهيكل العظمي نحو صفات الأنوثة جعل بضعة دارسين يقفزون إلى نتيجة مفادهـا أن الجثمان لـ "أخناتون" نفسه. إلاّ أن فحصاً لاحقاً في أواسط الستينات انتهى إلـى أن بنية الجسم تكشف عن أن صاحبه ذكر سوي. كما حدد العمر عند الوفاة بنحـو

عشرين سنة، أي أصغر كثيراً من الفرعون المارق، في ضوء سنواته السبع عشرة في الحكم وبناته الست. (١٢)

كان بوسع النصوص التي يحملها التابوت أن تحل اللغز، لولا الحقيقة المؤسفة أن اسم المتوفى، أينما ورد، كان مفتقداً، اللهم سوى استثناء واحد. يقول النص الطويل الموجود على قاعدة التابوت :

"منطوق يخرج من فم "خرطوش مكشوط" المتوفى : فلأتنفس النفس الزكي الذي يأتيني من فمك .وأرى جمالك بصفة يومية، وإني لأدعو في صلاتي أن أسمع صوتك العذب الذي يشبه النسيم .وتنتعش أطرافي بالحياة خلال حبي لك ! ولتمد ذراعيك نحوي وهما يحملان روحك حتى أتلقاها وبها أحيا. فلتطلب إسمي لحياة الأبدية، ولسوف يستمر اسمي يخرج، دون توقف، من فمك يا والدي (؟) (الخرطوش مكشوط) أنت (...) إلى أبد الآبدين. تحيا مثل قرص ــ الشمس (...) ملك مصر العليا ومصر السفلى، قوتك الصدق، سيد الأرضين (الخرطوش مكشوط)، الإبن الطيب الذي أنجبه قرص ــ الشمس، الذي سيقيم هنا، حياً، لأبد الآبدين. (خرطوش مكشوط، ومستبدل بخرطوش مكشوط هو الآخر) (١٣)

واقع الأمر أن عصر "أخيناتون" لم يطرح أي لغز أكثر مراوغة والأحرى تحنيساً من هذا اللغز ! جثمان من ذاك الذي ضمه التابوت ؟ من هم المذنبون، ومن هم الضحايا ؟ بادئ ذي بدء تشير مثل هذه الألقاب "الذي يقتات بالصدق" و"الطفل الوسيم الذي أنجبه "قرص ــ الشمس"، بكل وضوح إلى أن الشخص المخاطب الذي كشطت خراطيشه، هو "أخناتون"، وعلاوة على ذلك، فالمتكلم، وفي الحقيقة، المتكلمة ليست سوى سيدة ترتبط به بعلاقة شخصية حميمة: كلمة "والدي" تظهر كنقش تال، ولكنها قد تكون، في الحقيقة، الكلمة الأصلية في النص والبديل الوحيد الآخر هو أن تكون "أخي". وعود على بدء، أن يكون التابوت مصنوعاً لسيدة تنتمي للبلاط الملكي لأمر يؤيد بقوة التعرّف على شخصية المتكلم والأحرى المتكلمة (وليس المخاطب) بصفتها صاحبة التابوت أي شاغلته.

وإلى هنا قد يتفق معظم الدارسين، إلا أن الإجماع بينهم على شخصية هذه السيدة مفقود. فإذا كانت كلمة "والدي" تنطوي على تحديد سديد للأصل المكشوط،

إذن، فالمرأة تكون هنا أميرة. وقد إقترح البعض أن تكـون "ميريت ـ أتـون"، واقترح آخرون أن تكون "مكت ـ أتون" رغـم أن "عنـخ ـ إس ـ إن ـ بـا ـ أتون" التي لم يكن لها أن تستخدم تابوتاً راجعاً لفترة "أخيتاتون" تبدو مرشحة أكثر احتمالاً. أما إذا كانت الكلمة الأصلية المجددة هي "أخي"، إذن فهي لا تخرج عـن كونها زوجة ، وعندئذ لا تعوزنا الشخصيات اللواتي نستطيع ترشيحهن فـي هـذا الصدد مثل "نفرتيتي" نفسها أو "كيا" المحبوبة.

يتصل بما نقوم به حالياً من تقص، وبصورة أوثق ، الوقوف على شـخصية الرجل الذي تعدل التابوت خصيصاً كي يشغله إلا أن التحويرات الطفيفة التي كانت كافية لهذا الـتعديل تدلنا بوضوح على أن هذا الرجل كانت تجمعه، هو الآخـر، بـ "أخناتون" صلة قرابة قوية، ولا يضيره الدفن في تابوت معد في الأصل لسيدة. ورغم أننا لا نعرف على وجه التحديد عدد أبناء عمومة الملـك وأبنـاء خؤولتـه وكذلك أبناء أخوته وأخواته، إلا أن الدليل الذي تحت أيدينا يضيق لحسـن الحـظ نطاق حيرتنا (إختيارتنا.م.). فالقسم الأخير من النص المكشوط قد أستبدل لصـالح شاغل التابوت برقعة تحمل هذا اللقب "ابن رع" إلى جانب خرطوشه. وفي موضـع آخر تمدنا شظفة صغيرة من الذهب نجت لحسن الحظ من عوادي الأيام، من طـلاء التابوت، بهذا اللقب "محبوب واع-إن-رع" ويبدو أنه لا مفر من الإقرار بأن هـذا التابوت جري تعديله كي يستقبل مومياء الملك "سمنخ-كا-رع". ولقد أسفر المزيـد من الفحص الذي خضعت له رفات الجسد المسجى في الستينات ومطلع السـبعينات عن كشفين مذهلين : ينتمي كل من "توت-عنخ-آمون" والشـخص المسـجى فـي التابوت إلى نفس فصيلة الدم .ومع إعادة تركيب بقايا عظام الجمجمة، كان المنظـر الجانبي لوجه شاغل ما يسمى بـ (مقبرة "تي") أي "بروفيله" يشبه "توت-عنـخ - أمون" إلى حد بعيد. وكونهما شقيقان مسألة عبرت الآن من ضفاف الظنـون إلـى ممالك الحقائق التاريخية التي يتفق عليها الجميع.

إذا كان سيناريو سنوات الأفول بالنسبة لـ"أخناتون" أخذ يتكشف لنا،فليسـمح لي القارئ إن أنبهه إلى ضرورة أن يكون مستعـداً للعـودة لحالة الشـك.مـاذا حدث لـ "نفرتيتي" خلال السنوات الأخيرة من نزوة زوجها "أخنـاتون" ؟ مـاتحت

أيدينا من وثائق ناصعة في هذا الصدد ضعيف بطبيعة الحال : ليس عندنا في "أخيتاتون" ما نستطيع مقارنته بالغزارة في مصادر المعلومات التي استقدنا منها في الكرنك إلاّ أن "نفرتيتي "استمرت تظهر في الجداريات، ولو أنها لم تعد تحتل الصدارة القديمة. فلقد حلّت محلّها، على ما يبدو، محبوبات ملكيات أخريات مثل "كيا" بل وكبرى بناتها "ميريت – أمون" ذاتها. ولكن "نفرتيتي" ظلت تغتصب شعارات ملكية أصيلة، مثل تاج الحرب الأزرق** الذي لم تره عين، على وجه التقريب، على رأس سيدة أخرى (يجب الإقرار هنا بأنها لم تضعه على رأسها إلاّ في حالات شبه نادرة).

ولقد ظهرت عبارة "بيت زوجة الملك" بصفة منتظمة في بطاقات قناني النبيذ التي يرجع تاريخها إلى السنة الرابعة عشرة، والأرجح لأول وهلة أن الزوجة الملكية المقصودة في تلك العبارة هي "نفرتيتي"، رغم أن زواج "ميريت – أتون" من "سمنخ – كا – رع" أدى إلى إضفاء نفس اللقب أي "زوجة الملك" عليها هي الأخرى.

هناك افتقار طوال السنوات الأربع الأخيرة من حكم "أخناتون" إلى الدليل الذي نستطيع الركون إليه في تحديد تاريخ "النتف" التاريخية القليلة التي لا تزال على قيد البقاء .ويستطيع المرء، بالتالي، أن ينتهي، بحق، إلى مغادرة شخصية رئيسية لمسرح الأحداث، دون عودة، وهو أمر بعيد تماماً في الحقيقة عن الواقع. ولقد طرح "جي. آر. هاريس" نظرية جديدة، وأيده فيها "جي. سامسون" وآخرون، مفادها أن "نفرتيتي" غادرت المسرح بصورة لا تخطئها العين. لكن المنظّرين يفترضون، تحت تأثير الحقيقة التي تقول أن هذا الاختفاء المقترح للملكة من المسرح يتزامن مع ظهور شريك الملك "سمنخ – كا – رع" الذي يحمل نفس اللقب الذي تحمله الملكة : "نفر – نفرو – أتون، وهو أمر لا يخلو من مغزى، أنهما شخص واحد، وأن "نفرتيتي" تخلّت عن دورها كزوجة للملك كي تقوم بدور شريك والأحرى شريكة لزوجها في الحكم. وقد احتاجت هذه الوظيفة المختارة ألقاباً وصوراً فنية مذكرة على نحو كلي، كما انطوت على علاقات رجالية،

وعلى رأس هذه العلاقات يقف "الـزواج" والقيـام بـدور الـزوج لــ "وريثـة العرش : ميريت – أتـون" (١٤)

إلاّ أن هذه النظرية، وعلى ماهي عليه من مهارة وبراعـة فـي التعليـل، تتغاضى عن العديد من الصعوبات، وإن نجحت في نفس الوقـت فـي إبرازهـا ! فالحقيقة التي تقول أن كلاً من "نفرتيتي" و"سمنخ – كا – رع" يشتركان سـوياً فـي نفس اللقب ليست ذات بال. فـ "نفر – نفرو – أتون" ليس إسماً (وظل كذلك إلى أن ظهر كاسم في خرطوش "سمنخ – كا – رع"، واستمرت "نفرتيتي" تستخدمه كلقـب لها وحسب. كما أننا نصادف "نفر – نفرو – أتون" وكلمتيْ "نفر – نفرو" كعنصريـن في أسماء إثنتين من بنات "نفرتيتي"، وليس هناك ما يمنعنا من الافتراض أن الاسـم قد خُلع كلقب على شاب من "ربائب الملك". وهناك، إلى جـانب ذلـك، اختـلاف طفيف، وإن كان متواتراً، عند التمعن عن كثب، في كتابة اللقب عند إسباغه علـى "سمنخ – كا – رع"، وذلك على العكس من تهجئته التي تتسم بالشـمول والكمـال عندما ننظر إليه في خرطوش "نفرتيتي"، وهو تغيُّر ينتصر لصالح التميـيز بيـن الشخصين. وعلاوة على ذلك، ليس من المستصوب أن نفترض أن اسم "نفرتيتـي" وألقابها كملكة قد جرى التخلّي عنهما نحو السنة الثالثة عشرة : فلقد ظـهرتا فـي فرع أحفادها الذين لا نستطيع إرجاع ميلادهم إلى تواريخ متقدمة على نهاية حكـم زوجها. فهل نفترض، إذن، أنها تراوحت، بعد السنة الثالثة عشرة بين مجموعتيـن مختلفتين من الأسماء ؟ وعود على بدء، ما الذي نفهمه من الدفن الملكي في مقـبرة "تي" في وادي الملوك ؟ وحتى لو نفينا أن تكون "نفرتيتي" و"سـمنخ – كـا – رع" شخصاً واحداً، فلسوف يظل لزاماً علينا أن نفسح مجالاً في إعادة البناء التـاريخي، لرجل، ينتمي بوضوح، إلى العائلة المالكة، وتولى الحكم، دون شك، وكانت تربطـه بـ "توت – عنخ – أمون" صلة قرابة قوية، وحمل لقباً لم نصادفه بالمرة، إلاّ بيـن ألقاب "سمنخ – كا – رع"! وأخيراً، رغم أن الأمر يستعصي على الإثبات، على أي وجه من الوجوه، فإن ظهـور ملكة في الأعمال الفنية كزوج لابنتـها، وبالتـالي إضفاء لقب "الزوجة الرئيسية للملك" على كريمتها، يعد إنحرافاً بالغ الشطط حتـى بالنسبة لعصر "أخيناتون".

يتعيَّن علينا أن نضع حداً لتأريخنا الذي عمل فيه الخيال عمله، على امتـــداد هذه الخطوط : رفع "أخناتون" في السنة الخامسة عشرة، على وجه التقريب، أو بعد هذا التاريخ بفترة وجيزة، ابنته الكبرى "ميريت – أتون" إلى مرتبة "ربــــة " بيتــه المحبوبة .ولقد ظهرت في الجداريات الجديدة بصحبة والدها كفتاة يافعـــــة، وهمـــا يؤديان شعائر دينية متعددة. كما جرى إقحام اسمها في المناظر الأسبق عهداً علــــى حساب "كيا" بل ووالدتها : "نفرتيتي" ذاتها .وفي نفس الوقت اتخذ "أخناتون" صبيـــاً في الرابعة عشرة من عمره، عرفه البلاط في وقت لاحق باسم "سمنخ – كا – رع" كـــ "ربيب" له وشريك في الملك .وكان هذا الصبي ينحدر، هو وأخــوه، "تــوت – عنخ – أمون" البالغ من العمر سبع عشرة سنة، من فــــرع ثـــانوي، علــى وجــه الاحتمال،من العائلة المالكة. وقد راج افتراض بـــأن أمــهماهي إحــدى أخــوات "أخناتون" (١٥) أما القول بأنهما إبنا سفاح لـــ "أخناتون" نفسه، فأقل إحتمالاً، رغــــم أننا لا نستطيع في ظل الوضع الراهن لمعارفنا عن الموضـــوع أن نفنِّـده جملــة وتفصيلاً. ولقد تمتَّع "سمنخ – كا– رع"، إذا كان لنا أن نحكم إستناداً إلــــى ألقابــه، بحظوة خاصة من جانب "أخناتون". ويتمشى زواجه من كبرى الأميرات ووريثـــة العرش "ميريت – أتون" مع تقليد ضارب في القدم في إطار الرغبة فـــي الحفـــاظ على السلالة الملكية، إلاَّ أن "الطفل" الصغير الذي يظهر في أواخر حكم "أخنـــاتون "عندما بلغ الزوجان الشابان السابعة عشرة من عمرهما، فهو بنت هي "مـــيريت – أتون" الصغيرة.

وبعد ذلك بوقت قصير، وربما في أثناء حياة "أخناتـــــون"، تـــزوج الأخ "توت – عنخ – أتــــون" من الإبنة الثالثة "عنخ – إس – إن – با – أتــون"، وكان عمرهما عشية وفاة الملك، بالضرورة، حوالي التاسعة والثانية عشرة على التوالــي. وبعد ذلك، ولو أن "أخيتاتون" كانت لا تزال مزدهرة كمدينة، وُلدت بنــت أخــرى، ولكن هذه المرة كانت لـــ "عنخ – إس – إن – با – أتون"، وأطلــق عليــها إســم، يعكس إفتقاراً غريباً إلى الخيال، هو: "عنخ – إس – إن – با – أتــون" الصغــيرة. ولقد مكثت "نفرتيتي" على قيد الحياة طوال تلك الفترة، وفي بعض الأحيـــان كـــان إسمها يرد عند ذكر جدود الحفيدة، ولكن يبدو أنها كانت قد فقدت الكثير من علــــو

الشأن الذي بلغته فيما مضى.

ليس هناك ما يدعونا إلى الشك في أن "أخناتون" لفظ أنفاسه الأخيرة بسلام في "أخيتاتون" في صيف سنة ١٣٥٩ ق. م .وجرت مراسم دفنه، كما ينبغي لمثله، في مقبرة ملكية في أعماق الضفة الشرقية لنهر النيل. (١٦) كما أن أعضاء آخرين من العائلة المالكة الذين وافاهم الأجل قبل "أخناتون" كانوا قد دفنوا على وجه الاحتمال، أيضاً هناك .ولكن في أي مكان كانت وفاة "سمنخ – كا – رع" ؟ هذا أمر مجهول، رغم أنها قد تكون في "طيبة" إلاّ أن الثابت أن إستقرار جثمانه في آخر المطاف في وادي الملوك لم يكن سوى الدفن الثاني للجثمان.

"الملك المظفَّر،
سيِّد البلدان الأجنبية دون منازع "

لم تستبعد فنون الرسم والنحت بكافة أشكالها خلال عهد "الابن الطيب لـ "قرص – الشمس" موضوعيْ الحرب والغزو. فلم يحظ الجيش من قبل بوجود أشد وضوحاً في فن الجداريات على وجه الخصوص. فالأسرى موجودون بكثرة زائدة في "موتيفات" المثول أمام الملك على جانبي المنصة الملكية وتحت "شرفة التجلّي"، وفي "عيد السّد" يقدم أبناء رؤساء البلدان الأجنبية بلداً بلداً، جزيتها. (اللوحتان ٣-٢، ٣-٣) بينما ترفع الزمر التي لا استغناء عنها في كل منظر من الأمراء الأسيويين والنوبيين أيديها بابتهالات الشكر والثناء. (اللوحتان ٣-٤، ٣-٥) واستمر حكام البلدان الأجنبية في إرسال الهدايا والعطايا، تحت سوط التخويف : السفن القادمة من النوبة وسوريا والجزر اليونانية في بحر إيجة، التي يأتي منها الخزف المسياني الرائع، كانت تزحم أرصفة المرافئ في "أخيتاتون" على نحو ما كانت تفعل مع أرصفة المرافئ في "منف" و"طيبة".

قد يقودنا ما قلناه في الفصل التاسع حول النزق والتردد اللذين كشفا عن نفسيهما في شخصية الملك إلى نتيجة مفادها أن سياسته الخارجية كانت غير ناجحة. ولكن ذلك لم يكن صحيحاً إلاّ بصفة جزئية. فلقد سارت سياساته تجاه

المقاطعات التابعة لمصر في النوبة في الجنوب، رغم أنها كانت تقليدية، بهمة وبراعة. كما استمرت تسير على قدم وساق التقاليد التي أرساها الجدود لاستقرار (السودان ؟) مع زرع مدن هناك ذات طابع مصري. وفي مدينة "كاوا" قرب الشلال الثالث، أُنشئ معبد لـ *قرص- الشمس*". ولقد قدَّر "أخناتون" المواهب القتالية التي تمتّعت بها السرايا النوبية في جيوشه. وكان أول ملك مصري يتوسّع في الاعتماد عليهم في الحاميات العسكرية التي تمركزت في البلدان التابعة لمصر في آسيا. إلاّ أنه رأى في النوبة، وعلى النقيض مما رآه في آسيا، منفى بديعاً للمناوئين .ولقد رحّل إلى هناك أعداداً ضخمة من مثيري الشغب الأسيويين من زمام دمشق (كما سيرد ذكره)، بل وتمتّع جلالته بنجاح، بالوكالة في الجنوب بصفته "سيِّد حرب"، رغم أنه لم يكن بصحبة قواته. ففي شهر أبيب - يوليو من سنة غير محددة، وإن كانت بعد السنة التاسعة في الحكم، على وجه الاحتمال، وصلت إلى الملك، كما يبدو واضحاً، معلومات تفيد أن عدداً من القبائل الجنوبية تثير القلاقل في قطاع "أكيتا". ورغم أن الوقت، وهو ذروة الصيف، كان شنيعاً للتفكير في اتخاذ أي إجراء في مناطق الجنوب التي يغمرها القيظ، إلاّ أن "أخناتون" فوّض نائبه أو المندوب السامي المصري في "كوش"، وكان يحمل اسم "تحـوت - موسي"، في التحرك بجيشه ضدهم. ويصف نص ــ يحمله صادود مهشم نحته ونصبه هذا النائب في "بوهين" في وقت لاحق ــ الموقعة بعبارات تقليدية مقولبة، ويسجّل أسر ما لا يزيد على أكثر تقدير، على ١٤٥ نوبي و٣٦١ رأس من رؤوس المواشي، بالإضافة إلى إعدام عدد لم يُكشف عنه الستار حرقاً. (١٧)

قد يجد المرء لنفسه عذراً في التساؤل عما إذا كانت الأبعاد المتواضعة لهذه العملية الحربية تبرر مثل تلك الوحشية، إلاّ أنها وفّرت، مع ذلك، المناسبة التي تسمح للمندوب السامي المصري، أن يزف آيات التزلف إلى الملك، فيقول مخاطباً جلالته : "لا يعرف عصرك أي متمردين، وصيحة الحرب التي تطلقها أشبه بألسنة النار التي تمشّط كافة البلدان الأجنبية "! ويصف جعران تذكاري ضُرب في وقت قريب من ذلك التاريخ "أخناتـون" بأنه يُطلق صيحة حرب كبرى، لوقعها دوي هائل .وفي طوبة - يناير من سنته الخامسة في الحكم، وقبل بضعة شهور وحسب

من انتقاله إلى حاضرة البلاد الجديدة : "أخيناتـــون" أرسل أمين سره من موقعـــه في "منف" إلى جلالته خطاباً يهنئه فيه على "أن كافة البلدان قد فُتحت أمامك بفعـــل الرهبة، وأن "أمون" (؟) قد وضعها تحت قدميك"، ويأخذ الملك لقب : "سيـد القـؤاد السعيد الذي خضعت له كافة البلدان" و"الملك الجبار سيِّد كافة الأراضي الأجنبيـة" ، وذلك في نص يحمله صادود "نخت – مين" في مطلع حكم جلالته.

لكن الوضع الذي كان يواجه الملك على حدود مصر الشمالية كـــان أكـثر تعقيداً بكثير من هذه العلاقة التي تتسم بالصراحة والاستقامة مـــع رجـال القبـائل النوبية. فعلى الرغم من الحقيقة التي تقول أن هذا التعقيد عمل في البدايـــة لصـــالح مصر، والفضل في ذلك يرجع إلى الدبلوماسية الحاذقة التي انتهجها والده "أميـن – حوتب" الثالث، إلاّ أن تردد "أخناتون" وافتقاره إلى بعد النظر أفقده المبادرة.

يتحمل "أخناتون" المسؤولية الرئيسية، على وجه الخصوص، في إنهيـــــار "الوفاق" المصري – الميتاني، في ذلك الوقت بالذات، الذي كان فيـــه مثـل هـذا الانهيار ليلحق أشد الضرر بالبلدين على حد سواء. ولقد أعربت الملكة "تـــي" فـــي رسالة لها إلى "توشراتا" ملك الميتانيين، عقب وفاة الفرعون "أمين – حوتب" الثـالث بوقت قصير، عن قلقها تجاه مستقبل العلاقات بين البلدين. وتبدو لهجة القلـــق هنـــا غريبة، نظراً لأن "أخناتون" كان قد تبادل للتو الهدايا مع "توشراتا"، وكـــان علـــى وشك الزواج من ابنته. ولكنه لم يكن، بذلك، إلاّ ممتثلاً، علـــى وجـــه الاحتمـــال، لترتيبات خاصة اتخذها والده قبيل وفاته. وبمجرد أن شعر الملك الشاب أن العـرش قد استقر تحته، حتى أدار ظهره لـــ "ميتاني". ونستقي من خطابات "توشراتا" إليـــه أن جلالته رفض إرسال أي هدايا إليه أو حتى يرد على خطاباته تلك، بل وجعــــل رسله إليه ينتظرون في البلاط أربع سنوات قبل أن يعطيهم رداً !

"متى تشاجر طرفان ابتهج طرف ثالث"، وكان الطرف الثـــالث، فـــي هـذه الحالة، هو "خاتي" أي مملكة الحيثيين الكبرى في الأناضول .وكان الحيثيون، علـــى نحو ما رأينا في الفصل الأول، قد عانوا الأمرين على أيدي الميتانيين نتيجة لصدفة جغرافية وتاريخية .ولم يكن بوسعهم إلاّ أن يبتهجوا لرؤيتهم "توشراتا" وقد استبد بـه الإحباط. فلقد نجا الحيثيون من الهزيمة واليأس لمدة تزيد على قرن كامل بانسحابهم

إلى جبال الأناضول المنيعة .ولكن قبيل صعود "أخناتون" إلى عرش مصر، تحوّلت الأقدار لصالحهم بارتقاء ملك جديد سدة الحكم هو "سوبيلوليوماس" الأول. فلم يدخر هذا الملك، الذي يستحق أن يحتل مكاناً بارزاً إلى جانب أعظم الإستراتيجيين في التاريخ، وقتاً في العمل على تعميق الفجوة بين مصر و"ميتاني".

فلقد كتب ، بلباقة فائقة، إلى "أخناتون" كي يهنئه بارتقائه العرش، كما بعث إليه بالهدايا اللائقة. واتخذ أعضاء آخرون في العائلة المالكة الحيثية نفس الخطوة .وكان لذلك وقع المفاجأة السارة على وجه الترجيح، على "أخناتون"، الذي بدا، خلال الفترة التي أقامها في "طيبة"، مستعداً لمراعاة "خاتي" أكثر من أي بلد آخر. وسرعان ما فكر الملك الشاب عقب وصوله إلى العرش بوقت وجيز للغاية في عقد معاهدة مع الحيثيين، ويبدو أنه أبرم في الواقع معاهدة من هذا القبيل في نهاية المطاف، رغم النصيحة السديدة التي أسداها إليه ملك قبرص : *لا تربط نفسك بملك "خاتي" ... !* "(١٨) وقد يستعصي على المرء أن يرى أي نفع كان يُمكن أن يعود على مصر من إبرام أي اتفاق مع الحيثيين . ولكن هذه المعاهدة كانت، بالنسبة لـ "سوبيلوليوماس" هبة من السماء. إذ صار في وسعه أن يحمل على "ميتاني" دون أن يلحقه أي جزاء.

تفجرت الحرب ـ وانطوت ملابساتها على نزاع حدودي على وجه الترجيح ـ في وقت ما بعد سنة ١٣٧٠ ق. م بوقت قصير حيث شن "سوبيلوليوماس" هجوماً باتجاه الشرق في أعماق "أرمينيا"، ثم استدار فجأة نحو الجنوب، ونزل بجيشه إلى سهول الرافدين الشاسعة. ولما بوغت "توشراتا" على حين غرة بالهجوم ولى الفرار مع بلاطه، تاركاً عاصمته للعدو. ثم تحوّل "سوبيلوليوماس" غرباً عبر نهر الفرات كي ينزل الهزيمة بملوك سوريا الشمالية، الذين كانوا توابع، فيما مضى، لـ "ميتاني"، وجرؤوا على مناوأته. كما حاول ملك "قادش" وولي عهدها أن ينصبا كميناً للحيثيين في أقصى الجنوب على ضفاف نهر العاصي، ولكنهم تجرعوا كأس الهزيمة ورُحّلوا إلى "خاتي". وتوقفت الحملة الحيثية في جنوب لبنان بعد أن انهارت المقاومة المحلية لـ "دمشق".

لا يبالغ المرء، مهما قال، في النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة الفريدة.

فلقد انتهت "ميتانى" كقوة عظمى:وسرعان ما اغتيل "توشراتا".وفي خبطة واحدة لا غير دفعت دولة جديدة بنفسها إلى مسرح الأحداث في المشرق. واجتاحت الشائعات المدن الساحلية الخاضعة لمصر: "سمعت أن القوات الحيثية تشعل النيران في البلاد ... والحقيقة الآن أن جنود "خاتي" كانوا يتخذون العدة لاستيلاء على "بيبلوس" (١٩) ولكن اتضح أن ذلك لم يكن صحيحاً. فلقد كان "سوبيلوليوماس" حريصاً في الواقع، على تجنب أى مواجهة مع أى من البلدان التابعة لمصر: لم يهاجم الساحل واقتصر على سوريا الجنوبية وعلى وجه الخصوص وادي العاصي.ولكنه ارتدى في التبرير الذي ساقه للهجوم ديباجة المعاهدة التى فرضها في وقت لاحق على ابن "توشراتا". فلم يتحدث إلا عن غطرسة الملك "توشراتا" وتحاشى أى إشارة إلى مصر.(٢٠)

كان الحيثيون قد سرقوا، بذلك، زحفاً من المصريين. فطالما أحجم "سيبيلوليوماس" عن التدخل بشكل سافر في المدن أو المناطق الساحلية جنوبي نهر العاصي. لم يعد أمام "أخناتون" كثيراً مما يستطيع أن يثيره كمسوغ لشن أى حرب ضد الحيثيين، إلا أنهم زحفوا على "عمورو" شمالي أكثر المقاطعات التابعة لمصر بعداً عن الساحل.و فضلاً عن ذلك، ليس لدينا دليل على أن "أخناتون" لجأ إلى أى نوع من الانتقام.

وإذا كان المصريون قد ردوا في إطار دبلوماسي ثاقب النظر، فإن الوضع كان أبعد ما يكون عن العلاج.فالمدن ـ الدويلات الكبرى في شمال سوريا لم تكن متحمسة بأي من الأحوال للدخول في علاقة ما مع إمبراطورية جديدة. فبالأمس كانت مرتبطة مع الملك "توشراتا" بمعاهدات التوابع، ولو أن النير أى (الناف م) الميتاني أثبت أنه خفيف الحمل. ولما كان ملوك دويلات شمال سوريا قد شاركوا الميتانيين في خوفهم من هؤلاء الغزاة الجدد الزاحفين من وراء جبال "طوروس" فسرعان ما كشفوا عن استعدادهم لمقامرة يائسة تتمثل في طلب النجدة من المصريين .ولو أن مصر لم تشأ أن تمد هيمنتها، منذ أيام الفرعون "تحوت -- موسي" الثالث إلى ما وراء "حلب" أو "تنيبا" . وحتى في تلك الأيام، لم تدم سيطرتها في هذه المنطقة إلا لوقت قصير. غير أن رباط "الأخوة" الذي جمع، في وقت

لاحق، الملك "أمين- حوتب" الثالث وملك الميتانيين "توشراتا" تعرّض للنفخ على نطاق واسع، وصار لزاماً على مصر، بعد العجز الذي لحق بـ"ميتاني" أن تضع التزامها "الأخوي" موضع التنفيذ بملء الفجوة. وعلى هذا الأساس وضعت ثلاث مدن -دويلات تقع على مشارف الحدود السفلى لنهر العاصي" وهي؟ "ماكيش" و"نيبيا" (حيث قام الفراعنة السابقون هناك بصيد الحيوانات البرية) و"نوخششي"، الخطط لشق عصا الطاعة، وكلها ثقة من أن فرعون مصر لن يتوان في إرسال النجدة.

فاتح الملوك المتمردون الثلاثة بلاط "أوجاريت": هذه المدينة الساحلية الكبرى، الواقعة جنوبي مصب نهر العاصي، ويتمتّع ملكها "نيكمادو" بعلاقات ودية مع مصر، بل وكان قد تزوج من نبيلة مصرية. وجاء ذلك في ظل تصور أضمره الملوك المتمردون الثلاثة، على ما يبدو، بأن بسط نفوذهم على الساحل السوري من شانه أن يوفر ميزة استراتيجية لمغامرتهم. ولكن الملك "نيكمادو" فزع، دون تصنّع، على ما يبدو، من توريط نفسه في مثل ذلك العصيان المزمع. وبذلك وضعت "أوجاريت" بصفتها دويلة ساحلية تلتزم مبدأ الحياد، مصالحها التجارية فوق النزاعات العدائية في أعماق الأراضي السورية : وبناء على ذلك رفض الملك "نيكمادو" الدعوة التي تلقاها في هذا الشأن. وهنا حاول الملوك الثلاثة استخدام القوة. وغزت جيوش المتمردين، مجتمعة، منطقة "أوجاريت" وبدأت في النهب والسلب وتدمير القرى الحدودية. وخلال موقفهم المعادي للحيثيين وميلهم الواضح نحو مصر، استقطب الملوك الثلاثة الموقف لصالحهم وأذلوا "أوجاريت". إلى أين يستطيع "نيكمادو"، والحالة هذه، أن يتوجه سوى إلى الحيثيين ؟ فكتب الملك "نيكمادو" بتسرع بالغ، يناشد "سوبيلوليوماس" على هذا النحو الذي وصلنا عبر صياغة حيثية لاحقة : *أيها الشمس، الملك العظيم. سيدي خلصني من قبضة العدو ! فأنا خادم الشمس الملك العظيم، وعدو أعداء سيدي ... هؤلاء الملوك يضغطون علينا دون هوادة*" (٢١).

ليس هناك بين الخبيئة الغنية من النصوص التي اكتشفها المنقبون الفرنسيون في الأراشيف الملكية لـ "أوجاريت" سوى نصوص قليلة تنطوي على أهمية

تاريخية أكبر أو تثير افتتاناً أكثر من المراسلات أو المعاهدة اللاحقة بين "أوجاريت" والحيثيين. وكان رد "سوبيلوليوماس" على هذا النحو:

لا تخش بلاد "نوخششي" وبلاد "ماكيش" رغم عدائها لي في الوقت الحاضر، وضع ثقتك في نفسك يا "نيكمادو". وعلى غرار ما كان عليه أسلافك من صداقة، لا من عداوة لـ "خاتي"، تكون أنت يا "نيكمادو". فكن عدواً لأعدائي وصديقاً لأصدقائي... والآن إذا شن كل أولئك الملوك هجوماً لغزو بلادك، فلا ينبغي لك يا "نيكمادو" أن تخشاهم، أرسل إليّ رسولك من فورك. وإذا اتخذت لنفسك إجراء وقائياً، وأنزلت بزنديك، وحدهما، الهزيمة بالعدو ... فلا تدع أياً كان يطلقه من قبضتك ..." (٢٢).

كان العرض المطروح في الخطاب غاية في الدبلوماسية إذ انطوى على دعوة لـ "نيكمادو" إلى أخذ زمام المبادرة بين يديه وأن يتصرف بشكل مستقل، مع ضمان تلقيه العون من الحيثيين. ومع ذلك كان جلالته أجبن من أن يتخذ أي إجراء بنفسه. وسرعان ما كان رسوله في طريقه إلى "خاتي" ودخلت القوات الحيثية بقيادة ولي العهد إلى سوريا.

ملأ وجود الحيثيين قلوب المتمردين بالرعب. حقاً كان المتمردون قد حققوا بعض النجاح، إلا أنهم يئسوا من إحراز النصر دون عون. وكتب أحد أولئك الملوك المتمردين إلى "أخناتون"، كي يشير إلى أنه سليل شخصية بارزة هو "تاكو"، الذي كان الفرعون "تحوت – موسي" الثالث قد نصبه ملكاً. ومضى كي يلمح أيضاً إلى أن "ملك "خاتي" *قد أرسل إليّ عدة خطابات طالباً عقد معاهدة*" ولكنه يفضل، على ما يبدو، أن يخلص الولاء لمصر. واختتم خطابه قائلاً "*... وإذا لم يرغب سيدي في الزحف، فليرسل، إذن، أحد قواده على رأس القوات والعجلات الحربية*" (٢٣).

أبدى "أكيزي" (؟)، ملك قطنوم (قطنة في وقت لاحق.م.)، ورغم أنه لم يكن في حالة عصيان بصفة رسمية، ضد "خاتي" تعاطفاً قوياً مع قضية التمرد. وأصبح ناطقاً باسم الملوك الشماليين فأعلن، بجرأة شديدة، نفسه تابعاً لمصر. وكتب إلى "أخناتون" طالباً العون : "*يا مولاي إنني لأحب جلالة الملك سيدي ! وكذلك يحبه*

ملك "نوخششي" نفس حبي له، وكذلك الأمر مع ملك "نيبا" وملك "زنــزار" وملــك "تونانات". كل هؤلاء الملوك خدم في الحقيقة لمولاي". (ولكن ليس هنــاك حاجــة ملحة لإرسال عون عسكري) *إذا شاء جلالة الملك مولاي أن يخــرج علــى رأس جيشه، فليخرج. ولكنهم يقولون أن جلالة الملك مولاي لن يخرج. وبناء على ذلــك فليرسل جلالته القواسين رماة السهام وليأتوا* (وحدهــم)" (علــى أن المتمرديــن لا يطلبون العون مجانا، فلسوف يدفعون الجزية) *فليحـــدد وزراء مــولاي جزيتــهم ولسوف يدفعونها*" (إرسال عون عسكري سوف يخفف أيضا قلق "أخنــاتون"، *"يــا مولاي إذا كان عبء هذه البلاد سيزول عن فؤاد جلالتــك، إذن فليرســل مــولاي القواسين رماة السهام وليجعلهم يقدمون*" (٢٤)

لكن القضية كانت قد باءت الآن بالخسران. فحتى لــو أســرع المتمــردون بإرسال خطاباتهم إلى مصر، فإن جيوش "سوبيلوليوماس" كانت قد وصلـــت إلــى سهول "حلب" كي تتلقى بصورة مخزية، استسلام شمال سوريا بأكمله "وعندئــذ أدى "نيكمادو" ملك "أوجاريت" فروض الخضوع لأبنـــاء الملــك (الحيثــي) ولقــواده، وأعطاهم هدايا الذهب والفضة والنحاس الحمر ... والتجأ إلى "الالاخ" في حضـــرة "الشمس" الملك العظيم مولاه" (٢٥) وسرعان ما هرع رؤساء الدويلات في ســوريا إلى تقديم فروض الاحترام لـــ "سوبيلوليوماس".ولقد ولول، في هذه الأثناء، حــاكم مصري عميق الولاء لمصر على هذا النحو "كل خدم مولاي الملك توجــهوا إلــى "خاتي" (٢٦). وعندما دعا البعض "أكيزي" أن يحذو حذو الآخرين، أكد أنه رد علــى هذه الدعوة بقوله : "أنا خادم جلالة الملك مولاي ملك مصر ! " كما أرســل نفــس القول وأفصح عن نفس الموقف لملك "خاتي" ولم يمض وقت طويل، مع ذلك، قبــل أن يجلب مثل هذا الموقف الصريح على صاحبه الانتقام تلو الانتقام. فلقد اجتـــاحت القوات الحيثية "قطنوم"، واختفى "أكيزي"، وانتقلت سوريا الشمالية بأسرها طـــوال السنوات المائة والسبعين التالية إلى السيادة الحيثية.

يصعب علينا أن نجد تفسيرا لوقوف "أخناتون" مكتوف اليدين على مثل ذلــك النحو الواضح، في وجه ذلك الخطر الذي أحدق بأصدقائه. حقا لا تعطينا خطابـــات "أخيتاتون" سوى جانب واحد للصورة : فليس في حوزتنـــا الــردود التــي يمكــن

لـ"أخناتون" أو الجنرال "مايا" أن يكونا قد كتباها إلى المتمردين السوريين، إلا أنها ربما حملت في طياتها أسباباً مقنعة. وربما يكون الإجماع في "أخيتاتون" قد استقر على أن إرسال أي قوة من قواسي الملك إلى سوريا لم يكن في طوعها إلا تقديم عون رمزي لقضية تبدو خاسرة منذ البداية. فالرد على التحدي الذي شكله الحيثيون بأي أمل في النجاح يحتاج إلى حشد حملة عسكرية يصل قوامها إلى عشرة آلاف رجل أو يزيد، وهو الأمر الذي لم يكن "أخناتون" مستعداً بعد لأن يقدم عليه. إلا أن الإحجام عن إرسال أي قوات إلى هناك كان ليهبط إلى الحط من شأن مصر سواء في نظر الصديق أو العدو. غير أن "أخناتون" إما أنه لم يقدر حجم الخطر وإما أنه كان مستعداً لتحمل نتائجه مهما كانت. لكن الانطباع الذي رسخ، وبصرف النظر عما إذا كان ذلك صحيحاً أو خاطئاً، لدى شعوب المشرق هو أن الفرعون الجديد لن "يزحف من مصر"، كم أنه كان أكثر عزوفاً عن السماح لجيشه بأن يقدم على مثل هذه الخطوة.

هناك عامل آخر، على ما يبدو، في الموقف الخارجي ساهم في عزوف "أخناتون" عن شن هجوم مضاد على نطاق واسع في الشمال يتمثل في الشائعة حول العصيان الذي شرع يدب في أطراف الإمبراطورية. فعلى نحو ما أشرنا في الفصل الثاني كان تقليد نقل أولاد حكام البلدان الأجنبية إلى مصر وتثقيفهم بأساليب الحياة المصرية قد أدى إلى نشوء شريحة عميقة الولاء من نواب الملك بين أبناء تلك البلاد، إلا أنها دقت في غالب الأحيان إسفيناً بينهم وبين شعوبهم التي يسوسونها بالنيابة عن مصر. فلقد سعد "رب -عدي" حاكم "بيبلوس "و"عبدي خيبا" حاكم "أورشاليم" و"أبي – ميلكي" حاكم "صور" بإخلاصهم للقضية المصرية، لكنهم لم يكفوا لحظة عن التماس تعزيز الحاميات المصرية المتمركزة هناك بمزيد من القوات للمساعدة في إخماد الانتفاضات داخل مناطق نفوذهم. وفي خضم السياسات المشرقية التي سادها الاضطراب والتلاطم، وحيث هبطت السيطرة الإمبراطورية المصرية عند حدها الأدنى، كانت المسألة مسألة وقت قبل أن تقوم شخصية انتهازية بارعة بالسعي إلى استغلال الميل نحو الصراع الفئوي بين المدن الفينيقية على الساحل السوري.

كان هذا الخطر قد تبلور بالفعل في أواخر أيام "أمين-حوتب" الثالث في إمارة "عمورو" التي تفتقر إلى أي تنظيم في أعالي "العاصي"، في وادي البقاع. فهذه الإمارة تشكل مع دويلة "قادش" أقصى المقاطعات التوابع لمصر بعداً عن الساحل.ولم يكن ولاؤها للفرعون أمراً مفروغاً منه في أي يوم من الأيام. فخلال حكم "أمين-حوتب" الثالث قفز حاكم سيئ السمعة يدعى "عبدي-عشيرتا" إلى مكانة عالية هناك، وحاول تعزيز وضعه السياسي بفرض إدعائه حق حكم جزء من الساحل حول "سومور" التي ضمت مقر الإدارة المصرية في المنطقة. وفي نهاية المطاف شن الفرعون "أمين-حوتب" الثالث حملة تأديبية صغيرة على الساحل الفينيقي، أدت إلى إلقاء القبض على "عبدي-عشيرتا" ؛ ووضعت نهاية لحياته السياسية القصيرة. وجاءت هذه الحملة بعد أن قام الحكام التوابع الموالون لمصر بإيقاظ الفرعون من حالة السبات التي خلد إليها بصيحاتهم الحانقة طلباً للعون. إلا أن عائلة "عبدي-عشيرتا" استمرت على قوتها في "عمورو".حقاً لا نعرف سوى أقل القليل عن أصول هذه العائلة، إلا أن المرجح أن هذه العائلة تنتمي إلى عشيرة من السكان الأصليين الذين يقيمون في منطقة قصية لم تلمس تخومها الحضارة المصرية. وعلى أي حال تمتع "عزيرو" ابن "عبدي-عشيرتا"، الذي سرعان ما تولى زعامة العائلة، بتأييد قوي من جانب طبقة الـ"خوبشو" وهم المزارعون الريفيون في معظم المدن السورية. وفضلاً عن ذلك ضمنت له أصوله الاجتماعية تعاطف الـ "عابيرو"، وهم عبارة عن طبقة من المارقين الذين يشبهون الغجر في صعلكتهم على مشارف المجتمع الحضري للكنعانيين. فلقد بدا وثيق القربى في تفكيره ووسائله منهم إلى الحد الذي كان شانئوه يطلقون عليه اسم "العابيرو"، ولكن سواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح، فإن تلك المسبة لم تصده عن استعمال أولئك "العابيرو" في تحقيق غاياته. ويبدو أن ترحيل "أخناتون" لعدد من "العابيرو" إلى النوبة جاء في إطار محاولة قام بها جلالته نحو تقليص حجم القاعدة التي تستند إليها سلطة "عزيرو" في وادي البقاع.(٢٧)

لم يدخر "عزيرو" الذي برز على وجه الاحتمال عقب الهجوم الحيثي الأول على شمال سوريا، وقتاً في الضغط على مقر الإدارة المصرية في "سومور" حتى

تعترف به (حاكماً). ولقد وبخ "أخناتون" هذا الـ "عزيرو" لقيامه بتحركات تهديدية باتجاه "بيبلوس" التي وقعت على عاتقها مسئولية الاستطلاع المبكر بشكل عام حول "سومور". ولكن "عزيرو" رد على وجه السرعة على هذا النحو:"منذ زمن ضارب في القدم ظللت على ولائي لخدم الملك مولاي. ولكن حكام "سومور" لم يعترفوا بي". وفي الحال ضرب "عزيرو" الحصار حول "سومور" ولما عجزت المدينة عن الصمود أكثر مما فعلت قام الحاكم المصري بفتح أبوابها أمام "عزيرو" ثم انسحب على وجه العجل إلى مصر، أما "عزيرو" فلقد دمر المدينة عن آخرها. وهكذا فقدت مصر مركزها العصبي على الساحل السوري.

مرت شهور فيما ظلت المدينة خراباً. فكتب "أخناتون "إلى "عزيرو" طالباً تفسيراً لعدم القيام بإعادة بنائها. ورد "عزيرو" بأنه يرغب في أن يُعيِّن حاكماً، وبأنه لم يبن "سومور" لأن زملاءه من الحكام يقفون منه موقف العداء. وقد يكون ذلك صحيحاً، فكل تصرفاته وسواء أكانت متعمدة أو غير متعمدة تؤدي إلى غرس بذور العداء. لكن ذلك لا يصلح في سائر الأحوال لأن يقف على قدميه كعذر من الأعذار. وكان "عزيرو" قد توصل بالفعل إلى اتفاق مع كثير من زملائه الحكام، بل وأبرم معاهدات مع كل من "أرفاد" و"صيدا" و"قادش" و"أوجاريت". أما أولئك الذين أخلصوا لمصر الولاء، وعارضوا تحركات "عزيرو" ففقدوا مناصبهم على وجه العجل. وتتمثل أسوأ الحالات "جُرْسة" في هذا الصدد في حالة "رب-عدي" حاكم "بيبلوس" الذي دأب على إرسال التقارير، تقريراً إثر تقرير، طوال خمسة عشرة سنة إلى العاصمة المصرية، محذراً من الخطر الذي ينطوي عليه إفلات عائلة "عبدي-عشيرتا" من يد العدالة. لكن "رب-عدي" وجد نفسه مجبراً على أن يرقب، دون حول أو قوة، استيلاء "عزيرو" على المدن والقرى الواقعة على أطراف "بيبلوس". وفي نهاية المطاف واجه الطرد من مدينته نفسها، كي يقع في أيدي "عزيرو" الذي ضرب عنقه.

جاء التوبيخ المتوقع بعد وقت قصير من "أخناتون" وكان توبيخاً عنيفاً (٢٨). فهناك قائمة بخطايا "عزيرو"، بما فيها معاملته القاسية لـ "رب-عدي" الطاعن في السن، وكرر "أخناتون" مطلبه مجدداً بإعادة بناء "سومور". فأرسل "عزيرو" ثماني

سفن محملة بخشب البقس مع رهائن إلى مصر، وكان يأمل بلا شك في تطييب خاطر "أخناتون" وقتذاك، وكانت هذه الخطوة حاذقة، لأن "أخناتون" الذي ظل لسنوات عديدة يطالب بحضور "عزيرو" إلى مصر كي يرد على التهم الموجهة إليه، هدأ ولان. ومنح "عزيرو" مهلة لمدة سنة. وفي لحظة غفلة في نفس خطاب التوبيخ فلتت زلة قلم بالدافع وراء سياسته أي سياسة "أخناتون" الشمالية *أنت تعرف يا "عزيرو" أن الملك لا يريد أن يكون قاسياً مع أرض كنعان* "وتكشف النتائج اللاحقة أن "عزيرو" فهم من هذه العبارة أنها علامة ضعف.

استغل "عزيرو" وجود الحيثيين في شمال سوريا" كي يخمدوا التمرد الذي وقع هناك، كعذر يتعذر به عن عدم الحضور فوراً إلى مصر. وبلغت به الجرأة حد الاحتفاء بمبعوثي الحيثيين، وهو الأمر الذي أثار ثائرة "أخناتون". ولكن إذا كان "عزيرو" قد وصلت به الظنون حد امتحان صبر جلالته إلى مالا نهاية، فإنه يكون قد جانب الصواب.فلقد كانت الإدارة المصرية لا تزال من القوة بما يسمح لها وضع أوامرها موضع التنفيذ، حتى في قلب سوريا. فسرعان ما وصل المبعوثون المصريون كي يصطحبوه إلى مصر. وهناك إغراء قوي بأن نذهب إلى أن ذلك الاستقبال الحافل للجزية الواردة من البلدان الأجنبية، الذي أقيم في السنة الثانية عشرة جري تنظيمه في وقت مقارب لوصول "عزيرو" إلى مصر، ولو أننا لا نستطيع إقامة دليل لا يرقى إليه الشك على ذلك.

لا نعرف خردلة عن الكيفية التي نجّا "عزيرو" نفسه بها أثناء محاكمته في مصر، ولكن حتى في ظل غيابه عن سوريا، كان لا يزال في طوعه أن يستكمل خططه "الميكيافيلية" على المدى الطويل. فلقد بدأت الأنباء ترد تباعاً من أربعة حكام توابع لمصر في منطقة "إمكي"، مفادها أن "إيتاكاما "حاكم "قادش" وصديق "عزيرو" وحليفه "قد تولى قيادة القوات الحيثية وأخذ في إحراق مدن مولاي الملك"(٢٩) وجاء تأكيد ذلك على لسان "إيلو-ربي" الحاكم-التابع الجديد في "بيبلوس"، الذي استبد به الغيظ لقدرة "عزيرو" على الاستمرار في ارتكاب جرائمه، حتى بعد استجواب جلالته له. *اعلم أن "عزيرو" ارتكب جريمة في الوقت الذي كان فيه ماثلاً أمامكم. جريمة ضدنا ! فلقد أرسل رجاله إلى إمرة "إيتاكاما" وأنزل*

البلاء بكل أراضي "إمكي" أراضي مولاي. والآن هاهو يتمادى فيرسل رجاله كي يستولوا على "إمكي" (٣٠). وربما يكون هذا هو السبب الذي دفع "أخناتون" إلى احتجاز "عزيرو" لأجل غير مسمى. ولكنه ليس معروفاً كم من الوقت امتد بقاء "عزيرو" على وجه التحديد في مصر، لكنه مكث مدة كافية لرواج الشائعات من هذا القبيل : *"عزيرو لن يعود من مصر و"عزيرو" يقيم في مصر"* (٣١).

إلا أن "عزيرو" أطلق سراحه في الواقع في نهاية المطاف، رغم أننا لا نعرف ما إذا كان ذلك قد تم قبل أو بعد وفاة "أخناتون". وبمجرد أن استعاد ملكه حتى نبذ ولاءه لمصر (ربما عقب علمه بوفاة "أخناتون ")، وأصبح تابعاً للحيثيين. ورحّب به الملك "سوبيلوليوماس" في الحظيرة وأثنى عليه لصموده. وتفرض معاهدة التبعية التي أعقبت ذلك، التي نجت من عوادي الأيام كي تصل إلى أيدينا لحسن الحظ، على "عزيرو" جزية سنوية تبلغ قيمتها ٣٠٠ شيكل، كما تحظر عليه انتهاج أي سياسات خارجية مستقلة سواء تجاه مصر أو بابل أو بلاد الحوريين(٣٢).

يذهب رأيي إلى أن "عزيرو" كان واحداً من القلائل الذين سبروا غور "أخناتون" بشكل كامل. فلقد وزن بصفته شيخ قبيلة لا ينقصه لا الدهاء ولا سعة الحيلة، أي المكافئ لـ "بلطجي" أو "قبضاي" الشوارع الخلفية للمدن حالياً، الحدود التي تفرضها التربية الراقية وحياة الدعة، على حاكم تختلف ثقافته بوجه عام عن ثقافته هو. ولقد كان في طوع "أخناتون" أن يوظّف عناصر وحشية، وإن كانت فعالة في السياسة، غير أنه لم يشأ أن يكيّف نفسه مع التنظيم الضروري اللازم لإطلاق حملة تتمتع بالكفاءة والقدرة. وكان في وسع "أخناتون" أن يوجّه تهمة شنيعة، إلا أن خاطره كان يطيب بسهولة ويسر.

ولما كان "أخناتون" شخصاً متنسكاً واقعاً تحت سيطرة فكرة واحدة ثابتة، فلقد كان خليقاً بجلالته أن يستشعر الملل للفترات الطويلة من التركيز العقلي، اللازمة لانتهاج سياسة خارجية متسقة. ولم يكن ليزعجه إلا الإضطرار إلى أن يأخذ ويعطي، ويساوم ويشارط مع الآخرين، فلقد كان في أعماقه رعديداً. ولم يكن عزمه معقوداً بصورة لا نقض فيها ولا إبرام، إلا على برنامجه الديني، وليس على

شكل التعامل مع حكامه الإقليميين التوابع (سواء في الشمال أو الجنوب.م.). ولقــــد فطن "عزيرو" إلى كل هذه السمات التي تسم شخصية "أخنـــاتون"، وهـــي ســـمات ملأت نفس "عزيرو"، على وجه الترجيح بالازدراء. ولعل خلعه الــــولاء لمصــر راجع إلى نفوره من شخص جلالته بنفس القدر الذي كان خضوعاً من جانبه لـــــ "قوة عظمى"، تلك التي مثّلها "سوبيلوليوماس".

الفصل الثاني عشر

تعايش : حكم "توت عنخ أمون"

كانت عبادة قرص–الشمس الواحد الأحد وما استتبعته من تحطيم الأيقونـــات (تماثيل الآلهة وصورها . م)مدموغة بصورة لا تحول ولا تزول بشخص "أخناتون" إلى حد لا يسمح لها بالاستمرار على قيد الحياة طويلاً بعد رحيله. فهي لـــم تكـــن عبادة من ذلك النوع الذي يستطيع شخص آخر سواه أن يذود عنها وينتصر لـــها ؛ لأن "بنوة أخناتون" إزاء *القرص*" والـــده كـــانت علاقـــة شـــخصية علـــى نحـــو عميق.ويشك المرء فيما إذا كانت عائلته ذاتها وأعضاء حاشيته قد فهموا حق الفـــهم أو حتى أرادوا أن يفهموا أفكار الملك في هذا الشأن. وفي سائر الأحوال لـــم تكـــن المظاهر السلبية لتركيزه على"الوحدانية " Oneness لتروق لأحد، كما لم تكن أيضاً عملية. وقد يكون رجال البلاط في "أخيتاتون" قد استكنوا فـــي الـــدفء والرفاهيـــة ورغد العيش مما يلازم بالضرورة العاصمة السياسية للدولة، ولكن نصيب الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب في شتى ربوع البلاد كان صفراً. فمصادر الدخل قُطعت، وبالتالي أُغلقت المعابد، وأُبطلت العبادات اليومية، والاحتفالات، التي ظلـــت لمـــا يقرب من ألفي سنة، تعطي للحياة معنى. وطالما استمر مؤسس العبادة الجديدة على قيد الحياة، استمرت هذه الأغلبية بلا مورد.

ومع ذلك فلنتخيل هذا المؤسس في سنته السابعة عشرة من حكمـــه، وهـــي السنة التي اتضح أنها الأخيرة. فبالنسبة لأي رئيس دولة يرغب في ضمـــان بقـــاء نظامه في المستقبل لم تكن أحداث الماضي القريب تبشر بخير، فلقد رحـــل أربعـــة من بناته الست، واجتاح البلاد وباء عارم. ووقف صبيّان ضعيفان في طابور ورثـــة العرش، أحدهما تم تعيينه كشريك للملك، وأصغرهما وُلد بعـــد الفتنـــة. أمـــا "آي" العجوز، الذي شغل منصب القائد العسكري وسكرتير جلالته، فكان لا يزال علـــى قيد الحياة، وكذلك الأمر بالنسبة لـــ"نفرتيتي" التي حملت في وقت سابق لقب "زوجة الملك الرئيسية"، بالإضافة إلى عدد من الوجوه التي تظهر في المناظر الجداريـــة :

سيدات أنيقات، قريبات من درجة بعيدة للملك، دون شك، إلا أن المـرء يستطيع إرجاع أصولهن إلى الفرعون "أمون-حوتب" الثالث، وندماء الملك الذين يحظون بالرعاية والاحترام والوزراء، وهم يركعون؛ إلا أنهم مجهولون جميعاً لنا من جراء التقاليد المعاصرة بذكر أسماء أعضاء العائلة المالكة المباشرين دون سواهم. وتلك كانت مجموعة الأشخاص المتزلفين، الذين يتصفون بالتخمة والضعف والخور، على نحو ما تعرضهم أمامنا هذه الجداريات : لا يتقيدون بأي عمل سواء في الجيش أو القطاع المدني. هل كان "أخناتون" يعقد على مثل "هؤلاء" توفير الدعم الرئيسي لربيبه "سمنخ-كا-رع" ؟

تشير العواقب اللاحقة إلى أن "أخناتون" لم يعقد أي آمال كما أنه لم ينتهج يوماً سياسة حازمة. وعندما رحل جلالته بصورة مفاجئة، على نحو ما يقودنا حقاً الحدس، ترنحت سفينة الدولة دون دفة لثلاث سنوات. وها نحن نسمع عن خطوات تجريبية يقوم بها "سمنخ-كا-رع" الذي كان شريك-الملك في وقت سابق وأصبح الآن ملكاً، لإعادة الاعتبار مرة أخرى لـ"آمون" اله الإمبراطورية. وعندئذ وافاه الأجل، فتغير الحال .وبدا وقت ذاك أن هناك تصميماً راسخاً على البقاء في "أخيتاتون" رغم أن الجداريات التي وصلت إلينا قليلة، إن لم نقل نادرة، عن هذه الفترة القصيرة في بداية حكم "توت-عنخ-آمون". ومع ذلك، شهد نفس الوقت، وبعد الفجوة التي دامت ثلاثة عشرة سنة، استئناف أعمال التشييد في"طيبة" على قدم وساق (اللوحة رقم ١٢-١) إذ شيدت إضافات جديدة للمعابد القديمة التي سبق لـ "أخناتون" أن أقامها. وكان الأسلوب الفني رائعاً في أواخر عصر "أخيتاتون" ولم يغفل ذكر "أخناتون" أو الملكة العجوز أو الحفيدة الصغيرة (١). إلا أن مظاهر الصرامة التي اتسمت بها الوحدانية القديمة ظلت قائمة : لم يُذكراسم أي اله آخر اللهم سوى *القرص*، ولم يُسمح بأي شعائر عبادة أو أي أساطير. ومع ذلك فإن نفس الفترة شهدت التخطيط لأعمال حربية من نفس طبيعة الأعمال الباهرة التي عرفتها الإمبراطورية قديماً. كما أن الفرعون الصغير السن أخذ، أو مُنح في مطلع حكمه، الاسم الحوري (نسبة إلى حورس) : "طالباً رضا الآلهة (في صيغة الجمع. م) " وهي الخطوة التي تنطوي على المغزى الأعمق بين سائر الخطوات التي اتخذها

هذا الفرعون.

انتهى التردد والتذبذب في السنة الثالثة من حكمه باتخاذه قــــراراً بمغــادرة المدينة الجديدة.وانتقل الفرعون وبلاطه، بكل تأكيد، رغم أن بعض الســكان ظلــوا يقيمون على وجه الاحتمال هناك. ولا يتمالك المرء نفسه من العجب، فــي ضــوء الوجود المشهود لــ "نفرتيتي" في السنوات الأولى للحكم، فيما إذا كان موتها هــو الذي وضع نهاية لفترة التردد في اتخاذ القرارات ووضع عناناً أكثر تحــرراً فــي أيدي أولئك الذين يملكون صوغ سياسة أكثر تماسكاً واتساقاً. أياً ما كان الأمر، فــإن إقامة الملك مرة أخرى في منطقة "منف" أعاده من عالم الأحلام في "أخيتاتون" إلــى واقع المعابد المهجورة وأطلال الماضي المجيد لمصر.

كما وضعت هذه الإقامة مزيداً من السلطة في أيدي الرجل الذي كــان فــي طريقه لأن يغدو *الموجِّه الخفي* " *eminence grise* للنظام.وكانت قد ســنحت لنــا الفرصة كي نلقي نظرة عابرة على شخصية "آي" التي يكتنفــها الغمــوض، ذلــك الرجل الذي دأب على التنقل خلال المدينة التي ضمّت مقر الإقامة الجديد، وكــان قريباً بصفة دائمة من شخص الملك. لكننا لا نعرف عن أصوله شــيئاً ســوى مــا تضمه هذه الفقرة التي تحمل طابع السيرة الذاتية، ونجدها منقوشة في مقبرته فــي "أخيتاتون" : *كنت أحد الذين تمتعوا بعطف مولاه كل يوم، ولقد زادت أفضاله علــيّ سنة عن أخرى نظراً لأنني كنت كفءاً كفاءة فائقة في رأي جلالته، ولذلك ضاعف مخصصاتي حتى بلغت عدد الرمال. ووضعني على رأس كل من الأمراء وعامــة الشعب.. وكنت شخصاً مستقيماً، بحق وصدق. فكنت شــخصاً لا يعــرف الطمــع طريقاً إلى فؤاده. اسمي (أي صيتي) بلغ القصر لأنني كنت ذا نفع للملــك، مطيعــاً لتعاليمه، ومنفذاً لقوانينه ... كنت كفءاً ومتمتعاً بأخلاق حميدة ... وكنــت قنوعــاً صبوراً. يتبع كو" Ku (؟) الملك مثلما يكون قد أمر، فأنــا لا أكــف لحظــة عــن الإنصات إلى صوته"* (٢). أما ألقابه التي تشمل "قائد الجيــش وجــنرال العجــلات الحربية وحامل المروحة عن يمين الملك، وكاتب جلالته" فتدل علــى أن أصولــه ترجع إلى طبقة العسكريين، كما تسوغ المكانة الرفيعة التي وصل إليها في أواخــر الحكم. وعلاوة على ذلك كنا قد ارتأينا أنه ابن كل من "يويا" و"تويا"، وبالتالي شقيق

الملكة "تي"، إلا أنه يعزف، على نحو غير مفهوم عن التباهي بأنه خال"أخناتون". وليس هناك سببٌ يدعونا إلى التشكك في فحوى الفقرة السابقة، ولو أن لغتها تقليدية مقولبة بعض الشيء : فكان "آي" على وجه الاحتمال كفءاً، وخادماً مطيعاً ومقرباً من الملك. وكانت الأقوال التي تصدر عن جلالته تملأ فؤاده بالروع. إلا أنه كان رجلاً عملياً. وبرحيل "أخناتون" وترقيته تحت ظل حكم "توت-عنخ-أمون" إلى رتبة شرفية بحتة : "أكبر أبناء الملك"، لم يجد "آي" بكل تأكيد أي سبب يحدوه إلى الاستمرار في اللغز، فكان الطريق الذي أُختط، في معظمه، خلال الحكم الجديد، من رسمه على وجه اليقين.

ويتمثل جوهر التغيرات التي حدثت في السنة الثالثة من حكم "توت-عنخ-أمون" في التسامح عوضاً عن الاستهجان والإدانة. فلم يتعرض أي معبد من معابد *قرص – الشمس*" للإغلاق، ولم تُكشط بالأزاميل نقوشها ولم يواجه أعضاء الكهنوت فيها محنة التسريح من أعمالهم أو الذبح. كما لم تصدر بصورة مفاجئة مذكرة لعن ضد "أخناتون" أو "نفرتيتي" أو أولئك الذين ارتبطوا لسبب أو لآخر بهما. فالواقع أن عبادة "القرص" استمرت قائمة طيلة عشر سنوات كاملة، إن لم نقل مزدهرة في المراكز الدينية التي شهدت ولادتها : "طيبة" و"منف" و"أون".

و لكن إختلافاً شاسعاً وذا مغزى عميق قام الآن : لم يعد *قرص – الشمس*" الإله الواحد الأحد. إذ أصبح الأتقياء أحراراً مرة أخرى في ذكر أسماء الآلهة القديمة دون أن يخشوا عقاباً. وقاد الفرعون والملكة بنفسيهما المسيرة على هذا الدرب بإيماءة لا تخلو من فطنة في اتجاه إعادة الاعتبار : تحوّل "توت – عنخ – أتون"، وهو اسم الميلاد للفرعون ليصبح "توت – عنخ – أمون"، وفي نفس الوقت تحوّل اسم الملكة "عنخ – إس – إن – با – أتون" كي يغدو "عنخ – إس – إن – أمون".

جاء افتتاح المعابد القديمة وإعادة الاعتبار إلى المجمع الإلهي القديم كخطوة تستند علناً إلى المبدأ الذي يقول أن المحن التي تعرَّضت لها مصر إنما تنبع بشكل مباشر من تجاهلها لآلهتها، وتخلّي هذه الآلهة عن مصر. ويلخّص لنا المرسوم الذي أصدره "توت – عنخ – أمون" الأمر على النحو التالي :

(الآن صعد جلالته إلى العرش في وقت كانت فيه معابد الآلهة والإلهات من جزيرة "إليفانتين" جنوباً حتى مستنقعات الدلتا قد تهدّمت ودب الخراب في أضرحتها وتحوّلت إلى تلال تنهبها الحشائش الضارة. كما بدت وكأن أقداسها (جمع قدس)، لم يكن لها وجود في يوم من الأيام : تخللت المدقات صحونها. فلقد حلّت الكوارث بهذه البلاد : أدارت الآلهة ظهورها لها. وإذا حدث وأرسل الجيش إلى المشرق كي يوسع حدود مصر، فإنه لا يحقق نجاحاً. وإذا ما حدث وصلّى شخص لإله ما طالباً شيئاً منه، فإنه لا يتجلى له أبداً ؟ وإذا عنّ لشخص ما أن يتضرع لإلهة ما فإنها على نفس المنوال لا تتجلى له بحال من الأحوال. فلقد وهنت قلوب الآلهة في أجسادها، وذلك لأن الدمار كان قد لحق بما صنعوه" (٣)

ينتمي "الموتيف" في هذا المقتطف إلى مستوى التنظير الذي تكشف عنه "عصور الاضطراب"، ونعرفه نحن منذ غداة طرد الهكسوس إلى الأسر الليبية التي تولّت عرش مصر. فعلى نحو ما هو حادث هنا، وما يُضمر، في العادة، في شكل اجترار للماضي إزاء احتلال أجنبي للبلاد، يُرجع "الموتيف" في الغالب الحالة الراهنة للمجتمع إلى الصدع في العلاقات بين البشر والآلهة. وليس في وسعنا التوصل إلى بروتوكول أكثر ملاءمة للمرسوم الفرعوني. فالتغيُّر الذي دخل على السياسة يبدأ وينتهي باسترضاء الآلهة، والجهود الأولى التي بذلها "توت – عنخ – أمون" نحو استعادة الحالة السابقة كانت موجّهة، مما ينطوي على دلالة خاصة، نحو إعادة المعابد وعباداتها، التي كان حموه "أخناتون" قد أغلقها. إلاّ أنه لم يعد في الإمكان بعد الآن تجاهل الدور الاقتصادي للمعابد القومية :

الآن وعندما كان جلالته في قصره القائم في "بيت – عا – خبر – كا – رع" (تحوت – موسي الأول) مثل رع في السماء" *، فإنه كان معتاداً على إدارة شؤون البلاد بصفة يومية. وتعوّد جلالته على أن يستفتي قلبه في بحثه عن كل أنواع الأساليب الفعالة وتفتيشه عن الوسائل الناجعة (ليُفيد) والده "أمون"، (وعلى سبيل المثال) في صوغ تمثاله المهيب من الإلكتروم الخالص.

ولقد مضى في هذا الشأن ، إلى أبعد عما جرت عليه الأمور في الماضي، وصاغ والده "أمون" على قوائم خشبية يصل ارتفاعها ١٣ ذراعاً، فتمثاله المقدس

أصبح يصنع من الإلكتروم واللازورد والفيروز وأحجار كريمة نفيسة متعددة : والآن كان جلالة هذا الإله المهيب يُحمل في الماضي على قوائم خشبية لا يزيد ارتفاعها عن أحد عشر ذراعاً. فالتمثال المهيب لـ "بتاح – جنوبي – سوره" سيد حياة الأرضين المصنوع من الإلكتروم كان يُحمل على قوائم خشبية لا يتجاوز إرتفاعها ١١ ذراعاً" (٤) ويبدو أن استئناف العبادات وتجديد تماثيل "آبائه كافة الآلهة" كانا الشغل الشاغل لـ "توت – عنخ – أمون" طوال حكمه . ويوصف جلالته في نصوص مستقاة من مقبرته المشهورة على هذا النحو :

"*هو الذي شيّد الآثار التي انبثقت للتو لآبائه : كافة الآلهة، وهو الذي بنى معابدهم من جديد، وهو الذي نحت تماثيل العبادات من الإلكتروم، وسد النقص في تموينها من قرابين الخبز على الأرض*"

وعود على بدء، تعود النصوص التي وصلت إلى أيدينا من نفس المصدر، كي تصفه بأنه الذي *قضى حياته يصنع تماثيل الآلهة كي يعطيهم كل يوم البخور والصبيان والقرابين*" (٥) .

وبنفس الروح يقول أحد أتباع الملك الذين كلّفهم بترميم المعابد، ويُدعى "ماي": *لقد طهرّت مصر لاستقبال أسيادها (أي آلهتها) وكنت الناطق باسم الملك، الذي جلا صدأ الإهمال عن المعابد ونحت تماثيل الآلهة، وكنت ذلك الفرد الفريد الذي دخل إلى دوّار الذهب "* كي أهدّئ روع صورها أي التماثيل المقدسة*" (٦)

ومما ينطوي على أهمية كبرى ذلك التركيز على نحت تماثيل جديدة للعبادات. ويجدر بنا أن نعيد إلى الأذهان أن خطاب "أخناتون" الذي وصلت إلينا أجزاء منه خلال الشُّطف المستخرجة من الصرح العاشر أشار إلى كل من تماثيل الآلهة والدليل النموذجي لمستلزمات شعائر العبادات في فقرة تحمل نبرة مُحطّة بالشأن من كل بد. وينهض الهدف الذي توخّاه "توت – عنخ – أمون" على نحو ما هو واضح كرد عنيف على هذا الحط من شأن التماثيل والأيقونات على المستويين النظري والعملي في نفس الوقت. فلا بد أن يكون كثير من التماثيل قد تعرّض للنهب أو التدنيس (دون أن يصدر، بالضرورة، بذلك مرسوم رسمي) إذ يكفي أن يكون معروفاً أن تلك هي رغبة "أخناتون". ولا بد أن مرسوم التسامح الذي أصدره

"توت – عنخ – أمون "كشف الحاجة الماسة إلى أيقونات وتماثيل جديدة. وفي نفس الوقت جاءت سياسته بمثابة تأكيد قوي بأن الآلهة "تسكن" في الواقع، بمعنى من المعاني، في نسخ طبق الأصل، منحوتة لها، من الخشب والحجر والمعادن.

يشكّل حكم الفرعون الشاب "توت – عنخ – أمون" من مقره فاصلاً من السَّحَر بين التشدد الذي ساد خلال مرحلة تحطيم تماثيل الآلهة وبين التحوّل التام إلى تسامح التعددية، حيث تمتّع *قرص– الشمس*" بالتعايش مع الآلهة الأخرى. وهكذا فإن هذا العقد (السنوات العشر) قد أسفر عن غرائب من نوع تصوير الفرعون الذي كان لا يزال يحمل إسم "توت – عنخ – أتون" أثناء عبادته لـ "أمون" (٧)، أو مثل تلك النصوص القادمة من مصلّيات الصحراء التي تتاخم "أخيتاتون" التي تدعو فيها صيغة تقريب القرابين "أمون": "سيِّد السماء"، الذي خلق الأرض ... الواحد الأحد" (٨). ولم تستشعر شخصيات رفيعة ـ مثل "بين – بوي" أو "بتاح – ماي "ـ كانت تزهو بتقديم خدماتها في بيت *قرص–الشمس*"، بأي وخز للضمير أثناء الابتهال لـ"أمون" أو "بتاح" أو أي أرباب أخرى (٩).

وصار في طوع الفرعون أن يشير إلى "آبائه، كافة الآلهة" ويمزج بين رطان الوحدانية الذي عرفته "أخيتاتون" ولهجة التعددية في النقوش التي يحملها الأثاث الذي سيتبعه إلى المقبرة : *ابن أمون" ونسل كا – موت – إف"، ذاك الذي ربّته "موت" سيدة السماء وأرضعته لبن ثدييها، ذاك الذي خلقه رب الكرنك كي يحكم كل ما يحيط به قرص– الشمس"، مورِّثاً إياه عرش "جب" السادن الأمين لـ أتوم" ... صورة "رع" والابن البكر لـ قرص – الشمس" في السماء"* (١٠) .وقد تكون عبادة *قرص – الشمس*" قد هبط شأنها ، لكن بعض فرق الجيش العسكرية استمرت تضع "قرصاً" على دروعها، وتحمل مثل هذا الاسم : "الفرقة التي يحبها *قرص – الشمس*" (١١) وبينما عادت الحناجر تعلو بالترانيم التي تقصد وجه "أمون" من جديد، إلاّ أنها كانت قد اكتسبت، بلا شك، رنيناً "أتونياً" على هذا النحو :

أمون" هو الأول المقدس في مقر البينيين"، سيد السماء الباهر الزاهي، الذي تفيض أشعة شمسه على سائر البلاد، لك التحايا يا من تضيء في قرصك!"(١٢) .

بينما يصدمنا نحن المعاصرين التجاور جنباً إلى جنب بين بلاغة "قرص - *الشمس*" والعبارات التقليدية، إلاّ أن الأمر المستغرب حقاً كان إعادة الاعتبار لـ "أمون" والمجمع الإلهي القديم بصفة عامة. وقد يكون من الخطأ أن نتصوّر وجود حزب يدافع عن "مصالح مكتسبة" أي "كهنوت أموني" نسبة إلى "أمون" يتربص في الظلام، وهو يتميّز غيظاً، ضد عباد "أتون" الحسني الطوية. فلم يكن هناك رجال دين محترفون من ذلك القبيل في القرن الرابع عشر ق. م.، وكم من كاهن سابق في معبد "أمون" بالكرنك وجد نفسه مدفوعاً إلى أداء شعائر العبادة الجديدة. إلاّ أننا لا نستطيع أن نتجاهل المظاهر الاقتصادية ــ الاجتماعية في الموقف : كان لا بد لمعابد الآلهة أن تعود للعمل. ولما كان "أمون" بمثابة الهدف الأول للاضطهاد من جانب "أخناتون"، فإن "أمون" ملك الآلهة هو المرشّح لجني الشطر الأعظم من المكاسب، في التبدل الراهن في الحظوظ.

كثرت التعيينات الجديدة للمنصب الكهنوتية. وقامت هيئة هرمية الشكل لمعبد "أمون" إلى جانب هيئة أخرى من الموظفين العلمانيين (غير الكهنوتيين.م) للإشراف على ممتلكات هذا الإله. والواقع أن مثل هذا الحدب الملكي كان آخذاً في الكشف عن أبعاده في "طيبة"، حتى قيل أن الفرعون "توت - عنخ - أمون" (شيّد المدينة من جديد) .وإذا كان لنا أن نصدّق ما جاء في المرسوم الملكي، فلقد وقع اختيار كافة المعيّنين في مناصب الكهنوت من بين صفوف المواطنين حسني الصيت : *فلقد رسم (أي الملك) الكهنة والأنبياء العاديين من بين أبناء الأمراء المحليين، وكان كل منهم ابناً لأحد الأعيان ذائعي الصيت*"(١٣)

في نفس الوقت أشرف الفرعون على استعادة المعبد لعائداته بل والاستزادة منها في حالات كثيرة :

كافة رسوم المعابد ضوعفت، وزيدت ثلاثة أضعاف، وأربعة أضعاف، من الفضة والذهب واللازورد وسائر الأحجار الكريمة النفيسة، والكتان الملكي والتيل الأبيض والتيل الفاخر وزيت الزيتون والصمغ والدهن ... الخ. كما قام جلالته برسم عدد من العبيد والجواري والمغنيات والراقصات، مما كانوا يعملون في بيت الملك وتحمل القصر نفقاتهم أي خزانة سيّد الأرضين "

وبعبارة أخرى كان الفرعون يقوم، كعمل من أعمال التقوى والورع، بحل جمعية المترفين الذين أحاطوا بـ "أخناتون"، وكان يزوّد بهم أو ببعضهم، وعلى نفقته الخاصة، أجواق الغناء وفرق الرقص الشعائري التي تتبع المعابد. (١٤)

هناك ملمح آخر لحكم "توت – عنخ – أمون" اتضح أنه كان بشيراً بما سيحدث في المستقبل. فلقد عاد الفرعون الشاب مرة أخرى إلى غرس – بوعي كامل – صورة "الفرعون – البطل الرياضي"، تلك التي ظلت مركونة في الظل، إن لم نقل مستهجنة على طول الخط لخمسين سنة أو نحو ذلك. وكان "الفرعون – القوي البنيان" مشرباً بروح إمبراطورية، أي من ذلك النوع من الفراعنة الذين اختارهم "أمون" وبسط عليهم رعايته. وما كان في طوع فرعون، يسعى إلى عودة الحالة السابقة، أن يتجاهل ذلك. وكان الفرعون اليافع أكثر من شغوف بأداء هذا الدور. فنراه، في "موتيف" تقليدي، وقد خرج إلى البراري كي يصطاد على متن عجلاته، أو يطارد بعجلاته تلك ذاتها حشداً من الأعداء الذين يولون الفرار. فهل كان الجيش يعود مرة أخرى كي يطرح المثل الأعلى لإنجاز الرجال ؟

الفصل الثالث عشر

مصر و"خاتي": قصة الحرب والسلام

دبت عوامل عديدة في الأراضي الواقعة على مشارف المناطق الخاضعة لنفوذ مصر منذ اتضاح حقيقة حكم "أخناتون"، الذي جلب على بلاده النوائب .وكان أسلوب الحياة الأشبه بالأحلام في "أخيتاتون" قد جعل من العالم الخارجي يبدو بالنسبة للقدماء الذين يُعيشون بين حيطانها موغلاً في البعد ضارباً في أعماق الوهم، إلاّ أن المحزن حقاً أن كل ما كان في ذلك العالم كان موغلاً في القرب ضارباً في أعماق الصدق. وهذه الحقيقة هي التي استيقظ عليها "توت – عنخ – أمون" فجأة من النوم.

تمثّل الحدث السياسي الفريد الأشد أهمية الذي وقع بغرب آسيا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد في النصر الساحق الذي أحرزه الحيثيون بقيادة ملكهم "سوبيلوليوماس" على الميتانيين تحت ظل "توشراتا". فعلى إثر الزحف المظفّر لملك الحيثيين في سوريا، بدأت "ميتاني" في الانهيار: أغتيل "توشراتا "وتمزقت أسرته المالكة. وعندما انقشع الغبار كانت سهول أواسط بلاد الرافدين بأسرها قد غدت تشكّل فراغاً في القوة، تحده من الناحية الشمالية الغربية "قوة عظمي" هي "خاتي"، ومن الناحية الشرقية دولة "أشور" التي كانت قد تحررت قبل قليل. واستمرت تتشبث بالبقاء إمارة "ميتاني" التي دب فيها الضعف إلى حد كبير بين نهريْ "خابور" و"الفرات"، لكنها كانت خاضعة تماماً لـ "خاتي". وفي هذه الأثناء هرب "شاتيوزا"، وهو أحد أبناء "توشراتا" الذين بقوا على قيد الحياة بعد مقتل والده .وبعد طول تجوال توجه إلى "خاتو ساس" *، ثم عاد كربيب للملك الأكبر إلى "واسو كاني" *، حيث حكم كدمية في أيدي الحيثيين. واستولت دولة "خانيجالبات" التي تحكمها شظية من شظايا أسرة "توشراتا"، قد تكون فرعاً ينتمي إلى ابن أخيه . وسعى هؤلاء الملوك إلى ممالأة "أشور". ولكنهم وجدوا أنفسهم حين ذاك يخضعون بصورة متزايدة لسيطرتها .وأسفرت النتيجة عن مواجهة، على

امتداد حدود متذبذبة، تسير إلى هذا الحد أو ذاك، بالقرب من نهر "خـــابور" بيـن المناطق التي تصطرع فيها المصالح الحيثية وتلك الآشورية. (١)

لم يكن من المستغرب أبداً أن ترى مصر، والحالة هذه، مصالحها متماثلـــة مع مصالح "أشور" فــ "خاتي"، فضلاً عن ذلك، هي التــي مســحت إمبراطوريــة "توشراتا" عن وجه الخريطة، وهو الأمر الذي عرّض للخطر، في حد ذاته، الحليف الوثيق لــ "ميتاني" أي مصر .ولا ينطوي على أهمية تُذكر، في هـــذا الصــدد، أن يكون "سوبيلوليوماس" قد تجنّب، على نحو دقيق، خلال زحفه في ســوريا الــدول التي يرتبط حكامها بالتبعية للفرعون : إلاّ أن صهر فرعون مصر هوجم وأنزلـــت به الهزيمة ثم قُتل .ولم يعد في طوع مصر إلاّ أن ترى في "خاتي" عــدواً. (شــكل رقم ٢)

لعل من المرجح ألاّ يتوصّل أحد إلى معرفة إلى أي حد، كانت يدا "تــوت – عنخ – أمون" طليقة، وسط ذلك الخضم الدولي الناجم عن كل ذلــك، فــي تشــكيل السياسة الخارجية لبلاده وقت ذاك. حقاً كان "آي" شخصية بــارزة فــي الحكومــة الداخلية، ولعله كان يملك بصفته رجـــلاً عســكرياً رأيـــاً مســموعاً فــي وضــع الإستراتيجية المصرية. لكنني لا أستطيع التوسّل إلاّ بالحاسة السادسة، إذا ارتـــأيت أن "توت – عنخ – أمون" سرعان ما استقل برأيه بعد أن ابتعد عن "أخيناتون". ففي الحملة السورية التي كان على وشك الانطلاق بـــها، يســتطيع المــرء أن يقــف، بسهولة، على عقل وروح شاب في مقتبل العمـــر، حيــي وواعٍ بجــذوره، يريــد باستبسال أن يرتفع إلى المثل الأعلى الذي وضعه أسلافه الأولون.

كان "أشور – أوبالت" الأول أقدم معاصرة بدرجة بسيطة من الفرعـــــون "توت – عنخ – أمون"، إذ صعد إلى عرش بلاده "أشور" في الأيام الأخيرة من حكم "أخناتون"، بما لا يسمح له إلاّ بالبدء، وحسب، في التراسل معـــه. وتشــير إحــدى رسائله التي نجت من عوادي الدهر في خبيئة "أخيناتون" إلى رغبتـــه فــي إقامــة علاقات طيبة مع مصر.وبصرف النظر عما إذا كان العمر قد أمهل "أخناتون" كــي يرد عليه، فإن الفرعون "توت – عنخ – أمون" قــد رحــب، بكــل تــأكيد، بــهذا العرض.(٢) وما تلي ذلك يحمل من ألفه ليائه كافة علامات التنسيق في العمل الــذي

جرى الاتفاق عليه بصورة مسبقة بين الطرفين .ولقد انطوت الإستراتيجية على شن هجوم واحد على محورين : كانت "أشور" لتضرب في الغرب عبر نهر الفـــرات، في حين تهاجم مصر من الجنوب عند أسافل نهر العاصي. ولو نجحت هذه الخطة، لكانت قد خلّصت سوريا بأسرها من قبضة الحيثيين. ولكن لسوء حظ مصـــــر لـــم يحالف النجاح هذه المغامرة الجسورة. ولو أن الأمور بدت في البداية وكأنها تســير على خير ما يرام. فلم تجد القوات الآشورية أي صعوبة في عبور نـــهر الفــرات، ونجحت خلال المباغتة التي انطوى عليها هجومها، في تضييق الخناق على الحـاكم الحيثي لسوريا في مقره. وفي نفس الوقت عَبَر الجيش المصري الحدود المعـــترف بها لإمبراطوريته في أعالي نهر العاصي، وشق طريقه نحـــــو "قــــادش" (إلهـة الانتقام القديمة) وكانت "قادش" دولة تابعـــــة للملك الميتاني "توشراتا" في أواخــــر حكمه، إلاّ أنها وقعت تحت سيطرة "سوبيلوليوماس" خلال حملتـــه الكـبرى علـــى سوريا، وهو الأمر الذي فت في عضد المصريين الذين وطّنوا النفـــس باســتمرار على أن تكون هذه المدينة الإستراتيجية داخل نطاق سيطرتهم أو في أقـــل تقديـــر، تحت سيطرة قوة صديقة. وسرعان ما تقهقرت قوات "قادش". وفرض المصريـــون حصارهم على المدينة. (٣)

بوغت الحيثيون، بصورة جلية، بالهجوم. وكان "ســـوبيلوليوماس" منخرطـــاً بشخصه في عملية تأديبية في الربع القصي لآسيا الصغيرة أو الصغرى عندما وقـــع الهجوم. ولم يكن بوسعه أن يتصدى شخصياً للأمر. لكنـــه تصـــرف علـــى وجـــه السرعة. فأرسل من فوره قوتين، قامت إحداهما بهجوم مضاد للتغلغل الآشـــوري، وتوجّهت الأخرى لتخفيف الضغط على "قادش". وجوبه الآشوريون واضطروا إلـــى التقهقر مرة أخرى عبر نهـــر الفرات، بينما رفـــــع المصريون حصارهم لـــــ "قادش" على أثر سماعهم، على ما يبدو، أنباء الزحف الحيثي، وانسحبوا جنوبـــاً. إلاّ أن القوات الحيثية رفضت التوقف عند "قادش" في أعقاب انســـحاب المصريـــين. وعبرت، في واحدة من مثل هذه المناسبات القليلة في تاريخ العلاقات المصريــــة – الحيثية. وهاجمت مدن دويلة "إمكي" عند منابع نهر العاصي التي تشكل جـــزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية المصرية .وبعد فترة سادها الالتباس، وإن كانت قصـــيرة،

شن الحيثيون هجوماً آخر على "إمكي"، وبلغ الأمر حد نقل أسرى مصريين إلى "خاتي". (٤)

لزمت المصادر المصرية الصمت إزاء هذه النكسات الخطيرة. والمعلومات المتوفرة عندنا في هذا الصدد مستقاة بالكامل، من الأراشيف الحيثية. غير أن الحملة صُوِّرت عند عودتها إلى أرض الوطن على أن النجاح قد حالفها. وتظهر كتل "التلاتات" التي نجت من عوادي الظروف، أجزاء من مناظر تصوِّر العجلات الحربية المصرية وهي تطأ على جثث الجنود الحيثيين الذين يرتدون الخوذ على رؤوسهم. كما تصوِّر مدينة أسيوية (قادش ؟) أثناء تعرُّضها للهجوم. ونجد على الواجهة الجنوبية للصرح الضخم في الكرنك، وهو العاشر في العد النموذجي للصروح، ويزيِّنه تمثال عملاق للفرعون "أمين – حوتب" الثالث، منظوراً تقليدياً لضرب العنق مصحوباً بالشرح الملازم لمثل هذه المناظر من الأشكال البيضاوية المرصوصة رأسياً تحتوي أسماء الأماكن "المقهورة"، ويعلو كل منها جذع أسير أسيوي يرسف في قيوده. إلاّ أن معظم أسماء المدن عمومية الطابع : "ريتينوالعليا"، "ريتينو السفلى" و"حاونبو" الإيجية. إلاّ أن أحد هذه الأماكن، وهو "تاخسي" يشير إلى ضاحية تقع شمال غربي "دمشق"، لا بد وأن يكون الجيش المصري قد مر بها في طريقه إلى "قادش". (٥)

يبدو واضحاً أن الأجل وافى "توت– عنخ – أمون" بعد وقت قصير من عودة الجيش المصري من سوريا.وتسجِّل الحوليات الحيثية هجمات الحيثيين، وتصوِّرالمصريين وقد دب بينهم الهلع من جراء المأساة المزدوجة التي حلَّت بهم بالهزيمة العسكرية وفقدان زعيمهم .وقد ألمح البعض إلى أن الأمر انطوى على لعبة قذرة، ورغم أن ذلك ليس مستبعداً، إلاّ أننا لا نملك دليلاً من أي نوع على مثل هذا الزعم.

يصعب علينا للغاية أن نقيِّم بإنصاف حكم "توت – عنخ – أمون". فلقد صادف هذا الحكم محنة مزدوجة بمجيئه، على وجه التقريب، في أعقاب أكثر شخصيات التاريخ المصري إثارة للجدل، وبرحيله المفاجئ، في ريعان العمر. وعلاوة على ذلك بهرنا الغنى الذي يكاد يُذهب العقل لمقبرة التي لم تمسها أيدي

العابثين إلى حد يستعصي علينا أن ننظر إليه كابن إنس مثلنا. كما عــرّض ذلــك الغنى الباهر رؤيتنا له لتشويه بالغ على نحو ما هو واضح، حتى أن بعضنــا بــدا مستعداً لتصديق كل ما يقال عنه، من أنه كان، في الحقيقة أسود اللــون أو ســكيراً يعاني مشاكل عويصة أو من ذلك النوع الذي يستطيع إنزال لعنة الفراعنة على كـل من ينتهك حرمة مقبرته. ولنقلها مرة واحدة وليسمعها الجميع : مثل هذه الأفكــار، أياً من كان الذي يفصح عنها، أو أياً ما كان المقال أو الكتاب الذي يقبلها بـإجلال لا تستحقه، ليست سوى محض هراء لا يؤيده أضعف دليل تحت أيدينا. والحقيقــة أن الفرعون "توت – عنخ – أمون" كان شاباً صغير السن، وربما كان، علــى وجــه الاحتمال، مأخوذاً بما حوله بعض الشيء .ولما كانت ولادته قد جاءت في عالم كان تحطيم تماثيل الآلهة على أيدي "المارق" قائماً بالفعل على قدم وســاق، فلــم يــر، بصورة مباشرة، مصر التقليدية التي تقوم عباداتــها علــى التعددية أو القواعـد المحافظة للتعبير الفني. كما حرّمه الموت المبكر من إمكانية الكشف عما كان فــي طوعه أن يفعل فيما لو واتته الفرصة. غير أن السياسات الجنينية التي نرصدها له، تشي ببرنامج ليس سيئ التصوّر، رغم ما أبتلي به من مشورة طائشة. فلربما تفـوّق عليه، في قيادة المعارك خصم أكبر سناً وأعمق خبرة، لكنه كان لا يزال قادراً فــي الداخل على السيطرة على القوى العاملة وامتلاك المهارة التنظيمية لتشييد الآثــار الضخمة التي يحفها الجلال.

ومن المؤسف أن جلالته لم يكن له وريث يستطيع أن يسلم إليه زمام الحكـم. فالسليل الذي نعرفه هي "عنخ – إس – إن – با – أتون" الصغيرة، التي رحلت إلـى العالم السفلي في ميعة الصبا. ولم يكن هناك قريب آخر من أي نوع حتى ولو كـان بعيداً، من العائلة المالكة قد استمر على ما يبدو، على قيد الحياة. وبرحيلــه كـان هناك ثلاثة ورثة كبار أمام العرش هم : "عنخ – إس – إن – أمون"، أرملته التي لا يزيد عمرها عن إثنتين وعشرين سنة، والعجوز "آي"، وجنرال شاب واعــد فــي شمال البلاد يدعى "حور – إم – حب". كنا قد أشرنا في وقت سابق إلــى أن "آي" كان قد اعتصر من الفرعون "توت – عنخ – أمــون"، وأثنــاء حياتــه، منصــب الوزير و"الابن البكر للفرعون"، فيما يعد إشارة أمينة إلى أن جلالته اعترف، طوعاً

أو كرهاً، بمستشاره كوريث له. وبدأ الفرعون "توت - عنخ- أمون" و"آي" يبذلان جهوداً منسّقة في تشييد المباني، أحدها صالة الأعمدة في معبد "أمون"، وهو المعبد الذي تشهد على وجوده الأغربة (جمع غرابة وهي حلية معمارية. م) التي وعاها لنا الدهر. (اللوحتان ١٢-١، ١٣- ١). وتصوِّر بعض المناظر "آي" واقفاً بسيماء الحكيم الحصيف خلف الفرعون "توت- عنخ - أمون"، وهو شرف عظيم لشخص بسيط. (٦)

لم يكن هناك صراع ظاهر على الحكم عند رحيل الفرعون "توت- عنخ - أمون". فلقد صعد "آي" إلى العرش دون منازع. وقد صوَّرته الجداريات وهو يؤدي مراسم الدفن في جنازة الفرعون المتوفى. كما استمر برنامج البناء المشترك في الكرنك والأقصر .ووضعت الخطط لتشييد نصب تذكارية أخرى في سائر أنحاء البلاد. وقد نحت أحد هذه النصب، على هيئة صادود ومزار، في أعلى الصخور الجبلية الشرقية في وادي النيل شمالي مدينة "أخميم" مباشرة، بما لا يبعد كثيراً على وجه الظن، عن المدينة التي شهدت مسقط رأس "آي". وباختصار لا تشي المناظر الملكية التقليدية المقولبة بأي دليل، أيا ما كان، على أن شيئاً لم يكن يسير على ما يرام في البلاط الملكي.

لكن الحوليات الحيثية التي تنم عن يقظة تامة تشي، بكل تأكيد .ويتضح من النتائج اللاحقة أن "عنخ -إس - إن - أمون" التي سارت خلف زوجها الشاب حتى مقبرته ووقفت ترقب "آي" وهو يغتصب دور صاحب المأتم لم تقبل التشكيل الجديد لسدة الحكم .ورغم تولي "آي" بصورة رسمية مقاليد الحكم الفرعوني، إلاّ أنه لم يبد على الملكة الثكلى أن تكون قد تعرَّضت للتهميش. فلقد استمرت تتمتَّع بقدر معيَّن من الحرية في تصرفاتها. والحقيقة أن فنون الخطوط (الكتابة والرسم على وجه الخصوص) جمعت، على المستوى الرسمي وحده، في ذلك الوقت، حتى بينها وبين "آي" بصفتها قرينته. لكنه "جَمْع" يخذله التفاوت الواسع في عمريهما، بما يصل إلى أربعين سنة. ولا ينهض عندنا أي شك في أن الملكة الشابة "عنخ -إس - إن - أمون" لم تكن ذات نفع كبيرلـ"آي". ويبدو أنها، لهذا، أقامت في "منف" بعيداً عن "آي" الذي كان مشغولاً، على ما يبدو، بمجريات الأمور في "طيبة" (وهذه

فرضية تفسر بصورة أيسر قدرتها على التصرف بشـــكل مســتقل). ولعلـــه مـــن الواضح أن "عنخ – إس – إن – أمون" لم تقطع الأمل، على نحو من الأنحاء فـــي الوصول إلى السلطة السياسية التي كانت تستشعر أنها حق من حقوقها. لكنها كـانت في ذلك الوقت تفتقر إلى حزب من الأنصار في بلادها. فلقد فقدت الثقـــة، بشـــكل كامل، في الأسرة المالكة التي تنتمي إليها. وما كان في طـــوع أي مســـاندة إلا أن تأتيها من الخارج.

حضر الملك العظيم "سوبيلوليوماس" إلى سوريا، غداة الهزيمة التي أنزلتـــها قواته المظفرة بالآشوريين والمصريين وإجبارها إياهم على التراجع، كـــي يتفقـــد ميدان المعركة .وكانت مدينة واحدة قد واصلت صمودها في وجه الحيثييـــن، تلـــك التي تضم قلعة "كاركميش" على نهـــــــــر الفرات، وهي المدينة التي ســـارع "سوبلويلو ليوماس" إلى فرض الحصار عليها. وبينما كانت المدينة تحت الحصـــار وصل رسول مصري بمفرده إلى معسكر الحيثيين. كيف استطاع أن ينسل خارجـــاً من مصر، أو يجتاز مصاعب ذلك الطريق الطويل الذي يمـــر عـــبر الأراضـــي الخطرة، وأحيانا المعادية التي تمتد من "غزة" إلى الفرات، أمر ظل مجهولا. إلا أنه وصل إلى المعسكر حاملا رسالة من "ملكة مصر" إلى ملـــك الحيثييـــن، تجـــري سطورها، كما هو مسجل في الحوليات الحيثية، على النحو التالي :

"زوجي وافاه الأجل. وأنا لم أنجب. لكنهم يقولون أن لك أبناء عديدين. فـــهل لك أن تمنحني واحدا منهم كي أتخذه لي زوجا. فلن يحدث بالمرة أن ألتقط رجـــلا من رعاياي وأرفعه إلى منزلة زوج لي ... إن الخوف يحاصرني "

ولعل هذه اللمحة الصريحة عن واقع الوضـــع السياسي في مصر قد هـــالت "سوبيلوليوماس" بنفس القدر الذي تهولنا به الآن. فعلى حين غـــرة نجـــد الصـــورة التقليدية لفرعون مصر، كسيد بلا منازع له، على نفسه وعلى العالم بأســـره وقـــد انهارت. كما نلحظ، بشكل عابر، بلاطا دب فيـــه الانقســـام، ويغـــص بأشـــخاص مذعورين يقفون بأنفسهم على نقط ضعفهم. وتخبرنا الحوليات الحيثية، التي وضعها "مورسيليس" الثاني ابن "سوبيلوليوماس"، أن ملك الحيثيين قال فـــور تلقيـــه تلـــك الرسالة :

لم يحدث أن سمعت بمثل ذلك طوال عمري ! (٧)

إلاّ أن "سوبيلوليوماس" كان من الفطنة بما يحول بينه وبين القفز فوراً إلى اغتنام هذه الفرصة، ومن سعة الخيال بما لا يجعله يترك هذه البادرة تفلت من يده. وبناء عليه أرسل سفيراً له إلى مصر كي يستطلع الأمر. وكان في مقدور "عنخ – إس – إن – أمون"، وكما يشير المجرى اللاحق للأحداث، أن تكرم وفادة السفير وأن تترك عنده إنطباعاً عظيماً، خصوصاً وأن الرجل لم يكن عنده، على نحو ما هو واضح، أي فكرة عن اعتلاء "آي" عرش البلاد وقت ذاك. فلو كانت هناك أي علامة على تولي "آي" الملك أو على وجود "آي" نفسه، لما عاد المبعوث إلى سيده بمثل ذلك التقرير المشجّع للغاية .وعود على بدء لا نجد في جعبتنا فرضية تفسّر بشكل كامل هذه الحقائق سوى تلك التي تذهب إلى أن "آي" كان مشغولاً، وكان موجوداً بشخصه في الوجه القبلي طوال السنة الأولى لحكمه. بينما اتخذت "عنخ – إن – إس – أمون" مقر إقامتها، كنائبة للفرعون في "منف".

تشكك "سوبيلوليوماس"، بكل جلاء، في العرض الذي طرحته الملكة المصرية. وأفصح شفوياً عن مخافة الخديعة إلى سفيره قبل إيفاده إلى مصر. وعندما عاد السفير إلى وطنه في ربيع السنة التالية، بعد أن نقل، بأمانة، إلى "عنخ – إس – إن – أمون" هواجس سيّده، كان بصحبته سفير مصري مطلق التفويض يسمّى "حانيا"، وفي جيبه رسالة شكمة :

لماذا عنّ لك أن تقول : قد يخدعونني" على ذلك النحو ؟ هل لو كان لي ابن، كنت كتبت عما يشينني ويشين بلادي إلى بلد أجنبي ؟ أنت لا تصدقني ... ذاك الذي كان زوجاً لي وافاه الأجل. وليس لي ابن، ولن أرفع خادماً من خدمي كي أتخذه لي زوجاً. ولم أكتب إلى أي بلد آخر ... فامنحني ولداً من أولادك، فسوف يكون لي زوجاً، وفي مصر سيكون ملكاً "

ولم يكن في طوع "سوبيلوليوماس" أن يدع فرصة امتهان المبعوث المصري تفلت من يده. فأخرج نسخة من المعاهدة التي أبرمها مع مصر، ولا بد أنه كان يتشفى وهو يشير لـ "حانيا" كيف أن المصريين وليس هو، الذين نقضوا بنودها :

"من جانبي كنت صديقاً، ولكنكم أسأتم إليّ على حين غرة. فلقد جئتم

وهاجمتم رجلي" أي الملك أو الحاكم) في "قادش" التي انتزعتها من ملك الحوريين (أي "توشراتا"، ملك "ميتاني") إلاّ أن "سوبيلوليوماس" وبعد أن أطلق هذه الطلقة الفارسية (طلقة الانسحاب. م) نزل عند رغبة "عنخ – إس – إن – أمون"، وأرسل أحد أبنائه ويُدعى "زيدانزا" إلى مصر. (٨)

تركز الأحداث التي تتسم بالاضطراب خلال السنوات اللاحقة على شخصية الجنرال "حور – إم – حب" (أي حور أو صقر الحبناوي.م) الذي يعد من أشد الذين ساسوا الحكم ببراعة فائقة في المملكة الحديثة إلغازاً. كما يعتبر الرجل الذي وقعت على كاهله مسؤولية إنهاء، مرة وللأبد، تلك المحاولات إلي بذلها عضو الأسرة الثانية عشرة الذي بقي على قيد الحياة نحو إنقاذ الموقف. ولكن لم يصلنا أي نص كي يخبرنا بشيء عن السنوات الأولى من حياة "حور – إم – حب" هذا، ولا حتى عن مسقط رأسه إلاّ أن اسمه الذي يدخل في بنائه اسم "حوريس"، ذلك الإله الصقر دفع البعض إلى الالتفات إلى المديرية السادسة عشرة حيث كان "حوريس حبنو" إلهاً محلياً. غير أن ذلك لا يعدو كونه تخميناً. وهناك شك عميق فيما إذا كان "حور– إم – حب" قد زار "أخيتاتون"، ولو مرة واحدة في حياته. ولو أن هناك من يقول بأن أسمه في "أخيتاتون" كان "با– أتون – إم – حب" (ومن هنا أصبح "حور – إم – حب" بعد نبذ عبادة *قرص– الشمس*" في وقت لاحق". جرى انتقاء حامل هذا الاسم من مقبرة "أخيتاتون" رقم ٢٤ بصفته "حور– إم – حب" الشاب. ومع ذلك يكشف هذا اللقب "با–أتون – إم – حب" أنه لنبيل آخر، مختلف تمام الاختلاف. (٩)

تأتي أقدم معلومات، لا لبس فيها، عن "حور– إم – حب" من المقبرة الرائعة التي شيَّدها في الجبانة المنفية (نسبة إلى "منف") في سقارة غير أن تحطيمها خلال القرن الماضي كي يوفِّر الحطام كسراً من الجداريات الفاتنة يحتفظ بها جامعو التحف، أدى إلى تناثر أكثر القطع المزخرفة التي ترجع إلى هذه المقبرة الرائعة في رقعة تمتد من نيويورك بالولايات المتحدة إلى برلين في ألمانيا .ولقد نجحت عمليات التنقيب التي قامت بها "جمعية استكشاف مصر"، تحت إدارة د. جوفري مارتن، خلال السنوات القليلة الماضية، في إعادة تعيين أماكن ما تبقى من تلك الكسر في الموقع الأصلي، كما زوَّدتنا بمناظر جدارية إضافية. (١٠) وإستناداً إلى

أسلوب الزخرفة، نقول أن تاريخ المقبرة إنما يرجع إلى أواخر حكم "تـوت – عنخ – أمون". ولقد استمرت عملية الزخرفة فيها خلال حكم "آي"، عندما جاء أحد رجال البلاط كي يدفن (وكان في الأربعينات من عمره) قرب المقر "المنفي". كون إطلاق لقب "ولي العهد" بالفعل على "حور – إم – حب" في هذه المقبرة : "إيوري – باعت" يؤيد بقوة، أن تكون الزخرفة قد جرت في العصر الذهبي لـ "آي" رغم أن بعض الأحداث التي تصورها المناظر قد تعود إلى وقت أسبق).

تلوح أمام أعيننا، خلال الأدلة المستقاة من هذه المقبرة، الصورة التالية لحياة "حور– إم – حب": في أواسط حكم الفرعون : "توت – عنخ – أمون" على وجه التقريب قفز "حور – إم – حبب" إلى مركز الصدارة بتوليه مركزا مرموقا في شمال مصر. وتشي ألقابه بحصوله على تدريب عسكري، فهو"القائم مقام الملكي" (وأحيانا "قائم مقام البلاد بأسرها")، كما كان يتولى مسؤولية البلدان الأجنبية. ويبدو على وجه الترجيح أن "حور – إم – حب" هو القائد الذي اختاره "توت – عنخ – أمون" ليسير على رأس حملة تأديبية إلى النوبة، كي تتزامن مع تعيين مندوب سامٍ (نائب للملك) جديد لمصر في الأراضي الجنوبية يدعى "حوي". وتكشف مقبرة هذا المندوب السامي، في أسلوب فني أعمق تقليدية عن منظر تقلُّده المنصب وقافلة السفن السعيدة التي تصعد بالمندوب السامي الجديد جنوباً إلى مقر إدارته. ولكن حيوية و"طبيعية" الأسلوب الفني لعصر "أخيتاتون" المتأخر الذي زُخرفت خلاله مقبرة الفرعون "حور – إم – حب"، هما اللتان تنقلان إلينا، بصورة أدق، روح المناسبة. ويصف النص الذي تحمله إحدى الكتل المنهوبة من مقبرة "منف" تلك، "حور – إم – حب" باعتباره موفداً كرسول ملكي إلى أطراف الأراضي التي ينيرها *قرص-الشمس*". وعندما عاد من هناك أقيم احتفال كبير لاستقباله ... فما من بلد يستطيع الوقوف في وجهه، فلقد فتحها (أي البلاد) فيما لا يزيد عن لحظة واحدة. وبعد ذلك أبحر نحو الشمال. وعندما تجلَّى جلالته (شخصياً) على عرشه كي يستقبل الجزية، وبينما أحضر

الخدم جزية الجنوب وجزية الشمال، كان ولي العهد "حور - إم - حب" واقفاً بجوار العرش، شاكراً الإله، فجلالته ... (١١) وتعلي الجداريات من شأن هذه المغامرة النوبية، التي لا تزيد في سائر الأحوال عن حملة تأديبية صغيرة أو حتى غارة بوليسية. كما تُظهر الجداريات الأسرى جالسين بخنوع في صفوف، ويسحبون إلى الأمام أو يُضربون .ويبدو أن الإحباط الناجم عن سنوات الهزيمة قد أفصح عن نفسه خلال صيغة الانغماس في القسوة التي وجدت نحَّاتاً مجهولاً، على درجة من التأهب والصدق توازي ما تصادفه جرائم الحرب الحديثة عند المحرر ـ المصوِّر.

يظهر "حور - إم - حب" بعد ذلك كـ "المشرف الأول على الجيش"، وهذه رتبة توازي عندنا رتبة "الفيلدمارشال" أو "الجنرال الذي يضع على كتفه خمس نجوم".وتصوِّره الجداريات في احتفال باهر، تعيد إلى الأذهان أيام"أخيناتون" التي اتسمت بالبذخ والإسراف، فالقلادات الذهبية تزيِّن صدره، أثناء تقديمه لأسراه إلى جلالته. ويتساءل المرء عما إذا كان هو الذي قاد، بالتنسيق مع "أمين - موني"، وهو "فيلد مارشال" آخر في ذلك العصر، الهجوم الفاشل على "قادش". فمقبرتا الرجلين، كلتاهما، في منطقة "منف" تصوِّران أسرى أسيويين نُقلوا إلى مصر، إلاّ أن جداريات "حور - إم - حب" تتميَّز بتصوير مجموعة من الأمراء السوريين المستسلمين، وإن علت ملامحهم سيماء الحنق.

لم يكن لـ "آي" ولد من صلبه (على قيد الحياة ؟). وكان من المتوقع على وجه التقريب أن يقع اختياره في هذا الشأن على "حور - إم - حب"، فكل منهما ينتمي إلى نفس المؤسسة العسكرية. ولم يكن "حور - إم - حب" ملوثاً بالمروق الذي عرفته "أخيناتون". كما كان نشطاً واسع الخيال وملتزماً، بالإضافة إلى أن قلبه كان مفعماً، على نحو ما هو واضح، بالمصلحة العمومية للبلاد. ويشير تعيين "حور - إم - حب"، كولي للعهد ـ وسواء حدث ذلك في ذلك الوقت أو بعد "فضيحة زيدانزا" ـ إلى تغيُّر دخل على الشؤون الداخلية لمصر : كان الجيش قد استولى على العرش. وما كان لسليل ينتمي لعائلة التحامسة العظيمة، أي الأسرة الثامنة عشرة أن يجلس مرة أخرى على عرش مصر. فلقد صمم الجيش وقت ذاك،

على أثر الإحباط الناجم عن فشل أبناء تلك العائلة في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية، على إحكام سيطرته على المؤسسة السياسية. وحتى الكهنة أصبحوا يُختارون، في بعض الأحيان، من بين العسكريين !

كان هذا هو محور السلطة الذي قابل زمرة الحيثيين التي لا تُكِن إرتياباً، عند إقترابها من الحدود المصرية، وهي تصاحب "زيدانزا" إلى زفافه المرتقب : فرعون عجوز، كان قد وصل إلى علمه وقت ذاك، بكل تأكيد، ما كان يجري على قدم وساق، ورجل عسكري قوي كامن في الظل. وكان ما حدث بعد ذلك عملاً من أعمال السيادة أذن به أعلى أمين على السلطة الشرعية في البلاد، أي فرعون مصر ذاته. ولكننا لا نعرف بأي حال من الأحوال ما إذا كان لـ "حور – إم – حب" ضلع مباشر حقاً في الأمر: أُغتيل "زيدانزا" في اللحظة التي وطأت فيها قدماه أرض مصر. أما "عنخ – إس – إن – أمون" فاختفت. **

نستطيع بسهولة أن نخمّن ما نجم عن ذلك من ردود فعل : استشاط ملك الحيثيين "سوبيلوليوماس" غضباً عندما وصلته أنباء اغتيال "زيدانزا". وأخذ يعد العدة من فوره لعمل عسكري. وهاجمت القوات الحيثية مرة أخري الحدود على حين غرة عند سهول لبنان، وعاثت تخريباً في مدن "إمكي". ولا توفّر لنا مصادرنا سوى صورة مضطربة ومليئة بالثغرات للقتال. ولكن الحيثيين اشتبكوا، فيما يبدو واضحاً مع الجيش المصري، وأخذ الجانبان أسرى، كل من الآخر. إلاّ أن الأعمال الحربية أخذت تخبو بصفة تدريجية. وانفض الجانبان دون أن يتوصّلا إلى نتيجة حاسمة .وكف الحيثيون عن مزيد من التورط جنوباً إلى أبعد من أعالي نهر العاصي، ليس بسبب بعد المسافة بالدرجة الأولي، ولكن نتيجة للوجود المصري في هذه الأصقاع من جانب والمشاكل السياسية الملحة قرب حدودهم من جانب آخر. فبالنسبة للحيثيين كانت قبائل "الكاسكا" شمالي عاصمتهم، ومملكة "أروازا" إلى الغرب، وبلاد "الحوريين" إلى الشرق تحتاج منهم إلى يقظة أشد، فضلاً عن كونها أكثر نفعاً لهم من سوريا في الجنوب. أضف إلى كل

هذه العوامل الجغرافية والسياسية، "سوبيلوليوماس" نفسه الذي كان قد طعن في السن .وليس هناك كثير من العجب لإحجام الحيثيين عن محاولة فرض حل معين .وحصلت مصر على فسحة قصيرة من أعمال الحرب وعلى استراحة من التشوش والارتباك .وصار في وسع "آي" أن يقول أنه ارتفع إلى مستوى الجدارة باسمه الحوري : "قاهر الأسيويين". وصار في طوع قواده أن يعرضوا، بفخر مناظر لمعاركهم في مقابرهم دون أن يخشوا الوقوع في تناقض.

الفصل الرابع عشر
خاتمة

في نهاية المطاف رحل الفرعون "آي" العجوز بعد عدة شهور وحسب موت على بدء سنته الرابعة في عرش مصر. وكان قد نحت لنفسه مقبرة في الصخر الحي قرب مقبرة الفرعون "أمين – حوتب" الثالث، في وادٍ جانبي مجاور لوادي الملوك في "طيبة". وهذا هو الوادي الذي احتله، على وجه الحدس، في موته، بالقرب للغاية من الرجل الذي قد يكون صهره (زوج أخته الملكة "تي"). ولعله من الغريب حقاً أن المقبرة كانت مزخرفة، ضمن زخارف أخرى، بمنظر لملك يصيد الطيور البرية في البرك، وهو "موتيف" مماثل في روحه للذخائر الفنية "الدنيوية" والأحرى العلمانية في فترة الازدهار التي عرفتها "أخيتاتون". ولكن هذه كانت بمثابة القهقة الأخيرة للروح المعادية للعبادات المتعددة التي تبناها محطم تماثيل الآلهة : وكان الوريث الجديد للعرش خالي الذهن سواء عن "أخناتون" أو حركته.

المصلح

"حورس. الثور الجبار : المتأهب بتدابيره. صفي السيدتين عظيم الروائع في الكرنك. ملك مصر العليا ومصر السفلى"، "زوسر – خبرو – رع"، قاضي الحق، من اختاره "رع" وابن "رع"، "حور – إم – حب". هذا هو وريث المملكة، وهذه هي الألقاب التي أذاع بها أوراق اعتماده، وخططه وطموحاته.

ولم يكن هناك منازع : لم يكن المطالبون بالعرش الذين بقوا على قيد الحياة من سلالة التحامسة، ليأمل أي منهم في الفوز. وكانت الحروب قد وضعت، في ذلك الوقت، أوزارها : انشغل الحيثيون بجبهات أخرى .وفي سائر الأحوال وقعت بلادهم فريسة لجائحة الطاعون. وأصبح في وسع الفرعون "حور – إم – حب" ورفاقه من العسكريين الذين يشاطرونه أفكاره أن يمضوا قدماً في مهمتهم نحو

إعادة الأمن والنظام إلى الدولة.

يعد الفرعون "حور – إم – حب" الشخصية الأولى، بلا منازع، على مسرح الأحداث التي شهدتها هذه الفترة. لكنه عانى من إعلام سيئ لاحقه بالتشويه. فلقد أثقلت استوديوهات "هوليوود" والكتابات الرخيصة كاهله، دون وجه حق، سواء بصورة الفاجومي الجاهل أو "الميكيافيللي". وكلتا الصورتين لا تحملان أي شبه مهما ضؤل، مع الرجل. ولا يليق بالقارئ الواعي الذكي إلاّ أن يعبر ذلك النهر الدافق من الهراء الظالم الذي انبجس من قلم الروائي المعاصر ــ لا ينبغي لفقر أسلوبه أن يجعل الأمر صعباً في سائر الأحوال ــ ويركز بشكل كامل على الأدلة التي وصلت إلى أيدينا سواء على هيئة نصوص أو آثار. وإذا ما قام القارئ بذلك، فإن صورة أخرى، غاية في الاختلاف سوف تظهر لـ "حور – إم – حب". فلن يسقط انحداره واشتراكه في بلاط "أخيتاتون" من مملكة الترجيح وحسب، ولكن أيضاً دوره المزعوم كـ "الرجل القابع خلف الكواليس "خلال حكم الفرعون "آي" سوف يغدو بصورة متزايدة غير محتمل الحدوث.

قبل صعوده إلى العرش لم يكن "حور– إم – حب" سوى قائد وديع يعمل من أجل سيّده، وبعد ذلك أصبح نشطاً وواقعياً وقيّماً أعاد البلاد إلى رشدها. ولو أن ذلك لا يستبعد امتلاكه لخيال خصب وحس مرهف تجاه المواقف المتوترة. ومع مطلع حكمه، وإتساقاً مع روح الابتهاج التي استشعرها الجميع محلّقة في الهواء، أعد "حور – إم – حب" العدة لموكب نصر إلى "طيبة" في إطار واحد من أكبر الأعياد. وقاد الإله "حورس" الإله الراعي أسطول السفن المشاركة في الموكب أثناء تصعيدها ضد التيار إلى المدينة الجنوبية. كما قدّم "التمهيد" اللازم لعودة الإله "أمون". وسار كل شيء مثلما كان مخططاً له من قبل : استقبل "أمون – رع" الفرعون "حور – إم – حب" بفرحة عارمة، وقاد خطاه إلى داخل "القصر". وعندئذ ومكان ئذ ألبسه "أمون"، وفي صحبته "سبعة آلهة عظمى" التاج وسائر شارات المُلك وشعاراته. وأمام القصر، وفي ضوء الشمس الساطع، وتحت سمع وبصر مواطني "طيبة" المبهورين، احتضن "أمون"، "حور – إم – حب" بصفته ابنه، وأعلنه بصفة رسمية فرعوناً. وليس هناك خطوة أخرى أبلغ، تستطيع أن

تشير إلى نهاية عصر "أخيناتون"، وبدء حكم موفق يؤدي واجباته على النحو الأكمل. (١)

وجّه الفرعون "حور – إم – حب" جهوده الرئيسية نحو استئصال فساد البيروقراطيين والأحرى الموظفين العموميين، والقضاء على الفوضى التي اتضح، مع الأسف، أنها ليست سوى إرث مباشر لفترة المروق (عن الدين القومي. م). وعلى إثر تتويجه، قام جلالته بجولة تفتيشية كبرى .وعلى غرار سائر الفراعنة الأتقياء انصرف ذهن "حور – إم – حب" في بادئ الأمر إلى الآلهة :

"صاغ كافة تماثيلهم بأعداد تفوق ما كان قائماً فيما مضى، وعزز آيات الجمال فيما صاغ. فابتهج "رع" عندما وقعت عيناه عليها ..وشكّل مائة تمثال. وكانت أجسامهم "كلها صحيحة ومصفّحة بكل حجر كريم نفيس ورائع" (٢)

شهدت نهاية عصر "أخيناتون" انزلاقاً في مرحلة من نهب المقابر من جانب أهالي "طيبة". فعانى "تحوت – موسي" الرابع على سبيل المثال، من انتهاك حرمة مقبرته ومومياته .وهذا ما أعاده الفرعون "حور – إم – حب" إلى نصابه. كما أعاد تنظيم عمال الجبانات في أطقم خاصة. (٣)

جاءت أهم وثيقة عن حكم الفرعون "حور – إم – حب"، وأعني بها "مرسوم الإصلاح" حول صراع جلالته ضد الفساد سواء في الجيش أو القطاعات المدنية على حد سواء .وقد وصلنا هذا المرسوم، الذي صدر على وجه الترجيح في مطلع حكم الفرعون، عبر نسخة فريدة وجدناها منشورة عبر أحد الصواديد شمالي الصرح العاشر للكرنك. (٤) ورغم أن ثلث النص مفقود الآن، إلاّ أن ما تبقى أكثر من كافٍ كي يتيح لنا إعادة تركيبه بصفة جوهرية .ويبدو أن جلالته توخى غايتين : أن يقضي على الخروج على القانون أو اللاشرعية على صعيد موظفي الدولة عن طريق فرض عقوبات صارمة، وأن يصلح القضاء. وقد صدرت العقوبات خلال سلسلة من السطور (التي نستطيع أن نرتبها في فقرات) تصف كل فقرة منها جريمة محددة والنّتائج التي تسفر عنها، والإدانة الرسمية لها، ونوع العقوبة الخاصة التي يستحقها مرتكبها. وهذه الجرائم تنقسم بشكل عام، إلى ثلاثة أقسام :

أ– الابتزاز الذي يقدم عليه جباة الضرائب.

ب- التستر الذي يلجأ إليه المفتشون الملكيون.

ت- الأعمال غير المشروعة التي يرتكبها العسكريون.

ويشمل القسم الأخير ابتزاز السلع من الفلاحين وتسخيرهم في أداء خدمات معينة، والنهب السافر وسرقة المواشي. وكانت العقوبات تنطوي بصفة دائمة على رد الممتلكات المسلوبة إلى أصحابها الشرعيين. ولكنها كانت تستتبع، في حالات كثيرة، إلى جانب ذلك، بتر الأطراف. فجابي الضرائب الغشاش لا يستطيع، شأنه شأن جاويش الجيش الفاسق، إلاّ أن يتوقع جدع أنفه، بالإضافة إلى النفي إلى شبه جزيرة سيناء. (ولعله من اللافت للنظر أن هذه المنطقة الحدودية ظلت حتى عصور البطالمة أي بعد هذا التاريخ بألف سنة، بمثابة المنفى الذي يستقبل المجرمين المجدوعي الأنف) (٥) ولكي يعالج المشكلة عند الجذور، أصدر الفرعون عن فطنة واسعة أمراً بإعفاء الفلاحين من الضرائب، وإسقاط الضرائب المتأخرة عن العمد والمجالس القروية، وأعاد إلى الحياة تقاليد دعوة موظفي الخزانة بصفة شهرية إلى مأدبة رسمية على نفقة جلالته.

إلاّ أن الفرعون "حور- إم - حب" كان أكثر إفتخاراً، على ما يبدو، بـ "تطهير" بيت وزارة العدل من الداخل. إذ نستشعر تياراً دفيناً يتخلل سطور هذا النص من الاشمئزاز تجاه إنتهازيّ عصر "أخيناتون" الذين افتقدوا الأصل الطيب بنفس الدرجة التي افتقروا بها إلى الذمة الطاهرة. ولننصت إلى جلالته يقول :

لقد جبت دروب البلاد، سواء حدودها أو أعماقها، بحثاً عن أصلح الرجال. لقد فتّشت عن الأمراء، الفصيحي اللسان، الطيبي الطباع، الذين يعرفون كيف يحكمون على الطبيعة الإنسانية، ويمتثلون لتعليمات القصر، وشريعة الباب العالي. ولقد رفعتهم إلى مراتب الذين يقضون بين أهالي الوجهين القبلي والبحري، بما يرضي ذلك الجالس في قصره، وعينتهم في المدن الكبرى في مصر العليا ومصر السفلى، نظراً لأن كلاً منهم يبدي حرصه على الإنصات ..ووضعت القواعد تحت أنظارهم والقوانين في دفاترهم. ولقد وجّهتهم إلى طريق الحياة وقدت خطاهم إلى الحق، وفطّنتهم على النحو التالي : لا ترفعوا الكلفة بينكم وبين الأهالي، ولا تقبلوا رشوة من أحد، فليس هناك مسوّغ للرشاوي. ولسوف تتشكل كل محكمة من أنبياء

المعابد وعُمد مدن مصر وقراها، بالإضافة إلى الكهّان العاديين كي يقضـــوا بيـــن المواطنين في سائر الأرجاء"

لم يمزّق القناع عن الوجه الحقيقي لعصر "أخيتاتون" شيء قـــدر "مرســوم الإصلاح" (والأحرى شريعة "حور – إم – حب". م). فـــالصورة التـــي يرســمها المرسوم لا تشبه تلك التي تقدّمها المناظر الجميلة في الجداريات سواء في الكرنــك أو في "أخيتاتون". فلقد اختفت السيدات الأنيقات والرجال المتأنقون الذين يركعـــون أمام ملك طيب القلب يقف تحت *قرص– الشمس*" أبيه، وعوضاً عن ذلــك ظــهر، بصفة مطلقة، جيش مفوّض بإخماد الشغب، وفلاحون معدمون، وقضاة فاســدون. وقد نصادف من يؤكد أن تلك الأوضاع لم تعم البلاد إلاّ قرب نهاية عصر المــورق (عن الدين القومي. م)، ولكن الأدلة المتوفرة تتعارض مـــع مثـل هـذا الدفــاع. فانسحاب رأس الدولة مع بلاطه إلى حاضرة جديدة، وما نجم عن ذلك من عزلـــة، وهو الأمر الذى جر الفوضى على البلاد، ينبغي إلقاء المسؤولية عنه على"أخناتون" نفسه (٦)

العودة للطريق القويم

شرعت النصوص ذات الفحوى الديني، منذ ما قبل وفاة الفرعون "تـــوت – عنخ – أمون"، وبصورة متزايدة تحت كلٍ من "آي" و"حور– إم – حب" في تبنـــي خط أكثر تشدداً تجاه الوحدانية التي عرفها الجيل الســابق .ونســتطيع أن نرصــد بجلاء، وجود نبرة تعليمية تصل إلى الوعظ، فالجهود كانت جارية على قدم وساق لمقاومة التعاليم الخاطئة للمارق .وكان المنشد يترنـــــم على هذا النحو : *تضيء عينا "رع" الأرضين" .وليس قرص– الشمس" هو الذي يظهر لأولئك الذين يسكنون السماء، ولكنها الرأس التي بلغت عنان السماء "*

وهذه عبارات تصوِّر المفهوم الأسطوري لنوع ما من "الرجل الكوني"(٧)

إلاّ أن *قرص – الشمس*" لم يُستأصل تماماً، من ترانيم العبادات. وما كـــان ذلك ممكناً بعد أن حاز كل تلك السطوة. لكن شأنه نزل مرة أخرى إلى مستوى أحد

تجليات رب الأرباب :

أمون" الذي خلق السماء وأضاءها بالنجوم، وهو الذي سوّى عرشه هنـــاك كــ قرص – الشمس" ... ومن يمتدح روحك (أي روح "أمون") *ينير ضوء الشمس أعضاءه، وتراك عيناه، ويمتلئ جسده بالصدق لأنني أعرف أنك تعيش عليه وبـــه تقتات*"(٨)

فهنا، وفي لغة تذكّرنا بمفاهيم "أخناتون"، نجد تأكيداً قوياً على "أمون"، وقــد تجلّى كــ *قرص – الشمس*"، وليس *قرص – الشمس*" وحده، هــو الــذي يشــرق بالنور والصدق والفضل على دنيا تتوجه إليه بعباداتها. وعود على بدء يعود التـأكيد على العقيدة التي تقول بأن *قرص – الشمس*" ليــس ســوى "الجســم" أو "التجلــي المنظور" لرب متعالٍ، سواء أكان "أمون" أو "رع" أو "أوزيريس". وليـــس هنــاك شيء بالمرة في *قرص – الشمس*"، دون سواه، ما يسوّغ قصر شـــعائر العبــادة عليه. فــ *"ملك الآلهة أي أمون"، إله صدق، وهو يعرف من يعرفه، ويؤتي فضله لمن يشكره، يرعى من يرعاه، ويحمي من يتبعه، وهــــو "رع" وجسمه قرص – الشمس"* ... (٩)

وجدير بالذكر، كذلك، هذا التحذير المقنّع : "أمون" يرعـــي مــن يرعـــاه ! وأصبح تخفيض رتبة *قرص – الشمس*" إلى أحد الأشكال العديدة لتجليات جوهـــر إله عظيم، أمراً يجري تأكيده في كل مكان. وصارت صيغة تقريب القرابين تشــير، بصورة صريحة، إلى قرابين وشعائر "صبيان" تقصد وجه "رع – حور – آختــي"، ووجه جسده *قرص – الشمس*". (١٠) ولم يعد "أوزيريس" ذلك الإلـــه الـــذي دفعـــه "أخناتون" إلى حدود الانقراض، وحســب، إلى الحظيرة، بـــل وارتبــط الآن بــــ "رع":

أنت أي أوزيريس" الذي أشرق مثل "رع" في الأفق، فــ قرص – شـــمس" ـــه، هو قرص – شمس" ـــك وصورته صورتك ..." (١١)

وتثبت كل هذه الفقرات أن *قرص– الشمس*" ليس إلهاً فريداً لا نظير له، لــم يعد يتجاوز كونه رمزاً أسطورياً .وليس من باب الصدفة أن تشهد غـــداة عصـــر "أخيتاتون" الظهور الفجائي لفيض من "كتب" الأساطير، التي أخذت تنقـــش، فـــي

غالب الأحيان، في المقابر الملكية، وهي الكتب التي تعيد تأسيس حقيقة، بروح ثأرية، هي حقيقة تعددية القوى المقدسة في الكون والعالم السفلي" (١٢)

قد يكون في طوعنا نحن المحدثين أن نقف على المعنى الحقيقي لما كان دائراً في ذلك الإشكال اللاهوتي، إذا كان لنا أن نتصوّر كاهناً مسيحياً متعصباً ينكر كلاً من المسيح والثالوث والقديسين لصالح الصليب الذي وقف في المسيحية التقليدية أو المعيارية كرمز للخلاص .وكان هذا الصليب، الذي أسبغ المسيح خلاله، مِنّة الخلاص على العالم ليُرفع، على يدي هذا الكاهن، خلال التمجيد والتأليه، الآن إلى منزلة الإله الواحد الأحد، والآب السماوي ! وإذا تمكّن المرء من اقتناص النبرة والإيماءات التي ينطوي عليها مثل هذا الضلال الجنوني لديانة "أتون"، فإنه قد يستطيع أن يقيّم الأسباب التي دعت أولئك اللاهوتيين الذين عرفتهم فترة ما بعد "أخيتاتون" إلى بذل أقصى جهودهم في سبيل استئصال ذلك الخطل خلال العودة التعاليم "الصحيحة".

كان الفرعون "حور – إم – حب" هو الذي أغلق في نهاية المطاف معابد *قرص – الشمس*". وعلى نحو ما أشرنا في وقت سابق، استمرت هذه المعابد في عملها، جنباً إلى جنب مع مزارات الآلهة التي عادت للعمل. وكانت السنوات الإثنتا عشرة التي قضاها "أخناتون" في "أخيتاتون" قد شهدت وقف كافة عمليات التشييد والزخرفة في معابد الشمس في "طيبة" و"منف" و"أون" وفي كل مكان آخر. ولكن عمليات الزخرفة تحت حكم كل من "سمنخ – كا – رع" و"توت– عنخ – أمون" إستؤنفت في كل مكان على وجه الترجيح، وبالأسلوب الجميل الذي أُثر عن العصر المتأخر لـ "أخيتاتون". إلاّ أن هذه المحاولة، التي جاءت في آخر لحظة، لتفكيك المركزية، باءت بالفشل .ولقد عانت الإدارة الجديدة من الآثار الناجمة عن تلك الوحدانية المركزية، لكنها لم تأبه لها. فلقد ذاقت مصر كأس تحطيم تماثيل آلهتها، وأدركت أنها بالغة المرارة. ولما كانت عبادة *قرص– الشمس*" قد تأسست باعتبارها بديلاً لتعددية العبادات الأقدم، فلقد كان من المستحيل منطقياً أن تعود للتعايش معها .ولم يكن الفرعون "حور– إم – حب" يستهدف، بتدميره معابد الشمس، مجرد إزالة مباني لاستبدالها بمبانٍ أخرى، أو استخدام أحجارها عوضاً

عن الأحجار الجديدة التي كان يمكن جلبها من المحاجر رأساً، كما يريد البعض أن يقنعنا، بل كان في حقيقة الأمر يتخلَّص من الرموز الوحيدة التي ظلت على قيد البقاء للفشل المطلق الذي حاق بالبيت الملكي الذي حل هو محله.

لم تبق طوبة واحدة على أخرى في "أخيتاتون". فسُهدمت الجدران حتى أساساتها، ونُهبت قوالب الطوب الأخضر، وحُطِّمت الصواديد ومجاميع التماثيل إلى درجة تُشيع اليأس في إمكانية تخيل الصورة التي كانت عليها .وبالتالي وفرت الأطلال محجراً لانتزاع الأحجار لما يزيد على قرن من الزمان .ولقد عبرت معظم الكتل المعروفة نهر النيل إلى الأشمونين التي عرفها اليونانيون باسم "هرموبوليس"، حيث إستفاد منها الرعامسة على نطاق واسع، ولكن بعضها انتهى به الترحال في "أبيدوس" على بعد ما يصل إلى مائة ميل جنوباً. وليس في وسعنا إلاّ أن تخيَّل المصير الذي انتهت إليه معابد الشمس سواء في "منف" أو في "أون". غير أن معبد الشمس في "منف" هدِّم دون شك. ونجد كتل "التلاتات" مبعثرة حتى اليوم في القاهرة والدلتا.

عودة إلى "طيبة "

عاد الفرعون وبلاطه إلى شرق الكرنك في وقت ما خلال العقد الأول من حكم "حور – إم – حب". ولكن ليس بقصد العبادة أو الاحتفال بيوبيل ما. فلقد كانت المباني الجديدة تنهض واقفة على مشارف مجمَّع "أمون"، وهي المباني التي طمست من فورها معابد الشمس للأبد، بل ومالت على كتلها الحجرية كي تستخدمها كحشو حجري في نواة هذا المبنى أو ذاك أو أساساته.

كانت المزارات أو المعابد الأربعة الكبرى لا تزال قائمة كما هي، وإن طالها بعض التخريب. فلقد وجد المكلَّفون بهدمها، عند اقترابهم من معابد الكرنك، على غرار ما وجدوا في "أخيتاتون"، وكانت قد هُجرت وقت ذاك، أن المخربين كانوا قد كشطوا بعض الجداريات بشواكيشهم من على هذا الجدار أو ذاك.

فكانت وجوه الملكة قد دُقَّت وأزيلت في غالب الأحيان، وتعرَّضت ملامح

الملك أيضاً لنفس المصير، وإن كان على نطاق ضيّق. (اللوحات أرقام ٤-٥، ٧-١٧، ١٤- ١) كما مُحيت الخراطيش في غالب الأحيان بما فيها خراطيش *"القرص"* ذاته. وكشطت أذرع الشمس بين الحين والآخر. ومن الغريب أن رسوم الخدم أو الكهنة كانت تتعرَّض من وقت لآخر للكشط، كما لو كانت الشخصية المرسومة معروفة للجميع، رغم عدم وجود تعريف بتلك الرسوم. ومع ذلك، فما من كشطة واحدة قد جرت من بدايتها حتى نهايتها بشكل متسق. فكانت النزعة التخريبية مقصورة بصفة أساسية على تلك الأجزاء من الحائط، التي تستطيع الأيدي أن تصل إليها من مستوى الواقف على الأرض دون مساعدة سلالم نقّالي .والأدلة لا (؟ م) تشير بشكل قاطع، بالتالي، إلى أن انتهاك حرمات المعابد، أشرفت عليه هيئة حكومية ووضعته موضع التنفيذ.

لم يكن تفكيك تلك المعابد عشوائياً. فعلى غرار ما قام به أي طاقم تفكيك آخر، انتهج الطاقم المكلَّف بهذا العمل نفس النهج وفقاً للخطة المرسومة بشكل مسبق. فبادئ ذي بدء هُدمت أي مبانٍ مشيَّدة بالطوب الأخضر داخل نطاق معبد *قرص- الشمس* اهتدينا إليه" أو "جم - ت - ب - أتون"، وسُوي الرديم بالأرض. ثم هُشِّمت أرجل التماثيل العملاقة المنصوبة حول الفناء الخارجي. وتُركت الأجزاء العليا من هذه التماثيل تسقط على وجوهها في ساحة الفناء. ويأتي بعد ذلك نزع الكتل التي تشكّل السقوف وإلقاؤها في الفناء والأحرى الحوش .وعندئذ يبدأ هدم الأعمدة واحداً بعد الآخر. وبعد الانتهاء من هذه العملية يشرع طاقم الهدم في تفكيك مداميك "التلاتات" في الحوائط، بما تحمله من جداريات لم تكد تجف ألوانها، على الفور قسماً إثر قسم .ولما كانت المونة قد أُستخدمت لملء الفراغات بين الحين والآخر، فلقد لجأ طاقم الهدم إلى قوة الطَّرْق أحياناً لفك الكتل، الواحدة من الأخرى. ثم تُجر هذه الكتل بعيداً عن الحائط إلى الشريط الذي يبلغ عرضه خمسة أمتار من الأرض المدكوكة الواقعة بين الحائط الحجري وسور الفناء الخارجي المبني من الطوب الأخضر .وكان كلما أُلقي المزيد من كتل "التلاتات" إلى الأرض، كلما شرعت في الظهور طبقة من الشطف المهشّمة والجريش المأخوذ من الحجر الرملي. وكان السور الشمالي أول ما هُدم. ويتعيّن علينا أن نتخيّل، والحالة هذه،

صفاً من العمال، كل منهم يحمل كتلة من كتل "التلاتات"، يتحرّك بها بين شرق الكرنك وبين موقع تشييد الصرح الثاني وصالة الأعمدة المسقوفة .ومع امتداد الهدم إلى الضلع الجنوبي، كان العمل في تشييد الصرح التاسع جارياً على قدم وساق. وفي هذا المكان كان للمنظر الاحتفالي الرائع الذي وَصلَ إلى أيدينا في نهاية المطاف، من المربع رقم A أن يهجع لإثنين وثلاثين قرناً.

كل ما تُرك على سطح الأرض لم يعد ينطوي على أي قيمة من أي نوع. فالصواديد وموائد تقريب القرابين والتماثيل الأصغر حجماً التي بقيت كانت مهشّمة إلى درجة يتعذّر معها التعرف على أصلها. كما كانت الأواني الفخّار الملونة بالألوان الزرقاء، التي شكّلت جزءاً من أدوات المطبخ في مؤسسة المعبد خلال أيام الصفاء والسرور، قد هُشّمت وكُنست على هيئة كومة من الرديم على الضلع الغربي. على أن بعض الكتل الضخمة القليلة العدد تُركت ببساطة حيثما كانت، نظراً لما يشكّله نقلها من صعوبة بالغة.

وفي نهاية المطاف جاء الحريق الكبير. فلقد تملّكتنا الحيرة خلال عمليات التنقيب التي قمنا بها في مناطق المربعات التي عنونّاها بالحروف E, A , B، قرب الضلعين الجنوبي والغربي للفناء منذ البداية إزاء وجود طبقات منحدرة من ألوان تتفاوت ما بين البرتقالي والأسود والرمادي، هابطة باتجاه سور الفناء الخارجي إلى الجنوب، زيادة على خندق الأساس، الذي تعرّض للنهب، والخاص بحائط "التلاتات"، بالإضافة إلى التماثيل العملاقة المتساقطة، التي تناثرت أجزاؤها في نهاية المطاف على أرضية الفناء. وجاءت التفاسير بعدد الأشخاص الذي وقعت أعينهم على خيوط الألوان. لكن الحل جاء في نهاية المطاف بمساعدة زملائنا في قسم الكيمياء بجامعة "تورونتو" بكندا. إذ أثبتت الاختبارات (مثل تنشيط النيترون والتأليق الحراري وغيرها) التي أجروها على الطبقات البرتقالية اللون أنها تتكون من الهباب المتخلّف عن حرق الطوب الأخضر، المتحلل الذي تعرّض للحرق مرة أخرى. أما الخيوط الرفيعة السوداء اللون، التي تتبادل مع الخيوط ذات الألوان الأخرى على مسافات منتظمة، فناجمة عن التبن الذي كان المصريون القدماء يخلطون به الطين، بالإضافة إلى البقايا المتفحمة، بكل

تأكيد، من طبقات نبات البردي، التي كانوا يضعونها بين كل مدماكين أو ثلاثة مداميك عند بنائهم حوائط من الطوب الأخضر. ولا بد أن يكون سور الحوش الخارجي قد أشعلت فيه النار باستخدام مادة سريعة الاشتعال، على الضلع الجنوبي على الأقل، فانهار كل ما كان قائما على صالة الأعمدة وفي الحوش الداخلي. (١٣)

في الوقت الذي كان مهندسو الفرعون "حور- إم- حب" يرسون فيه أساسات الصرحين الإضافيين جنوبي الكرنك، انهار معبدا أو مزارا "مبجلة تلك هي آثار *قرص - الشمس*" إلى الأبد" أو "تني منو ..." وكذلك "ثابتة تلك هي آثار *قرص - الشمس*" إلى الأبد" أو "رود منو ...". ولقد وجدت أحجار المعبد الأخير طريقها، بصورة جزئية، إلى أساسات الصرح التاسع، إلى جانب كتل حجرية يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة، بينما منح المعبد الآخر : "مبجلة تلك هي آثار "قرص- الشمس" إلى الأبد" أحجاره بعد تفكيكها إلى الأجزاء العليا من نفس الصرح. أما بوابة "أمين - حوتب" الثالث الجنوبية، التي نجد أجزاء من جدرانها وقد نحتت عليها مناظر شائنة للملك المارق. فلقد جرى تفكيكها في ذات المكان، وأعيد بناؤها فورا في الصرح العاشر (الحالي)، مع توشيشها (من وش. م) بقشوة جديدة من الأحجار لإخفاء الجداريات المكروهة. (تلك التي تمجد فرعون "أخيتاتون". م)

رحلت بعض أحجار الكرنك هائمة على وجهها وأوغلت في رحيلها. ووجدت كميات هائلة من كتل معبد "ثابتة تلك هي آثار *قرص- الشمس* "إلى الأبد" طريقها بصورة تدريجية إلى الأقصر حيث كان لـ "رمسيس" الثاني أن يستخدمها، بعد ذلك بسبعين سنة في تشييد صرحه الهائل. أما الشطف التي انتهى إليها معبد *قرص - الشمس*" اهتدينا إليه"، فلقد مضت ناحية الشمال الشرقي من "المدامود" على بعد ثمانية أميال، ولا تزال الكتل الحجرية المبعثرة تظهر بين الحين والآخر في هذه القرية أو تلك في أعالي النيل أو أسافله.

وذات يوم كان الخولي الذي يشرف على أعمال الهدم في معبد "قرص - الشمس" اهتدينا إليه" قد ظهر، كما هي عادته، بعصاه. وربما يكون قد لوح بعصا الخولي، تلك، بحمية زائدة نحو رجاله، وربما يكون قد ضرب أحد الأنفار الكسالى.

أياً كان السبب، فلقد سقطت الحلية الزخرفية من الحجر، وكانت تحمل خرطوش "حور - إم - حب" منقوشاً عليها، من القمة، وضاع في الأنقاض. وربما لم يكتشف ذلك الخولي ضياع تلك الحلية الحجرية، لكننا عثرنا عليها في بؤونة - يونيو في سنة ١٩٧٨ بين كتل "التلاتات" في المربع رقم E وكان الفرعون "حور - إم - حب" قد وضع، عن طريق السهو أو الخطأ، إمضاءه على عمليات التدمير. (١٤)

وقد يكون الفرعون "حور - إم - حب" قد تزوج من "موت - نجمت"، شقيقة "نفرتيتي"، في سبيل إضفاء الشرعية ** على صعوده إلى عرش البلاد، ولكنه لم يعترف، على الملأ، بتسلم أي تراث من عصر "أخيناتون". ويثور الجدل في بعض الأحيان بين الدارسين المحدثين حول ما إذا كان الفرعون "حور - إم - حب" قد اختتم الأسرة الثامنة عشرة أو افتتح التاسعة عشرة .وذلك جدل عقيم لا طائل وراءه. فمع الفرعون "آي" كانت عائلة التحامسة قد سقطت هيبتها وانمحى وجودها ذاته .ولقد أُضيفت فترات الملوك الأربعة الذين يبدؤون بـ "أخناتون" وينتهون بـ "آي"، وهي تصل إلى إحدى وثلاثين أو إثنتين ثلاثين سنة إلى الحكم الرسمي للفرعون "حور - إم - حب"، الذي يبدو ـ بذلك متمتّعاً بتسعة وخمسين ربيعاً رائعاً في سدة الحكم.

ولعلنا نلاحظ أن خرطوشه يتلو مباشرة، في قائمة الفراعنة، خرطوش الفرعون "أمون - حوتب" الثالث. ونرى اسمه في الآثار محفوراً في كل مكان على اسم "توت - عنخ - أمون". وإذا نهضت ضرورة الإشارة إلى "أخناتون" في السجلات اللاحقة، فيتم ذلك بعبارة مسهبة ومراوغة تحط من قدره باستمرار .ولقد سنحت الفرصة ذات مرة لنسخة من حكم قضائي كي تشير إلى { حكم ذلك الملعون الذي عرفته "أخيناتون" .}وذُكر أن شهادة أُرّخت في "السنة التاسعة من حكم المارق ..." (١٥) وكان كل ما عاش من ذلك الحكم في التراث الشفوي للمصريين، أي في الذاكرة التاريخية الجماعية للشعب، لا يزيد على ذكريات مضطربة لشعب وقع فريسة الوباء والترحيل إلى المحاجر وإغلاق معابده والتعرُّض، المرة تلو المرة، لمحاولة الأجانب بسط سيطرتهم على مصر .وأمسى "أخناتون" وعائلته "لاناس". (١٦)

الفصل الخامس عشر

الابن الجميل الذي أنجبه *قرص - الشمس*

أتوق خلال تناولي للتاريخ القديم سواء بالتدريس او التأليف أن يقف الطالب المبتدئ أو القارئ العادي بين الحين والآخر، وجهاً لوجه أمام الأدلة التي تستند إلى الحقائق المجردة، سواء أكانت دامغة أو واهية. ولنقرأ الرواية التي تنطوي على مسوح رومانسية، ويرويها الباحث أو الروائي ولنستمتع بتفاصيلها بصورة عابرة وننحها جانباً، ثم نستدير كي ننقب عن الحقيقة.

كاف، على ما أرجو، ذاك الذي سقته في الصفحات السابقة كي أوضح أن "أخناتون" كشخص تاريخي مختلف بصورة ملموسة عن الصورة التي خلقها لنا كتّاب العوام الواسعو الانتشار عنه. فلم يكن إنساني النزعة، وبكل تأكيد لم يكن ليشبه ذلك الرومانسي الإنسانوي العطوف. أما المحاولة التي ترمي إلى رسمه كشخصية تراجيدية "أشبه بالمسيح" فليست سوى تزييف بحت.كما لم يكن معلماً لـ "موسى": هناك بون شاسع يفصل بين "وحدانية " Monotheism جلالته التي تتسم بالصرامة والجبر والقلق وبين "الواحدية" Henotheism العبرانية ، التي نطل عليها في سائر الأحوال خلال منشور مشوّه من النصوص التي دُونت بعد سبعمائة سنة من وفاة "أخناتون". حقاً أشار البعض منذ وقت طويل إلى وجود ملامح متشابهة بين ترنيمة "أخناتون" وبين المزمور رقم ١٠٤، وإلى ضرورة أن نأخذ هذه التشابهات على محمل الجد، إلا أن الأمر هنا ليس أمر تأثير أدبي بل أمر استمرار في التقاليد (الشعبية) في المراكز الشمالية للإمبراطورية المصرية التي كانت يوماً ما عظمى لموضوعات تلك الترنيمة التي تعد عملاً شعرياً رائعاً.

إذا مررنا في عرضنا، على تلك الحقائق الصلبة التي أوردناها في الصفحات السابقة، وفي ظل غيبة حقائق أخرى قائمة على أدلة مفصلة، فإننا نكون عندئذ قد أمسكنا بلمحة عن "هذه" الشخصية التي تولّت حكم مصر : رجل يعد قبيح المنظر بالمقاييس المقبولة لعصره، ويعيش صباه في عزلة تامة في القصر الملكي،

بالقرب من أمه على وجه التأكيد، ولا يحظى من جانب والده سوى بالتجاهل على وجه التقريب ويبزه أخوته وأخواته وغير واثق من نفسه . ثم يعاني سوء حظ، لا مثيل له، بارتقائه عرش مصر؛ في ذروة إمبراطوريتها. وفي هذا الصدد لا نعرف شيئاً عمن أو عما أثّر عليه في سنوات تكوينه الأولى، لكنه لم يترب على مقربة من بلاط والده، كما أننا لا نملك أي دليل على إقامته لمدة ما في "أون" ونتيجة لذلك تولّد عنده خوف ونفور نحو حاشية والده التي ضمّت إداريين موهوبين ونحو العائلات النبيلة التي ينتمون إليها، وامتدت ظنونه وشكوكه إلى أولئك الملوك الذين احتفظ والده بعلاقات حميمة معهم. وهناك ما يدل على أن الرجل كانت تعوزه القدرة على الحكم على الأشخاص، وكان فريسة لتملق المتملقين. ورغم أنه كان على وعي بافتقاره إلى الحزم، إلا أنه تبنى سياسة تتسم باللين تجاه أقاليمه الشمالية، وهي السياسة التي حالت بينه وبين اتخاذ إجراءات حاسمة لا تعرف التردد في المجال الأسيوي. ولما كانت تعوزه المواهب الإدارية، فلقد كان راغباً في ترك إدارة شئون الحكم اليومية، سواء على الصعيد الخارجي أو الداخلي، في أيدي الوسطاء العسكريين منهم والمدنيين، كي يتابع هو برنامجه في "الإصلاح الديني" كما تصوّره.

لم يكن "أخناتون" بصرف النظر عمن يكونه ... على صعيد آخر، بالمثقف ذي الوزن الثقيل. فلقد عجز على أن يفهم (وإن كان قد فعل فإنه يكون قد عجز عن أن يقيّم) الدور الفعلي والمحتمل للأسطورة الدينية، وقد يكون قد تصور أنها وسيلة لإخفاء الإله بدلاً من إبرازه للعيان. وقد يكون موقفه هذا بمثابة رد فعل على النزعة الكلبية المضللة للعصر، تماماً مثلما فعل "لوثر" في القرن السادس عشر بعد الميلاد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن "أخناتون" يكون، عندئذ، قد ارتكب خطيئة الخلط بين شوارد النسق وبين جوهره ذلك لأن الأساطير تمثّل عناصر البناء في أي دين، بما في ذلك اليهودية-المسيحية. فرغم أن الأساطير انحدرت إلينا في غالب الأحيان كأمتعة بالية من مرحلة موغلة في القدم أو مربكة نوعاً ما من مراحل تطورنا العقلي، إلا أنها تضع تحدي إعادة التفسير على مستوى أرقى، فضلاً عن التكامل، الواحدة مع الأخرى، في سبيل توفير رؤية جديدة ومتماسكة لما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراء الطبيعة. ولقد ارتفع اللاهوتيون المصريون القدماء، على غرار ما يفعل اللاهوتيون المحدثون، إلى مستوى التصدي لهذا التحدي، ونجد في وثائق من قبيل "اللاهوت المنفي "* وترانيم المملكة الحديثة للإلهين "بتاح "و "أمون" رسائل فلسفية على درجة عالية من الإنجاز. فما الذي جاء به "أخناتون" كبديل لها، طالما أعلن عليها اللعن ؟ الجواب لا شيء ! وإذا كانت مجموعة الأساطير (في أوسع معاني المصطلح) الوسيلة الوحيدة للوحي المقدس، بصرف النظر عن رؤية الصوفي، فإن ما نافح عنه "أخناتون" ليس إلا إلحاد بالمعنى الدقيق للكلمة.

وبخصوص الأيقونة التي ابتدعها، وأقصد، ذلك القرص الأشبه بعش العنكبوت، فمن المستعصي أن يرى فيها أحد "إلهاً". أما ماذا تكون تلك الأيقونة في الحقيقة، فإن "أخناتون" يخبرنا عنها بصراحة وبدرجة كافية : *"القرص"* يكون والده. وهو ملك العالمين ولمما ينطوي على مغزى، فيما يبدو لي، تلك الحقيقة التي تقول أنه عشيّة رحيل الفرعون "أمين-حوتب" الثالث، كان الفرعون الذي يجلس على عرش مصر يحمل هذا اللقب الذي يعد أوسع ألقابه انتشاراً : "قرص- الشمس الباهر"، وغداة الفتنة كان موضوع التقديس الأوحد في مملكة السماء هو "قرص-الشمس" الملك، الذي يحاط بالتبجيل في أعلى عليين ويوصف في كل مكان من جانب "أخناتون" بـــ "والدي"، ولن أمضي إلى تعداد الإيحاءات التي ينطوي عليها هذا الأمر، رغم أنه يبدو لي واضحاً بما فيه الكفاية.

إذا كان "أخناتون" قد امتلك قدرة خارقة كشاعر فهذا أمر -فيما أرى- لا يحتاج إلى دليل. فالطبيعة ذاتها ، بالنسبة إليه، تكشف في كافة صورها عن سحر يغني عما سواه. والسرور الذي يستطيع المرء استشعاره في تأمل ما لا نستطيع الإحاطة بكنهه يشحب عند المقارنة.ورغم أن كثيراً من الصور الشعرية التي صاغها مشتقة من مثيلاتها، فإن الترنيمة الكبرى لـــ "القرص" تقف شامخة كتعليق هائل يكاد يكون وضعياً على جمال الخلق.

يذهب ظني إلى أن "أخناتون" كان يضمر أيضاً ميولاً عميقة نحو الفن، والنحت والتصميم المعماري، رغم الصعوبة الأشد التي تقف في وجه أي محاولة لإثبات ذلك. ولكن يبدو مرجّحاً أن النزعة التعبيرية الجديدة التي تخلب الألباب،

ونفجرت في مناظر الجداريات في السنة الثانية من حكم جلالته ترجــع إلــى ذوق "أخناتون" الخاص أكثر مما ترجع إلى أذواق فنانيه. وفي ضــوء القــدرات ذائعــة الصيت للملوك التحامسة في مجال التخطيط، فلعله من الصعب أن ننكر أن لجلالتــه ضلعاً أيضاً في صياغة تفاصيل القواعد الجديدة. ويذهب رأيي إلى أن الفن المرتبـط ببرنامجه هو ما يظل بالنسبة لنــا الإســهام الفريــد الأكــثر أهميــة لمــا تركــه "أخناتون" وراءه.

إلا أن جداريات "أخيتاتون" تكشف، رغم ما تنطوي عليه من جمــال أخّــاذ، عن واحدة من أكثر السمات إثارة للكدر أي أسلوب الحياة الذي رفعته "أخيتــــاتون" كنموذج يحتذى : الرخاوة و"الروقان". هل يكون في طوع ملك ألاّ ينخرط فــي أي نشاط جاد، سوى تقريب القرابين ؟ حقاً يركب مركبته، ولكن كم مرة مشــي فيــها على قدميه ؟ بين الحين والآخر نلمحه مضطجعاً، في استرخاء تام، فــي كرســي بمساند أو بدون، كما نراه يتناول الطعام أو الشراب على مائدة تئن تحت مختلــف أنواع الأطعمة والأشربة، وأحياناً يقطع انغماسه في ملذاته كي يطــل فــي ليونــة ونعومة من الشرفة وهو يبتسم في وهن على شخص مجهول يسيل أنفه تزلفاً نحــو جلالته في الأعالي. هل هذا الملك الرخو الذي لا يستطيع الخروج وراء صيــد أو خوض معركة، منحدر . حقاً من صلب التحامسة الذيــن بنــوا الإمبراطوريــة المصرية ؟ لم يكن البلاط الذي يرأسه سوى جمعية تضــم ع. دداً مــن المرفــهين الحريصين على الاستمتاع الذاتي وأتباعهم من الانتهازيين.

إذا كان الملك والدائرة المحيطة به قد بعثا داخلي قدراً مــن الازدراء، فــإن الشعور بالنفور هو الذي يتملّكني كلما تأملت "الديانة" التي جاء بها. فالشــمس قــد تكون في مصر طاقة خيِّرة يعتمد عليها، لكنها مع ذلك مهْلكة .ويسعى الناس إلــى الاحتماء منها. وإذا كان لــ "رع" أن يُعبد، فليكن هناك ملجأ ظليل قريب المنال!

يغدو "الكرنك" و"أخيتاتون"، كلاهما، جحيماً خلال موسم الصيــف الطويــل الذي يبدأ من برمهات – مارس حتى هاتور – نوفمبر .ومع ذلك يعمد جلالتــه ــ بمتعة زائدة على ما يبدو ــ إلى اختيار هذين المطرحين غــير المقدســين لإقامــة معابده. ولا يكتفي بذلك بل يصر على المعبد المكشوف غير المســقوف الــذي لا

يوفر ظلاً يُذكر كي يعبد والده. وإذ يقف المرء على صفحة الرمل التي تشبه بلاطة الفرن في فناء "أخيتاتون" الشاسع، فإنه لا يملك بديلاً عن الإحساس بالشؤم إزاء كل ما يدور.

و لم يكن هذا الحاكم المطلق ليكتفي بتعريض جسده هو وحده لأشعة والده في كل ساعة صحو، بل وكان يطالب الجميع بأن يحذو حذوه ! وعلى الأقل هذا ما يخبرنا به خطاب مذهل من ملك "أشور" عُثر عليه ضمن ألواح "أخيتاتون"، وهو الأمر الذي يعطينا منظوراً جديداً للحالة العقلية لـ "أخناتون". فلقد بعث "أشوروباليت" الأول وفداً إلى مصر في ظل حرصه على بدء علاقات طيبة معها، بعد أن أصاب الضعف مملكة "ميتاني". ولا بد أن أعضاء الوفد عادوا إلى بلادهم كي يقولوا شيئاً لا يخرج عن : هذا الملك مجنون بكل تأكيد ! إذ كان يعقد استقبالاته واحتفالاته، بصفة دائمة، في وهج الشمس. ويفرض على الحاضرين جميعاً أن يقفوا في صهد الحرارة ! وهو الأمر الذي دفع ملك "أشور" إلى إرسال هذا الاحتجاج إلى "أخناتون":

لماذا تفرض على رُسُلي أن يقفوا في صهد الشمس. كان يمكن أن يقضوا نحبهم في صهدها. إذا كان يفيد الملك أن يقف في صهد الشمس، فليقف، إذن، في صهدها، وليمت تحت صهد الشمس. وعندئذٍ فلينعم الملك بما سيعود عليه ! ولكن لماذا يفرض عليهم أن يقفوا في صهد الشمس ؟ ... كان يُمكن أن يلقوا مصرعهم تحت صهد الشمس ! "

تعد الصورة التي ترسمها هذه الرسالة مضحكة ومثيرة للغضب في نفس الوقت. فلقد أصبح النظام بصراحة تامة، بوصوله هذه المرحلة، لا يُطاق.

يظل "أخناتون" في جوهره، وبصرف النظر عن كل ما يُمكن أن يقال لصالحه، حاكماً شمولياً. إذ كان يجهل كل الجهل حق الفرد في أن يختار بحرية. ولقد انتصر لوجود قوة سماوية، كلية تطلب خضوعاً كلياً وتزعم أنها الحق الكلي، ولا يتوقع منها أحد أي وحي أو أي إلهام آخر. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتخيل نظاماً آخر أشد إرهاقاً يقود الحظ خطى المرء إلى العيش في ظله.

قائمة

اسم الفرعـــــــون	فترة الحكم ق. م
الأسرة الحادية عشرة :	
سهر- تاوي - أنتف الأول	٢١٣٤ - ٢١١٨
واح - عنخ - أنتف الثاني	٢١١٨ - ٢٠٦٨
نخت - نب - تب - نفر - أنتف الثالث	٢٠٦٨ - ٢٠٦١
نب - حرت - رع - مونتو حوتب الأول	٢٠٦١ - ٢٠١١
سي - عنخ - إيب - تاوي مونتو - حوتب الثاني	٢٠١١ - ٢٠٠٠
نب - تاوي - مونتو - حوتب الثالث	٢٠٠٠ - ١٩٩٨
(صراع داخلي ١٩٩٨ - ١٩٩١)	
الأسرة الثانية عشرة :	
سحتب - إيب - رع - أمين - إم - حات الأول	١٩٩١ - ١٩٦٢
خبر - كا - رع - سنوسرت الأول	١٩٧١ - ١٩٢٨
نب - كا - رع - أمين - أم - حات الثاني	١٩٢٩ - ١٨٩٥
خع - خبر- رع - سنوسرت الثاني	١٨٩٧ - ١٨٧٧
خع - حا - رع - سنوسرت الثالث	١٨٧٨ - ١٨٤٣
ني - ماعت - رع - أمين - إم - حات الثالث	١٨٤٣ - ١٧٩٧
ماعت - خرو - رع - أمين - إم - حات الرابع	١٧٩٨ - ١٧٩٠
سوبك - كا - رع - سوبك نفرو	١٧٩٠ -١٧٨٦
الأسرة الثالثة عشرة :	
سوبك - حوتب الأول	١٧٨٦ - ١٧٨٣
سخم - كا - رع	١٧٨٣ - ١٧٨٠
(١٣ فرعوناً)	حوالي ١٧٨٠ - ١٧٦٠
سوبك حوتب الثاني	١٧٦٠ - ١٧٥٦
خين - جر	١٧٥٦ - ١٧٥١

(٣ فراعنة) ١٧٤٩ - ١٧٥١

سوبك حوتب الثالث ١٧٤٧ - ١٧٤٩

نفر - حوتب الأول ١٧٣٦ - ١٧٤٧

سي - حاتحور ١٧٣٥

سوبك - حوتب الرابع ١٧٢٥ - ١٧٣٤

سوتب - حوتب الخامس ١٧٢١ - ١٧٢٥

ياع - إيب ١٧١٢ - ١٧٢١

آيا ١٧٠٠ - ١٧١٢

مير - حوتب - رع ١٦٩٨ - ١٧٠٠

سي - عنخ - إن - رع ١٦٩٥ - ١٦٩٨

نفر - حوتب الثاني ١٦٩٢ - ١٦٩٥

حوري ١٦٩١

سوبك - حوتب السادس ١٦٨٨ - ١٦٩٠

(١٨ فرعوناً) ١٦٦٥ - ١٦٨٨

الأسرة الخامسة عشرة (الهكسوس) :

مير - إيب - رع شيشي (شاريك - ساليتيس) ١٦٥٤ - ١٦٦٥

؟ بنون ١٦٤٥ - ١٦٥٢

مير - أوسر - يعقوب - إيل (أبا شنان) حوالى ١٦٣٥ - ١٦٤٥

سوسر - إن - رع خايان (إناس) ١٥٩٥ - ١٦٣٥

عقنن - رع - أبوبي (أبوفيس) ١٥٦٣ - ١٥٩٥

عاسح - رع - خامودي (أسيز) حوالى ١٥٥٨ - ١٥٦٣

الأسرة الثامنة عشرة :

سا- نخت - إن - رع - تاعو الأول حوالى ١٥٨٧ - ١٦٠٠

سقنن - رع - تاعو الثاني حوالى ١٥٧٥ - ١٥٨٧

ودج - خبر - رع - كاموسي حوالى ١٥٦٩ - ١٥٧٥

نب - بحت - رع - أحموسي حوالى ١٥٤٥ - ١٥٦٩

زوسر - كا - رع - أمين - حوتب الأول   حوالى ١٥٤٥ - ١٥٢٥

عا - خبر - رع - تحوت - موسي الأول   ١٥٢٥ - ١٥١٤

عا - خبر - إن - رع - تحوت - موسي الثاني   ١٥١٤ - ١٥٠٤

مين - خبر - رع - تحوت - موسي الثالث   ١٥٠٤ - ١٤٥١

ماعت - كا - رع - حتشبسوت   ١٤٠٢ - ١٤٨٣

عا - خبرو - رع - أمين - حوتب الثاني   ١٤٥٣ -١٤٢٦

مين - خبرو - رع - تحوت - موسي الرابع   ١٤٢٦ - ١٤١٦

نب - ماعت - رع - أمين - حوتب الثالث   ١٤١٦ - ١٣٧٧

نفر- نفرو - رع - أمين - حوتب الرابع   ١٣٧٧ - ١٣٦٠

عنخ - خبرو - رع - سمنخ - رع   ١٣٦٠

خبرو - رع - توت - عنخ - أمون   ١٣٦٠ - ١٣٥٠

خبر - خبرو - آي   ١٣٥٠ - ١٣٤٧

زوسر - خبرو - رع - حور- إم - حب   حوالي ١٣٤٧ - ١٣١٨

الخارطة رقم (١) التوزيع على طول الضلع الجنوبي

عدد الأمتار من الركن	المناظـــــــــــر المشهودة	رقم المربع
١ – ٤	ـ خراطيش عمودية ضخمة لـ *قرص – الشمس*	AD 1
	ـ رجال بلاط راكعين.	
٤ – ٨	ـ شُطف لم يُستدل على أصلها.	ADII
٨ – ١٣	ـ شُطف من نقش، (تظهر منه عبارة : قالوا ...)	AC I
	ـ *قرص – الشمس*" بأشعته المعهودة.	
	ـ أطلال سور مائل.	
١٣ – ١٨	ـ أطلال سور مائل.	AC II
	ـ مدخل.	
	ـ صناديق الحُلي في القصر.	
	ـ الملك يقرّب قرباناً في إطار شعائر المعبد.	
	ـ رجال بلاط يركعون.	
٢٠ – ٢٤	ـ طرح الثيران أرضاً كي يذبحها الجزارون.	AB I
	ـ (شُطف عديدة). (لوحة رقم ٧– ١٠)	
	ـ رجال بلاط يركعون.	
	ـ نماذج لـ *قرص – الشمس*" بأشعته المعهودة.	
٢٤ – ٢٨	ـ الملك (ــــــ) مائدة تقريب قرابين.	ABII
	ـ باقات زهور	
	ـ خراطيش ملكية.	
	ـ الملك مع الكهنة.	
	ـ صرح المعبد.	
٢٨ – ٣٢	ـ أطلال سور مائل.	A1
	ـ كاهن الترتيل الأول.	

ـ نوبيون يرفعون أيديهم إبتهالاً.

(ــــ) (لوحة رقم ٣ – ٥)

كهنة راكعين مع بيارقهم. (ــــ)

ـ حمّال (ـــــ) يحملون جلالته في تختروانه في العيد الثلاثيني.

(لوحة رقم ٥ – ٣)

٣٢ – ٣٦ ـ رجال بلاط راكعين (شكل رقم ١٣) AII ,III

ـ الملك خلال إعتلائه تختروان العيد الثلاثيني مرتدياً التاج الأبيض.

ـ الملك مرتدياً زي العيد الثلاثيني (اليوبيل)

٣٦ – ٤٠ ـ حاملو التختروان (ـــــ) ونرى بعضهم ساجداً. AII,IV

ـ جلالته يقرّب قرباناً في أحد المعابد.

ـ كهنة خلال أداء الشعائر.

ـ باب (معبد ؟)

الخارطة رقم (٢) التوزيع الجغرافي على طول الضلع الغربي

عدد الأمتار من الركن	المناظـــــــــــــر المشهودة	رقم المربع
١١- ١٤	ــ علامات هيروغليفية ضخمة ، يرجع بعضها إلى خراطيش *"قرص – الشمس"*	
	ــ خدم مع حواملهم .	
١٤- ١٨	ــ الملك جالساً إلى المائدة	EEII-I
	ــ خدم وقناني نبيذ .	
	ــ رجال بلاط ، بعضهم وقوف والآخر راكعين .	
	ــ تخثروان وحُمّاله . (ـــ)	
١٨- ٢٣	ــ حُمّال تخثروان خلال إنزالهم حمولتهم الغالية	EIV-III
	ــ كهنة ببيارقهم المقدسة .(لوحة ٧-١٥)	
	ــ أبواب لجوسق (كشك)	
	ــ جنود وخدم وحشم .	
٢٣- ٢٧	ــ كهنة ببيارقهم المقدسة .	EII-I
	ــ صور لخدم وحشم . (ـــــ)	
	ــ أحد رجال البلاط يصب قربان النبيذ (أي يؤدي الصببان)	

حواشي المؤلف *

آخ ــ منو : اسم درج في الاستعمال إعتباراً من المملكة القديمة للمباني المقدسة على هذا النحو : "كان الملك الفرعون (س) سخي اليد في بناء الآثار (آخ ــ منو) " ويتمثل المثال الأكثر شهرة، في هذا الصدد، في قاعة الأعمدة التي بناها الفرعون "تحوت - موسي" الثالث على الضلع الشرقي لمعبد "أمون" في الكرنك.

الأكادية : لغة تنتمي للفرع الشرقي من عائلة اللغات السامية التي تكلم بها سكان وادي دجلة والفرات منذ الألف الثالث ق. م .وكانت تُستخدم خلال عصر "أخناتون" كلغة دبلوماسية في سائر أرجاء الشرق الأوسط القديم.

ألالاخ : مدينة تقع في شمال سوريا .وكانت عاصمة لدولة "موكيش".

حري-شا-اف :حرفياً "هو الذي يقف على بحيرته" وهو اسم الإله-الكبش الذي انتشرت عبادته في مديرية الفيوم في مصر الوسطى. وقد نطقه وكتبه اليونانيون على هذا النحو : "أرسافيس "

أتريب : مدينة تقع في المديرية العاشرة في الوجه البحري قرب رأس الدلتا على بعد نحو ٣٠ ميلاً شمالي مدينة "أون" أو "هيليوبوليس".

حصة الخباز : عدد الأرغفة من نوع معين (أي مشمول الدقيق) التي تخرج من ويبة القمح.

باكي : حصن في بلاد النوبة على الضفة الشرقية لنهر النيل يقع على بعد حوالي ٦٥ ميلاً جنوبي جزيرة "إليفانتين".

بوغاز كوي :هو الاسم الحديث للموقع الذي ضم حاضرة الحيثيين في أواسط آسيا الصغرى.

رئيس كهنة الترتيل : (باللغة المصرية : "ذاك الذي يحمل لفة الكتاب ") وهو الكاهن المسؤول عن المحافظة على صيغ العبادة وحفظها بالإضافة إلى التراتيل التي تصاحب الشعائر المقدسة.

كويل-سوريا : مصطلح هيلينستي (يوناني-شرقي) يطلق عادة على الأطراف الجنوبية لسوريا فيما بين الساحل وجبل الشيخ.

ديبين :مقياس مصري قديم للوزن يساوي بالتقريب ٩١ جراماً.

الدير البحري : اسم عرفته المملكة الوسيطة لمعبد الملكة "حتشبسوت" ذي الشرفات التي تطل على الضفة الغربية للنيل قرب "طيبة".

مخصص :علامة هيروغليفية توضع في نهاية الكلمة كي تشير، بصفة عامة، إلى النوع الذي تنتمي إليه هذه الكلمة.

دراع أبو النجا : الاسم الحديث لذلك القطاع من جبانة "طيبة" الذي يمتد شمالي معبد "حتشبسوت "في الدير البحري.

أيام النسيء : الأيام الخمسة التي تأتي في نهاية التوقيت المدني في مصر القديمة وتشير إلى أيام ميلاد الآلهة الخمسة "أوزيريس" و"إيزيس" و"سيت" و"نفتيس" و"حوريس".

فنخو :هو الاسم الذي أطلقه المصريون القدماء على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وفي وقت لاحق عرفوها باسم "فينيقيا".

خندق أنبوب الغاز:وحدة طولية في عمليات التنقيب تصل مساحتها، بصفة تقريبية، إلى ٣ في ١٠ ، وهي وحدة تمكن المنقبين من الفحص الدقيق للطبقات المتراكمة، الواحدة على الأخرى، حيث يقومون برفع ما يتطلبه الأمر من طبقات.

جب : اله الأرض في المجمع الإلهي المصري وهو ابن اله الهواء "شو" ووالد كل من "إيزيس" و"أوزيريس". وكان "جب" وريث الآلهة، وخلاله يمر الحق في بسط السلطان الشامل.

والد الإله :لقب تحمله رتبة خاصة من رتب الكهنة في المستويات العليا من كهنوت المعبد، كما كان لقباً يطلق على رب عائلة الأسرة المالكة، أو حمي الفرعون أي والد زوجته.

دوار الذهب : ورشة الحرفيين حيث يجرى صوغ تماثيل العبادة للآلهة إلى جانب تصنيع مختلف اللوازم المقدسة الأخرى.

الخماسين : رياح جافة شديدة الوطأة تهب على مصر وشمال أفريقيا لمدة

خمسين يوماً على وجه التقريب في شهري برمهات (مارس) وبرمودة (أبريل).

حتحور :كانت في الأصل، وعلى ما يبدو، رمزاً لقصر الفرعون، وأصبحت إبان المملكة الحديثة إلهة الحب والجمال والأنوثة في موطن عبادتها في "دندرة" في المديرية السادسة بالوجه القبلي.

حجر حم-جت : هو العقيق الأحمر على وجه الترجيح.

بيت أوخبر-كا-رع : قصر الإقامة الذي بناه الفرعون "تحوت-موسي" الأول وظل خلفاؤه يشغلونه من وقت لآخر على امتداد السنوات المائة والخمسين التالية.

الهكسوس : حرفياً : "الحكام الأجانب" وهو اسم أطلقه المصريون القدماء بصفة عامة على أي رؤساء دول ينحدرون من أصول أجنبية. وقد شاع هذا الاسم أكثر ما شاع بين المصريين القدماء على أولئك الملوك العموريين الذين أخضعوا مصر لسيطرتهم، وحكموها في الفترة من ١٦٦٥ ق.م.إلى سنة ١٥٥٧ ق.م. على وجه التقريب. وهم الذين شكلوا الأسرة الخامسة عشرة وفقاً للمؤرخ المصري "مانيتون" الذي كتب تاريخه باللغة اليونانية.

إفاو IFAO : المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، وهو معهد فرنسي مقره القاهرة يعنى بالدراسات الأثرية واللغوية والتاريخية في مصر.

الفترة الانتقالية : مصطلح يطلق على فترتين اثنتين في تاريخ مصر جلب الملوك الضعاف، خلالهما، على مصر المعاناة الاقتصادية والفوضى. وتقع الفترة الأولى ما بين ٢١٨٠ - ٢٠٥٠ ق.م.على وجه التقريب والثانية ما بين ١٧٧٨-١٥٥٠ ق.م. على وجه التقريب.

إتر (في الملاحة) : مقياس طولي يتراوح حول ١٠,٥كيلومتراً أو ٦,٥ ميلاً.

خانيجالبات : اسم جغرافي-سياسي يطلق على وادي "دجلة" شمالي "آشور" والقطاع الشرقي من سهل الرافدين، وكانا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ق.م. جزءاً من الإمبراطورية الميتانية وكان هذا الاسم يستخدم بين الحين والآخر بدلاً من "ميتاني" في الألقاب الملكية.

خاتي :اسم آخر للملكة الحيثية في آسيا الصغرى (تركيا الحديثة). وكانت عاصمتها "خاتوساس".

خاتوساس :عاصمة "خاتي "و هي "بوغاز-كوي" الحالية.

خنوم : الإله-الكبش الذي كان معبود جزيرة "إليفانتين" في المديرية الجنوبية القصوى بالوجه القبلي، ويتميز "خنوم" بصفته اله الخلق.

خبري : أحد الأرباب الشمسية. سادت عبادته في "أون" (هيليوبوليس) وامتدت إلى أماكن أخرى على هيئة "جعران" (خبر)، صار بالتقمص أحد أشكال "رع".

ضريح كو : اسم عام يطلق على أي منشأة جنائزية حيث تعبد روح المتوفى (قرينه) وتقام لها الطقوس.

كوش :مصطلح جغرافي أخذ يسود في الاستعمال بصورة متزايدة اعتباراً من المملكة الوسيطة فصاعداً للدلالة على الأراضي السودانية جنوبي الشلال الثاني على نهر النيل.

الفترة المتأخرة :الأسر التي تبدأ بالحادية والعشرين حتى الرابعة والعشرين أي من سنة ١٠٧٠ حتى ٧١٢ ق.م. على وجه التقريب، وهي فترة ضعف الحكومة ووقوعها تحت سيطرة العناصر الليبية المقيمة في مصر.

الملقطة :الاسم الحديث للموقع الكائن على الضفة الغربية قرب "طيبة" حيث كان قصر "أمين-حوتب" الثالث قائماً.

ماري :مدينة تقع في أواسط حوض نهر الفرات، وكانت حاضرة لمملكة يسودها الرخاء خلال الفترة التي تمتد ما بين ٢٠٠٠و ١٧٠٠ ق.م. على وجه التقريب. وتشتهر بعشرات الآلاف من النصوص التي اكتشفها المنقبون في أراشيف القصر.

اللاهوت المنفي :دراسة لاهوتية تاريخها مجهول، وإن كان ضارباً في أعماق القدم، نعرفها خلال نسخة حديثة ترجع إلى حوالي ٧٠٠ ق.م ، وهي النسخة التى تضع الإله "بتاح" أقنوماً للحياة والفكر ، كما تشير إليه بوصفه أساساً للوجود أجمع.

مين :إله قديم للخصوبة وعبادة الأسلاف. سادت عبادته في مدينة "قفط" شمالي "طيبة". يظهر في غالب الأحيان في شكل "فالوسي" (أي منتشر العضو.م)

نباتا : مدينة نوبية قديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل داخـــل المنحنـــى. تكبير للنهر عند لسان "دنقلة". وكانت مركزاً إدارياً تحت ظل حكم "تحوت-موســي" الثالث ثم أصبحت في وقت لاحق مقر الملوك السودانيين المحليين.

نخبت :الإلهة الحارسة للوجه القبلي. وتصور عل هيئـــة رخمـــة. وســادت عبادتها في "الكاب" في المديرية الثالثة للوجه القبلي.

المملكة الحديثة : اسم يطلق على فترة متأخرة من الإمبراطورية المصرية، تشـــمل الأسر التي تبدأ من الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين، أي حوالي ١٦٠٠ حتـــى ١٠٧٠ ق.م.

الأقواس التسعة : الأعداء التقليديون لفرعون مصر (وهم عبارة مجموعات عرقيـة أجنبية بصفة رئيسية)، ويصورهم الفنانون كأقواس حقيقية تحت قدمي الفرعون.

نيــيا :مدينة بشمال سوريا على بعد غير بعيد من المستنقعات التي كـــانت تغص بالأفيال ولا تبعد كثيراً عن مدينة "أباميا" Apamea التي عرفناها في وقـــت لاحق.

نومارش :حاكم مديرية، والاسم مشتق من كلمة "نوم" NOME اليونانية وكـــان الفرعون يقوم في العادة بتعيينه ولكن المنصب كان يصبح وراثياً في الغـــالب فـــي فترات الضعف الذي يعتري الحكومة المركزية.

ويبـــــة :مكيال للحبوب يساوي كيلتين على وجه التقريب.

المملكة القديمة : اسم يطلق على الفترة التي تشمل الأسر الثمـــاني الأولـــى فـــي التاريخ المصري حوالي ٣١٠٠ حتى ٢٢٠٠ ق.م. وهي العصور التـــي قـــامت فيها ملكية مركزية قوية اتخذت حاضرتها في "منف" واشتهرت ببناء الأهرامـــات على نطاق واسع.

أوزيريس حقا-جت : أحد تجليات أوزيريس (تعني حرفياً سيد الأبدية) وقد تقدس هذا التجلي من تجليات اله الموتى على نحو خاص في ضريح صغير أقيم له فـــي شرق الكرنك حوالي ٧٣٠ ق.م

برع :اسم "رع" ولقد ألحقت به أداة التعريف (للمذكـــر . م) "ب". وقـــد انتشـــر الاسم في أواخر الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

بتـــاح : (حرفياً فتاح) اله محلي لإقليم منف يرتبط بروابط خاصة مع الخلـق والملكية. (راجع اللاهوت المنفي).

قفطـــي : ابن مدينة "قفط" أو كوبتوس (إبان العصر البطلمـي) إلـى الشـمال مباشرة من مدينة الأقصر الحديثة. وقد قام السير "فلندرز بتري" بتدريـب أبنائـها على فن التنقيب الدقيق حتى صار الطلب عليهم شديداً كمنقبين متخصصين.

رخيت :طائر يعرف باسم "أبو طيط" ويتميز بجناحيه المعقوفين للوراء ، وكـان الفنانون يستخدمونه في رسوماتهم كشعار يمثل الأهالي.

الأسرة الصاوية :اسم يطلق على الأسرة السادسة والعشرين (مـن ٦٦٤ إلـى ٥٢٥ ق.م.) نتيجة لأصلها الذي يرجع لمدينة "سايس" في الدلتا، وهي فترة العودة للقديم وتوفير النماذج القديمة.

شعوب البحر : ائتلاف ضم عدداً من الشعوب التي تجوب البحار، وتعتمل فـي أعماق أبنائها غرائز القراصنة، وقد تكون هذا الائتلاف في الأصل فـي مواطنـهم الأولى في سواحل "إيجة" و"أيونيا" في آسيا الصغرى، وقد انقضـوا علـى آسـيا الغربية ومصر خلال الفترة التي تقع بين ١٢٢٠ و ١١٩٠ ق.م. على وجه التقريب وهم الذين دشنوا العصر الحديدي.

سخمـت : إلهة النحر والوباء (و الحرب والقتال.م.) التي تحمل على كتفيـها رأس لبؤة، ترتبط في غالب الأحيان بالحرارة المتقدة التـي تنبعـث مـن "عيـن الشمس".

شاسـو : اسم نوع عام يطلق على القبائل غير الحضرية، شـبه البدويـة مـن الشعوب الناطقة باللغة السامية الغربية، التي كانت تحتل منطقة النقـب ومختلـف المناطق الأخرى في فلسطين وسوريا.

تلك-التي-تعطي-وجهها-لربها : اسم يطلق على "طيبة" القديمـة التـي تشـغل الضفة الغربية قبالة الكرنك مباشرة.

شومـو : فصل الحصاد أي الصيف في التوقيت المصري القديم.

شـو : اله الجو والهواء، وهو ابن "أتوم" الخالق ووالد الأرض "جب" والسـماء "نوت".

صايــــل : حصن حدودي يقع عند الحدود الشمالية الشرقية لمصر، قبالة صحـراء سيناء.

أون الجنوبية : لقب يطلق بين الحين والآخر على "طيبة" وكان يطلق في بعـض الأحيان النادرة على "هيرمونثيس".

أبناء الشمس : ترجمة مؤقتة للكلمة المصرية (ح ن م م ت) التـي تشـير إلـى المصريين بصفتهم عرقاً.

طاهر-كا : الملك الثالث في الأسرة الخامسة والعشرين التي دام حكمها لمصـر من ٦٩٠ إلى ٦٦٤ ق.م. وكانت هذه الأسرة سودانية الأصل والمـــولد. ولقد بذل "طاهر-كا" جهودا مكثفة كي يعيد تعمير "طيبة" ومعبد آمون ولكن الغـزاة الآشوريين نفوه من مصر.

تاخــسي : إقليم سوري يقع شمالي دمشق.

تـــاروي : منطقة سودانية لم يستدل على موقعها.

تحــوت : كاتب الآلهة، يرتبط اسمه بالحكمة والمعرفة والكتابة والفنون. كما يرتبط بصورة أوثق بطائر أبو منجل وبالقرد الأفريقي. وقد انتشرت عبادته علـى وجه الخصوص في الأشمونين (هـيرموبوليس) علـى الضفـة الغربيـة قبالـة "أخيتاتون".

التحامسة :عائلة "تحوت-موسي" الأول والمنحدرين منها، ونستخدم هذا الاسـم في الكتاب الذي بين يدي القارئ كمرادف للأسرة الثامنة عشرة.

لائحة تورينو : بردية يرجع تاريخها إلى الأسرتين التاسـعة عشـرة والعشـرين، تحمل على ظهرها نسخة لملوك مصر من "بتاح" مؤسـس وخـالق البـلاد حتـى الرعامسة (على وجه الاحتمال). وهذه هي القائمة الوحيدة الصادقة لملوك مصـر، التي نجت من عوادي الدهر عن العصور الفرعونية.

الأسرة الثانية عشرة : العائلة المالكة ذات الأصول الجنوبية التي تسـلمت زمـام السلطة في الفترة من ١٩٩٥ حتى ١٧٧٨ ق.م. على وجه التقريب، وهي العائلـة التي أعادت توحيد مصر بعد الحرب الأهلية التي مزقت وحدتـها. ولقـد منحـت إدارتها الموفقة البلاد عصرا كلاسيكيا جديدا.

الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون : عائلتان تنحدران من أصول ليبية تربعتا على عرش البلاد في الفترة ما بين ٩٣٠ و٧١٢ ق.م. على وجه التقريب وهي فترة اتسمت بالضعف النسبي والعزلة.

أوجاريت : مدينة كبرى ودولة على الساحل السوري للبحر الأبيض المتوسط، إلى الجنوب مباشرة من مصب نهر العاصي. ولقد ألقت الأرشيف الملكية التي اكتشفها المنقبون الفرنسيون ، فيضا من الضوء على تاريخ سوريا وثقافتها وديانتها في الفترة ما بين ١٥٠٠و ١٢٠٠ق.م.

ريتينو العليا : اسم شائع، وإن كان غامضا، أطلقه المصريون على الأقاليم العليا لفلسطين وسوريا.

وادي طميلات : حوض ضحل تصب فيه السيول أو منخفض، يبدأ من موضع ما بعيد شرق مدينة "بوباستيس" (تل بسطة حاليا) ويتجه شرقا حتى البحيرات المرة على الضلع الشرقي للدلتا، وكان هذا الوادي بمثابة مدخل للبدو إلى مصر والطريق الذي سلكه المصريون إلى مناجم الفيروز في سيناء.

واسوكاني : عاصمة مملكة "ميتاني" ولم يستدل حتى تاريخه على موقعها على الخريطة.

هوامش المترجم**

**نهر أورونتيس ORONTES هو نهر العاصي الذي ينبع من وادي البقاع في أواسط لبنان كي يتجه شمالا بين سلسلة الجبال التي تشكل لبنان.

** يصف المؤرخون علماء المصريات فرعون مصر "تحوت - موسي" الثالث بأنه نابليون العالم القديم دون "واترلو" أي دون هزيمة واحدة. فلقد حقق الفرعون العظيم، الذي كان دائما على رأس جيشه، نصرا حاسما على أعداء مصر خلال كافة حملات التأديب السبع عشرة التي قادها في المشرق .وأبرز هذه الحملات هي تلك التي شملت معركة "مجدو" التي دارت رحاها في السنة الثانية والعشرين من حكمه أي في أواخر ربيع ١٤٨٣ ق . م وهي المعركة التي فاجأ خلالها تحالف الأسيويين الغربيين في مدينة "مجدو" بسلوكه طريقا جبليا وعرا فيما كان أعداؤه ينتظرون قدومه عبر الطريق الساحلي وأنزل بهم هزيمة قاسية انعكست في خراريفهم المقدسة في أوقات لاحقة، وخصوصا ما يسمونه بـ "الهرمجدون".

** هاتاي إقليم يقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في تركيا الحديثة. ويحده من الغرب خليج الإسكندرونة ومن الجنوب والشرق سوريا. وتصل مساحته إلى نحو ٨٥٩, ٥ كيلو مترا، ويضم سهلا شاسعا يرويه نهر العاصي. وكان الإقليم قبل سنة ١٩٣٩ جزءا من سوريا وكان يسمى وقت ذاك لواء "الإسكندرونة".

** يعد كل جندي محاربا ومقاتلا،على الأقل من الناحية النظرية، أما المحاربون المقاتلون فليسوا جنودا. والأولون هم الذين ينهضون إلى الحرب مشدودين بإيمانهم بقضيتهم (جيش علي) أما الجنود فهم الذين يتحركون إلى ميادين القتال مدفوعين بمرتباتهم وامتيازاتهم (جيش معاوية). وتتمثل ذروة مفهوم الجندية "العسكروت" في الجندي المرتزق الذي انتهت مصر القديمة إلى استجلابه سواء من غرب آسيا أو جنوب أوروبا .ولمزيد من التفاصيل يجدر الرجوع إلى كتاب العالم الأمريكي : "سو مانسفيلد" الذي عنونته بعنوان "The Geschtalt of War"

** تقول "كريستيان ديرش نوبلكلور" في كتابها ("توت-عنخ-أمون" حياة

فرعون ومماته) ترجمة : أحمد رضا ومحمـــود النحـــاس ص١١٧ : الواقـــع أن الزوجة الملكية الكبرى (تي) لم تكن أميرة بحكم الدم، فأبـــوها "يويا" وأمها "تويـــا" من كبار موظفي كهانة أمون. وكانا يتوليان فوق ذلك مناصب إدارية إقليمية تـــدل على الأرجح على موطنهم. كان الأب إذن من كهنة الإله "مين" والمشرف علـــى ميراث "مين" في "أخميم". أما الأم فكانت رئيسة حريم "مين". وأصبح الإثنان فـــي بلاط فرعون من أرفع الشخصيات .وكان "يويا" يحمل قبل كل شـــيئ لقـــب "الأب الإلهي "وهو اللقب الذي يعتبره البعض إسما لحمي الفرعون. وكان يتمتـــع أيضـــا بلقب قائد العجلات الحربية. وذلك فضلا عن وظائف أخرى كانت تربطه بـــالملك وبضياع "أمون" الطيبية أما زوجته فكانت تشغل منصب رئيســـة حريـــم "أمـــون" الهام. وأما الملكة "تي" ابنة هذين الريفيين اللذين يحتمل أن يكونا من أصل نوبـــي حسبما تدل عليه بجلاء مومياواهما اللتان اكتشفها في وادي الملوك فإنها أصبحـــت السيدة الأولى في الإمبراطورية إذ أقامها الفرعون ملكة على البلاد.

و يقول عالم المصريات البروفيسور الألماني "ديتر كيسلر" في مقال له فـــي كتـــاب " Ägypten : Die Welt der Pharaonen. Konemann 1997 بعنـــوان" : " Die politische Geschiche der 18 bis 2." ما يلي :

Auf Genenk–skarabaen verkundete er seine Hochzeit mit Teje , einer Tochter eines einflussreichen Hofbeamten aus der Gegend von Achmim. p. 146.

و معناه : { أعلن (أي "أمين – حوتب" الثالث) خلال جعران تذكاري زواجه مـــن "تي"، وهي ابنة أحد الشخصيات البارزة ممن يعملون في البلاط الملكي، وهو مـــن منطقة "أخميم" }، أي أن العالم الألماني لم يشـــر من قريب أو من بعيد إلى أن والـــد "تي" وهو "يويا" كان أجنبيا.

**تشير "اليزابيث رايفشتال" في هذا الصدد في كتابها (طيبة في عهد "أمين-حوتب الثالث ") ترجمة : إبراهيم رزق ص ١٣٨، إلى أن اســـم قصـــر "أميـــن-حوتـــب الثالث": بيت الأفراح يوحي للأسماع في عصرنا بما يشبه العربدة، مع أنـــه علـــى النقيض من هذا اسم ديني مقدس أطلقه الملك على قصره بمناسبة الاحتفال بيوبيلـــه للدلالة على الفرحة والبهجة بتجديد ولايته.

**يتساءل كل من "كلودين رولان" و"ديدييه جروسبان" فـي كتابـهما المشـترك "نفرتيتي ؛ الحلوة جات " Nefertiti , la belle qui est venue هل سعي الفنانون (المصريون) خلال لجوئهم لهذه السمات الخنثوية إلي تصوير الدور السحري الذي يقوم به الفرعون أي ذلك المبدأ الذكري-الأنثوي الخالق لكافـة أشـكال الحيـاة ؟ ويضيفان : قد يكون من الصعب تقديم جواب حاسم، ولكنه مـن الأفضـل لنـا أن نبحث عن الجواب المحتمل في النزعة الرمزية للفن المصري عوضاً عن الجـري خلف نظريات زائفة الطابع العلمي .ويجدر بنـا أن نعيـد إلـى الأذهـان أن الـه "أخناتون" أي "أتون" كان بمثابة "الأب والأم لكل ما خلقه". ولم يكـن أخنـاتون إلا صورة من إلهه.

**يرى العالم الألماني "أدولف إيرمان" في كتابه Life in Ancient Egypt أن العبادة لم تكن تقصد وجه اله شمسي. ولكن قرص الشمس المادي ذاته، الذي يغـدق بأياديه التي تنتهي بها أشعته على الكائنات الحية، الحياة الأبدية الكامنة فيه .وبالتالي لم يحمل هذا الإله الجديد اسم أي من الآلهة الشمسية القديمة ولـم يسـمّ باسـم "شمس" وحسب بل أطلق عليه اسم "أتون" أي قرص الشمس. وهذا اسم لـم يدنسـه أي استعمال في الديانة القديمة.

**تقول "جوليا سامسون" في كتابها "نفرتيتي: الجميلة التي حكمت مصر" ترجمـة : مختار السويفي، في هذا الصدد : وهي الملكة الوحيدة – طوال التاريخ المصـري القديم – التي صممت لنفسها تاجاً خاصاً أصبح من المعالم الهامة لشخصيتها. ولقـد استوحت "نفرتيتي" تصميم تاجها ولونه الأزرق من تاج الحرب "خبرش" الذي كـان الفراعنة المحاربون يرتدونه كرمز عسكري.

**يرى "أو.آر.جورني O.R.Gurney" في هذا الصدد فـي كتابـه "الحيثيـون ترجمة: محمد عبد القادر محمد، رأياً مختلفاً قليلاً إذ يقول : لكن الخطة فشلت فقـد نبئنا أن الأمير الحيثي قتل عند وصوله مصر، وقتله على ما يظن الكاهن "آي" أحـد رجال القصر الملكي الذي أصبح الملك "الفرعون" التالي على مصر. ويبدو أنـه تزوج "عنخ-إس-إن-أمون" ليبرر بذلك شرعية بلوغه العرش. ومما لا شـك فيـه هذا هو الزواج الذي حاولت "عنخ- إس-إن-أمون" أن تتخلص منه بالتجائها إلـى

الملك الحيثي.

**كان نظام الحكم في مصر القديمة يأخذ بمبدأ توارث العرش، أي أن يكون الفرعون من البيت المالك سواء أكان قد عين من قبل ولياً للعهد (على سبيل المثال"سنوسرت" الأول، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة سنة ١٩٧٠ ق.م.) أو كان أحد أمراء البيت المالك (على سبيل المثال "تحوت-موسي" الثالث سنة ١٤٩٠ ق.م.) أو ابناً لإحدى أميرات الأسرة المالكة (على سبيل المثال "تحوت-موسي" الثاني سنة١٤٩٥ ق.م.). وفي حالات قليلة كان يتولى العرش بصفته زوجاً لإحدى أميرات البيت المالك (كما فعل "توت-عنخ-أمون" الذي حكم مصر من ١٣٤٣ إلى ١٣٣٤ق.م.). ولما كان "حورمحب" من عامة الشعب فلم يكن من سبيل أمامه لتصحيح هذا الوضع وإضفاء صفة الشرعية على توليه العرش سوى أن يتزوج أميرة من أميرات البيت المالك وفعلاً تزوج من الأميرة "موت-نجمت" ليضفي صفة الشرعية على توليه عرش مصر. ولقد تزوج هذه الأميرة في نفس اليوم الذي تمت فيه مراسم تتويجه فرعوناً على مصر. "تشريع حورمحب" ترجمة د. باهور لبيب. الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢. ص١٨،١٩.

*** راجع ملحق "هامش على متن" في كتاب "حاضر الثقافة في مصر" تأليف المترجم، حيث يتناول الملحق، ربما لأول مرة، على وجه الإطلاق، الفروق بين الأتونية والموسوية، بالإضافة إلى عدة مسائل أخرى.

صلاة أخناتون

(١) أنت، يا من يشرق بجماله في أفق السماء.

(٢) أنت، أيتها الشمس الحية التي وجدت منذ الأزل.

(٣) يا من يضيء المشرق بنوره.

فتملأ الأرض بجمالك.

(٤) أيها الجميل القوي الرائع، العلي فوق الأرض.

هذه أشعتك تغمر الأرض فتحيط بما خلقت جميعاً.

(٥) وإنك لتدرك آخر الأرض رغم ارتفاعك عنها فتجمع لولدك أطرافها.

(٦) تعاليت فامتد نورك على الأرض.

(٧) أيها الظاهر الباطن.

يا من إذا استويت في غرب الكون باتت الدنيا في ظلام يشبه الموت.

فإذا الناس في المضاجع، وإذا رؤوسهم في غطاء،

فلا ترى عين أخرى،

ولا تلبث دواب الأرض أن تغادر أوكارها،

ولا تلبث الزواحف أن تدب بالأذى،

ويبيت الكون في سكون، لأن خالقه قد أمسى من وراء هذه الدنيا،

فإذا ما احمر شفق الصباح، طلعتَ على الكون شمساً، فإذا الدنيا نهار.

أنت في قلبي، وليس في الدنيا من يعرفك غير ولدك الملك،لأنك

أعطيته القدرة،على إدراك بأسك وقوتك.

يهلك العالم إذا أردت (أي أن الكون رهن إشارتك) لأنك أبدعته (لأنك بارئه)

فهو حياة إذا طلَعْت، وهو موات إذا غَرُبْت.

(١٠) أنت آية الحياة ولا حياة إلا بك.

ما تكاد تقذف بأشعتك، حتى يتمزق رداء الليل.

فإذا الأرض تهلل.

وإذا الناس أيقاظ.

لأنك بعثتهم من رقاد.

فإذا هم يغتسلون ويزّينون أنفسهم باللباس.

ليتجهوا إليك بصلاة الشكر.

(١١) وإذا الدنيا عاملة.

وإذا الأنعام في المراعي.

(١٢) لأن نورك قد نضر ما في الأرض من أشجار ونبات.

وإذا الطير قد غادرت أوكارها،

وأخذت تضرب بأجنحتها في الفضاء مسبحة بحمدك.

وتمد الماشية سوقها لترتع كيف تشاء.

وتتحرك الخلائق من كل دابة.

لأنك أضأت لها الكون.

(١٣) والفلك تجري في اليم مصعدة وهابطة.

والسمك يسبح في الماء تحت نور طاعتك الذي نفذ إلى أعماق الماء.

(١٤) مبدع الأجنة في الأرحام، وخالق النطفة في أصلاب الرجال.

مُطعم الجنين في بطن أمه، ونافخ الحياة في أديمه.

فإذا ما خرج إلى الدنيا فتحت له فمه، وحركت لسانه وشفتيه.

(١٥) بارئ الفرخ في البيضة، يتحرك فيها بأمرك.

فإذا ما رزقته القوة على كسرها، غادرها إلى الدنيا ساعياً على قدميه.

(١٦) ألا ما أعظم ما ظهر للناس من بدائع خلقك، وما خفي كان أعظم.

أيها الواحد الأحد، الذي لا إله غيره.

خلقت الأرض على هواك أيها الواحد الأحد.

لك الخلق من ناس، وحيوان، ودابة.

(١٧) *خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر* **

أعطيت كلاً مكانه، وقدرت له رزقه.

(١٨) ثم ميزت شعوبها باختلاف ألسنتهم، وألوانهم وأشكالهم.

(١٩) أغثت العالم من وراء مصر وحيوان الصحراء بماء السماء.

ثم فجرت النيل لمصر من باطن الأرض.

حتى لقد أُجهدت من أجلهم.

(٢٠) مبدع الفصول والأهلة، لتنظيم ما خلقت يداك.

جعلت لهم شتاءً ليذوقوا البرد، وأحميت لهم الأرض قيظاً ليذوقوا بأسك.

(٢١) ثم رفعت السماء على الأرض لترسل منها ضياءك.

(٢٢) واستويت على عرشك (فيها) لتشهد من تحتها خلقك عندما تُشْرق آياتك في نور السماء.

(٢٣) بارئ ملايين الخلق من نفسك.

(٢٤) مبدع المدائن والقرى والزروع وهو واحد (أحد).

*** نقلاً عن ترجمة "أحمد بدوي" في موكب الشمس.**

الجزء الثاني من ص٨١٦ إلى٨٢٢.

****أخناتون. عبد المنعم أبو بكر ص٩٨ .**

Abbreviations

ANET	J.B.Pritchard , ed., *Ancient Near Eastern Texts Relating To the Old Testament*, 3rd ed (Princeton , 1969)
ASAE	*Annales du Service des antiquites de L' Egypte.*
BASOR	*Bulletin of the American Schools of Oriental Research.*
BIFAO	*Bulletin de L'Institut francais d' Archeologie Orientale.*
CdE	*Chronique d' Egypte.*
EA	J.A.Knudtzon , *Die el-Amarna –Tafeln*)Leipzig , 1907 1915)
GM	*Gottinger Miszellen.*
JAOS	*Journal of the American Oriental Society.*
JARCE	*Journal of the American Research Center in Egypt.*
JCS	*Journal of Cuneiform Studies.*
JdS	*Journal des Savants.*
JEA	*Journal of Egyptian Archaeology.*
JEOL	*Jaarbericht , Vooraziatisch – Egyptisch Gezelschap : Ex Oriente Lux*
JNES	*Journal of Near Eastern Studies.*
JSSEA	Journal of the Society for the Study of Egyptian Antiquity.
LdA	*Lexikon der Agyptologie* (Wiesbaden , 1972 -...)
MDIAK	*Mitteilungen des deutchen Institut fur agyptische in Kairo*
MIOF	*Mitteilungen des Instituts fur Orientforschung.*
RdE	Revue d' Egyptologie.
ROM	Royal Ontario Museum.
SAK	*Studien zur* altägyptische *Kultur*
Urk	*Urkunden des agyptschen Altertums (Leipzig , 1903-)*
ZAS	*Zueitschrift fur agyptische Sprache und Altertumskunde*

References & Comments

Chapter One ,

1. D.B. Redford : History and Chronology of the Egyptian Eighteenth Dynasty: Seven Studies (Toronto , 1967) , 71 , 78.
2. W.C. Hayes, JNES 12 (1953) , 31ff, idem , Cambridge Ancient History (Cambridge , 1961) , ch. 2., 44f.
3. B.Schmitz, Untersuchungen zum Titel S3- NJSWT , Konigssohn (Bonn , 1976) , 255 ff.255 ff.
4. On Hittites, Hurrians and Mitanni , See O.R.Gurney, The Hittites (Harmondsworth , 1962) : W. Hallo and W.K.Simpson The Ancient Near East, A History (New Haven , 1973) , 1.5 f.
5. Urk. 1V,1254.
6. Urk, 1V, 758
7. Urk, 1V,1333
8. Urk, 1V, 1229.
9. Urk, 1V,123..
10. Urk.1V, 184.
11. Urk, 1V,651.
12. Urk, 1V,9.
13. Urk, 1V,85.
14. Urk, 1V, 1.2.
15. D.B. Redford, JAOS 99 (1979), 27. ff
16. Urk , 1V,1231, A.J. Spalinger, 37 (1978), 35ff
17. Urk, 1V, 1233.

Chapter Two

1. On the military in New Kingdom Egypt , see especially W. Helck , Die Einfuss der Militarfuhrer in der 18 agyptischen Dynastie (Leipzig , 1919) , And A.R. Schulman , Military Rank, Title and Organisationin the Egyptian New Kingdom (Munich 1964).
2. Urk , 1V , 1370.
3. Urk , 1V, 1441.
4. Urk , 1V , 1020f.
5. Urk , 1V , 1369.
6. On Egypt and Nubia in ancient times see especially A. J. Arkell , A History of the Sudan to 1821 (London , 1961) W.B.Emery, Egypt in Nubia (London , 1965) B. Trigger , Nubia under the

Pharaohs (Boulder , Colo. ,1976).
7. Urk.,1V, 720f.
8. On the organisation of the Asiatic provinces , see especially R.Giveon , The Impact of Egypt on Canaan (Cottingen , 1978), W. Helck , Die Beziehungen Agyptens zur Vorderasien (Wiesbaden , 1972) , J.M.Weinstien, BASOR 241 (1981) , 1f.
9. Urk , 1 V, 1442.
10. But see J.M.A.Janssen , JEOL 17 (1963) , 141ff.
11. J.J.Janssen , Two Ancient Egyptian Ships Logs (Leiden, 1961) , 73.
12. W.Helck , Oriens Antiquus 5 (1966), 2ff ,R. Stadelmann, Syrisch Palestinensische Gottheiten in Agypten (Leiden , 1967).
13. J.Cerny , JNES 14 (1955) 161ff.
14. Anastasi , i.2..
15. R.A.Caminos , Literary Fragments in the Hieratic script (Oxford , 1956).
16. Urk. 1V, 1245.
17. Urk, 1V, 1279.
18. Urk , 1V, 1280.
19. Urk , 1V,1341 f.
20. Urk , 1V , 1385 f.

Chapter Three

1-J.E.Quibell , The Tomb of Yuua and Thuiu (Cairo , 1908) , J. Yoyotte, Kemi 15 (1957) , 25ff.
2-Urk, 1V, 1741.
3-EA 312.
4-EA 4.
5-B. Van de Walle , CdE 43 (1968) , 36FF.
6- Urk , 1V, 1739 f.
7-Urk , 1V, 1659 f.
8- Urk , 1V, 1664.
9- See Hallo and Simpson , Ancient Near East p. 71ff and the literature their cited , J.M.Munn-Rankin , Iraq 18 (1956) 68ff.
1.-Cf.K.Polanyi, Trade and Market in the Early Empires (Glencoe , 111 , 1957) , 262 , J. Van seters , Archaeological News 8 (1979) , 35 ff.
11- EA4:36- 50.
12- EA 1 : 11ff , 37 ff.
13- EA 19 , 21.
14- Urk , 1V, 1648.
15- Urk , 1V, 1681.

16- See W.S.Smith, Art and Archticture in Ancient Egypt (Harmondsworth, 1958) , 16. ff, D.O.Connor, Expedition (Summer 1979) 52 f., idem, Excavations at Malkata and Birket Habu 1971-74 (Warminster , 1977)
17-C.F.Nims, Thebes of the Pharaohs (London , 1965) , G. Bjorkman , Kings at Karnak (Uppsala , 1971).
In General see W.Helck, Zur Verwaltung des Mittlerenund Neuen Reichs (Leiden , 1958)
19 – A. Varille, Inscriptions concernant L' architect Amenophis fils de Hapou (Cairo , 1968).
20-Urk. 1V, 1820 ff.
21-D. Wildung , Imohotep und Amenohotep (Munich , 1977).
22-Urk , 1V, 1891.
23-C.F.Nimset al., The Tomb Kheruef (Chicago , 1980).
24-See W.C. Hayes , JNES 1. (1951) , 35ff.
25-EA 1: 88ff.
26-EA2 : 18 ff.
27-EA 1: 72 ff.
28-EA 23.
29-D.B. Redford, JNES 25. (1966) 120f.

Chapter Four

1- See C. Aldred , Akhenaton , Pharoh of Egypt (London) , 1968 , 133f.
2-Hayes , JNES 10 (1951) , 172 , fig , 27 (kk.)
3-Aldred , Akhenaton , fig 18.
4-N. Davies, The tomb of the Vizier Ra-mose (1941) , pl.36
5- Urk, 1V. 1962.
6-Urk. 1V.1996
7-See E.Rieftsahl, Thebes in the Time of Amenhotep 111(Norman, Okla.,1964)
8-The name appears on a block, still in the east wing of pylon 10, on Which can be read ' the gate (named) , Neferkheprure Wa' enre is [...].'
9-See E.F.Wente and C.Van Siclen, Studies in Honor of George R.Hughes (chicago, 1976), 217 ff.
10-K. Mysliwiec, Le Portrait royal dans le bas-relief de nouvel empire (Warsaw,1976) 75ff.
11-See R. Saad in The Akhenaton Temple Project, Vol. 1; The Initial Discoveries, ed R.W.Smith and D.B.Redford (Warminster, 1977), 69
12-Sir G. Maspero, History of Egypt , Vol.5 (London ,1900) , 80,
13-G.Daressy,Notice explicative de sruines du temple de Louxor

(Cairo , 1893), 4.
14-R.W.Smith, In the Akhenaton Temple project , 1:45.
15-A.Wiedemann , Agyptische Geschichte (Gottha , 1884) 399.
16- See the reports of M. Pillet and H. Chevrier in ASAE from 1922 to 1952.
17- R.Saad , in The Akhenaton Temple Project 1:69 , S.Sauneron , Kemi 19 (1969).138 ff. 21 (1971) , 145ff.,J.Lauffray , Karnak d'Egypte , domaine du divin (Paris , 1979).
18-On the work of ATP , see in particular , R.W.Smith , National Geographic Magazine 138 , no. 5 (Nov. 1970) , 634 ff, D.B.Redford , JARCE 1. (1973) , 77 ff. 12 (1975) 9 ff, Smith and Redford , The Akhenaton Temple Project , 1.
19-CF. L.Daniel Kemi 21 (1971) , 151 ff.
20-K.C.Seele , JNES , 14 (1955) , 169 f.

Chapter Five

1-On the excavations , see in particular D.B.Redford , JARCE 14 (1977) , 9 FF, Scientific American 239 , no. 6 (Dec. 1978) , 136 ff. Expedition 21 no. 2 (1979) , 54 ff., ROM Archaeological Newsletter no. 179 (Apr. 198.) , JSSEA Journal 11 , no. 4 (Aug. 1981) , 243ff.
2-P.Barquet , Le Temple d' Amon-re a Karnak (Cairo, 1962)

Chapter Six

1-SSEA Journal 11, no. 4 , 247 ff.
2-See J.von Beckerath , Untersuchungen zur politischen Geschichte der zweiten Zwischenzeit in Agypten (Gluckstadt , 1965)
3-W.Helck , Historisch-Biographische Text der 2. Zwischenzeit (Wiesbaden , 1975) , 45f. ,no. 62 (corrected from personal copy).
4-Auther's personal collection.
5-Helck , Historisch-Biographische Text., 46, no. 63.

Chapter Seven

1-For TS 235 , see Smith and Redford, The Akhenaton Temple Project 1 : end papers.
2-Literature on the sd-festival is voluminous. See in particularJ.J.Clere , RdE 20 (1968) , 51ff. , H. Frankfort , Kingship and the Gods (Chicago , 1949) , E. Hornung , Geschichte als Fest (Basel , 1966) E.Hornung and E. Staehelin, Studien Zum Sedfest (Basel and Geneva , 1974) W.Helck , ZAS 93 (1966) , 74ff. W.K.Simpson, JARCE 2 (1964), 59FF., E.Uphill, JNES 22 (1963), 123ff.idem , J NES

24 (1965) , 365 ff.
3-On queen's titles , see M. Gitton. BIFAO 78 (1978) , 389 FF.
4-R. Saad, JEA 57 (1971) , 7. FF., W.Helck , JEA 59 (1973) , 95 ff.

Chapter Eight

1-Urk , 1V, 1862.
2-Amenophis 1V certainly built at Heliopolis , cf. H.S.K.Bakry , CdE 47 (1972) 55 ff, L.Habachi , Beitrage zur agyptischen Baufochung und Altertumskunde 12 (1971) , 35 ff.
3-B.Lohr , SAK 2 (1975) , 139 FF.
4-C.Aldred , JEA 62 (1976) , 184.
5-That the changes in the royal name came about while the king was still in Thebes is suggested by the fact that three examples of the new name, which are original and not cut over an earlier " Amenophis " have been found in the talatat . The Amun Temple is last heard of in the year 6.
6-Urk. 1V , 1981.
7-Ibid.
8-Urk , 1V , 1969.
9-Urk , 1V, 1983.
10-On Akhenaton , see Sir W.M.F.Petrie , Tell el-Amarna (London , 1894) , J.D.S.Pendelbury , B.Gunn, H.W.Fairman et al., The city of Akhenaton 3 vols (London , 1923-1951) , J.D.S.Pendelbury , Tell el-Amarna (1953) , J.Samson Amarna. City of Akhenaton and Nefertiti (London , 1972).
11-Some have denied that this structure was a palace and proposed instead that a cultic function was paramount. This is, however , most unlikely. The apartment had a clearly domestic intent , whether for royal family or for the hosts of dependents whom the king supported.
12-A.Badawy , ZAS 87 (1962) , 79 ff.
13-L.Habachi , Beitrage zur Agyptischen Bauforschung und Altertumskunde 12 (1971) , 42 , fig. 2..
14G.Roeder , Amarna-Relief aus Hermopolis (hildesheim , 1969), R.Hanke, Amarna-Relief aus Hermopolis (Hildesheim , 1978).
15-See especially R.Hari Repertoire onomastique amarien. (Geneva , 1976).
16-See W.Helck, LDA 3 (Wiesbaden , 198.) , 42 ff.
17-Seele ; JNES 14 (1955). 169f. most of the individuals who folloe can be found in the Amarna tombs , on which see N.de G. Davies , The Rock Tombs of El-Amarna, 6 vols. (London , 1903-1980).
18-Berlin 2070.

Chapter Nine

1-On Egyptian cosmologies and world views , one might consult inter alia R Anthes in S.N.Kramer , ed. , Mythologies of the Ancient World (New York , 1961) , E.Hornung , Der Eine und die Viele (Darmstadt , 1973) , S.Morenz , Egyptian Religions (Ithaca , 1973).
2-In general on the priesthood , see S. Sauneron Les pretres de l'ancienne Egypte (Paris , 1957) , H.Kees, Das Priestertum im agyptischen Staat (Leiden , 1953) ,idem , Die Hohenpriester des Amun von Karnak...(Leiden 1964) , G.Lefebvere , Histoire des grands pretres d'Amun de Karnak (Paris, 1929)
3-Cairo 20040.
4-F.L.Griffiths, The inscription of Siut and Deir Rifeh (London , 1889) , I. 281
5-G.Daressy , ASAE17 (1917) , 243.
6-Louvre C.50.
7-E.Naville , The XI th Dynasty Temple at Deir el-Bahari (London , 1907) pl.24.
8-For Hatshepsut's reign see S.Ratie , La reine pharaon (Paris , 1972)
9-N. de G. Davies and A.H.Gardiner , The Tombs of Two Officials of Thutmosis IV(London , 1923) , pl. 13.
10-Urk. 1V , 494.
11-Berlin 7270.
12-I.E.S.Edwards. JEA41 (1955) , 100.
13-Urk , 1V, 494f.
14-Edwards , Hierogliphic Texts from Egyptian Stelae etc. in the British Museum , Vol. 8 (London , 1939) , pl. 21.
15-A.Moret , Le rituel du culte divin journalier en Egypt , (Paris, 1902) , 139.
16- Berlin 6910.
17-H.M.Stewart , JEA46 (1960) , 88.
18-Idem , JEA 53 (1967) , pl.1V, 1.
19-S.Hassan , Hymnes religieux du moyen empire (Cairo.1928) , 158f. The hymn has elements that may be earlier than Amenophis II.
20-Urk , 1V, 1975.
21-On the ceremony of reward in art and society , see J.Vergote , Joseph en Egypte (Louvain , 1959) 116ff. , D.B.Redford, A Study of the Biblical Joseph Story (Leiden , 1970) , 208ff.
22-Davies , The Rock Tombs of el-Amarna, 1;pl.30.
23-Ibid., 6 :pls. 17-18.
24-EA 26:20 ff.

25-EA 26 :49 FF.
26-EA 161 : 49f.
27-EA106 : 13 ff.
28-Davies , The Rock Tombs of El-Amarna , 6 : pl. 19.
29-Ibid. , 5 : pl. 2.

Chapter Ten

1-For full discussion with bibliography , see the present writer's article in JARCE 13(1982).
2-JARCE 13 (1976) , 50.
3-D.B.Redford , Bulletin of the Egyptological Seminar of New York 3 (1981) , 87 ff.
4-For recent translations of the hymn , see M. Lichtheim , Ancient Egyptian Literature, Vol.2 The New Kingdom (Berkeley , 1976) 96ff., P.Auffret , Hymnes d'Egypte et d'Israel (Gottingen , 1981).
5-The high priest of Amun is last heard from in year 4 , when Akhenaton sent him to the diorite quarries to fetch stone cf.D.B.Redford , JAOS 83 (1963) , 240 f.
6-Urk. 1V, 1998f. on the " Loyalist " teaching , see G.Posner, L'enseignement loyaliste (Geneva , 1976).

Chapter Eleven

1-Admittedly this is doubtful , The' Sun-Disk' Epithets are modified at Akhetaton to include " Lord of the sd-festival" but the reason for this is not known.
2-B.Gunn , City of Akhenaton , 1: pl. 63 : 169.
3-Davies ,The Rock Tombs of El-Amarna 2:pl.29; 3:pl.13.
4-City of Akhenaten 2 : pl. 58 : 16.
5-Cf. Helck, Die Beziehungen Agyptens zur Vorderasien. 187 f.
6-EA 129a : 45 ff.
7-EA 11 : 25.
8-On Smenkhare and Meretaten , see R.Kraus , Das Ende der Amarnazeit (Hildesheim, 1976)
9-Davies , The Rock Tombs of El-Amarna , 2 : pls. 43f.
10-Fairman , City of Akhenaten 3:pl.86:35.
11-Urk. 1V, 2024.
12-On the discovery and initial interpretation , see Sir A. Gardiner , JEA 43 (1957) , 1.ff; R.G.Harrison , JEA 52 (1966) , 95ff.
13-Gardiner ,JEA43 (1957) , 1.ff.For recent discussion on the coffin see D.Schnabel, Das Altertum 22, no. 4 (1976) , 226 ff, ;
I.I.Perepelkin , The secret of the gold coffin (Moscow , 1978).

14-For Harris's theory see the works listed below in " selected reading " For a rebuttal , see S.Tawfik MDIAK 31 (1975) , 159 ff.
15-D.B.Redford , JSSEA 9 (1979) , 111ff.
16-See G.T.Martin , The Royal Tomb of El-Amarna, Vol 1 (London , 1974).
17-See H.S.Smith The Fortress of Buhen : The Inscriptions (London , 1976) , pls. 29 , 75 ; W.Helck , SAK 8 (1980) , 117ff.
18-EA 35 : 45f. ; on Suppiluliumas and his relations with Egypt , see K.A.Kitchen , Suppiluliumas and the Amarna Pharaohs (Liverpool,1961).
19-EA 126 : 51ff.
20-ANET , 318 f.
21-C.F.A.Schaeffer , Le Palais Royal d'Ugarit , Vol.4 (Paris , 1956) , 17.34. (p.49)
22-Ibid., 17.132 (pp.35ff.)
23-EA 51.
24-EA 53.
25-Schaeffer , Le Palais Royal , 17.34. vs.22ff. (p.50).
26-EA 196.
27-On Canaanite society in the Levantine cities of the empire , see M. Heltzer , The Rural community in ancient Ugarit (Wiesbaden , 1976) ;on The Apiru , see M.Greenberg , The Habpiru (New Haven , 1955) , R. de Vaux, JNES 27 (1968) , 221ff,; M.B.Rowton , JNES 36 (1977) , 181ff. On Aziru , see H.Klengel , MIOF 1. (1964) , 76ff.
28-EA 162.
29-EA 176a.
30-EA 140.
31-EA 169.
32-H. Freydank, MIOF 7 (1960), 356 ff.

Chapter Twelve

1-Redford , JARCE 1. (1973) , 93 ; 12 (1975) , 11ff.
2-Urk. 1V , 1998.
3-Urk , 1V , 2027ff.
4-Ibid.
5-Urk , 1V , 2053f.
6-Urk , 1V , 2165 f.
7-Urk , 1V , 2062.
8-Gunn, City of Akhenaten , 1:92 ff.
9-Urk , 1V, 2083 : B.Lohr , SAK 2 (1975) , pl. V1 2 ; VII.
10-Urk , IV , 2052 , 2054f. 2057.
11-T.G.James , Corpus of Hieroglyphics Inscriptions in the Brooklyn

Museum. Vol 1 (Brooklyn , 1974) , no.424
12-A.M.Bakir ASAE 42 (1942), pls. 4-6
13-Urk , IV , 2029.
14-Urk , IV , 2030.

Chapter Thirteen

1-On Mitanni and Khanigalbat , see D.B.Redford , LdA 4: 149 ff.
2-A.K.Grayson , Assyrian Royal Inscriptions , 2 vols. (Wiesbaden , 1972) , 1:47ff.
3-H.G.Guterbock , JCS 10 (1956) , 92 ff.
4-A.R.Schulman , JARCE 15 (1977) ,43 ff.
5-To be published shortly in Brunner Festschrift.
6-R.Saad , Karnak 5 (1975) , 93ff.
7-Guterbock , JCS 1. (1956) , 96 ff.
8-Schulman , JARCE 15 (1977) , 43ff.; idem , JNES 38 (1979) , 177 ff.
9-J.Vandier , JdS (1967) 80.
10-G.T.Martin , JEA 63 (1977) , 13 ff ; 65 (1979) , 13 ff.
11-Sir A.H. Gardiner , JEA 39 (1953) , 3.

Chapter Fourteen

1-Sir A.H.Gadiner , JEA 19 (1953), 3.
2-Ibid , pl. 11.
3-H. Carter and P. Newberry , The tomb of Tuthmosis IV (London , 1904) , figs. 7-8.
4-Urk. IV. 2155 ff.
5-Strabo xvi. 2. 31.
6-Whether Akhenaten ever traveled himself outside the bounds of Akhetaten is a moot point , he clearly wished to be buried there. (Westndorf , Gm 20 (1976)), 55ff. One cannot discount the possibility of an occasional excursion to other parts of the country , but the discontinuance after year 5 , at Thebes and elsewhere , of all building activity , strongly suggested that the new city has become his favored and perhaps sole residence.
7-A. Piankoff , BIFAO 62 (1964) , 215.
8-N. de G. Davies The Tomb of Neferhotep (New York , 1933) , pl. 34.
9-Urk. IV, 2177 f.
10-Staatliche Sammlung agyptischer Kunst in der Munchner Rezidenz Hofgarten , (Munich , 1970) pl.35-36.
11-E.Drioton , , ASAE 43 (1943) , 36 , fig. 2.

12-A. Piankoff , MDIAK 16 (1958) , 251.
13-F.Widmar , JSSEA 11 (1981) , 279 ff.
14-D.B.Redford , ROM Archaeological Newsletter , no. 195 (August 1981).
15-A.H.Gardiner JEA 24 (1938) , 124.
16-See kraus , Das Ende der Amarnazeit.

Suggested Reading

Those wishing to pursue an " in-depth " study of the Amarna Period can do no better than to consult the bibliography compiled by Edward K.Werner in the newsletter of the *Journal of the American Research Center in Egypt* (nos. 95 , 1975 ; 97/98, 1976 ; 101/ 102 , 1977; 106, 1978; 110 , 1980; and 114 , 1981). Here the will find a complete listing of all works that have appeared within the last generation , anywhere in the world and in any language. The present purpose is to list only the general works in English.

The best general introduction to the period are those of Cyril Aldred: *Akhnaten Pharaoh of Egypt* : A new Study (London , 1968) , and Akhenaten and Nefertity (Brooklyn , 1973) , the latter being the catalogue of the exhibition of Amarna art at the Brooklyn Museum. the auther has also contributed the chapter on the Amarna Age to the most recent edition of the Cambridge Ancient History.

For the excavation at Amarna (Akhenaten) , see W. M. F. Petrie , Tell el Amarna (London , 1894) : T. E. Peet al. *The city of Akhenaten* (London , 1923-1951) : J. Samson , Amarna , City of Akhenaten and Nefertity (Warminster, 1972) : with profit one might also consult the interim reports which , between 1919 and 1939 , appeared almost annually in the Journal of Egyptian Archaeology (published by the Egypt Exploration Society). The private tombs at Amarna are the subject of a six – volume publication by N.de G. Davies , entitled *The Rock- tombs at Amarna* (London , 1903-1908) the royal tomb has been treated by G. T. Martin in The Royal Tomb at El- Amarna (London , 1974)

Relief scenes from Amarna published by J. D. Cooney , Amarna Reliefs from Hermopolis in American Collections (Brooklyn , 1965) : G. Roeder and R. Hanke , Amarna – Reliefs aus Hermopolis , 2 vols. (Hildesheim ,1969 and 1978).

The work of Akhenaten Temple Project is still in process of publication ; see R. W. Smith and D. B. Redford , The Akhenaten Temple Project Vol.1 : The Initial Discoveries (warminster ,1977). For the excavations , one should consult the interim reports of the

present writer in Journal of the American Research Center in Egypt 14 (1977) ,9ff.; Expedition (Summer ,1977) , 33ff.; Scientific American 239 , no.6 (Dec.1978) ,100ff.

For the cult of the sun-disc , one might consult articles by the present writer in the Journal of the American Research Center 13(1976) And 18 (1981).

Rather more research has been devoted to the close of the Amarna Period. One might begin with Aldred's useful article in the Journal of Egyptian Archaeology 43 (1957) , 3.ff. On the so-called tomb of Tiy in the Valley of the kings one might consult the articles by Sir Alan Gardiner , H. W. Fairman , Aldred , and R. G. Harrison in the Journal of Egyptian Archaeology 43 (1957) , 1.ff. ; 47 (1961) , 25ff.; 41ff., 52 (1966) ,95ff. The new theory on the person of Nefertity has been propounded and elaborated by J. R. Harris in Acta Orientalia 35(1973), 5ff.; 36 (19 74) , 5ff. and by J. Samson , Journal of Egyptian Archaeology 63 (1977) ,88ff.

Egypt's foreign relations at the close of the period can be investigated by consulting the chapters in the Cambridge Ancient History (Vol.2) , supplemented by K. A. Kitchen , Suppiluliumas and the Amarna Pharaohs (Liverpool ,1962).

There exists no good compendium in English translation of Amarna Texts ; but reliable renderings of certain selections will be found in the following : J.B. Pritchard , ed., Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (Princeton, 1969) ; W.K.Simpson , ed., The Literature of Ancient Egypt (New Haven , 1973) M. Lichtheim , Ancient Egyptian literature ,Vol.2 The New Kingdom (Berkely , 1976). The Amarna Letters may be ead in the somewhat inferior translation of S.A.B. Mercer , in The Tell el-Amarna Tablets 2 Vols. (Toronto , 1939) : while Hittite texts may be pursued in Prichard , Ancient Near Eastern Texts ,or H.G.Guterbock , Journal of Cuneiform Studies 10 (1956) , 41ff.

سلسلة تا - ميري

- تبدأ هذه السلسلة من حيث انتهى الرعيل الأول الذين نذروا حياتهم للتخصص في المصريات وبينهم أحمد كمال وسليم حسن وأحمد بدوي ونجيب ميخائيل وأمثالهم .
- تنطلق من أسس قومية مصرية تدعو إلى مصر أفريقية إزاء مصر العربية-السامية التي تعمل الثقافة السائدة ، لأسباب تخاصم روح العلم ونشدان الحقيقة ، على تسييدها في " الأرض الحبيبة " " تا-ميري " ، أرض إيزيس .
- ترى السلسلة أن المصريين القدماء كانوا جدوداً عظاماً لسائر البشر ، تماماً مثلما هو الحال مع اليونانيين القدماء والهنود القدماء ، ومن باب أولى فهم جدود عظام للمصريين المعاصرين . وبالتالي ينبغي علينا أن نقيم مستقبلنا في منطقة الشرق الأوسط الحديث على الاتصال مع الحضارة المصرية القديمة لا الانقطاع عنها ، على نحو ما يعمل في سبيله الأجانب وتلاميذهم " النجباء " في مصر .
- تؤمن أن الآثار التي تركها لنا على أرض مصر الجدود العظام ليست غنائم نبيعها للأجانب سواء بالجملة أو بالقطاعي ، بل جزء لا يتجزأ من تراث المصريين لا يحق لجيل واحد أن يستأثر بها دون غيره من الأجيال القادمة .
- تفرق السلسلة بين ما يقوله لنا عن أنفسنا " الغربيون " بالمعنى الثقافي لا الجغرافي للكلمة وبين ما يقولونه عنا لأنفسهم : أي بين ما يذيعونه ويروجونه و يبيعونه لنا دعماً لسياساتهم التي تستهدف تأبيد التخلف وتأجيج التناحر وتدمير البدائل وتمزيق النخب وإهدار الإمكانية وفي جملة واحدة محو القومية المصرية وبين ما يتعلمونه و يعلمونه لأبنائهم في مدارسهم ومعاهدهم وفي عبارة واحدة ، تفرق بين سياسات الغرب وبين علمه.
- تسعى إلى المساهمة في تأسيس مدرسة مصرية مستقلة في المصريات تقف

إلى جانب سائر المدارس المختلفة في هذا المجال وتتمتع برؤية جديدة أكثر رحابة ومصطلحات أكثر دقة ورسم جديد لأسماء الأعلام والأماكن أكثر مقاومة لعجمة الكتابة العربية بأبجديتها النبطية الأصل من ناحية و لخصوصية اللغات الأوروبية في كتابة هذه الأسماء من ناحية أخرى مثال:اسم الفرعون الذي يكتبونه "أمنحتب" أحياناً و"أمينوفيس" أحياناً أخرى فيما ينبغي أن نكتبه : "امين_حوتب" .

- تفصل السلسلة بين الترجمة والتأليف،ولن يكون في وسعها أن تقبل من المترجم فرض آرائه الخاصة سواء أكانت نابعة من تحيزات دينية أو قومية أو خادمة لأهداف سياسية خاصة وسيان جاء ذلك بالحذف أو الإضافة أو تعديل النص الأصلي . فالأمانة العلمية عندنا مقدمة على سائر الاعتبارات.
- تأمل أن تصل في وقت قريب إلى النقل مباشرة من اللغة المصرية القديمة بمراحلها المختلفة إلى اللغة المصرية الحديثة دون المرور بأي لغة أجنبية يحتاج المصريون إلى تعلمها في دور التعليم.
- تكلف السلسلة وتقبل أعمال مترجمين أكفاء قادرين على تحمل مسئوليتهم أمام قرائهم فضلاً عن الأعمال المؤلفة التي يُتفق بشأنها مع أصحابها .

رئيس التحرير

بيومي قنديل

شروح الخرائط و الصور.

الفصل الأول

خريطة مصر حتى الشلال الأول.

الفصل الثاني

٢-١ :كتلة من كتل "التلاتات" المجلوبة من الصرح التاسع. تحمل على وجهها صورة تمثّل القوات المساعدة في الجيش، من العموريين و الكوشيين. ونستطيع التعرف، بسهولة، في الفن المصري القديم على العموريين من لحاهم الطويلة وشعورهم المعقوصة و المربوطة بشرائط حول رؤوسهم.

الفصل الثالث

أمين ــ حوتب الثالث، الملك ــ الشمس

خريطة الممالك العظمى في غرب آسيا حوالي ١٣٧٥ق.م

٣-١ منظر من مقبرة رع ــ موزي، ونرى فيه قائد العجلات الحربية "مايا"، وزير الفرعون و زوجته "يورول".

٣-٢، ٣-٥ كتلتان من كتل "التلاتات"، تحملان نتفاً من مناظر عيد الـ"حب – سد" أو "العيد الثلاثيني".وهاتان الكتلتان مجلوبتان من الصرحين الثاني والتاسع.

٣-٢ كتلة تحمل على وجهها عمودين من نص هيروغليفي. ويظهر بجوار النص جزء من قنينة مزخرفة، تكشف عن جانب من الجزية التي يرفعها الأجانب إلى فرعون مصر. و يقول العمود الأيسر: { رؤساء الـ ... يحملون الجزية إلى الفرعون.} أما العمود الأيمن فيقول: {رؤساء "نهارين" أي "ميتاني" و رؤساء "كوش" ... }

٣-٣ منظر يصوّر الوفود الأجنبية أثناء تقديمها لجرار مملوءة بمنتجات بلادهم إلى جلالته. ويقول النص: {هاهم أبناء رؤساء سائر البلدان الأجنبية يرفعون الجزية إلى جلالته... }

٣-٤ كتلة أو "تلاتة" تحمل صور رؤساء العموريين، وقد رفعوا أذرعهم ابتهالاً لجلالته. و لقد وجدنا بين أيدينا منظراً ضخماً، تتضح تفاصيله، خلال توفيق "تلاتات" أخرى مع هذه الكتلة أو الشطفة المفردة. أنظر شكل رقم ١٥

٣- رؤساء نوبيون يزيّنون رؤوسهم بالريش، أثناء تسبيحهم بحمد جلالته.

الفصل الرابع

٤-١: (إلى اليسار) قطعة تجريبية من الحجر الجيري، عُثر عليها في "أخيتاتون".

وهي تكشف عن أسلوب المبالغة الشديدة عند نحت بروفيل أو المنظر الجانبي لوجه الملك، وهو الأسلوب الذي يرتبط، عادة، بالسنوات الأولى من حكم جلالته.

٤-٢: (إلى اليمين) رأس و كتفا أحد التماثيل الملكية العملاقة التي ترجع إلى صف الأعمدة في معبد *قرص ـ الشمس* إهتدينا إليه" أو "جم-ت- باـ أتون" في شرق الكرنك. (أنظر الشكلين ١٠، ١١)

٣- التصميم المعماري للكرنك

٤-٣ منظر من الجو للكرنك، حيث يقع القناء المتوازي الأضلاع لمعبد "أمون" إلى اليسار(شمالاً). وكان يتصل في وقت ما بنهر النيل (لاحظ قاع الصورة) بقناة يقوم مكانها الآن شارع تصطف الأشجار على جانبيه. وإلى اليمين يمتد فناء الإلهة "موت" زوجة "أمون" مع بحيرته المقدسة. وفي أقصى اليمين تقوم بيوت قرية الكرنك الحديثة. وفي وسعنا أن نرى مناطق التنقيب والمقر الذي بنته بعثة استكشاف الكرنك في الركن العلوي إلى اليسار خلف فناء "أمون".

٤-٤ (إلى اليسار) كتلة ضخمة من الحجر الرملي مجلوبة من الصرح العاشر، كانت في الأصل تشكّل جزءاً من البوابة الجنوبية التي زخرفها جلالته في السنة الأولى من حكمه. ويقف أمام التصوير التقليدي لـ *قرص ـ الشمس*"، برأس الصقر المعهود مع الصولجان، جلالة الملك(مفقود حالياً)، وهو يقرّب القرابين! والاسم الطويل للإله منقوش على هيئة أعمدة أمام جلالته. وقد نُسخ في وقت لاحق في خرطوشين صغيرين.

٤-٥ (إلى اليمين) كتلة ضخمة من الحجر الرملي مجلوبة من الصرح العاشر، ترجع في الأصل إلى البوابة الجنوبية التي زخرفها الملك في السنة الأولى من حكمه. أما الإله الذي يحمل رأس صقر، يعلوها قرص كبير للشمس، فهو "رع ـ حور ـ أختي"، إله الشمس. ونستطيع أن نتعرّف عليه من الكُنية الطويلة التي تمتد في عدة أعمدة فوق رأسه. و يحتوي العمود الأخير على الكلمات التي يوجهها الملك (الذي يقف إلى اليمين) على عبارة: "إني لأهبك كل بسالة و ظفر...). وإلى أقصى اليسار نرى الجزء الأيمن من منظر مجاور يظهر فيه الملك مرتدياً تاج "الأتف"، وهو

عبارة عن غطاء رأس هائل الحجم يتكوّن من قرنيْ كبش و ريشتين طويلتين". وقد تعرُّض نقش الملك هنا، وعلى العكس من الإله المقدس، لكشط فظ.

٤-٦: كتلة من التلاتات مجلوبة من الصرح الثاني، تُصوِّر جانباً من الزخرفة التي ترجع إلى صـــــرح، ربما كان في الأصل، يمثّل البوابة الجنوبية. و إلى اليمين نجد أجزاء من عمـــــودين من نص قد يكون منقوشاً بشكل يحيط، على وجه الاحتمال، بالمدخل: (١){ ... المبجّل (٢) إلى عنان السماء... (٢) سيد الأرضين: "نفر ـــخبرو ـــ رع، وع ـــ ان ـــ رع ...} ويظهر الملك في قلب اللوحة، التي كانت لتوضع على الجانب الأيسر الضخم للصرح، أثناء إعطائه أعشاباً متنوعة لإله الشمس الذي يبدو بهيئة بشرية. بينما تُصوِّر اللـــوحة الملاصقة لليسار، ثيراناً مقيدة. وتعكس طريقة تصوير الإله ـــ الشمس ما كان سائداً في السنة الأولى من سني حكم جلالته. و لكن الأسلوب كان قد تأثر (إلى هذا الحد أو ذاك) بالقواعد الجديدة التي شملت كافة الفنون. ولنا أن نتوقف أمام الهيئة التي تبدو عليها بطن وجذع إله الشمس على وجه الخصوص، وكيف اقتربت في الشبه من بطن وجذع الملك.

٤-٧، ٤-٨

:أكوام من كتل "التلاتات" مجلوبة من الصرحين الثاني و التاسع. ونلاحظ على وجه الخصوص، حاملي التختروان، والخدم و الراكعين والساجدين من رجال البلاط.

٤ :رسم فاكسميلي لمنظر يضم مركبة تجرها الخيول، ترجع إلى معبد "رود ـــ منو" أو "ثابتة تلك هي آثار *قرص ـــ الشمس* إلى الأبد". و يظهر فيها جلالة الملك واقفاً، وقد ارتدى التاج الأزرق و قبض بيده على سوط الركوب، على متن مركبته، و يوشك على الإنطلاق إلى وجهة غير معلومة. و يقول النص المصاحب: { تجلى جلالته في بهائه على متن مركبته، ساطعاً مثل *قرص ـــ الشمس*، في كبد السماء على الأرضين ...} و خلف رأسيْ الحصانين المزينين بالريش، نجد بقايا نص يبدو أنه يسمّيهما و يضيف أن "كذا" الجميل من صنع *قرص ـــ الشمس*".

٤-٩ :صفوف من الخدم يسيرون في تشكيلات متوازية، وهم يحملون على رؤوسهم "حميراً خشبية" موسوقة بالخبز المبطط. والمنظر رقم(T 5410) يصوِّر عملية الإستعداد لاحتفالات العيد الثلاثيني "الحب ـــ سد".

٥ :رسم فاكسميلي للوفود الأجنبية أثناء التحية التي يؤدونها لجلالة الملك.

ويصوِّر المنظر صفين من الأمراء العموريين الذين يتميزون بشعورهم المعقوصة، وملابسهم التي يلفونها حول أجسامهم، و نلاحظ أن كلاً منهم يرفع يديه ابتهالاً لجلالته. أما الرؤوس الحليقة بأسفل السجل الذي وصل إلي أيدينا، فربما تمثِّل الحيثيين. كما نلاحظ أن قادة السرايا من المصريين يحملون، كلٌ منهم بيرق سريته، ونلمس أنهم يلازمون الأجانب.

٦ :إعادة بناء ممر داخلي في معبد "حوت ــ بينبين".

٧ :إعادة بناء صف الأعمدة الخاص بـــ "نفرتيتي". ولقد استعاد "شيفربيه" عدداً كبيراً من كتل "التلاتات" التي كانت فيما مضى تشكل سلسلة من الأعمدة، وذلك من نواة الصرح الثاني. وصار ممكناً أن نعيد بناء اثني عشر عموداً، بصفة جزئية. و لكن العدد الكبير الذي تبقى من الكتل التي تعود، بشكل واضح، إلى أبنية عمدانية مماثلة يشير إلى وجود أعمدة كثيرة أخرى. و يصوِّر المنظر المرسوم على كل ضلع "طويل" كلاً من "نفرتيتي" و "ميريت ــ أتون" أثناء تقريبهما القرابين لـــ *قرص ــ الشمس*"، وقد وُصفتا بأنهما مقيمتان في معبد "جم ــ ت ــ باــ أتون" أو *قرص ــ الشمس* اهتدينا إليه". و تتكرر مناظر مماثلة على الأضلاع الثلاثة الأخرى في أربع لوحات مقحمة. أما نصوص السُجف(جمع سِجاف) فمستعادة من شُطف السُجف المنزوعة من الصرح التاسع. و يبدو على وجه التخمين أن تعود في الأصل إلى هذا الصف من الأعمدة. ويقول النص: "ذات اليدين الطاهرتين، زوجة الملك الرئيسية التي يعتمل حبها في قلبه، سيِّدة الأرضين "نفرتيتي"، لتوهب عمراً مديداً، محبوبة *قرص ــ الشمس*" الحي العظيم الذي يرفل في في عيد الثلاثيني، والتي تقيم في بيت *قرص ــ الشمس*" في "أون" الجنوبية. وهناك شطف أخرى ترجع إلى نفس السجف تذكر الملك أيضاً.

٤-١٠، ٤-١٥

: "نفرتيتي" عند ظهورها في منظر تقريب القرابين على كتل "التلاتات". ويُصوِّرها الفنان، وقد ارتدت نوعين مختلفين من غطاء الرأس، والشعر المستعار، الأزرق والطويل، الذي يعلوه شريط و ريشتان.(٤-١٠، ٤-١١، ٤-١٥)، و الشعر النوبي المستعار القصير(٤-١٢،٤-١٣). أما الرداء الذي ترتديه فعبارة عن ثوب من الكتان الخالص ذي ثنايا مشدودة، و مربوط تحت الثديين. وهو ثوب لا يتغيَّر في أيٍ من هذه المناظر.

و وراءها تقف كبرى بناتها، تلك التي نتعرَّف عليها في معظم الحالات بهذا الشرح التقليدي للصورة: {كريمة الملك التي جاءت من صلبه،

ويشملها بحبه، "ميريت ــ أون" ابنة الزوجة الرئيسية للملك، الي تحظى بحبه، سيِّدة الأرضين: "نفرتيتي" لتوهب عمراً مديداً.} و لا نصادف تغييراً في هذه الألقاب، إلا في اللوحة رقم ٤-١٠، وهو تغيير يقبل ترجمتنا له إلى: "زوجة الملك وكريمته... " إلا أننا نستطيع أيضاً أن نترجمه إلى: " كريمة زوجة الملك..." و لكننا نلاحظ أن مائدة القرابين المتقنة الرسم(٤-١٥) التي تنوء بأكوام من المأكولات، ومزينة بتمثال صغير للملكة، وهي تمسك في يدها بخبز مخروطي الشكل، قد زُوِّدت بنص على هيئة شريط يدلنا على شخصية المتقبّل و المقرّب: {*قرص ــ الشمس*" الحي العظيم، سيد السماء والأرض، الذي يتجلى في عيده أو يوبيله الثلاثيني، ويقيم في معبد "جم ــ ت ــ با ــ أتون"، و زوجة جلالته "نفرتيتي" ، فلتوهب عمراً مديداً.}

٨ : قطاع عرْضي في ربع الدائرة المعروفة باسم:BB الذي يوجه الشرق، ويمثّل السطح في قاع الصورة، الفناء المكشوف لـمعبد "جم ــ ت ــ بـاـ أتون" الذي سقط فوقه السور المحروق للفناء عند الإجهاز النهائي على المعبد. (11,42,52b,53b,111,16,17, 19, 20,21). وقد سقط المزيد من الأنقاض شمالاً، وأخذت هذه الأنقاض في التزايد بمرور القرون، نظراً لاستخدام المنطقة كمقلب زبالة(11,42,52b,53b) . وفي نهاية المطاف، وفي أواخر القرن الثامن ق. م سُوِّيت أرض الموقع.(1,37,38, 111, 12, 13, 14, 15) و بُنيت عليها بيوت(حائط,11a,14,15: راجع الفصل الخامس). ولقد بُنيت هذه البيوت مرتين، الأولى في أواسط القرن السادس و الثانية في سنة ٤٠٠ ق.م على وجه التقريب. و لكن المنطقة هُجرت قبيل مجيئ الإسكندر الأكبر في ٣٣١ ق. م (II,11, 12, 13) وأخذ الرماد الذي تذروه الرياح في التراكم. (11,8,9). و ظل هذا الرماد المتراكم يغطي سطح الموقع حتى سنة ١٩٢٥ عندما حفر "شيفرييه" خندقه الضخم (إلى اليمين)، وأخذ يلقي بالتراب الناتج من عملية الحفر شمالاً كي يقيم مقلبه الخاص على باقي الموقع.(IV,1-6)

٨ :خريطة لأماكن التنقيب في شرق الكرنك. أرباع الدوائر مرسومة بخطوط عميقة. ونلاحظ أن سلسلة أرباع الدوائر A,B,E (الركن العلوي إلى اليمين) تكشف مستوى الوجه رقم N (القرن الرابع عشر ق. م) أي وجه معبد "جم ــ ت ــ بـاـ أتون". وتشير إلى صفَّيْ الأعمدة، الجنوبي والغربي. و تكشف سلسلة رقم F (يسار الوسط) عن الوجه رقم B (القــرن الرابــع ق.م)

٥-١ :منظر حديث لشرق الكرنك، الذي يواجه الشمال، حيث نستطيع أن نرى سور حرم فناء "أمون" إلى اليسار، بالإضافة إلى قناة الصرف في الوسط. وموقع معبد "جم ــ ت ــ با ــ أتون"، فيما وراء الأشجار إلى اليمين.

٥-٢ :قواعد صف الأعمدة الجنوبي (ربع الدائرة رقمAB) الذي ينظر باتجاه الشمال. وقد بدأ التنقيب خلف هذه القواعد مباشرة كي يكشف عن أساسات السور. وأخذت كميات عشوائية من كتل الحجر الرملي المكسَّر تظهر إلى النور في خندق الأساس.

٥-٣ :شطف من كتل "التلاتات" جرى اكتشافها في المربعينA&AB . على وجهها نستطيع أن نلمح حاملي التختروان، الذين يرفعون جلالته على أكتافهم إلى المعبد. (وقد يكون ذلك من المسيرة الكبرى لــ "TS 235" ، التي أصبح من المعروف الآن أنها تشكل جزءاً من A .

الفصل السابع

١٠ :قطاع من صف الأعمدة الجنوبي في معبد "جم ــ ت ــ با ــ أتون" او "قرص ــ الشمس اهتدينا إليه" يواجه الغرب. و يظهر ما نجا من عوادي الدهر من الأحجار و الطوب و الرَّطْش في الرسم في خطوط كاملة. أما المرمم منها فيظهر على هيئة خطوط منقطة. ومن المعروف أن هناك تماثيل صغيرة و لوحات والأولى "صواديد" منصوبة بين هذه الأعمدة.

١١ :مسقط رأسي لصف الأعمدة الجنوبي بمعبد "جم ــ ت ــ با ــ أتون" يواجه الجنوب في المنحنى القائم بين ربعيْ الدائرة A & AB. و أماكن التماثيل العملاقة محددة وفقاً لخطة الترميم الأصلية التي وضعها"شيفرييه". و يلوح أمام الجدار الخلفي لصف الأعمدة مزخرفاً برسم فاكسميلي من الــ"TS 238" التي استقر رأينا على أنها كانت قائمة هنا. ومع أننا لم نستدل خلال عمليات التوفيق على أي إضافات، إلا أن وجودها ثابت نظراً للكسر التي توصلنا إليها خلال التنقيب، وهي عبارة عن:

(١) القصر إلى اليسار. (٢) أساس الجدار الخاص بمجزر الثيران.

(٣) أجانب يرفعون ابتهالاتهم إلى جلالة الملك.

٧-١ :محاولة التوفيق بين كتلتين من كتل "التلاتات "TS28" مجلوبتين من الصرح التاسع، ترجعان في الأصل إلى "ثابتة تلك هي آثار *قرص ــ الشمس* إلى الأبد" أو " رود ــ منو... ". ونرى جلالة الملك مرتدياً شعراً مستعاراً والأولى باروكة شعر أبيض كثيف، كما هو الحال في لوحة ٧-٦ التي سيرد ذكها فيما بعد، بالإضافة ورداء فضفاضاً نستطيع أن نلمح ثنياته

على ذراعه الممتد. أما لون البشرة فأسمر جميل ضارب إلى الحمرة.

٧-٢ : (فوق – إلى اليسار) بقايا قواعد الأعمدة التي تمتد مع صف الأعمدة الجنوبي بالمعبد. وكان يقف تمثال أوزيري عملاق لجلالة الملك، مشابه للتمثال الذي تظهر صورته في اللوحة رقم ٤-٢ و الشكل رقم ١١، ذات يوم، أما م كل قاعدة من هذه القواعد، مواجهاً الجهة اليمنى (الشمالية) من الفناء المكشوف للمعبد.

٧-٣ : (من أعلى – إلى اليمين) الركن الجنوبي – الغربي للمعبد في المربع أو ربع الدائرة AB ، الذي يواجه الشمال. و تحيط به أكوام من كتل التلاتات المحطمة التي تخلّفت عن تدمير المعبد.

٧-٤ : (إلى اليسار) الركن الجنوبي – الغربي للمعبد الذي يوجه الشرق. و تعد بقايا "لفة – الخلخال" العمودية ، وهي عبارة عن حلية معمارية معروفة، كانت تُوضع على السطح الخارجي لزاوية قائمة في المعمار المصري القديم، بمثابة الملمح الذي يشي بطبيعة الأطلال الموجودة في المكان. ولنلاحظ نمط رص كتل الحجر.

٧-٥ : (إلى اليمين) قطاع في الركن الجنوبي – الغربي يواجه الجنوب. لنلاحظ مدى عمق الأساسات. بالإضافة إلى الرص غير المنتظم لكتل "التلاتات" في الركن. وتصل زاوية ميل الوجه الخارجي للحائط نحو الداخل إلى ٣ درجات على نحو ما هو متوقع.

١٢ : المنطقة F الوجه N جزء نجا من العوادي من حائط مبني من كتل "التلاتات" بالإضافة إلى صفين من قواعد الأعمدة، التي يُرجح أن تشكّل فيما بينها، المدخل الغربي لمعبد "جم – ت – با – أتون". ولقد عثرنا في زمام المنطقة على النقوش المهشمة التي يجد القارئ صوراً لها في اللوحتين رقميْ ٤-٥ ، ٧-١٧. أما البناء الذي نشير إليه بخطوط سنقطة في قمة اللوحة فيرجع إلى القرن الرابع ق. م و يقوم على مستوى أعلى.

٧-٦ : كتلة أو "تلاتة" من الكتل المستعادة في سنة ١٩٧٨ من المنطقة F على جروف قناة الصرف، بالقرب من الموضع الذي كانت البوابة الشرقية لمعبد "جم – ت – با – أتون" قائمة عنده على وجه الترجيح. ويقوم دليلاً على ذلك وجه جلالة الملك و شعره الكثيف المستعار على الجانب الأيسر. ويبدو أن جلالة الملك كان مائلاً إلى الأمام قليلاً، وكتفه يتداخل، بصفة جزئية، مع رقبته. كما لو كان عاكفاً على ترتيب أو تناول بعض الأشياء من مستوى منخفض بالنسبة له.

٧-٧ : نقطة الوصول إلى مستوى التدمير الذي تعرّض له المعبد. و بالتالي العثور على أول كومة من كتل "التلاتات" في الخندق الثالث من ربع الدائرة المربع رقم E في كياك – ديسمبر ١٩٧٧.

٧-٨ : (من أعلى) ربع الدائرة أو المربع رقم E (الذي يوجه الشرق) بعد تطهيره في نهاية المطاف إلى مستوى الوجه "L"، وهو المستوى الذي حدث عنده التدمير الذي لحق بمعبد "جم ــ ت ــ با ــ أتون". (في صيف١٩٧٨). وفي نرى مواقع القواعد التي كانت لتحمل صف الأعمدة الغربي.

٧-٩ : نقل كتل "التلاتات" المجلوبة من المربع رقم EE في مايو- برمودة ١٩٧٩

٧-١٠ : شُطف من كتل "التلاتات" المجلوبة من المربعين AB & A، حيث نرى على وجهها ثوراً خلال طرحه أرضاً قبل تكتيفه وذبحه.

٧-١١ : موكب العيد الثلاثيني، حيث يظهر لنا جلالة الملك مرتدياً التاج الأبيض و محمولاً على الأعناق في تختروانه الأشبه بالسلّل. أما جلالة الملكة فتتبعه على مقعدها ثم أطفال العائلة المالكة، (وهم عبارة عن "بدائل" أكثر من كونهم أبناء و بنات من صلب جلالته محمولين في تختروناتهم المقوّسة السقوف. ولقد التقط الفنان اللحظة التي انتهت عنها الإحتفالات النهارية، وانطلق الموكب في طريق العودة مرة أخرى إلى القصر الملكي. و نرى على الجانبين جمهور مفعم بالسرور ينتظر كي يحيي العائلة الملكية، بينما نلحظ كهنة و رجال البلاط في الخلفية، وهم يؤدون شعائر التطهير نحو الموكب، وسط غابة بمعنى الكلمة من موائد القرابين، كما نلمح الموسيقيين في أسفل اليسار و قد خرجوا للتو من الأبواب بعد أن انتهوا من أداء عزفهم في قاعة الطعام.

٧-١٢ : جانب من أحد مناظر العبادة التي نجحنا في توفيق كتله التي تعود إلى "جم ــ ت ــ با ــ أتون"، ويظهر فيه جلالته (إلى اليمين) و هو على وشك الخروج من قصره خلال صف الأعمدة في طريقه إلى تحتروانه الذي يقف في انتظاره. وأمام جلالته نرى كبير كهنة إله الشمس متراجعاً إلى الوراء أسفل درج السلم، وهو يحرق البخور أمام سيده، بينما الأشخاص المنبطحون أرضاً على امتداد صف الأعمدة، يصاحبهم هذا النص: {حجاب القصر يقبلون الأرض.}، وذلك في إطار أحد المواكب الملكية من القصر إلى المعبد.

٧-١٣ : (من أعلى) منظرموفَّق (TS5521) ، يظهر لنا فيه حاملو تختروان الملكة الذي نستطيع رؤية جانب منه إلى اليسار. (أبو الهول أو الأسد السائر يشكل ذراع التختروان) والرأس الظاهرة بين الرجلين في الصف هي رأس حامل الشمسية. ولما كان هناك خمسة رجال يحملون القائم على أكتافهم في المؤخرة. و يناظرهم على الجانب الآخر نفس العدد، فإننا نقدر أن العدد الإجمالي لحاملي التختروان كان يصل إلي عشرين شخصاً.

١٣ : رسم فاكسميلي لرجال بلاط راكعين (TS 5594) و صفوف من الموظفين المدنيين الذين يتميزون بارتداء نقباتهم الخاصة، وهم راكعون في حضرة جلالته. ويقود كل مجموعة منهم مشرف خاص.

١٤ : (من أعلى) صورة لمجموعة من من الكهنة(آباء – آلهة) أثناء تحيتهم لجلالته عند وصوله إلى المعبد بباقات الزهور الزكية الرائحة.

١٥ : (تحت) صورة للقصر و المعبد. ويكشف لنا هذا التوفيق أو التجميع لعدد من الكتل التي ترجع في الأصل إلى الحائط الشمالي لمعبد "جم ـــ ت ـــ با ـــ أتون" عن نقطة التلاقي بين مشهدين من مشاهد الإحتفال. وإلى اليمين نرى المعبد بجواسقه أو أكشاكه المتعددة التي يسير جلالته بينها. وإلى اليسار يقوم القصر، بخدمه و جرار نبيذه. وتحيط بكلا المبنين خطوط "متموجة"، مما يصوِّر، على وجه الإحتمال أسواراً ذوات انحناءات متموجة.

٧-١٤ : (إلى أعلى) كتلتان من كتل "التلاتات" التي توصلنا إليها خلال عمليات التنقيب التي قمنا بها في ربع الدائرة رقم E في سنة ١٩٧٨. و تظهر علي وجهيهما رؤوس حاملي التختروان، بالإضافة إلى الجزء الأمامي من تختروان أشبه بالسلال الضخم الذي يحمل جلالته، من منظر يصور الموكب الملكي في طريقه من القصر إلى المعبد.

٧- ١٥ : (إلى اليسار) كتلة أو "تلاتة" التي توصلنا إليها خلال عمليات التنقيب التي قمنا بها في المربع رقم E في سنة ١٩٧٨. ويظهر على وجهها أحد الكهنة راكعاً وقد حمل على كتفه بيرقاً مقدساً. والنقشان اللذان يعلوان رأسه يعرِّفانه بأنه "نبي"، وذلك من منظر يصور دخول جلالة الملك إلى المعبد. (لوحة رقم ٧-١٦)

٧-١٦ : (إلى اليمين) كتلة أو "تلاتة" من الصرح الثاني تُصور جانباً من صف الكهنة الراكعين الذين يحملون البيارق المقدسة في الموكب الذي يمر أمام جلالته. ويُطلعنا النص على أن الجميع قادمون من معبد "جم ـــ ت ـــ با

ـ أتون" أو *قرص ـ الشمس* اهتدينا إليه"، وذلك من منظر مواكبي يصوّر دخول جلالته إلى المعبد. لوحة رقم ٧-١٥)

١٦ : صورة لمنظر القصر، وهو ينقسم أفقياً عند المنتصف إلى صورتين متماثلتين على وجه التقريب للقصر، تصوّر السفلى منهما الوليمة التي أقيمت قبيل التوجه إلى المعبد. وتصوّر العليا الوليمة التي تُقام عقب العودة. و إلى اليسار في كلتا الصورتين تظهر لنا "شرفة التجلي"، بالإضافة إلى منطقة لتشوين النبيذ و البيرة و الطعام. و نلحظ أحد الخدم عاكفاً على تحريك مروحته كي يهوّي على السوائل و يطرد الذباب. وإلى اليمين تقع قاعة الطعام الكبرى حيث يجلس الملك و الملكة إلى مائدتين منفصلتين بينما تطوف مجموعة من الخدم هنا وهناك. وفي قاع المنظر نلاحظ وجود جوق من العازفين الذين يعزفون ألحانهم للترويح عن النفوس.

٧-١٧ : "تلاتة" من الصرح الثاني، ترجع في الأصل إلى الحائط الشمالي لمعبد "جم ـ ت ـ با ـ أتون"، حيث نرى جلالته يرفع جرار النبيذ ، وقد ارتدى التاج الأحمر، وذلك في إطار شعائر العيد الثلاثيني عيد الـ "حب ـ سد".و لنلاحظ هنا كشط ملامح الملك.

١٧ : مسقط رأسي لـ "شرفة التجلي" و الأعمدة العالية تشكل دعامة لكنبة خفيفة أمام الشرفة. وفي الوسط نرى أعمدة قاعة الطعام في خلفية الصورة.

٧-١٨ : منظر موفّق (TS 5517) يظهر فيه موكب الكهنة الذين يحملون الأدوات المقدسة. ونرى على كتلة علوية من "التلاتات" كاهنين يحملان بيرقين مقدسين (اللوحتان ٧-١٥، ٧-١٦) بالقرب من جوسق والأولى كشك يضم مائدة قرابين، بالقرب من كشكٍ آخر، أبوابه مغلقة، وضلعاه مزيّنان بحيتين منتصبتين. وعلى الوحدة السفلى التي تضم ثلاث كتل من كتل "التلاتات" نشاهد صفاً من الكهنة الذين يحملون مفصلات أبواب بالإضافة إلى تمثال مقدس للإلهة "سرقت" على هيئة عقربة.

٧-١٩ : مجموعة الألقاب التي حملتها "نفرتيتي"، كما وردت في الكرنك. ويقول النص: {الوريثة، عظيمة الحظوة، صاحبة الفتنة، والمحبوبة، سيدة الوجهين البحري والقبلي، زوجة الملك الرئيسية، التي يهيم بها حباً، سيدة الأرضين "نفرتيتي".}

٨-١ : نص من تصوير لمائدة قرابين في معبد "جم ـ ت ـ با ـ أتون".

ونلاحظ أن اسم "نفرتيتي" يحيط من الجهة اليمنى باسم ولقب جلالة-الملك. كما نلاحظ أن اسم "أخناتون" محفور على اسم سابق هو: "أمين ـــ حوتب"، المقدس حاكم "طيبة". وفي وقت لاحق استثنى شخص ما الكنية الموجودة في اللقب: "وع ـــ ان ـــ رع" الذي يعني حرفياً: {وحيد "رع"} كي يمحو بحرص شديد "وع ـــ ان" (التي تعني "وحيد" + ان، وهي أداة الإضافة في المصري القديم، ولا تظهر في اللغة العربية) ويبقي على إسم إله الشمس "رع" في حالة سليمة.

٨-٢ : شظفة من مائدة تقريب قرابين مصنوعة من المرمر، مما اكتشفناه في سنة ١٩٧٩ في منطقة البوابة الغربية للمعبد، كما رأينا في لوحة رقم ٨-١ . و نجد هنا أن خرطوشيْ الملك منضمان إلى خرطوش "نفرتيتي". كما نجد أن اسم الملك تعرّض للكشط بدقة فائقة، وفي نفس الوقت حُفر اسم "أخناتون" بدلاً منه.

١٨ : التخطيط المعماري لـــ "أخيناتون".

١٩ : رسم فاكسميلي لـــ "قرص ـــ الشمس" من معبد "رود منو..." أو "ثابتـــة تلك هي آثار *قرص ـــ الشـــمس* للأبـــد". و يظـــهر *قـــرص ـــ الشـــمس* باستمرار، مع حية منتصبة (أو ناشرة لمن يرغب) عن قاع الرســـم كـــي تواجه الناظر (مكشوطة في هذا النموذج). ونجد حول عنقها علامة "عنـــخ" أي الحياة معلّقة. ونلاحظ أن الكنية الأصلية "رع ـــ حور ـــ أختـــي" قـــد أقحمت في خرطوشين رأسيين بصفة دائمـــة. و يحيطـــها علـــى الضلـــع الداخلي كنية جديدة و عمودية في الغالب. ونستطيع قـــراءة هـــذه الكنيـــة الأخيرة على هذا النحو: {*قرص ـــ الشمس* العظيم، الذي يبتهج في عيـــده الثلاثيني (اليوبيلي)، سيد الأرض و السماء. والمستقر في ... معبد كذا}

١٢-١ : كتلة من الحجر الرملي ترجع إلى المبنى المفكك الذي يعود لـــ "تـــوت ـــ عنخ ـــ أمون" في الكرنك. و يقع اسم المبنى على اليمين في كنيـــة الإلـــه الذي يُشار إلى أنه يحب الملك أي (مقر "نب ـــ خبرو ـــ رع" في "طيبة")، حيث يُعتقد أن جلالة الإله مقيم هناك. و كان كل من الإسم الحوري و الخرطوش المزدوج منقوشين يوماً ما إلى اليسار و في الوسط على التوالي.. ولكنهما تعرضا للكشط بدقة فائقة عقب وفاته، الأمر الذي أدى إلى انخفاض مستوى السطح الحجري في هذا الموضع. و عندئذٍ نُحت اسمان للفرعون "آي"، في أماكن ملائمة من المساحة التي أصبحت متاحة بعد الكشط. لكن هذين الإسمين أزيلا على نحو يتعذر علينا معه أن

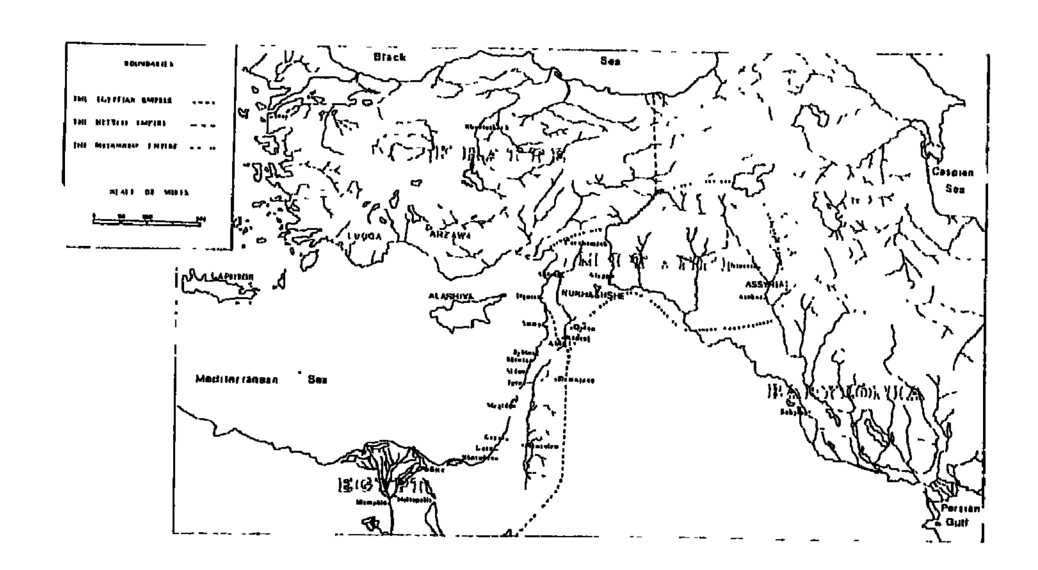
نقرأهما بسهولة، مع صعود الفرعون "حور ـــ إم ـــ حب" إلى سدة الحكم.
ولعل مثل هذه المجاملة التي يحظى بها الفرعون الحاكم على حساب أسلافه
الذين طواهم الموت سمة من سمات مصر القديمة.

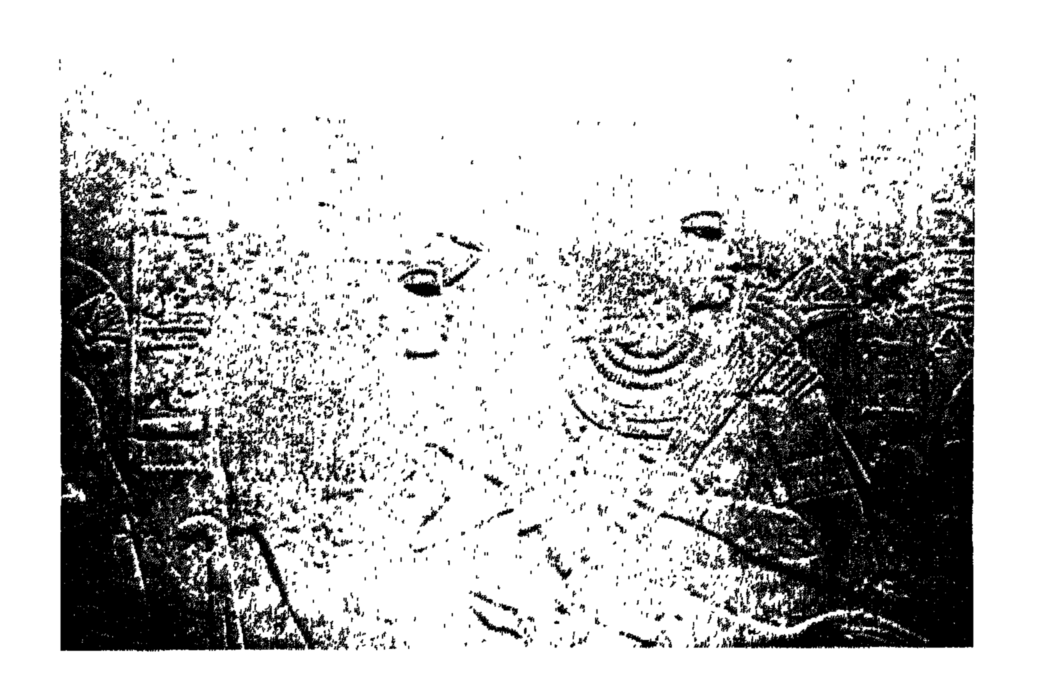
١-١٣ : كتلة من "غرابة" ــ حلية معمارية ــ أحد المباني التي شيدها "توت ــ
عن ــ أمون"، وهي مذكورة في اللوحة رقم ١٢-١. و يشير النص
المصاحب إلى احتفال الوادي الجميل، وهو احتفال كان يُقام بصفة سنوية
في فصل الربيع عندما يعبر "أمون" نهر النيل إلى "طيبة" الغربية كي يزور
الأضرحة الجنائزية التي يقيم فيها الأسلاف، ولكي يستريح في معبده.
ويشير السطر السفلي، ضمن أشياء أخرى، إلى "النوبيين" و إلى "جزية كل
البلدان الأجنبية"، وهو الأمر يشير، على وجه الإحتمال، إلى الأنشطة التي
تميزت بها السنوات الأخيرة من حكم "حكم "توت ــ عنخ ــ أمون" في
الجنوب والشمال على حد سواء.

١٤- ١ : جزء من منظر كبير قمنا بتوفيقه (TS165)، يظهر فيه جلالة الملك
مرتدياً التاج الأزرق(تاج الحرب)، ويُمسك في يديه بالسوط والعصا المعقوفة،
وذلك أثناء خروجه من التختروان إلى المعبد. ونستطيع أن نلاحظ وجود المراوح
التي تبدد الحر أحياناً و تجلب الظل أحياناً أخرى إلى جلالته في الخلفية. ورغم أن
المخربين لم يلمسوا النصوص المصاحبة بسوء، إلا أن وجه جلالته تلقى من
مطارقهم ضربتين متاليتين.

اللــوحـــــات

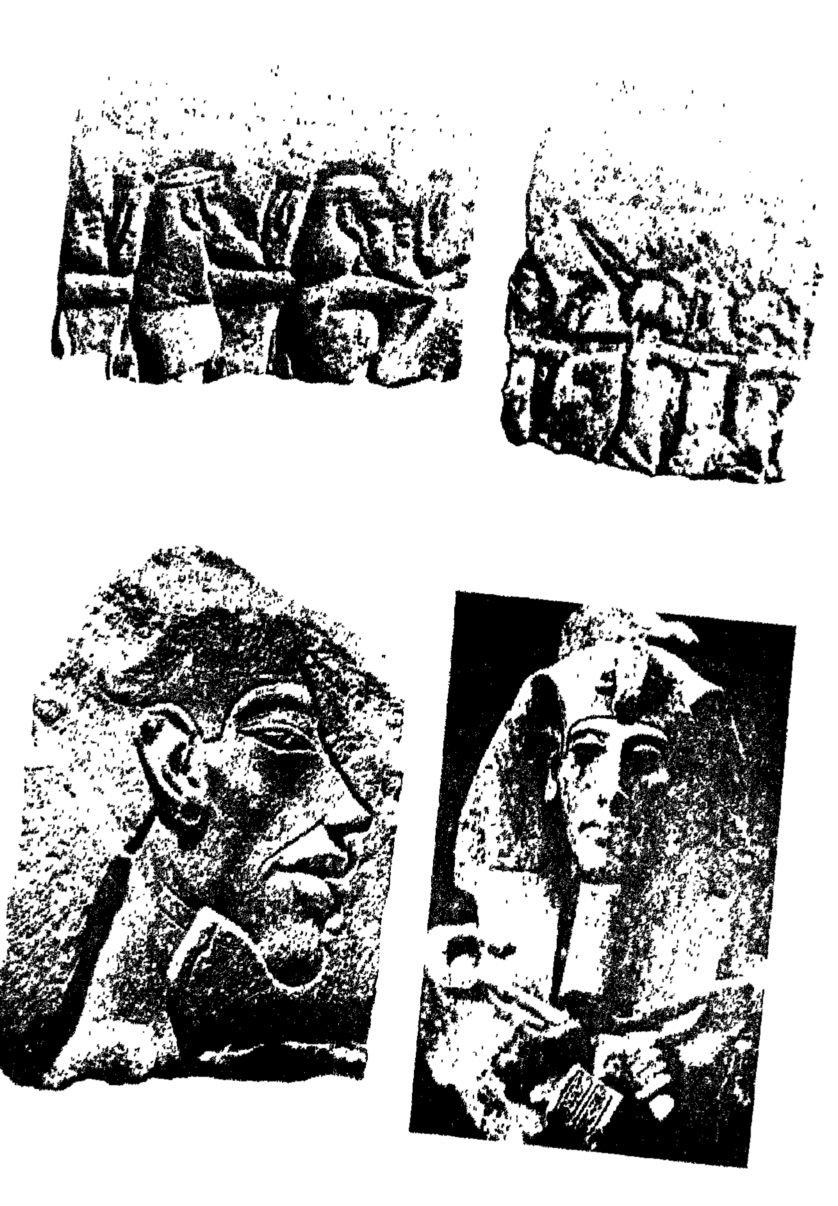


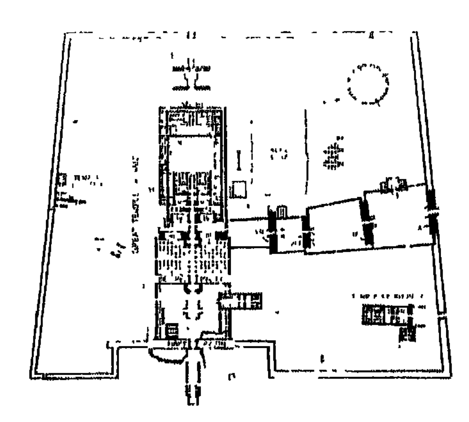

Black
Sea
Caspian
Sea
Mediterranean
Sea
Persian
Gulf
ARZAWA
ALASHIYA

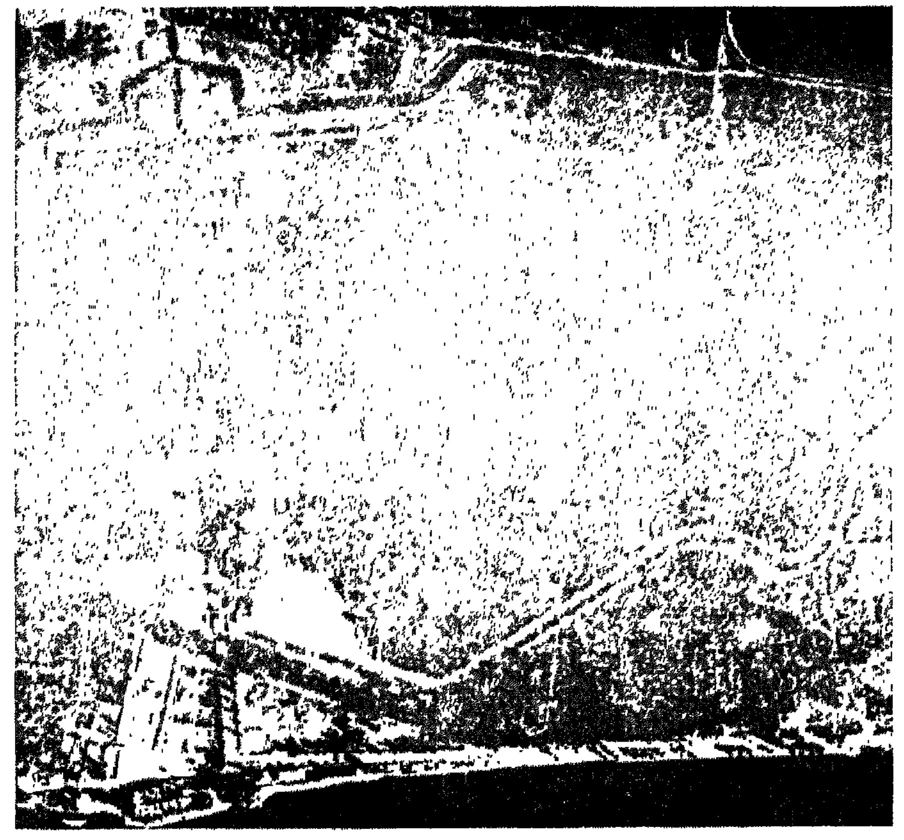






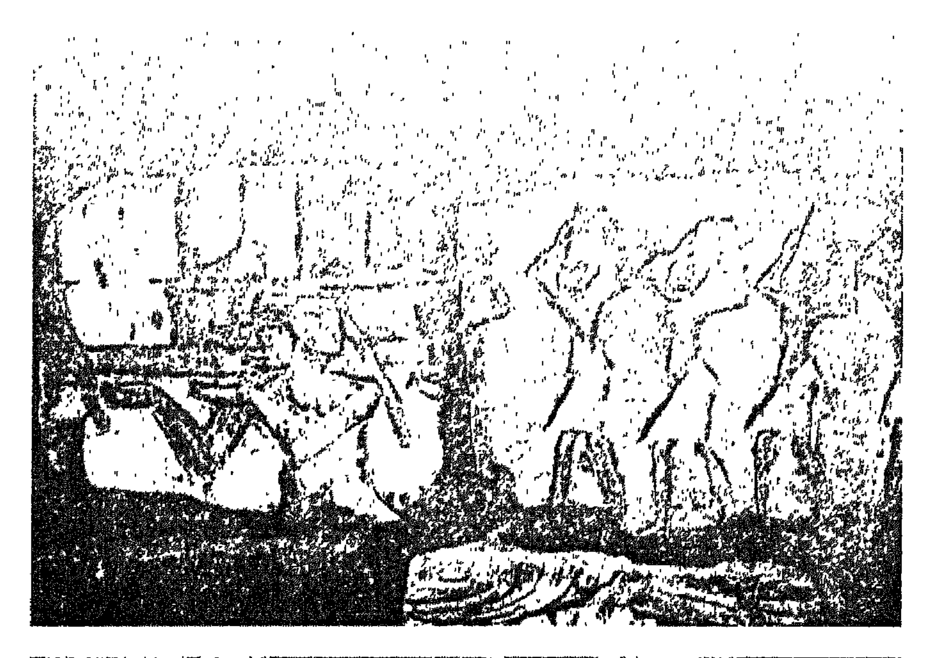




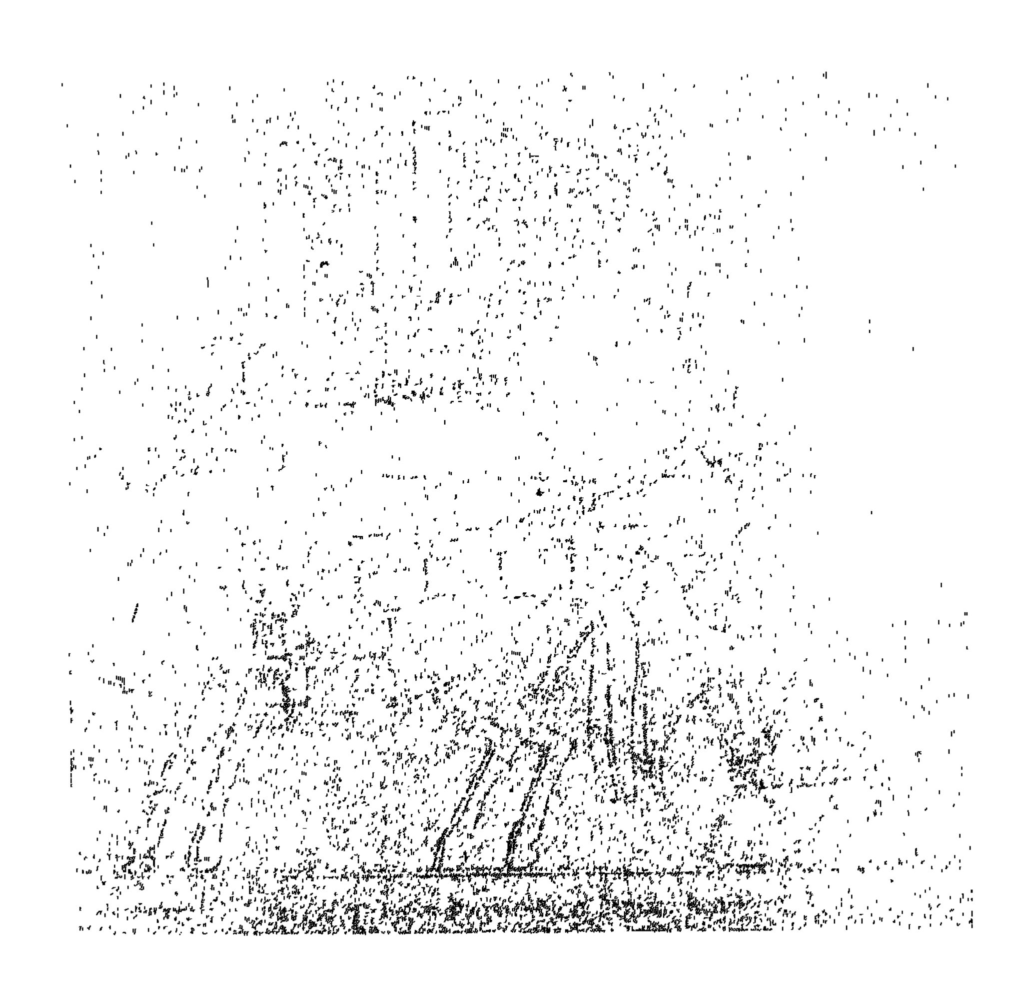


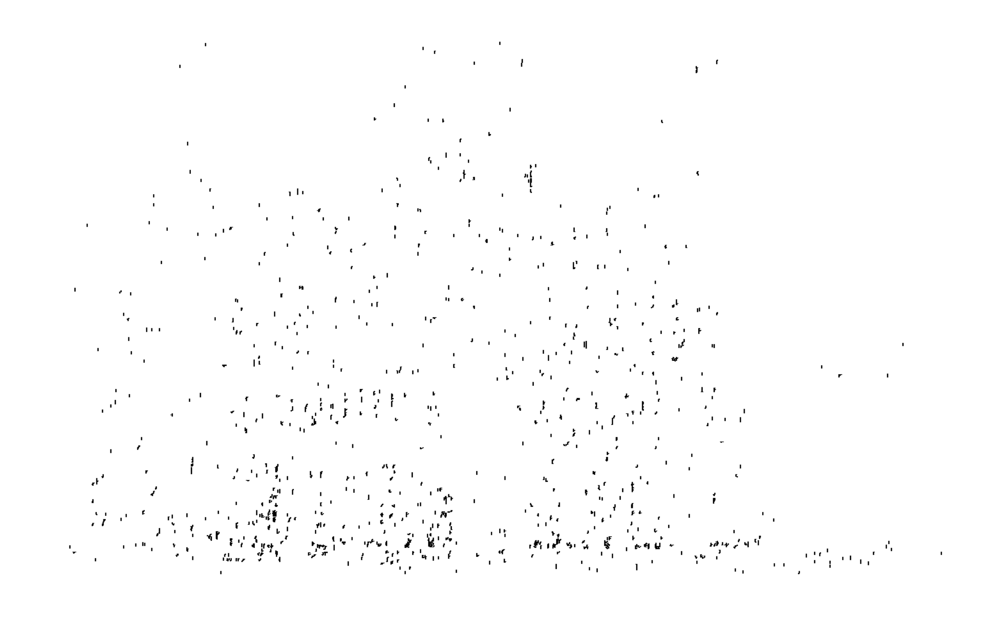


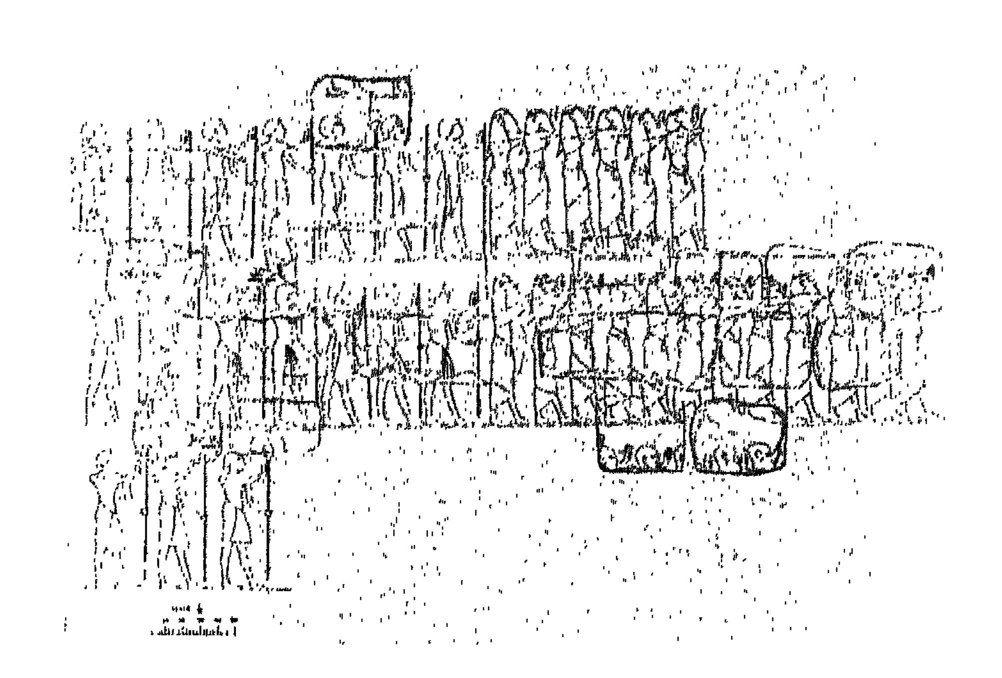


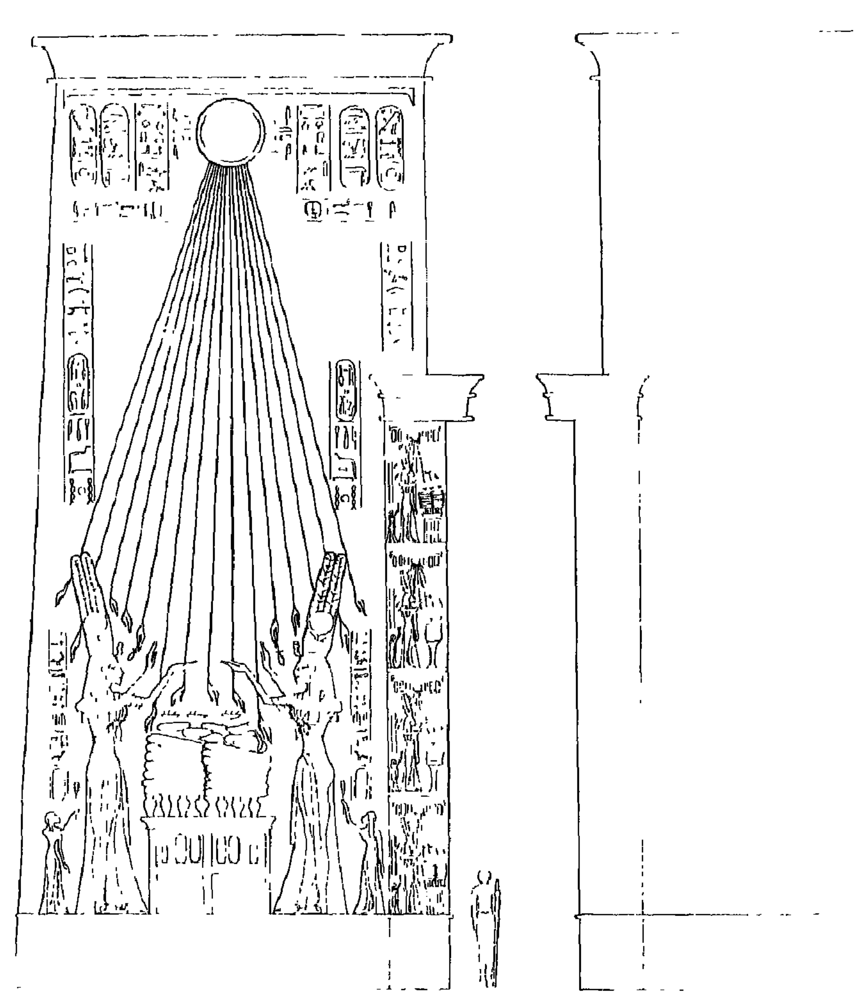




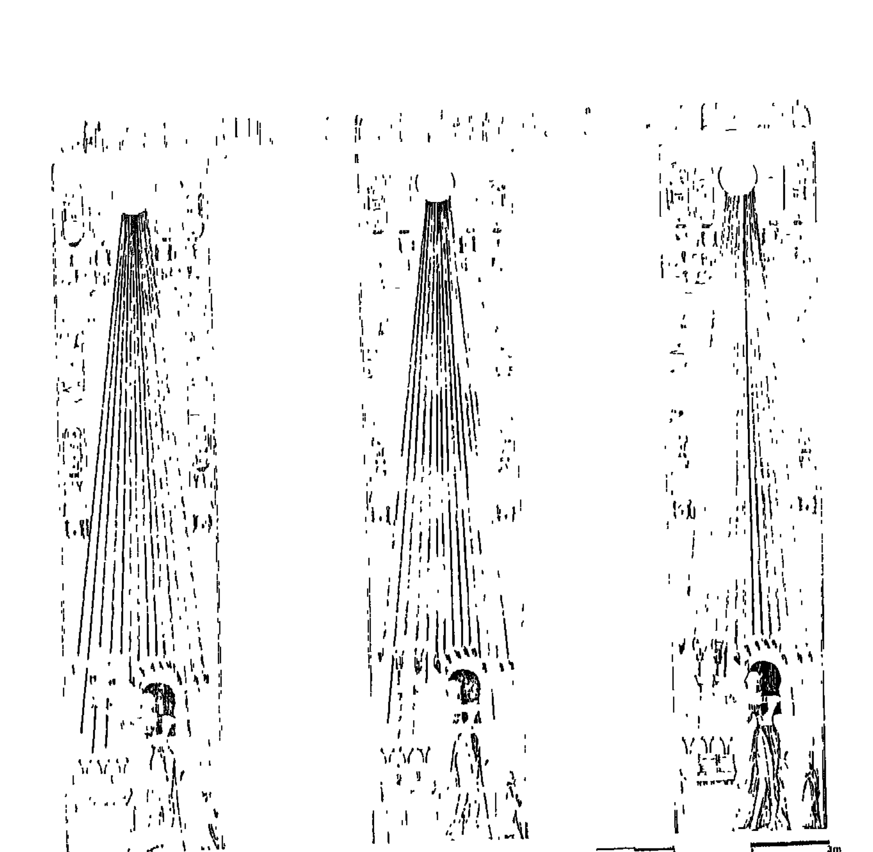


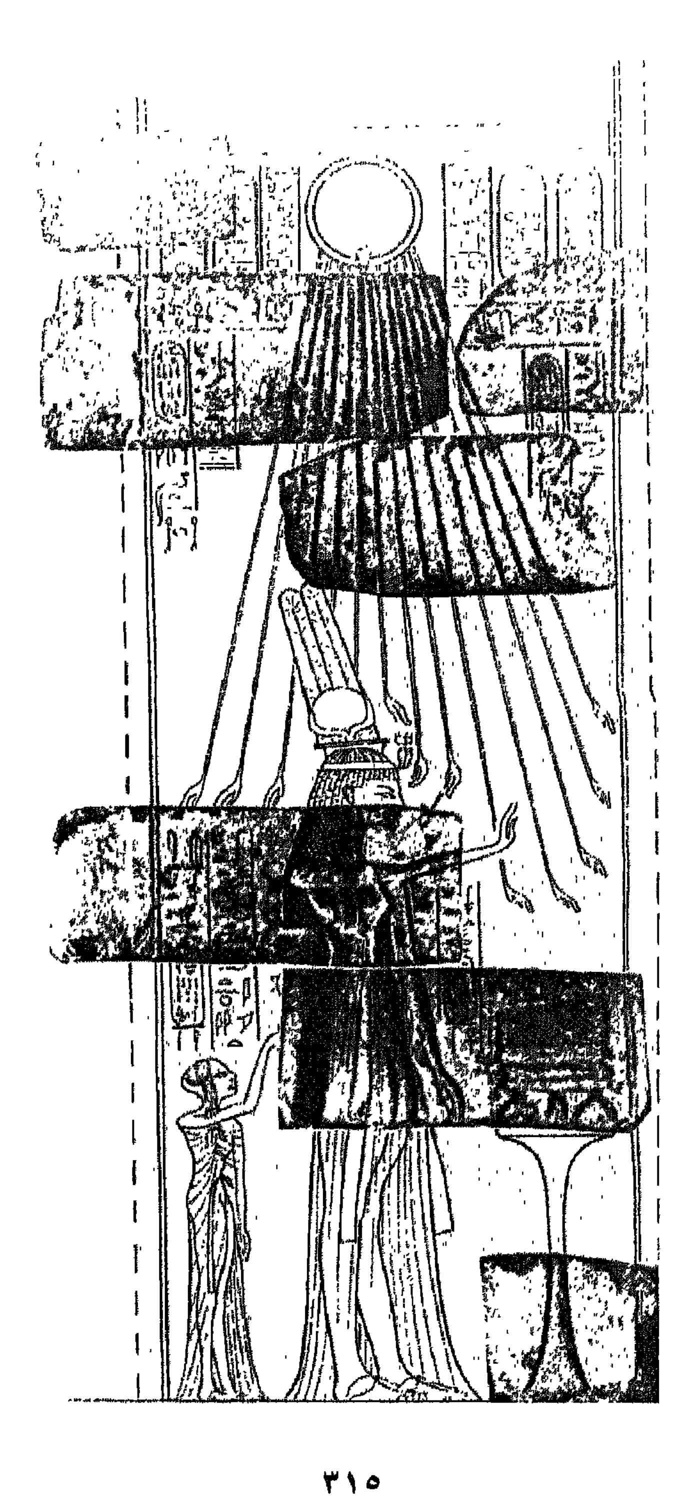


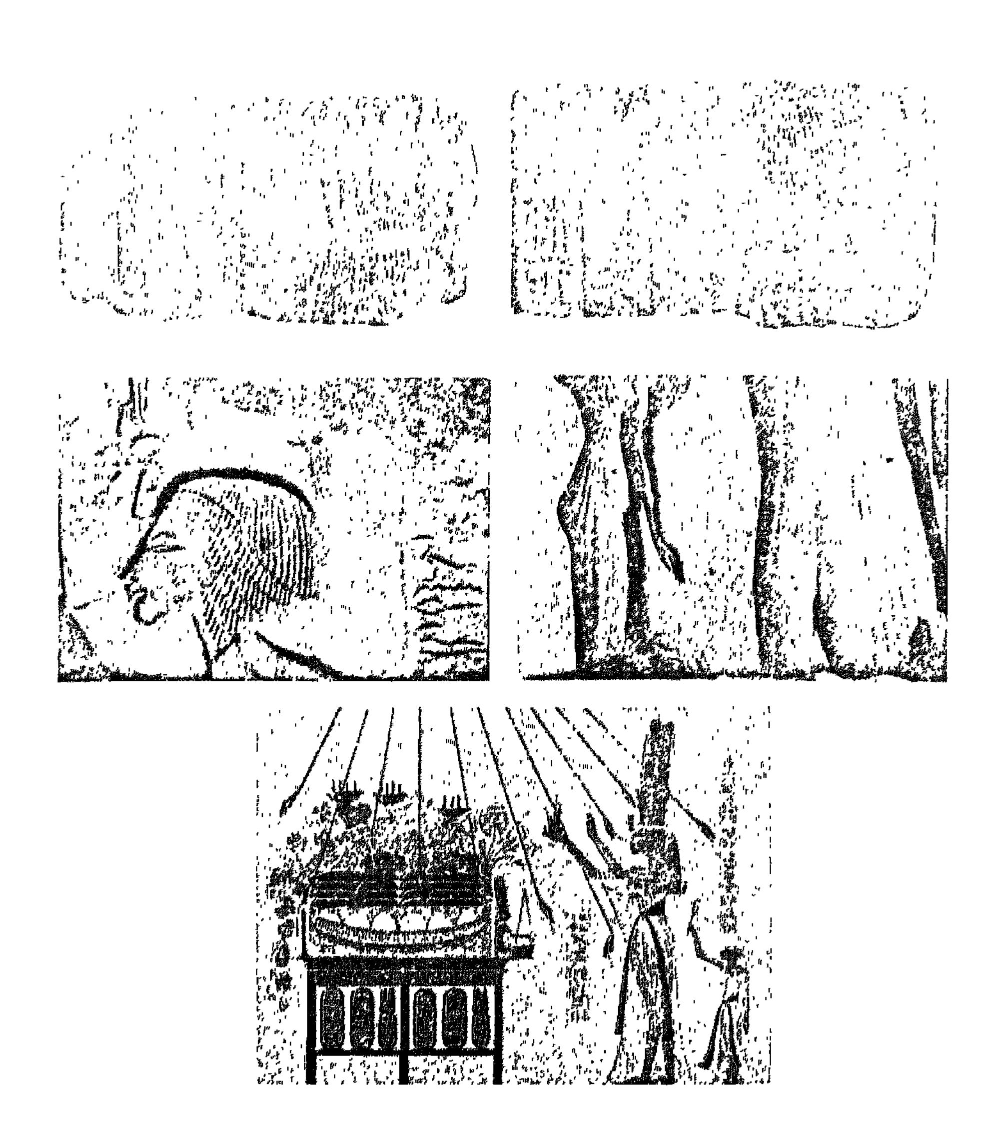


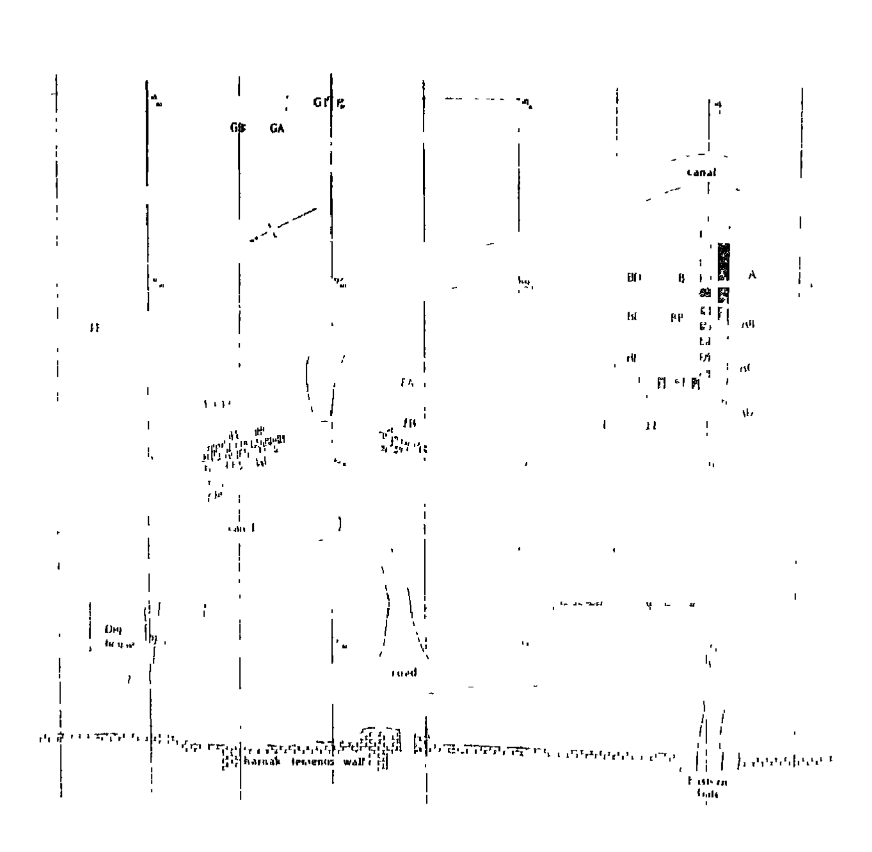


6 *Reconstruction of an interior gateway in the* Hwt-bnbn *(R. Aubert)*


0
3m



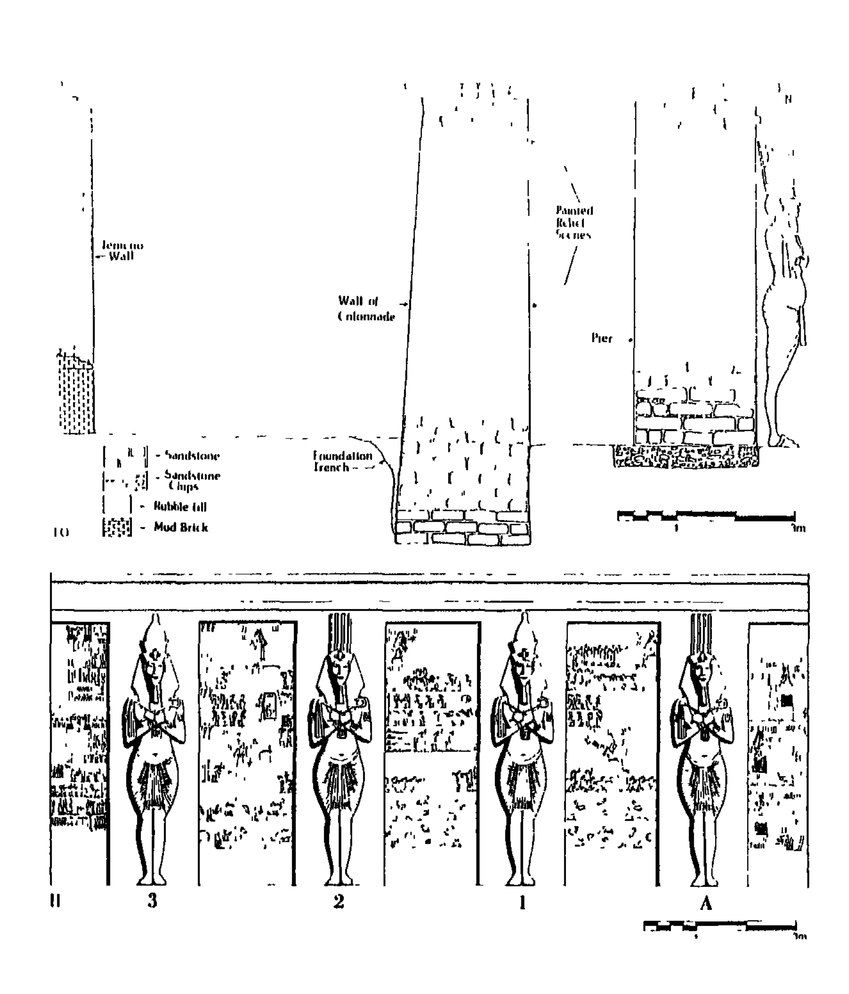



GB
GA
canal
A
road
Karnak temenos wall





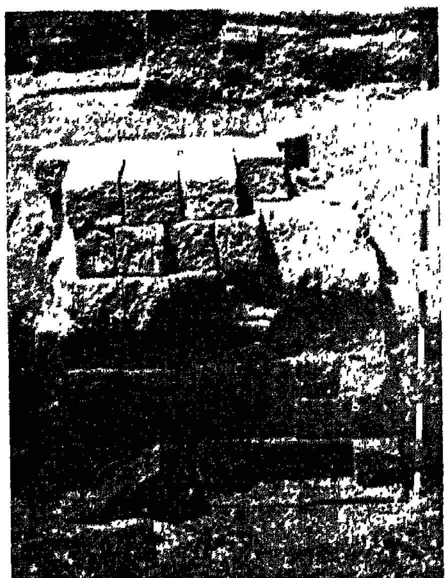


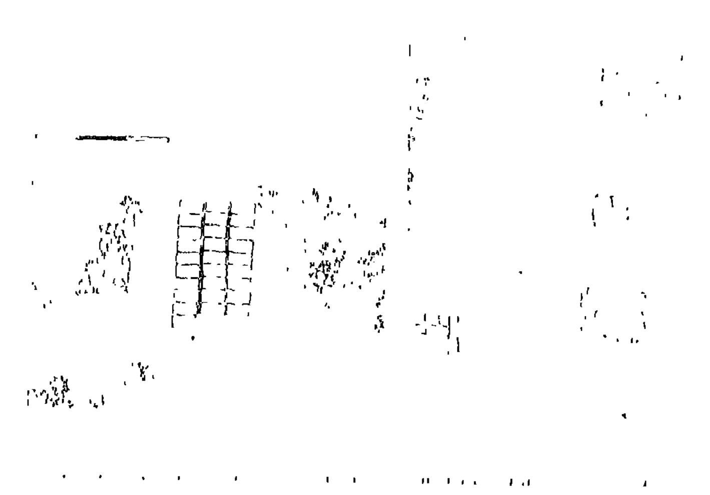

Wall
Painted Relief Scenes
Wall of Colonnade
Pier
Foundation Trench
Sandstone
Sandstone Chips
Rubble fill
Mud Brick
10
3
2
1
A

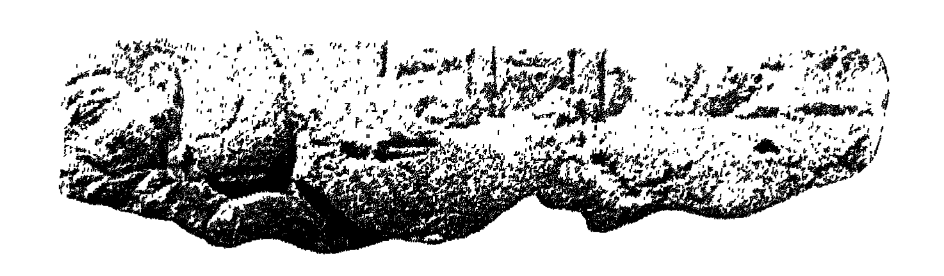












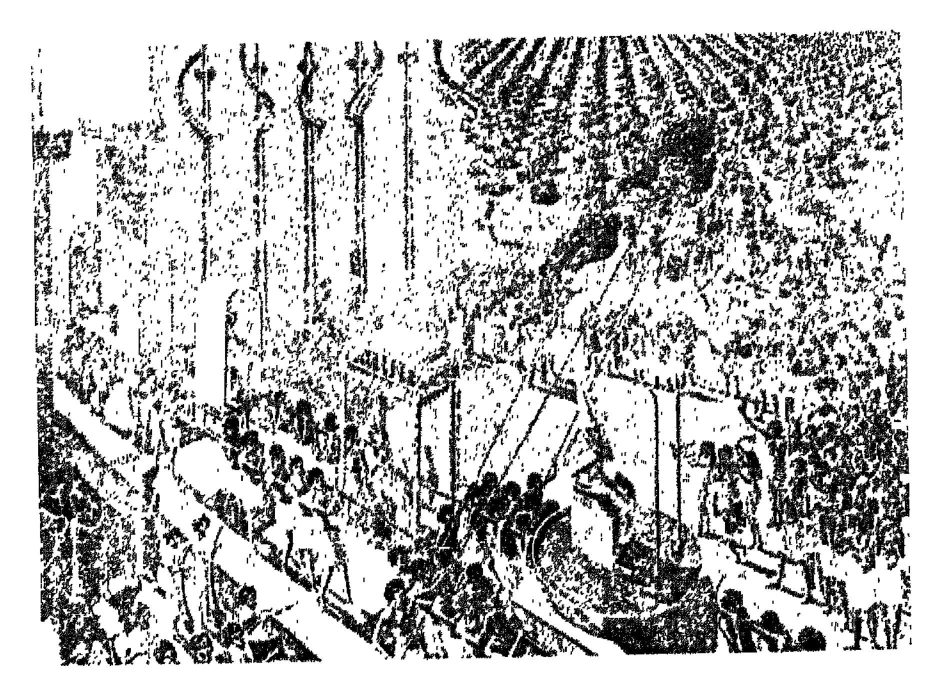
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

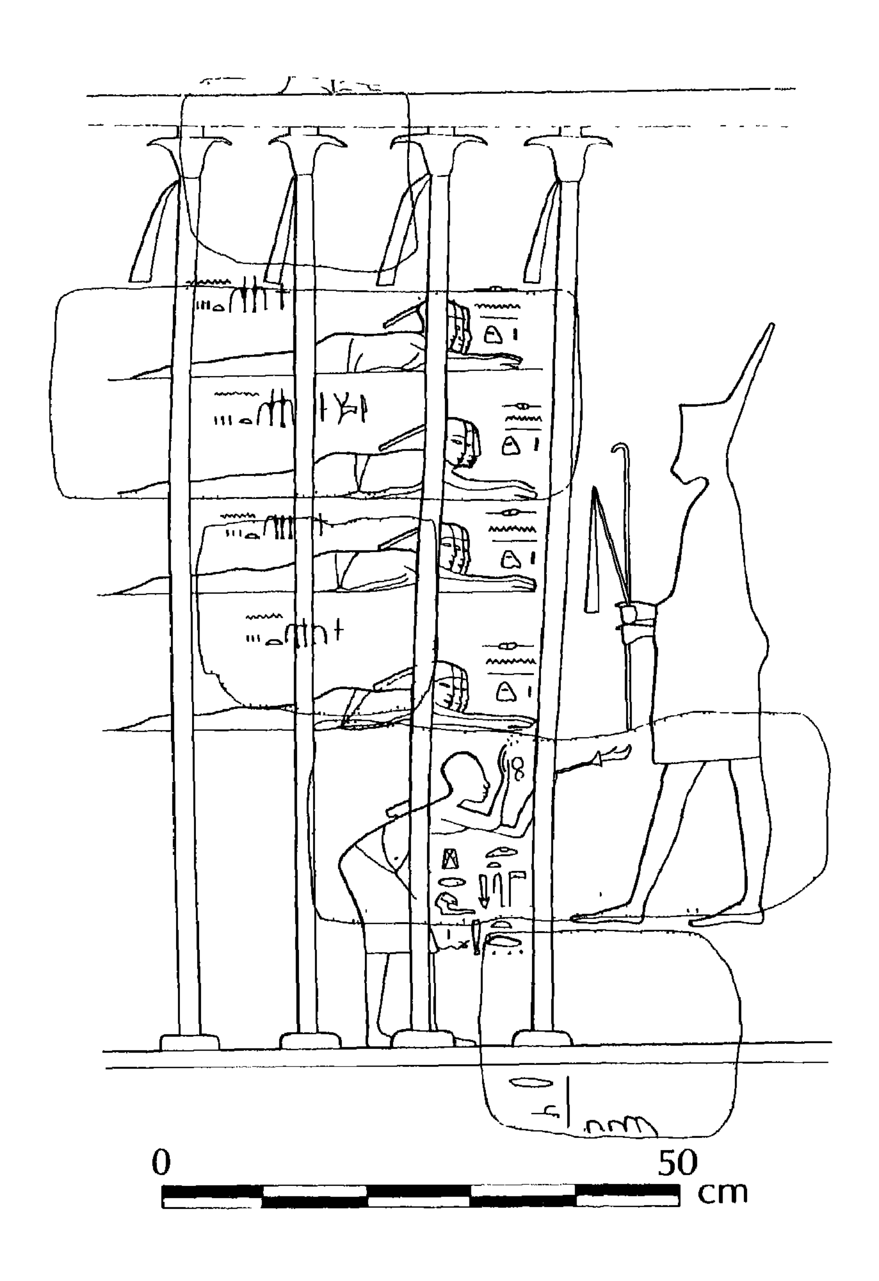


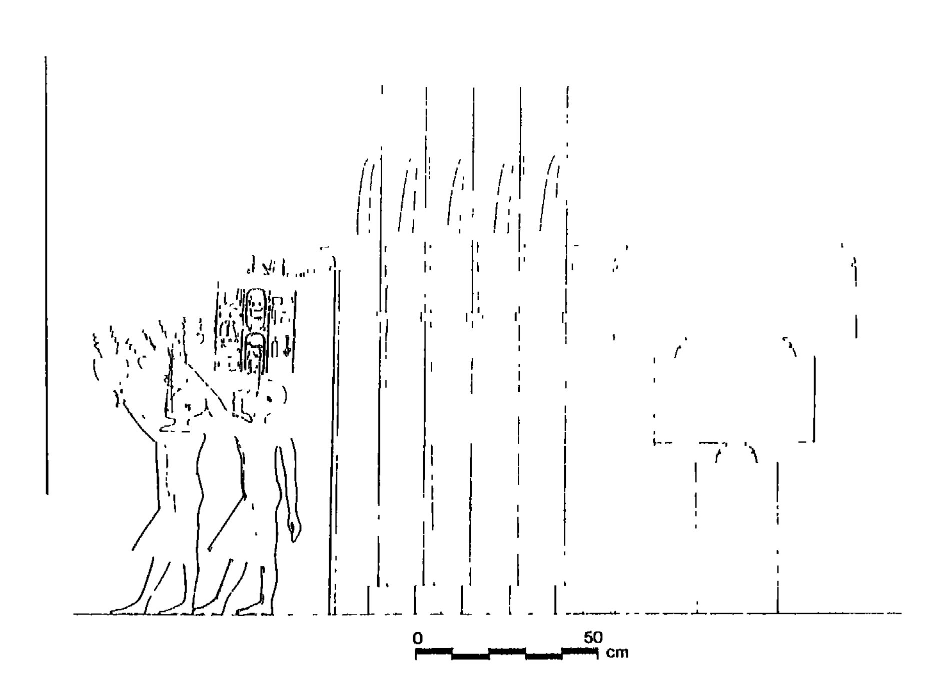


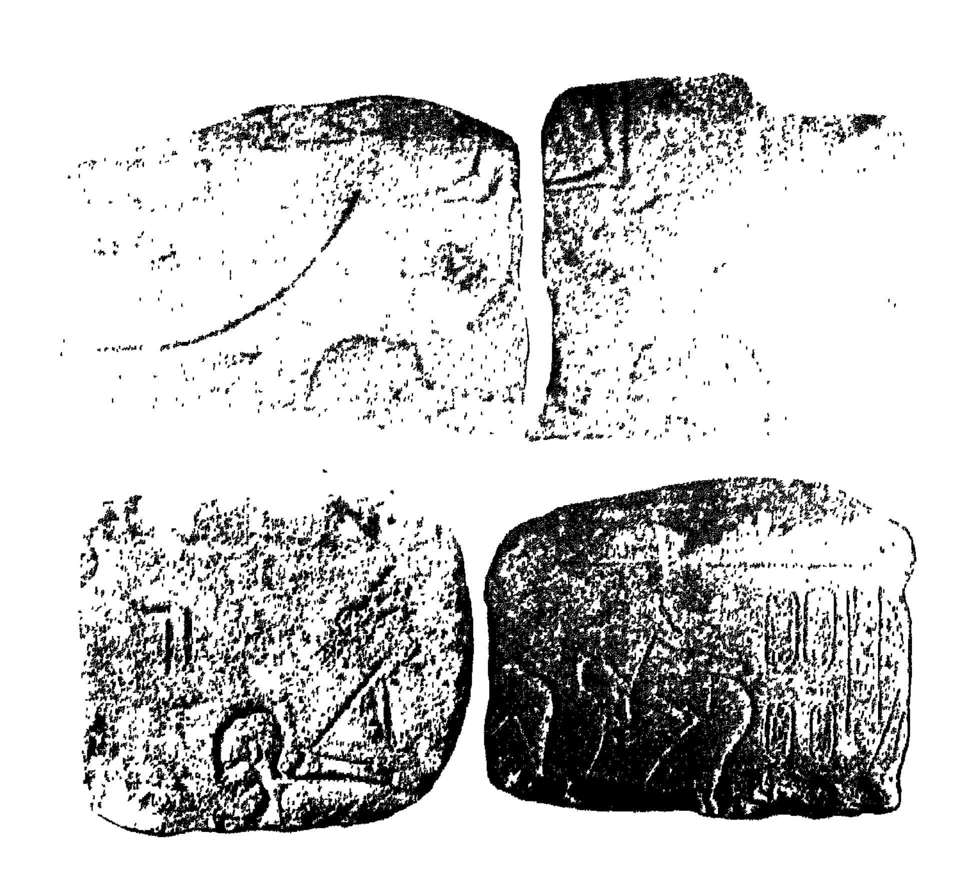




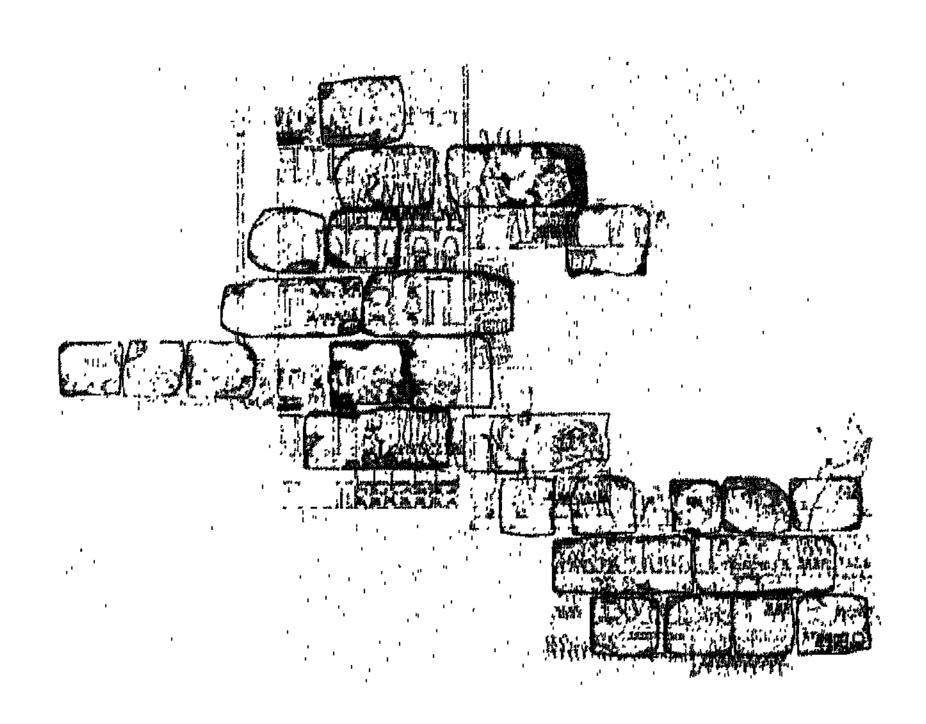


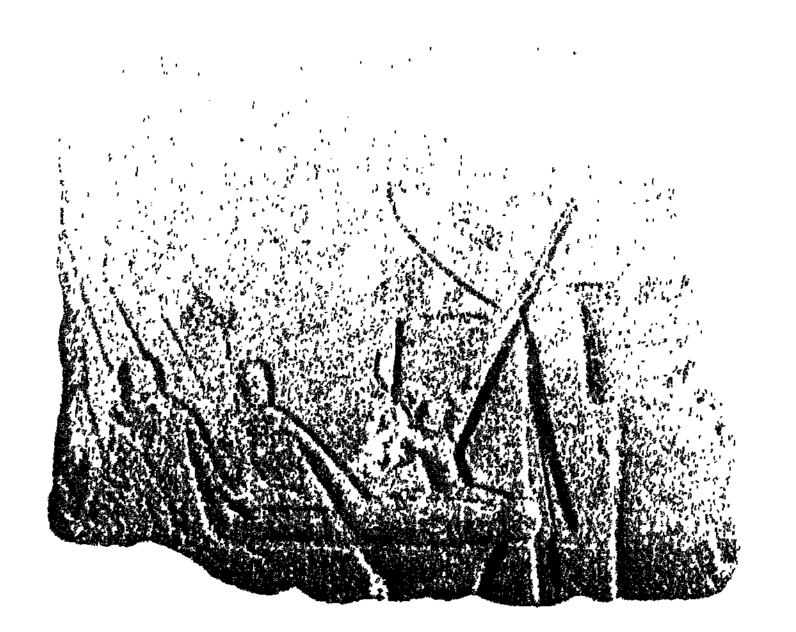

0
50
cm

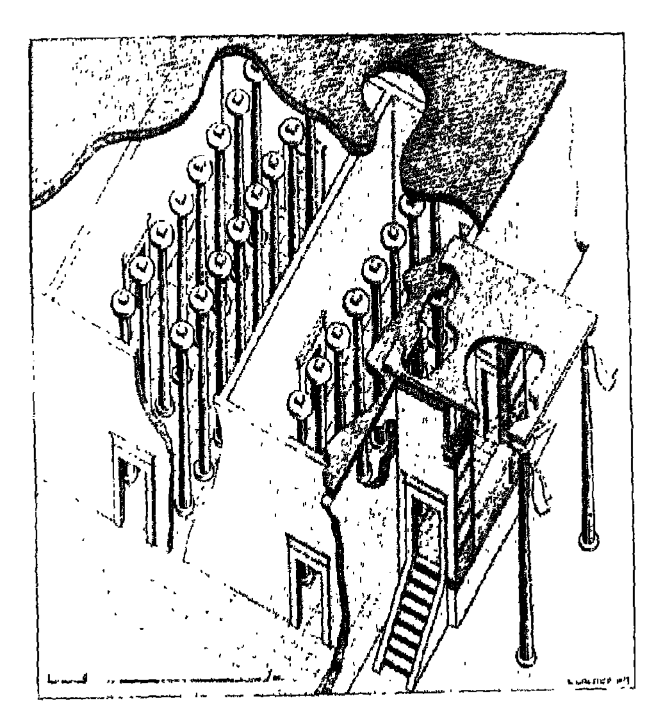

0
50
cm

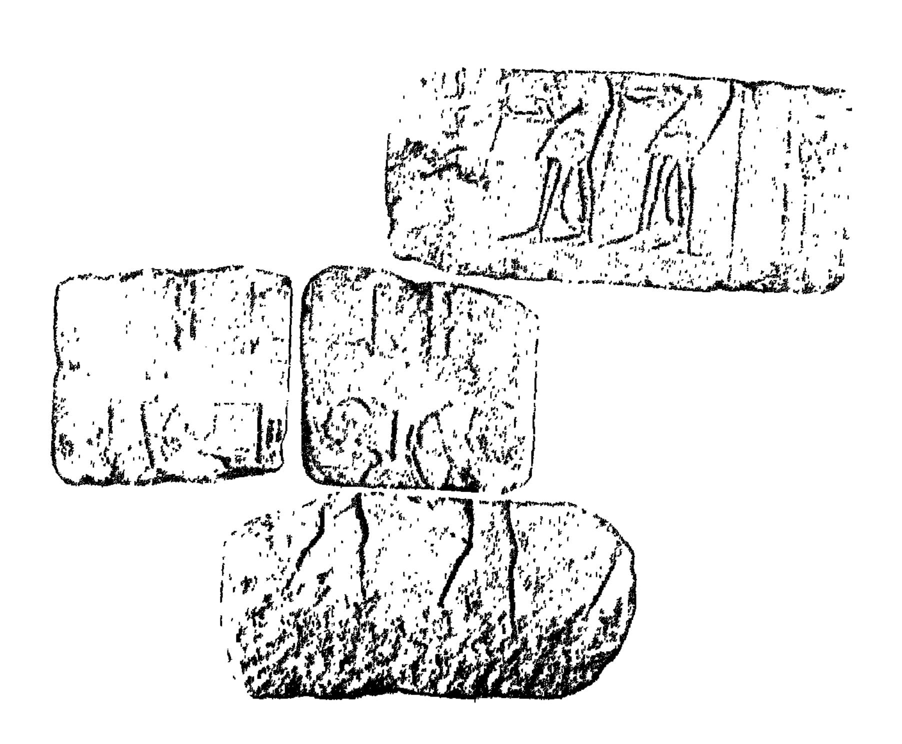


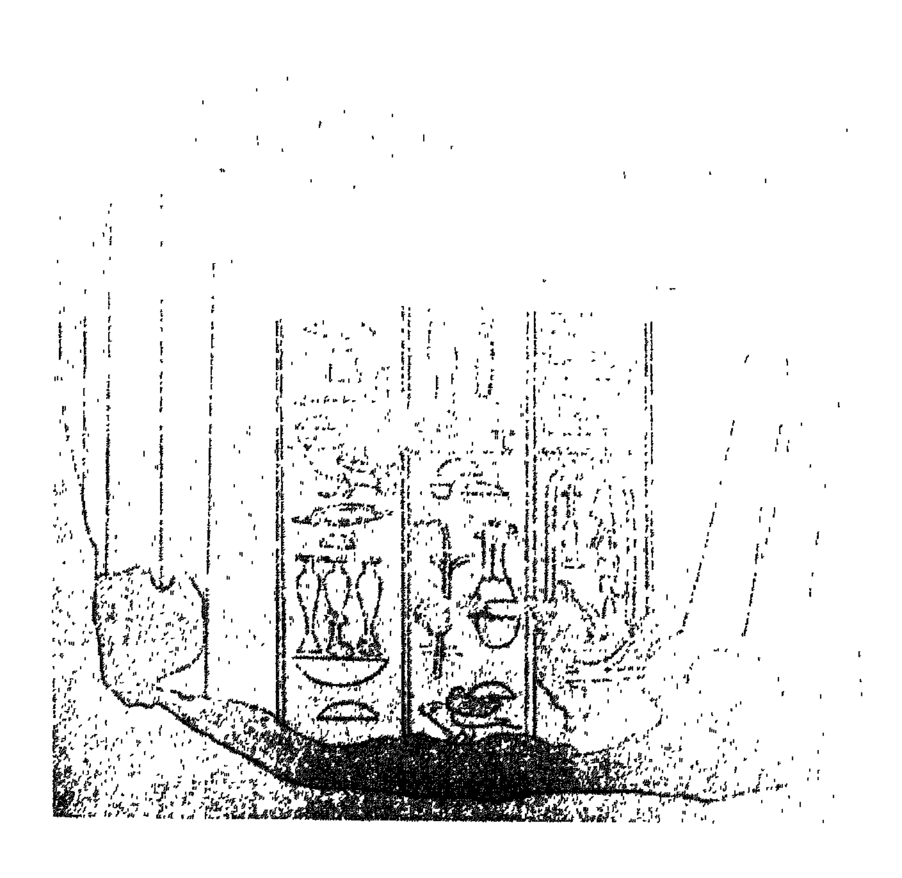


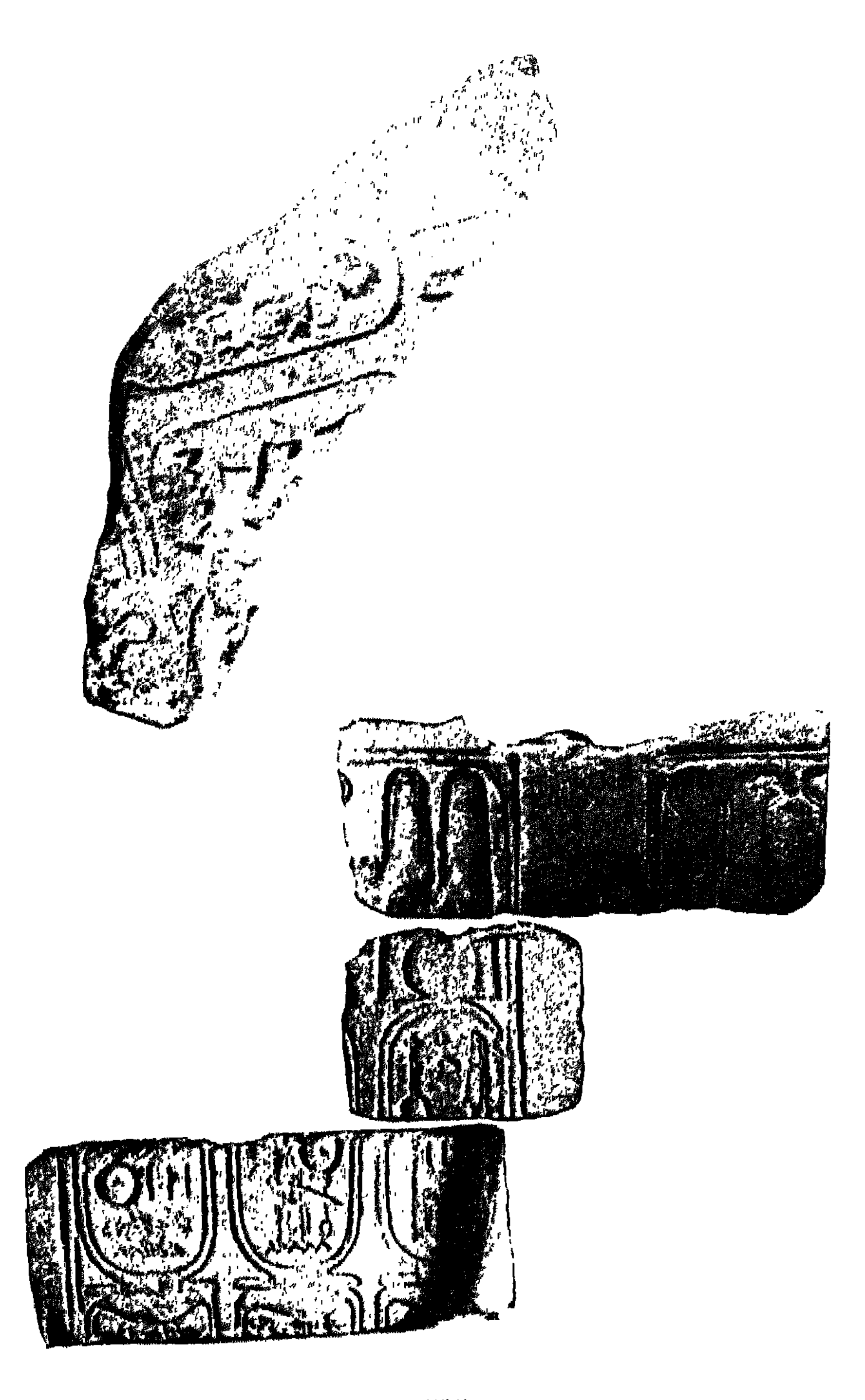


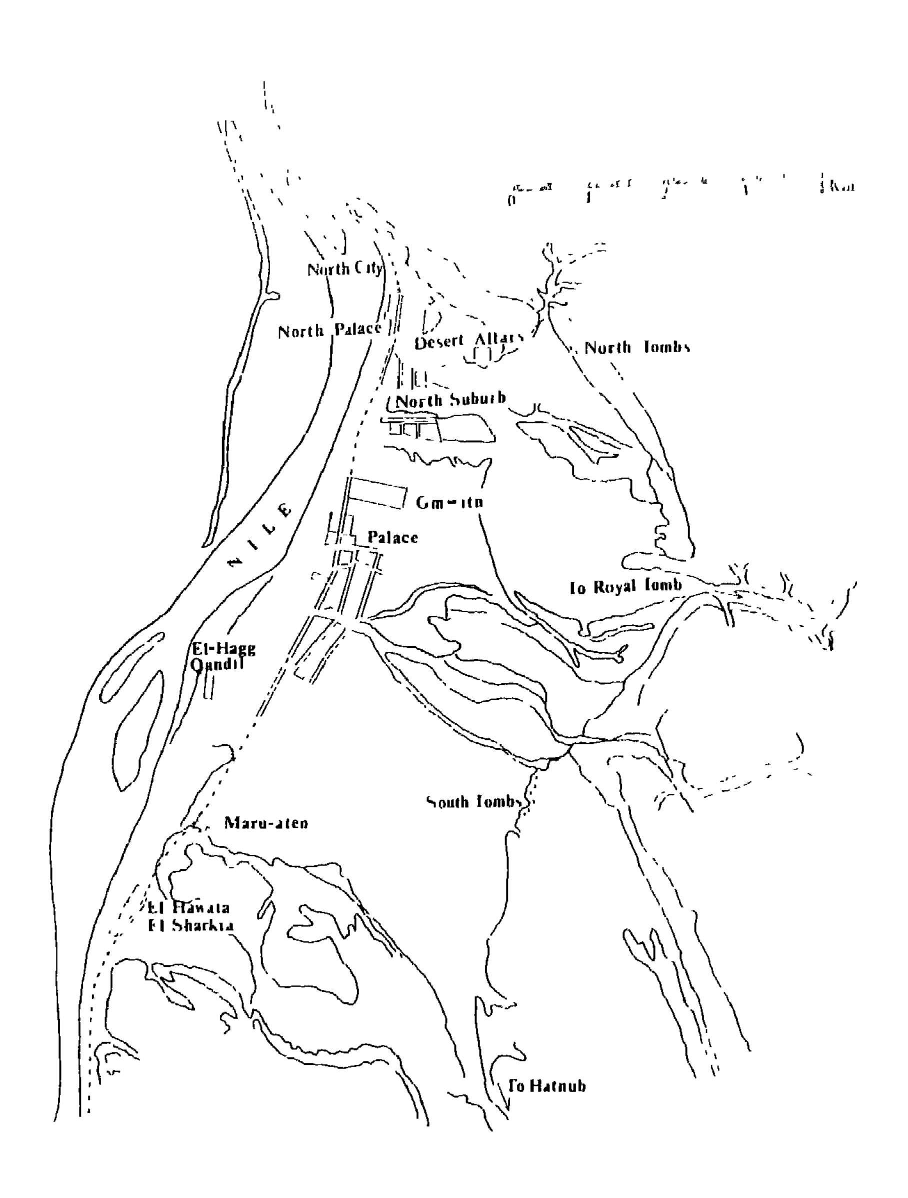


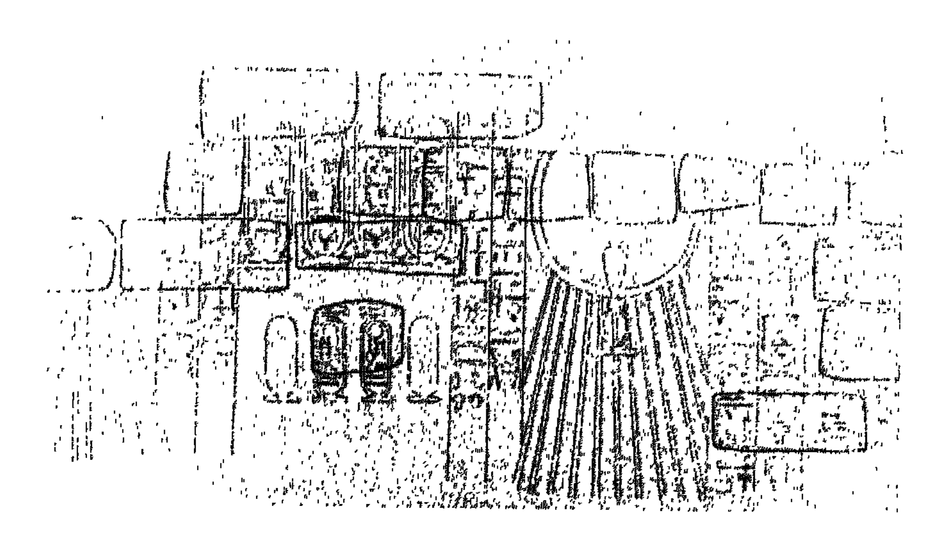


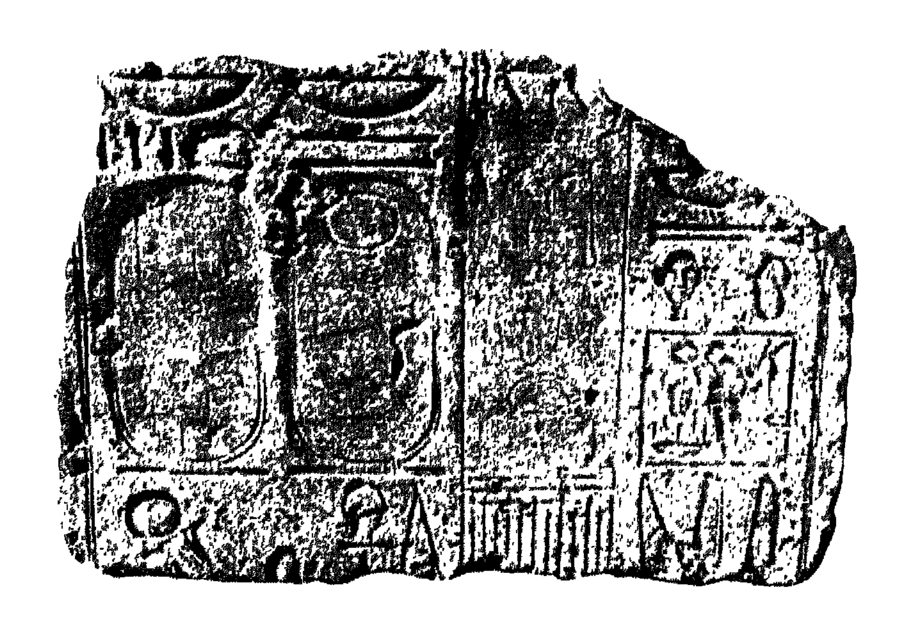


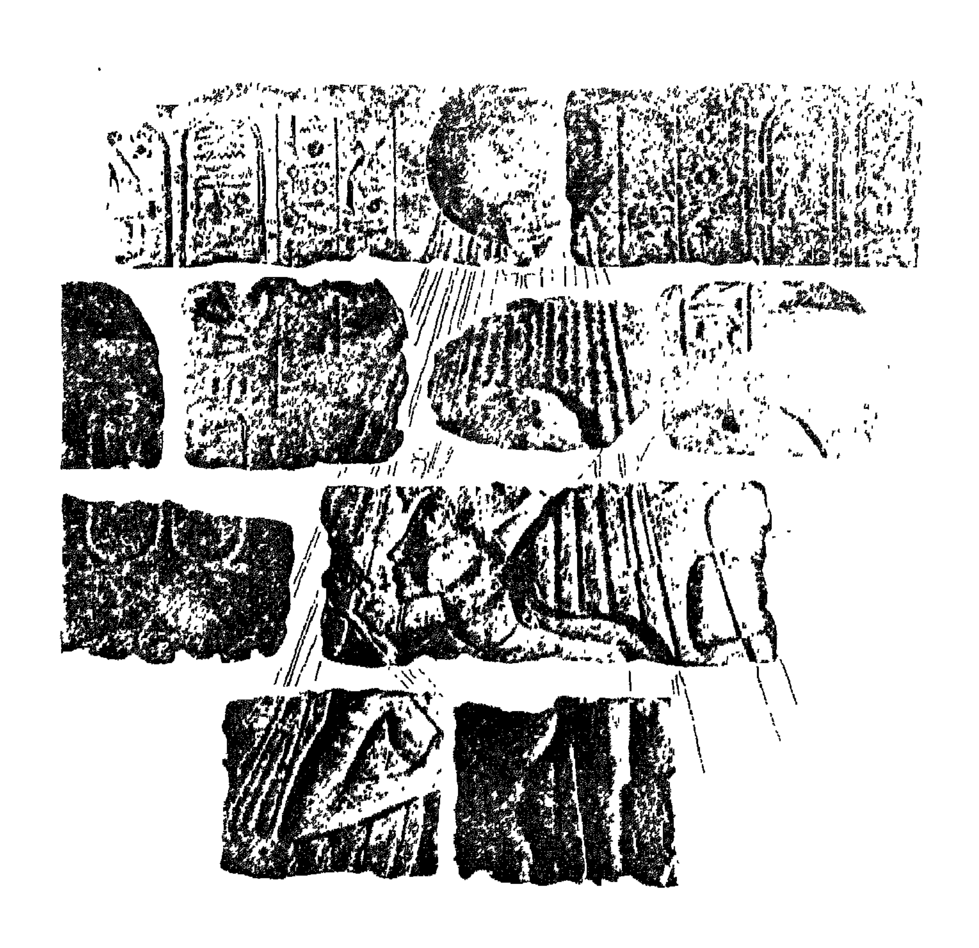


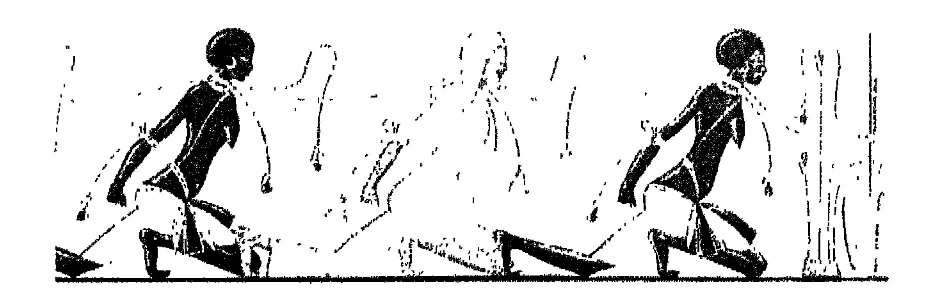



North City
North Palace
Desert Altars
North Tombs
North Suburb
Gm-itn
Palace
NILE
To Royal Tomb
El-Hagg
Qandil
South Tombs
Maru-aten
El Hawata
El Sharkia
To Hatnub











فهرس

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٣٥٤٤٣٨ - إسكندرية



كاف، على ما أرجو ، ذلك الذى سقته في الصفحات السابقة كى أوضح أن "أخناتون" كشخص تاريخى مختلف بصورة ملموسة عن الصورة التي خلقها لنا كتاب العوام الواسعو الانتشار عنه . فلم يكن إنسانى النزعة وبكل تأكيد لم يكن ليشبه ذلك الرومانسى الإنسانوى العطوف، أما المحاوله التي ترمى إلى رسمه كشخصية تراجيدية :أشبه بالمسيح" فليست سوى تزييف بحث . كما لم يكن معلما لـ "موسى" : هناك بون شاسع يفصل بين " وحدانية" جلالته التي تتسم بالصرامة والجبر والقلق وبين "الوحدانية" العبرانية، التي نطل عليها في سائر الأحوال خلال منشور مشوه من النصوص التي دونت بعد سبعمائة سنه من وفاة "أخناتون" . حقاً أشار البعض منذ وقت طويل إلى وجود ملامح متشابهة بين ترنيمة "أخناتون" وبين المزمور رقم ١٠٤ ، وإلى ضرورة أن نأخذ هذه التشابهات على محمل الجد ، إلا أن الأمر هنا ليس أمر تأثير أدبى بل أم[illegible] في التقاليد (الشعبية) في المراكز الشمالية للإ[illegible]ة المصرية التي كانت يوما ما عظ[illegible]عات تلك الترنيمة التى تع[illegible]ريا رائعا .

4